

دمشق
على صهوة جواد

دار الكنزي للنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الوهاب

مدير النشر

مهند يحيى

الكتاب : دمشق على صهوة جواد

تأليف : جمال جنيد

تصنيف الكتاب : رواية

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ٢٠ × ١٤

رقم الإيداع : ١٠٠٠٣ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي : 4 - 30 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution

+01062104822

Alkanzy.co@gmail.com

info@alkanzy.net

محفوظ
جميع الحقوق

دمشق على صهوة جواد

رواية

جمال جنيد

الإهداء

الأغنياء يشنون الحروب والفقراء يموتون.

جان بول سارتر

إلى كل روح أزهقت وكل بيت هدم، وكل شخص هرب أو
غرق في البحر، هذه الكلمات هي سيمفونية حزينة وبلسم شاف
لحرب مجنونة.

جمال جنيد

لم أكن أعرفهم، وأظنهم لا يعرفونني.
اقتلعوني من بيتي الذي أمضيت فيه سني طفولتي وشبابي، ولم
يتركوني أموت فيه.

مثل شوكة يابسة تدرجت على الأرض، تهت، حدثت نفسي
حديث المجانين، ودخلت المساجد والكنائس والمدارس والساحات،
نمت هناك وأنا أهلوس.

لم أصدق، ويأتيني صوت خفي، بل صدق، أنت في عصر
اللامعقول، عصر السريالية الحقيقية، حيث تتفاعل الأشياء مثل رنة
صوت جافة في صحراء مترامية الأطراف، لا يسمعها أحد غيرك.
الوجه تنظر إلى بعضها، تتحدث مع بعضها بلا لغة، تتمنى لو لم
يحدث ذلك، تتمنى الموت على الحياة، لكن موتاً آخر قادمًا.

ذات يوم جررت نفسي باتجاه شارع جانبي، تهدمت نصف بيوته
وهجره سكانه، جلست على أحد الحجارة، خاطبت لعبة طفل
صغير، متربة الوجه، مقلوعة العينين.

قالت لي اللعبة:

- انفض عني التراب.

نفضت عنها التراب، حدثت فيّ، أن أعود إلى بيتي.

كان الجو باردا في الشهر الأخير من السنة، والغيوم واقفة في مكانها، هدوء الفجر دفعني إلى الحركة، سمعت صوت خطواتي على الإسفلت المهشم.

كان الجندي على الحاجز متعبا وعيناه محمرتان، نظر إلى وجهي وإلى هويتي وسمح لي بالدخول، انتعشت وأنا أسير باتجاه بيتي، كانت الحارات فارغة في المخيم، شعرت أن الأشباح سكنت بدل البشر الذين كانوا يسرون، يتكلمون، يضحكون، يتشاجرون، يبيعون ويشترون.

شعرت أن المسافة بيني وبين بيتي مسافة طويلة لن تنتهي أبدا.

وقفت ذاهلا، رأيت جثة اعترضت طريقي وقطة سوداء تنهش أحشاء الجسد الميت، أضاءت عيناها حين نظرت إليّ، كدت أنقيء، ابتعدت مسرعا عن الجثة والقطعة ووقفت ألهث، تمسكت بالجدران المهدمة وأنا أسير، كان بيتي في بداية الساحة، زحفت لأصل إليه.

استقبلني البيت بغباره وكأبته ووحدته.

استقبلته بانكساري وضعفي وانهمامي.

قبلت جدران المهدمة مثل طفل يقبل لعبته.

أبوابه المكسورة تناديني.

جدرانه تتكئ عليّ كي لا تسقط.

وضعت إبريق الشاي المترب على الغاز، انتشر بخار الماء في سماء البيت المهدم، صار البخار غيوما، سقط المطر، خلعت ملابسني واغتسلت بالمطر.

منذ زمن لم أضحك، لكنني ضحكت الآن، حملت رواسب شقائي وحولتها إلى ضحكات ليست كالضحكات.

- أنت تضحك!!

انفجر شخص من داخلي ثم صمت.

بدأت أبكي، احتفل بيتي بضحكي وبكائي.

لدغتني سخونة الشاي، هدأت نفسي، لا ضحك ولا بكاء.

بقيت مكاني ساعات طويلة، اقتربت أخيراً أصوات القذائف، أحسست بها تمر من تحت أنفي، ومن فوق رأسي، عن يميني وشالي، ثم انفجرت شراييني، رأسي التصق بالسقف، يداي تعلقتا على الجدران الحزينة، قدماي وحدهما خرجتا من البيت.

تلمست طريق الخلاص من الانفجارات التي دوت خارج البيت بل خارج الكون، عدت من حيث أتيت، عجوزا يتكئ على عصاه، طلب مساعدتي بعبور حفرة وسط الشارع، عبرت معه.

خارج المخيم نظرت إلى السماء، وسقطت دموعي، رأيت الشمس تبكي معي، صوت المركبة التي عدت فيها إلى الإيواء تنوح طوال الطريق، أحسست بالجوع، اشتريت بعض الأغراض واتجهت إلى المدرسة التي اتخذتها مع غيري مأوى أنا وزوجتي وولداي الصغيران علي ومحمد.

تقاعدت مبكراً من أجل الراحة، لكن هذه الحرب أعادت دورة التعب. صعدت الغرفة التي نتقاسمها مع عائلة مكونة من عشرة أطفال مع الأم والأب.

نظرت إلى زوجتي رندة بحزن وقالت:

- ألم أقل لك لا تذهب إلى البيت.

- إذا لم يذهب الإنسان إلى بيته فأين يذهب.

تمنيت أن أذهب إلى البحر لأغتسل من همومي، تمنيت الصعود إلى الجبال لكي أبكي وحيداً، تمنيت الغوص في أعماق الأرض لدفن أحزاني، لكن الأمنيات فرص ضائعة.

اقتربت مني زوجتي وقالت بلهجة فيها قهر وأمر:

- اسمع، صبحي، يجب أن نفعل شيئاً!

- وهل ستستمر الحرب إلى الأبد؟

- لا أدري، لم أعد أحتمل!

- الحرب وأنت علي!

خرجت إلى باحة المدرسة، كنت صبيا في الصف الخامس، ضمن فريق لكرة السلة، كان المدرس يصفر دوماً، ويلقي بأوامره، كانت الحياة بالنسبة لنا رغم فقرنا وردة جورية.

في زاوية الباحة طفل صغير يأكل الأرز بيديه الصغيرتين بشهية عجيبة، اشتهيت الأرز، ركض الطفل باتجاه أمه التي تجلس على درج المدرسة وهو يحمل صحنه الفارغ.

وقفت قدما صبية جميلة أمامي، نظرت إلى الوجه فإذا هي أختي صبيحة، كانت الدموع على خديها، منذ سنوات لم أرها منذ تزوجت جورج، وخرجت عن عرف العائلة، وقتذاك اعتبرتها خارجة عن الدين والأخلاق، ركعت أمامي وأكملت بكاءها بصمت، لم أقدر على التماسك، بكيت معها، مسحت دموعي ومسحت دموعها.

لم أعرف كيف أبدأ الحديث، كان في ذهني كلمات كثيرة، لكنها تبخرت أمام ذهولي، نطقت بحنان:

- أخي صبحي!

لم أرد، لساني أصبح قطعة حجر في فمي.

أدرت وجهي ومسحت دموعي من جديد.

وفجأة التفت إليها، وبشوق السنين التي لم أرها فيها احتضنتها قائلاً:

- أختي صبيحة!

لفتني يديها الرقيقتين، نسيت همومي، وغطى شعرها وجهي بستارة من حرير.

حزنها أحسسته حزني وحزني أحسسته حزنها، دموعي دموعها، شهقاتي شهقاتها، أعماقها أعماقي، لم أعرف أنها أنا ولم تعرف أنني هي.

من بين دموعها قالت:

- صبحي، أنا أختك، لم تأت عندي؟!

- أنسيت أنك تزوجت مسيحياً؟!

- مازلت تفكر بهذه العقلية، انظر، الذين يموتون في هذه الحرب مسلمون ومسيحيون، لا فرق، خجلت.

- أخي، هذه الأزمة عرّتنا جميعاً، أخرجت أرواحنا أماماً.

كانت رنّدة تنظر إليّ بحدة، نفضت البساط ودخلت.

مسحت صبحية على وجهي.

- لا تهتم، سأذهب إليها، رنّدة قلبها كبير وأبيض.

وأضافت:

- ستأتون عندي!

- لست أفضل من هؤلاء الناس!

نزّلت دموعها.

- أصرّ جورج أن تأتي معي، بيتنا واسع وحارّتنا آمنة.

- هذا زمن العبث، ليس هناك مكان آمن، تحياقي لزوجك جورج.

انفجرت أساريرها حين سمعت جملتي الأخيرة، عانقتني، وضعت في كفي مبلغاً من المال أعدته إليها دون أن أجرحها.

أعطتني كارتاً عليه اسمها وهاتفها الجوال والثابت، واحتضنتني قبل أن تغادر، أحسست بفراغ حين غابت.

اصطف الطلاب أمامي لتحية العلم، رؤوسهم مرفوعة وعيونهم شاردة، دخلوا الصفوف بعد ترديد الشعار، دخلت الإدارة لأقوم ببعض الأعمال الإدارية من تحويل للطبابة إلى جدول دوام المعلمين وغياهم.

كانت رنّدة تجلس في صدر الغرفة، لم تفارقها النظرة الحادة.

- لماذا لم تسلمي عليها؟!

- أنسيت عداوتك لها؟!

- الحرب تغير الإنسان!

الطفل الذي أكل الأرز صباحا سقط عن الدرج، رأته من النافذة،
الدم يسيل من بين أصابع أمه المفزوعة، خرجت مسرعا وأخذت الصبي
من بين يديها وخرجت في لمح البصر، أوقفت سيارة أجرة وقلت له:
- خذني لأقرب مشفى.

قال:

- قذيفة؟!

- سقط عن درج الإيواء.

كانت الشوارع شبه فارغة، ووجوه المارين تائهة، ونظراتهم زائغة،
وخطاهم غير موزونة.

صعدت درج المشفى بخفة وأنا أحمل الصبي، غرفة الإسعاف
ملأى بالمصابين والأموات، ثيابي امتلأت بدم الصبي، لم يلتفت إليّ
أحد، الدماء تملأ الأسرة والمقاعد والأرضية.
وقفت أمام أحد الأطباء وقلت بلهجة حازمة:

- الطفل سيموت.

قال:

- شظية أم طلقة؟!

- وقع عن الدرج.

- الأولوية لمصابي الحرب.

- وهذا أصيب في الإيواء، لولا الحرب لما كان هناك إيواءات.

استوعب الطبيب غضبي، غسل جرح الطفل ولفه بالشاش
وابتسم في وجهي، وقبل أن أغادر همست في أذن الطبيب وهو يداوي
جريحا شابا:

- آسف لأنني رفعت صوتي.
- ابتسم في وجهي، بادلته الابتسامة وخرجت، كانت رائحة الدماء تلاحقني.
- في الطريق رن جوالي، كان ابني عدنان الذي يدرس المعدات الطبية في أوكرانيا، كان صوته قلقا ودافئا.
- أبي اخرج من سوريا أنت وأمي وأخوأي.
- أين سنذهب؟
- إلى الأردن، لبنان، عند إمام في الجزائر.
- يقال إن المسلحين سيخرجون وسنعود للمخيم.
- لن يعود اليرموك كما كان، هذه خدعة، مثلما خرج الناس من فلسطين لأيام ثم امتدت الأيام لعشرات السنوات.
- وبيتنا الذي بنيناه حجرا فوق حجر.
- بيتنا في فلسطين.
- ثم أضاف:
- أريد أن أسمع صوت أمي.
- أنا لست في الإيواء، حين أصل سأصل بك.
- خذوا حذرکم.
- وأغلق الهاتف، أغلق معه شرايين قلبي، طارت روحي عبر الأثير إلى أوكرانيا، رأيت نفسي احتضن عدنان، أشم رائحته، وتسقط دموعي على سترته الشتوية الباردة.
- تلقفت الأم ابنها مني بلهفة، احتضنته وهي تبكي، نظرت إلي نظرة شكر، وتركته تلمس جسد ابنها قطعة قطعة.
- كانت رندة تجلس في ذات المكان، وعلي ومحمد نائمان.
- اتصل عدنان، وهو يسلم عليك.

قالت بلهفة:

- كيف هو؟

- بخير، وهو قلق علينا.

- لن أراه هذه السنة أيضا، سنتان لم أره، لماذا يا رب؟

قالتها بحزن.

أردت أن أضرب وجهي بالجدار، رن الهاتف، كان عدنان، أخذت الهاتف بلهفة، لم أتحمل حزنها فخرجت.

ليلا كان القمر بدرا، سمعت صوت فيروز يغني للقدس ولدمشق، كنت أقف على درج المدرسة، كان الطلاب أمامي كأصنام ينظرون إليّ بعيون مضيئة، وأسنان بيضاء، طاروا نحو السماء السوداء، اتجهوا نحو القمر، كانوا ينظرون إليّ ويضحكون، أمسكت عصاي وأمرتهم بالنزول، امتنعوا ومدوا ألسنتهم الحمراء الكبيرة، انفجر غضبي:

- انزلوا، أنا مدير المدرسة.

كانت ألسنتهم تمتد نحوي، رؤوسها كرؤوس أفاع.

حين غضبت نبت لي جناحان، فكرت بملاحقة طلابي، لكنني غيرت رأيي، واتجهت فوق المخيم لأرى بيتي، رأيت الصواريخ تتطاير فوقني وتحتي، سمعت أنين الجرحى، وحشرة الأموات، بكيت وأنا أطيّر، وفجأة سقطت على الأرض فإذا أنا في شوارع دمشق الفارغة، ذكرتني بأيام الجمع، حين كنت أسير فيها أشعر ببرودة النسائم الصيفية، أدخل حاراتها القديمة خلف الجامع الأموي، يلامس قامتي قبر صلاح الدين الأيوبي، وأستمر في استنشاق هواء الحارات العتيقة وكأنني أشم رائحة التاريخ المختلط برائحة الليمون والنانج والياسمين.

أرتوي من حنفية الماء، لا أشبع من ماء دمشق، ينساب إلى روحي، إلى دمي، ينعشني كما تنعشني رائحة الياسمين، تنكسر اللوحة حين أسمع أصوات القذائف، أصوات الموت الآتي، أريد أن أصرخ:

- لماذا؟

أقف لاهثاً لأسترد أنفاسي.

طفلة صغيرة، شقراء جميلة، تلبس ثوباً أبيض كالحليب، تنظر إليّ بعينها الزرقاوين، أتذكر ابنتي بدور التي تزوجت وسافرت إلى الخليج، ولم أسمع منذ سنتين إلا صوتها وأرى صورتها وصورة أولادها على الواتس آب، ابتسمت للطفلة، اقتربت مني وأعطتني ضمة من الياسمين، عطر الياسمين روحي، لوحت لها يدي حين تركتني، كأنني تركت ابنتي بدور، لم أستطع أن أتماسك فبكيت في الحارات العتيقة.

- أين كنت؟

- كفى يا رنده، لا أريد أن أتشاجر.

لم أجد علي ومحمد.

- أين هما؟

- خرجا ليلعبا.

- الأيام أيام حرب، قد يموتان بشظية أو رصاصة طائشة.

- الأولاد لا يجسسون في البيت.

قفزت خارجاً لأبحث عنهما، بحثت في الحارات المحيطة بالإيواء، لم أجدهما، وقفت قلقاً، وفجأة مجموعة من الأولاد يركضون ويصرخون ويضحكون، كان علي ومحمد معهم، نظرت إلى المشهد، ابتسمت، اقتربا مني، كأننا يشعلان بالندم.

- بابا نحن.

قبلت علي واحتضنت محمد.

- العبا ولكن لا تتبعدا.

سهر سكان المأوى على شمعتين واحدة للرجال وواحدة للنساء،

استمعنا إلى أحدهم وهو يتحدث عن ذكرياته في فلسطين، كان أبوه ذات ظهيرة يزرع القمح، جاءته مجموعة من رجال الهاغانا، مدججين بالسلاح، أمروه أن يضع رأسه في الطين، لكنه رفض، نظر إليّ وأنا أجلس على التلة، كنت لم أتجاوز العاشرة، نظرتة أوصتني بالأرض دون أن يتكلم، ثم أضاف الرجل وقد دمعت عيناه:

- هل تصدقون يا جماعة أنني منذ أكثر من ستين عاما وأنا أرى أبي ينظر إليّ قبل أن يفارق الحياة.

تشعبت الأحاديث على شمعة تذوب شيئا فشيئا، ثم صمتت الألسن، وأخذت الأذان ترين السمع إلى أصوات قذائف بعيدة أو قريبة.

- إلى متى هذه المهزلة؟

قلها رجل سبعيني.

قال آخر:

- طوال حياتنا ونحن نعيش المهازل، أخرجونا من فلسطين لعدة أيام وها هي السنين كرّت.

قلت لهم:

- انه اختبار من ربنا.

ضحك آخر.

- اختبار، وهل نحن تلاميذ في المدرسة يا أستاذ؟

ذابت الشمعة فانفرط عقد الجلسة، ذهب كل إلى غرفته يلوك أحزانه.

كانت ليلة عاصفة بكل ما تعنيه الكلمة، أخذت الشظايا تتناثر فوق الإيواء كجبات الأرز الملتهية.

احتضنت عليا ومحمدا وتكورنا في زاوية الغرفة ننتظر الفرج، كان بكاء الأطفال المفزوعين يتردد في الإيواء.

أخذت رندة ترتجف وتبكي.

- سنموت هنا، لو مت في بيتي لكان أفضل.
- اهدئي يا امرأة.
- تحول بكاؤها إلى نشيج، ثم إلى هستيريا، انتقلت إلى علي ومحمد والأطفال الذين يتقاسمون الغرفة معنا.
- نهضت دون وعي، صرخت في وجهها صرخة غطت على أصوات القذائف، صمت ونامت.
- سقطت دموعي بصمت، لم نعد نفهم شيئاً، أكل ما يجري على كرسي الحكم أم هو إثبات للذات أم هي لعبة دولية؟!
بدا الصباح كثيباً وبارداً.
- نظرت إلى رندة بخجل، أردت الاعتذار فلم أستطع، لبست وخرجت.
- وقفت أمام الصراف الآلي لأقبض راتبي التقاعدي، وضعت البطاقة فجاءني صوت من خلفي:
- أبو عدنان، كيفك؟
- كان أبو أوسو الكردي، يتسم بشاربه الأبيض وعينه الخضراوين.
- سلمت عليه بحرارة:
- أين أراضيك؟
- تعرف ما حدث في المخيم، أنا في الإيواء.
- وأنا في ركن الدين عند ابني الأكبر.
- مشينا نحو مقهى الكمال، شربنا القهوة، تحدثنا عن الماضي الجميل والحاضر الكئيب.
- ما الحل؟
- تساءل أبو أوسو.
- لا أدري.

فجأة بكى أبو أوسو، لم أره بهذا الضعف طوال فترة خدمته في المدرسة التي كنت مديراً فيها، كان قاسياً على الطلاب.

لم يمهلني سؤاله، قال بعد أن جفف دموعه:

- لم يبق لي أحد هنا يا أبا عدنان، هربت عائلتي إلى تركيا وانقطع الاتصال بيننا ولم يبق لي إلا ابني الأكبر.

- الحق بهم.

فوجئ بكلامي.

- أنا، لا، لا، لن أترك سوريا ولو قتلت آلاف المرات، أبو عدنان، ذاكرتي هنا شمسي هنا، قمري هنا، مسجدي هنا، كنيسة هنا، حياتي هنا، من يترك حياته ويرحل.

- صدقت، من يترك حياته ويرحل؟!

أردت أن أخرج من حزنه فدعوته إلى لعب الطاولة فرد عليّ بشيء من الغضب:

- حلفت ألا ألعب الطاولة حتى أرى سوريا ضاحكة.

- أنت مع من؟

- أنا لست مع أحد، أنا مع المقهورين، مع جميع المعذبين، مع الذين هدمت بيوتهم، أنا مع المشردين، أنا مع الإنسان يا أبا عدنان.

احتضنته، أعطاني رقم هاتفه المحمول، قبل أن يغيب في حارة جانبية.

بادرتني رندة وأنا أدخل بنبرة غاضبة:

- استأجر لنا بيتاً، ألم تقبض راتبك التقاعدي؟

فهمت عليها، ابتسمت، استشاط غضبها:

- أتضحك، هل تحسبني مجنونة؟

أمسكت يديها بلطف:

- ستنتهي هذه الحرب وسنعود إلى بيتنا.

- لن نتوقف هذه الحرب.

- ستتوقف، ليست هنالك حرب استمرت إلى مالا نهاية.

ليلا، حين نام علي ومحمد، بدأ غزل العيون بيني وبينها، من خلال ضوء القمر المنساب من نافذة الغرفة، اقتربت منها، مسحت على شعرها، رائحتها انسابت إلى روحي، ضممتها، استكانت، وأخذ جسدانا يتشيان في لحظة كانت من المرات القليلة التي مررنا بها.

حين انتهينا، تنفست الصعداء لعدم استيقاظ علي ومحمد.

وأنا ارتشف فنجان قهوتي في الخارج، خرجت رندة وجلست بقربي ووضعت رأسها على صدري.

- أما زلت تحبني؟

ابتسمت.

حرب ورومانسية.

لم أكن أدري أيهما الغالب.

الحرب تحرب نسيج النفس والرومانسية تبني ذلك النسيج.

وتتصارع الحالتان، أنظر إلى رندة وكأنني أراها لأول مرة، وأسمع القذائف فتضيق بوصلتي النفسية.

سألتها:

- لو مت في هذه الحرب، ماذا تفعلين؟!

- قد أموت أنا.

وتتناوب الحالتان المتضادتان؛ حرب ورومانسية، حياة وموت، حب وكره، اطمئنان وتوتر.

- أنا أفترض.

- وأنا أفترض.

لا فائدة، غيرت الحديث إلى طرف آخر.

- سأشتاق إليك حين أموت.

انتفضت:

- موت، موت، أما شبعنا موتاً؟!

ضحكت وأنا أسرق قبلة من خدها.

- أفترض، أنا أفترض.

- الليل صار في آخره، ألا تنام؟!

- سألحق بك.

كان التلاميذ قد استقبلوني بوجوه مستبشرة، تساءلت عن السبب فقال لي أحدهم:

- أستاذ، غدا عطلة عيد الشهداء.

جلست على الكرسي، نظرت إليهم، فكرت في الشهداء الذين ماتوا على يد العدو وهؤلاء الذين يموتون الآن، ماذا نسميهم.

أخذت المقارنة تتفاعل في نفسي، الغصة لم تمهلني أن أبتلع ريقِي، انفجر صاروخ قرب الإيواء وهز أركانه، هز أرواحنا. خرج الناس من غرفهم مذهولين، وخرج الأطفال يبكون.

صباحاً فتحنا عيوننا على انفجار سيارة مفخخة، في الحارة المقابلة للإيواء، سمعت الأبواب تفتح وأصوات الأرجل تخرج مهرولة، اندلق فنجان القهوة من يدي، أسرعت خارجاً.

وقفت أمام الدرج وصرخت بأعلى صوتي.

- ارجعوا، قد تنفجر سيارة أخرى.

بعضهم توقف وبعضهم تابع سيره نحو الخارج.

صرخت فيهم مرة أخرى:

- ارجعوا، يكفيننا دماء.

وبكيت أمام الجموع.

وضعت رندة يدها على كتفي وكانت تبكي بصمت.

انكفأت إلى الغرفة صامتاً، كانت أصوات سيارات الإسعاف هي التي احتلت ساحات الهواء.

وضعت فوقِي الغطاء محاولاً النوم، حين استيقظت قالت لي رندة وأنا أشرب الشاي:

- الأشلاء على الجدران، والدماء غسلت الشارع.

كأنني أحلم.

حلمت وأنا صغير، كان عندي سيارة صغيرة ألعب بها في الشارع أمام بيتنا القديم المكون من غرفتين ومطبخ وثلاث شجرات أزد رخت في زاويته.

كرجت سيارتي بعيدة عني، كان هناك رجل يسير، يلبس حذاء ثقيلاً، حطم السيارة بحذائه الثقيل.

حزنت، أردت أن أنفجر، أمسكت حجراً ولحقت به، صوبت ناحية رأسه ورميت حجري، كانت رمية غضب ولوعة، سال الدم من رأس الرجل، لحق بي، هربت في زوارب المخيم، سمعت حذاءه الثقيل وهو يدق الأرض خلفي، ركضت خوفاً من أن ينتصر عليّ مرة أخرى، فجأة انقطع صوت الحذاء، نظرت خلفي فإذا الرجل داخل حفرة يحاول الخلاص.

قلت دون وعي:

- أنا نادم لأنني لم أخلصه.

- عمّ تتحدث؟

قالت رندة.

- هذه قصة قديمة، كأنه منام.

- لم تخبرني القصة.

- وأنا صغير رجل كسر سيارتي، فضربته حجرا، لحق بي فسقط في الحفرة.

شتان ما بين سيارتي وسيارات الموت الأسود في دمشق.
شربت قهوتي دون طعم، أكدت لرندة قبل أن أخرج على عدم خروج علي ومحمد.
تذكرت وأنا أضع قدمي خارج الإيواء أولئك الذين تمزقت أجسادهم أمس، تصحرت روحي.
سمعت صوت رندة:

- صبحي، انتبه.
كدت أضحك، ففي زمن الموت لا مجال للانتباه.
كان حمام الجامع الأموي يطير نحو المآذن الثلاثة، أنظر إليه وهو يلتقط الحب أسرابا ثم يسير قليلا، على البلاط ثم يطير.
الحمام كثير والسلام مفقود.
تمنيت أن أكون واحدا من تلك الأسراب الهادئة، أطيّر فوق المآذن والكنائس، أصرخ بأعلى صوتي حتى تسمعي دمشق كلها:
- كفى موتا، كفى دما، كفى همجية.
انظروا إلى الحمام الوادع، هديله يبعث على الاطمئنان، لكنه يبعث على الحزن أيضا.

دخلت المسجد، أديت ركعتين، دخل السكون نفسي شيئا فشيئا، كنت في عالم آخر، ليس فيه قتل، ليس فيه كره، ليس فيه دماء، ليس فيه سيارات مفخخة، تمنيت أن أجلس بقية عمري هكذا، أتذكر الأشياء الجميلة في حياتي.

دخلت إلى هدوء المدينة الأقدم في التاريخ، لجأت إلى الحارات القديمة، حيث السكينة تدخل الروح، كأن هذه الحارات لا يسكنها إلا الأتقياء، ارتويت من فيجة الماء البارد، انساب الماء إلى روحي فأنعشها.

فجأة اهتز التاريخ بصوت كالرعد، اهتزت الجدران الطينية
والمشربيات، لكنها عادت صامدة كما كانت، خرج بعض السكان
على وجوههم سخط واستغراب وقلق.

رجل قبل أن يدخل بيته قال بسخط:

- وبعدين.

قادتني تلك الحارات الوادعة إلى باب توما، أخرجت كارت أختي
صباحية واتصلت بها، ردت بحنان ولهفة خرجت من روحها:

- أين أنت؟

- في ساحة باب توما.

- لحظات وأكون عندك.

حين جاءت صباحية كانت لهفتها مثل لهفة صغير وجد أمه بعد ضياع.

قبلتني بحرارة، نسيت أنها في الشارع، أخذت بكفي وقالت:

- سيفرح بك جورج.

- سأتي مرة أخرى.

- في هذه الأيام لا مجال للتأجيل.

أصابني عين الحقيقة، ففي هذه الأيام قد يموت السائر على
قدميه، والنائم في بيته، والمبتسم والحزين والكبير والصغير.

رحب بي جورج أيما ترحيب، كانت عيناه تضحكان قبل أن
يضحك فمه، أما أنا فقد كنت خجولا أيما خجل على سنوات
العداء ضده.

شعرت صباحية بي، أرادت أن تخرجني من حرجي وندمي فجلست
على ركبتني كطفل صغير وأخذت تداعب خصلات شعري الأشيب،
كانت تبكي من الداخل وهي تضحك.

خاطبت زوجها:

- جورج، صبحي هو أبي وأخي وأمي وأختي، أشعر أنني أطيّر
من الفرح، لا أصدق أنه معي، لا أدري كيف أعبر.

وانفجرت باكية، ودفنت رأسها في صدري.

بكيت معها كطفل صغير، وبكى جورج أيضا.

مسحت دموعها وابتسمت:

- لماذا البكاء؟! هذا يوم عيد.

هزَّ جورج رأسه موافقا.

- صبحي، اتركوا الإيواء، بيتنا واسع، سنضعكم في عيوننا.

- سنعود إلى بيتنا قريبا.

تدخل جورج:

- أبو عدنان، أنت صاحب هذا البيت ونحن ضيوف عندك.

انبسّطت أسارير صبحية.

- تسلّم يا صهري.

قلتها لأول مرة، فبدت صبحية في أوج فرحها، ودون وعي عانقت
جورج حتى أزيد فرحها.

بعد هذه الحرب عرفت أن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، الكره
حمل ثقيل، والموت قريب، دعونا لا نأخذ أثقالنا إلى القبور، هذه
هي الفلسفة التي آمنت بها حين احتضنت جورج، وأخيرا قلت له
بلهجة نادرة.

- أنا آسف.

قبل يدي بشغف، لم تصدق صبحية ما رأت، كانت في منتهى
السعادة حين انهارت على الأرض فاقدة الوعي.

خفَّ إليها جورج ووضع حبة تحت لسانها والرعب يطل من
عينيه.

- لم يتحمل قلبها.

أخذت غفوة من المشاعر المتلاطمة التي أخذتني نحو السماء ورمت
بي إلى الأرض رأيت فيما يرى النائم أنني ملك متوج ضمن غابة من
أشجار الموز، الجنود يسرون على الأوراق الكبيرة، طول الواحد لا
يزيد عن عشرين سنتمرا، يحملون الرماح والتروس والسيوف.
أطلت صبحية من عمق المملكة، أحاطتها الرماح.

- ابتعدوا.

صرخت فيهم:

- سنقتلها.

صرخت مرة أخرى:

- لا، لا.

ونفضت من الغفوة وأنا أصرخ:

- أنت مريضة؟

- حين رأيته أصبحت بخير.

لم أحتمل، نهضت، لبست حذائي على عجل، قلت:

- سآتي دوما.

خرجت إلى الشارع كالتائه، أشفقت على نفسي من نفسي.

ضربت جدران الحارات بقبضة يدي، ترنحت بين السيارات
المتوقفة وتمنيت انفجار سيارة ليتوقف عذابي.

دخلت المدرسة التي تحولت إلى مأوى، كنت مديرها والآن
أصبحت لاجئاً فيها، دخلت غرفة مأوى صامتا وطلبت غطاء من
رندة.

- ليس من عادتك أن تنام الآن.

كنت بين الحلم واليقظة، سرت مع صبحية في طريق طويل لا
ضوء فيه، كانت تشد على يدي وعلى وجهها خوفاً وترقباً.

- أخشى أن أموت دون أن أراك.

- مازلت صغيرة على الموت.

- ألم يمت جدنا في ريعان شبابه؟

- إلى أين نذهب؟

- ستري.

كلما أوغلنا في التقدم ازداد الضباب كثافة، نظرت ورائي فلم أر
شيئاً، وفجأة توقفت صبحية وقالت:

- ها هو المكان.

كانت تشير إلى قبر مفتوح.

صحوت على إطلاق رصاص كثيف في الحارات الملاصقة للإيواء.

كان علي ومحمد يرتجفان خوفاً، أما رندة فقد دخلت والخوف يسيطر على قسّمات وجهها.

- اشتبكوا خلف الإيواء.

كان الرصاص يصطدم بالجدران الخارجية كحبات البرد، لمست يدي محمد ثم يدي علي كانت كألواح الثلج، ثار غضبي وقلت دون تفكير:

- رندة، ضعي إبريق الشاي على النار.

- ومن له نفس؟!

قالت بعصية.

أجبت بهدوء:

- أنا، أنت، علي، محمد.

هدأ صوت الرصاص، سمعت صوتاً في الخارج أعرفه تماماً، قفزت خارجاً، كان جاري أبو عايد في المخيم، احتضنته، بدا الخجل على وجه أبي عايد وهو يجلس أمامي.

- أستاذ صبحي، لم يعد هناك رجال، هربنا من اليرموك كالأرانب، لم أكن أريد الخروج، لكن بيتي ضربه صاروخ أعمى دخل غرفة نومي كلص وسرق أحلامي، كأنني أعيش في الهواء، نحن هواء يا أستاذ، هواء.

كان قلبي يدمع وأنا أرد عليه:

- لم أرك يائساً إلى هذا الحد، هذا ابتلاء حلّ بنا.

قال وصوته يرتجف:

- هذا صحيح يا أستاذ صبحي، لكن هذا الابتلاء هو نحن، لم يأت هذا الابتلاء من الهواء، بل جاء من ذواتنا، من كرهنا، من ومن.

أخذ نفسا وكأنه يغرق بدموع داخلية، ثم تابع:

- خرجنا من المخيم لنعيش نكبة أخرى، لكن أرواحنا مازالت هناك.

- هذا صحيح.

تابع أبو عايد كلامه؛ وكأنه يريد إفراغ ما في نفسه من أثقال.

- ابني عايد لجأ إلى لبنان، سكن مدينة صور ليشم هواء فلسطين، سكن عند أولاد عمه، حاول أن يأخذني لكنني رفضت، لن أترك الشام، اعتدت على الشام بعد فلسطين.

صمت قليلا، تنهد ثم أكمل:

- عايد بقي عشرة أيام تحت القصف وهو يقنعني بالذهاب معه، وحين يؤس أخذ بيكي كطفل صغير، أخذ يقبل يديَّ ورجليَّ وهو بيكي.

نزلت دمعتان على خديه وهو يتابع:

- لم يبك ابني عايد وهو صغير، لكنه بكى الآن، ما حدث كأنه زلزال يوم القيامة زلزل نفوسنا وأخرج ما فيها من إنسانية ورحمة. سقطت دمعتان أخريان.

- رأيت يا أستاذ صبحي، أنا أبكي الآن، أبو عايد بيكي، لقد غيرتنا هذه الحرب اللعينة.

نهض أبو عايد متهدل الكتفين وكأنه يحمل ثقل العالم كله.

- إلى أين؟

- ستراني كثيرًا يا أستاذ صبحي، أنا هنا، أقيم في المستودع.

رمى نفسي على الكرسي، استعدت أيام المخيم مع أبي عايد، كان بناء، بنى أكثر بيوت المخيم، حين كان يعود إلى بيته مساء كانت رائحة الإسمنت والتراب تفوح في الحارة معلنة قدومه، لم يظهر عليه التعب يوما، يقف ويتحدث بأدب، يداعب صغار الحارة ويعطيهم بعض الفاكهة التي يحملها، كنت حين يداهمني التعب أتذكره.

كنت أنظر إلى يديه الكبيرتين الخشتين وكأنني أنظر إلى جدار قوي من الإسمنت، كان يساهم بفعل الخير إن دعي إليه أو لم يدع.

سمعت مرة أن أبا عايد كان مريضاً، عجت الحارة بزائريه، خفت عليه حينها من الموت، ولكن حين دخلت عليه وجدته يجلس في فراشه مبتسماً ومتفائلاً.

كيف بنى أبو عايد هذا الحب في قلوب الناس وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب؟! كان يبنى البيوت والقلوب معاً.

كان يبنى بيوت الفقراء ولا يأخذ منهم قرشاً واحداً، كان سعيداً بما يفعل.

دخلت سيارة المعونات إلى باحة الإيواء فأخرجتني من أفكاري، أخذ الناس يتدافعون لأخذ حصصهم الغذائية، وأخذ الرجل الذي اعتلى صندوق السيارة يصرخ عليهم.

توقفت رندة إلى جانبي وقالت:

- ألا تريد حصتك؟

لم أجب، دخلت الغرفة وجلست صامتاً، لحقت بي وقالت بعصبية:

- هذا حقنا، اصح أيها المدير القديم، نحن الآن لاجئون، واللاجئون يحتاجون لمعونة.

وضعت أصبعي في أذنيّ وصرخت:

- كفى.

صمتت رندة، ثم أجهشت بالبكاء، اقتربت منها، لمست شعرها وقلت:

- معك حق، نحن لاجئون.

نزلت الدرج وكأنني أنزل إلى قبري، حين رأي الرجل الذي يوزع الحصص الغذائية ابتسم في وجهي قائلاً:

- أستاذ صبحي، أهلاً بك، أنا كنت أحد طلابك.

بادلته الابتسامة وحملت كرتونة المواد الغذائية دون أن أنبس ببنت شفة.

كدت أبكي وأنا أضع كرتونة المواد الغذائية أمام رنده، كان صمتها أشبه بالندم، ثم تجرأت وقالت:

- هذا حقنا من هذه الحرب اللعينة.

فجأة خطر ببالي ابني عدنان الذي ينتظر الإقامة في أوكرانيا بعد أن درس فيها، لم أراه منذ ستين أو أكثر، اشتقت إلى حديثه، اشتقت إلى كلامه السريع وحركاته وابتساماته.

تذكرت المرة الأخيرة التي زارنا فيها، كانت السيارة تتجه للمطار، كان يبكي بصمت، وأحيانا أخرى تفضحه شهقاته، لم أتمالك نفسي فبكيت معه، وكأنني أدركت أنني لن أراه فترة طويلة.

عادت رنده ووضعت فنجان قهوة أمامي وجلست صامتة.

قلت بهمس حزين:

- اشتقت لعدنان.

نزلت دمعتان على خديها وهمست:

- روجي عنده.

كان طعم القهوة مرا كمرارة فراق عدنان.

حين أمسكت يديه الصغيرتين الناعمتين ذات أول صباح له في المدرسة، كان يعتمل في داخلي فرح وحزن، فرح لأنه كبر ودخل المدرسة، وحزن لأنه سيواجه عالما صعبا، تركت يديه الصغيرتين أمام باب المدرسة، لوحت له بيدي وهو يدخل مع الأطفال، بكيت، تباطأت وأنا أنظر إليه يغيب عن ناظري، أردت أن أعود وأحمله وأطير به، أقبله وأطير به، لكنني دست على أحاسيسي وابتعدت عن المدرسة واتجهت إلى موقف الباص لألتحق بمدرستي.

- هل تذكرين يا رنده يوم دخل عدنان المدرسة؟

- أذكره تماما، بكيت حين أوصلته للمدرسة.
- وها هو بعيد عني الآن، أخشى أن أموت ولا أراه.
- لا تقل هذا الأعمار بيد الله.
- لكنها هنا بيد الرصاص والقذائف.
- فجأة، هدرت طائرتان فوق الإيواء وألقتا حمولتهما في مكان قريب، ارتجف المكان والهواء والشجر وقلوب الأطفال.
- ألم أقل لك أعمارنا بيد الرصاص والقذائف.
- أضيت تلك الليلة المظلمة الهادئة بالقصف، وخرق هدوءها أصوات تنخر الأذن، كنت قد وضعت رأسي على الوسادة، رأيت أختي صبيحة تبسم لي، كانت الأمكنة ترتجف، نهض كل من علي ومحمد يصرخان، وقالت رندة بقهر:
- ألا يتعبون، ألا ينامون؟!
- لم أعلق بكلمة واحدة بسبب القرف والملل والغضب، اشتدت الأصوات، سمعت أصوات سكان الإيواء يدعون العلي القدير بأن تنتهي هذه المحنة، حاولت الخروج، فوقفت رندة في وجهي، وضعت فوق الغطاء لأبعد أصوات القصف، شعرت أنني خارج إطار الزمان والمكان، أخذت أتفوق على ضعفي الإنساني، فلم أعد أسمع شيئا، ولم أعد أخاف الموت الذي يقف أمام بابي.
- حين هدأت الأصوات بدأت أصوات من نوع آخر؛ سيارات إسعاف، سيارات شرطه، أبواق سيارات، خليط من أصوات يوم القيامة.
- حين خرجت كان أبو عايد يجلس تحت أشعة الشمس، خافض الرأس، متوقعا على نفسه، شاردا، حين رأي أنفجرت أساريه بابتسامة كالبكاء، جلست إلى جانبه، كنا صامتين، وأخيرا قال دون أن ينظر إلي:
- في كل يوم أقول ستنتهي هذه الحرب، ولكنها تمتد وتمتد.

- لن تنتهي قبل أن ننتهي نحن.

قال بعصية:

- والعقلاء، أين العقلاء؟

- رائحة الدم والبارود أذهبت عقولهم.

- يقولون إن الشيطان لعب بنا، ولكننا نحن الشياطين، أستاذ صبحي، لم يعد لدينا أمل.

- الأمل بعودة عقولنا.

- وهل يعود العقل حين نفقده؟

- أتذكر أبا محمود صاحب عربة المشاوي في كتف حارتنا، وقت يشعل فحماته ويعلو دخان منقله، تعلو ضحكاته ونكاته في سماء المخيم، ما حدث له أن قذيفة شقته نصفين وهو يوزع ضحكاته على الناس، وسقطت قطعة من جسده على الجمر.

- يا الله!

أضاف أبو عايد:

- دوما كنا نفقد أحياءنا ونودعهم، الآن نفقدهم دون أن نودعهم.

قلت بذهول أكبر:

- هذا صحيح.

رفعت رأسي فإذا صبحية تقف غير بعيدة عني، طار قلبي نحوها قبل أن أعتذر لأبي عايد وأخف إليها:

- حين تأتين تعرضين نفسك للخطر.

- الخطر الأكبر ألا أراك.

في الغرفة تقدمت صبحية من رندة وعانقتها، بكت الاثنان، لكن صبحية حين احتضنت عليا ومحمدا بكت أكثر.

قلت لها:

- يكفي، أنت مريضة.
- بدت الدهشة على وجه رنده لكنها صمتت.
- وزعت صبحية ما جلبته من ألعاب على علي ومحمد بالتساوي.
- قلت وأنا أجلس:
- هذه الحرب أنهت حياتنا قبل موتنا.
- مسحت صبحية على شعري الأشيب وقالت برققة:
- لم أعرفك إلا قويا.
- الصخر في هذه الحرب أصبح ماء.
- بدا عليها التأثير، خفت أن يحدث لها انتكاسة صحية بسبب حزنها، لهذا غيرت دفعة الحديث.
- كيف حال جورج؟
- كان يريد المجيء لكنه انشغل.
- ثم أضافت:
- ستأتون معي إلى البيت.
- سنعود إلى المخيم قريبا.
- تشعرني دوما أنني غريبة عنك.
- صمتنا، وأخيرا انفجرت صبحية بالبكاء، ثم نهضت وقالت بقوة:
- أنت لا تريد أن تعود أخي، أنا لم أعد أحتمل هذه القطيعة.
- وحملت حقيبتها وخرجت بسرعة، لم ألحق بها، تسمرت في مكاني، اتصلت بها لكن هاتفها كان مغلقا.
- صرخت رنده:
- الحق بها.

خرجت مسرعا، نزلت الدرج ثواني، لم أر سيارتها في المكان الذي اعتادت الوقوف فيه.

وقفت تحت الشمس تأثها، كانت رندة تقف في أعلى الدرج، قلت في نفسي لا بد أن أذهب عند صبحية اليوم أو غدا، أحسست بإغواء وأنا تحت الشمس، اعترضني طفل صغير يحمل صحنًا فارغًا، وضعت في صحنه قطعة نقدية لكنه رماها، أمسكته من يده، صعدنا معًا حيث وقفت رندة.

- املئى صحنه طعاما.

حين امتلأ صحنه الفارغ بالطعام علت ابتسامة وجهه الشاحب.

قلت لِرندة:

- هذا الطفل أزاح الهم عن صدري.

- وأختك صبيحة؟

- سأذهب إليها اليوم.

- سنذهب معا.

فاجأتني بقولها.

- ستفرح بنا وكأننا نزلنا عليها من السماء.

- صبحية طيبة.

- وأنت أيضا.

رَنَّ هَاتِفِي الْجَوَالِ إِذَا صَوْتُ عَدْنَانَ يَقُولُ بِلَهْفَةٍ:

- أبي، كيف أنتم، أنا قلق عليكم.

- نحن بخير، لا تقلق.

أخذت رندة الهاتف وقالت وهي تبكي:

- عدنان حبیبی، نحن بخیر.

وغلبيتها دموعها فلم تعد تستطيع الكلام، أعطيت الهاتف لمحمد:

- أنا محمد أخوك، هل نسيت ما قلته لك؟
- لم أنس يا حبيبي، المهم لا تخرج إلى الشارع كثيرا.
أخذ الهاتف عليّ، سمعت عدنان يقول له:
- علوش حبيبي، أنا مشتاق لك.
- وأنا أكثر.
- أعطني بابا.
أخبرني عدنان أنه أرسل لي حوالة بالوسترن يونيون بمبلغ مائتي
دولار، واختنق صوتي وأنا أقول له:
- الله يرضى عليك.
ولم ينقذني إلا انقطاع الخط.

كادت صبحية تطير من الفرح حين زرناها عصرا، أما جورج فقد
رحب بنا عشرات المرات، ووضعت كل من علي ومحمد على ركبتيها
وقبلتهما عشرات القبل، خرج جورج خلصة وعاد ينوء بأكياس
مملوءة.

قلت له:

- لم نأت لتجربة كرمك.

قال باضطراب وفرح:

- زيارتكم عيد لنا.

انفجر صاروخ غير بعيد، اهتز البيت، قالت صبحية:

- الله يفرجها.

مدّت صبحية مائدة عامرة وأخذت تطعم كلا من علي ومحمد
وهي في غاية السعادة، كانت رندة تنظر إلى مشاعر صبحية الفياضة
وفي عينيها دمعان.

حين عدنا إلى المأوى كانت الحارات هادئة كأيام السلم المفقود،
قلت لرندة ونحن نسير في إحدى حارات باب توما القديمة:

- اشتقت للسير في هذه الحارات الهادئة.

- وحدك.

- أنا وأنت فقط.

- ألم تمش مع إحداهن؟
أطل الغضب من خلال كلماتي:
- رنده، دعينا نسر في هذا الهدوء المسروق.
- غضبك يضع يدي على الحقيقة.
علا صوتي:
- أية حقيقة؟
وقبل أن ترد انفجرت قذيفة على بعد منا فقتلت هدوء الحارات
القديمة وليلها الجميل.
أمسكت بولدي ولطيت إلى جانب جدار طيني وقرصت رنده
خلفي.
أخذ الرصاص يلعلع في كل مكان، وأخذ المسلحون يمرون أمامنا
كأشباح جاءوا من كوكب آخر، بقينا لابدين في مكاننا فسحة من
الوقت، سمعنا خلالها أصواتا مبهمة، وخطوات همجية، وسيارات
تجوب المكان وكأننا في عالم ليس لنا.
حين هدأت الأصوات تابعنا سيرنا بحذر شديد، مررنا فوق دماء
يخرج منها البخار، وعلى الجدران دماء ماتزال تنقط وتصرخ، وخلف
الجدران العتيقة بكاء مخنوق.
نظرت إلى النجوم اللامبالية بعينين دامعتين وهمست:
- ارحمنا يا رب.
كانت رنده ترتجف رغم سخونة الجو، حاولت البحث عن سيارة
أجرة لكن السيارات اختفت بعد الانفجار.
- لو نمنا عند صبحية.
- هذه زيارتنا الأولى.
- لكنها حزنّت حين خرجنا.

وصلنا إلى ساحة باب توما، كانت فارغة تلعب فيها الأشباح،
دخل في قلوبنا خوف من الليل والمجهول، لكنني استعدت شيئاً من
قوتي حين قلت:

- الحقوا بي.

دخلنا حارة جانبية أعطينا شيئاً من الطمأنينة رغم الظلام، سمعت
من داخل أحد البيوت أغنية عبد الوهاب، يا مسافر وحدك، ها
نحن نساfer عبر الخطر، كنت في كل خطوة أتوقع مفاجأة غير سارة.

كان علي ومحمد يلهثان وصوت كعب حذاء رندة يدل على خطوات
خائفة، وكنت بين الفينة والأخرى أعطيهم جرعات من الأمل:

- هاقد وصلنا، لحشة حجر.

وكم تمنيت أن أقف في وسط الظلام وأصرخ:

- أيها المتقاتلون، توقفوا.

حين وصلنا الإيواء وجدنا مسلحون من الأمن يملئون المكان،
تحققوا من هويتي فسمحوا لنا بالدخول، سألت أحدهم:

- ماذا هناك؟

أجاب بلهجة صارمة:

- أحدهم قتلت زوجته وابنته بتفجير، جنّ وخلع ملابسه وصعد
إلى السطح ليرمي بنفسه.

نظرت إلى فوق، كان الرجل يلوح بقطعة من ملابسه، يضحك
تارة ويبكي أخرى.

صعدت الدرج وأنا أنظر إلى الرجل، لوحته له بيدي وقلت:

- أنت عساف، أنا أبحث عنك.

ضحك ثم بكى، صرخ رجل الأمن:

- ارجع سيرمي بنفسه إن اقتربت.

- سأساعده، لا تخف.
- بدت عيناه وهو ينظر إليّ كذئب مجروح، قلت له:
- زوجتك وابنتك عندي.
- ضحك ولوّح بقطعة ملابس له قائلا:
- أنت أخي مازن.
- أنا هو، ستراهما عندي.
- وإذا كذبت عليّ.
- مازن لا يكذب يا عساف.
- سأنزل، ولكن لماذا زوجتي وابنتي عندك.
- أنسيت؟! كأننا في زيارة عندي، عند أخيك مازن.
- جلس على طرف السطح، رمى بقطعة ملابس له نحو الأسفل،
نظر إليها وهي تسقط على الأرض، لحظات عصيبة، خفت أن تأتيه
نوبة جنون ويرمي بنفسه، ثم نهض واختفى خلف السطح والعيون
تراقبه، وماهي إلا لحظات وكان أمامي يضحك.
- هيا بنا.
- قدته من يده نحو الأسفل، وهناك أمسك به مسلحان من الأمن،
وقاداه إلى سيارة متوقفة، نظر إليّ وقال:
- مازن. الحق بنا.
- ابتسمت وأنا أبكي من الداخل، جاء الضابط وشكرني.
- لم أنم تلك الليلة، وعند الفجر سمعت أصوات عويل نساء في
باحة المدرسة، خرجت فرأيت أربع نسوة وحولهن بعض الأطفال
يلطمن خدودهن ويبكين بحرقة، أطلت رؤوس النائمين لتستطلع
الخبر، مرّ أبو عايد وكفاني عناء السؤال:
- خطف أزواجهن وهن في الطريق إلى دمشق.

كنت ذاهلا، لم أعلق، الفجر لا يحمل أخبارا سارة، قال أبو عايد:

- سأكمل نومي.

أضاءت الشمس الباحة وأنا أقف قرب الباب، جاءت رندة وسألتني:

- صبحي، لم لم تنم؟

نمت حتى العصر، صحت على صوت علي يقول:

- بابا، محمد ذهب ليشتري منذ ساعتين ولم يعد.

ولم أجد نفسي إلا في الشارع أركض كالمجنون في كل اتجاه، وجدت رندة تبحث عن محمد وهي تبكي.

- لَمْ لَمْ تَقُولِي لِي؟!

- لم تسمعني وأنت نائم.

بحثنا في الحارات المجاورة، وفي زاوية شارع بعيد عن الإيواء كان محمد يجلس على مصطبة إسمنتية وهو يبكي، حين رأي ركض نحوي وتمسك بي كالغريق، رندة ضحكت وهي تبكي، أما علي فاحتضنه وقبله وكأنه يراه لأول مرة، ابتسمت في البداية، لكن موجة غضب اجتاحتني وأنا أصرخ في وجه طفلي:

- إذا خرجتما دون إذني سأضربكما.

اندھشا من تبدیل حالی، لکنہما قالآ:

- حاضر بابا.

نفرت دمعتان من عینى وقلت بحزن:

- أنا أخاف عليكم، الحرب عمياء، لا تفرق بين مذهب وغير مذهب، تأكل الجميع، تخطف الجميع.

خجلت من نفسي، خرجت لأتففس هواء نقيا، جاء أبو عايد وقال لي:



- سمعت أن المسلحين سيخرجون من المخيم وسنعود إليه.
- كان همنا أن نعود إلى فلسطين وصار همنا أن نعود إلى المخيم.
- ثم أضفت:
- هذا هراء، لن نعود إلى المخيم، هذه مؤامرة كبرى يا أبا عايد.
- أنت تزيد تشاؤمي.
- أنا أقول قناعتي، لن نعود إلى المخيم ولا إلى فلسطين.
- فلسطين تبتعد عنا.
- بل نحن الذين ابتعدنا عنها، ألم تر في شارع لوبية وشارع اليرموك الملابس الراقية والأطعمة الفاخرة والعطور والنساء المتبرجات والشباب المختشون، أهذا مخيم يريد عودة فلسطين؟! لا تنس أن هناك فئة أخرى ما زالت تحلم بفلسطين.
- هذه الفئة انقرضت حين خروجنا من المخيم.
- والحل؟
- ضحكت، استغرب أبو عايد ضحكي فقلت:
- أبا عايد، أنا أضحك على الحل، ليس عندنا حلول.
- نريد عقولا مفتوحة.
- وقلوبا مفتوحة أيضا.
- صمت أبو عايد، أحسست أن دمة قاربت قلبه قبل أن تقارب جفنه.
- طأطأ رأسه ولوح لي بيده ومشى بعيدا، شعرت أن هموم الأرض تثقل كاهله مع كل خطوة يخطوها، ولم يخرجني من شعوري إلا صوت طائفة حربية حامت فوق الإيواء فارتجفت القلوب، كان أزيزها حفلة صاخبة معجونة بالخوف.
- وقف علي ومحمد إلى جانبي، قلت لهما:

- ألم تجوعا؟

- حين تذهب الطائرة سنأكل.

تفرق بعض الخائفين إلى غرفهم، وبقي آخرون، كان أبو عايد ينظر إلى تارة وإلى الطائرة تارة أخرى.

غادرت الطائرة الفضاء فتوقف الخوف.

عاد كل من علي ومحمد وقالوا:

- الآن سنأكل.

في زمن الخوف يصبح الطعام لحما ميتا، في زمن الخوف تتوقف الحياة لتطل أظافر سمكة تنهش الهدوء، في زمن الخوف تتوقف الأحلام والفرح والأمنيات، تتوقف الأشياء وتمضي إلى اللامعقول، في زمن الخوف يتوقف الماضي والحاضر ويموت المستقبل، عشنا زمن الهدوء وحان الآن زمن الخوف.

المخيم كان دعة وقطعة مخمل.

المخيم كان عطرا وقطعة جينز.

المخيم كان حبا حراما، المخيم كان ألبسة راقية ومنازل فخمة.

كانوا يتحدثون عن حق العودة وهم يجلسون في المقاهي الفخمة ويدخنون النارجيلة.

سقطنا في فلسطين حين هربنا، ألم يقل غسان كنفاني: كان الفرار موتا، وها نحن نهرب مرة أخرى لنموت.

هل كتب علينا الموت دون أن نموت.

حين يكون الموت بيدك تصمت وتفر وتنكفى، وحين يكون الموت بيد الآخرين تقاتل، قد تنصر وقد تنهزم.

لكن موتنا كان بأيدينا.

لهذا خرج الجميع من المخيم ذات صباح بارد من كانون الأول ٢٠١٢ في هجرة ثانية، في هروب آخر.

حين شاهدنا مسلسل التغريبة عن الهروب الأول كان الغضب
يجتاحنا، صرخنا ساعتها، لماذا خرجوا، لماذا لم يبقوا؟! فماذا سيقول
الجيل القادم عنا حين هربنا من المخيم؟!

لم نعد كلنا بشرا حين خرجنا.

الآن أستطيع القول إننا نتذكر فلسطين ككلمات وليس كوطن،
نتذكرها كبريستيج من أجل بعض الحفلات والتصفيق، نتذكرها في
قصة أو رواية، نتذكرها على الورق، نشد لها في المدارس ونصفق لها،
كان علينا أن نتحد في وجه هذه الهجمة كما اتحدنا في تصفيقنا.

كان علي ومحمد ينظران إليّ، وأخيرا انتبهت فقلت:

- ماذا تريان أن تأكلا؟

- شاورما.

خرجت رندة ووقفت بينهما، شعرت أن صورة لهما في هذا الوضع
يمكن أن تكون صورة تاريخية عن بؤس عائلتنا.

- سأحضر لكما شاورما ولكن لا تخرجا.

عند باب الإيواء وجدت عائلتين تحملان ما بقي لهما من أغراض
يتقدمهما شيخ مسن اقترب مني وسألني:

- ألا نجد مكانا هنا؟

- إذا لم تجد سأقاسمك غرفتي.

لاحظت دموعا خجولة تبلل لحية الشيخ المسن:

- لم أكن أريد الخروج من بيتي، لكن ولديّ قتلا، وهؤلاء
زوجتهما وأولادهما.

كان منصور مسئول الإيواء في نهاية الباحة، أشرت إليه فخف إليّ قائلاً:

- نعم أستاذ صبحي.

- دبر لهذا الشيخ مع عائلته مكانا وإلا سأقاسمه غرفتي.

- سأحاول رغم قلة الأمكنة، تفضلوا.

لحقت المرأتان والأولاد بمنصور، نظر إليَّ الشيخ نظرة شكر
واقترب مني واحتضنني، كان يريد أن يقول يقول شيئاً لكن الكلمات
اختنقت بسبب حزنه.

بعد الطعام ونحن نشرب الشاي جلست رندة إلى جانبي، نظرت
إليَّ ثم ابتسمت، ثم تحولت ابتسامتها إلى ضحك، وجدت نفسي
أضحك معها، كان ضحكاً هستيرياً لا معنى له.

نزلت دموعنا ونحن نضحك، ثم توقفنا فجأة، أغلقت الباب
بهدوء، وذهبنا إلى الفراش نسرق لحظة حب في عصر الكراهية.

في تلك الليلة انقطعت الكهرباء عن دمشق، بينما أضاءت القذائف
أمكنة مختلفة من المدينة، لم يغمض لنا جفن.

نهض كل من علي ومحمد بعد أن ناما بداية الليل على عزف
السيمفونية الحربية، كان الخوف يلمع في عيونهما، وكانت رندة تتمم
آيات قرآنية وهي ترتجف من الخوف.

عندما يصل الخوف إلى مداه لا أحد يسمع منك ولا تسمع من أحد.
حاولت أن أغضب، حاولت أن أصرخ، حاولت أن أحطم الأشياء
حولي، تمنيت الموت كي لا أرى الخوف في عيون أطفالي.
نمت دون أن أدري كيف نمت، أيقظتني رندة لأن أبا عايد في
انتظاري، كان مهموما ويائسا، قال:

- لم يغمض لي جفن.

- لا أدري كيف نمت.

- هنالك قصة بطولة حدثت في المخيم أول أمس.

تنبهت لأسمع.

- امرأة خرجت من المخيم المحاصر لتأتي بربطة خبز لأطفالها
الجائعين، عند عودتها أغلق الحاجز، نامت على الأرض، هاتفتها
ابنتها الكبرى: أن ابنتها الصغيرة مريضة وحرارتها مرتفعة،
وضعت المرأة ربطة الخبز تحت إبطها وقررت دخول المخيم
من جهة البساتين، من جهة الخطر، لم تبال بالرصاص حولها،

وحين وصلت بيتها شعرت بأنها انتصرت على هذه الحرب.
قلت:

- هذه المرأة أقوى منّا جميعاً.

من باب الإيواء دخل طفلان مع مسئول الإيواء منصور مغفرين
بالتراب مكللين بالتعب، ذهب أبو عايد ليسأل منصور عنهما ثم
عاد إليّ يقول:

- مات الأب والأم تحت ردم البيت وكأنا يلعبان في الخارج، لم يبق
لهما أحد.

كان في نيتي ضرب رأسي بالجدار، غصت في أعماق هذين الطفلين،
خلال لحظات وجدا نفسيهما دون أب أو أم، تلك اللحظات هي أكبر
من الزمن، من عصر آدم إلى نهاية الكون، شعرا بالصدمة والحزن
والفراغ والعدم، خليط من المشاعر عصفت بهما في لحظة لا تنسى، ثم
أفاقا على الحقيقة، وما كان قبلاً كان وهماً، الحزن الدافئ كان وهماً،
البيت الآمن كان وهماً، حنان الأبوين كان وهماً.
اختفى أبو عايد فجأة.

عدت إلى غرفتي، وجدت نفسي متعباً كالطفلين، أقبل الطفلان
عليّ وهما يضحكان، يدوران حولي ويضحكان، يغنيان أغاني سليمان
العيسى المدرسية للأطفال، غنيت معهما، وشفقت معهما، كنا نجلس
إلى جانب نهر مياهه صافية لكنها هادرة، قدّم لي الطفلان أشكالا من
الفواكه لم أعرفها، أكلت كثيراً وضحكت كثيراً وشفقت كثيراً.

كبر الطفلان في لحظات، شاب وصبيّة لم أر مثلهما، نزلا في مياه
النهر الهادرة الدافقة، كانا يتسلمان وهما يغرقان، وفجأة اختفى الماء
من النهر، نزلت إلى قاعه وغرقت في الوحل.

نهضت من غفوتي وأنا أرتجف من هذا الحلم، كان خوفي العام
يتهاهى مع خوفي الخاص؛ فما حدث للطفلين يمكن أن يحدث لولديّ
عليّ ومحمد.

نزلت دموعي على خدي وأنا أتذكر ابني سامر الذي غادر إلى ألمانيا قبل الحرب بقليل بعد قصة حب فاشلة، ترك دراسته وأصدقاءه وكتبه الجامعية وأسطواناته ودواوين محمود درويش وموسيقا زياد الرحباني، وفوق ذلك ترك غصّة في نفسي ونفس أمه.

اختلطت الأمور بين خوفي الخاص على سامر وخوفي العام من هذه الحرب اللعينة، مازلت أذكر حين صافحت يده الباردة ليلة غادر إلى تركيا، ومن هناك إلى اليونان حيث اشترى هوية بلغارية مزورة بعد أن أرسلت له حاجته من النقود وطار إلى فرنسا، ومن هناك ركب قطار الخوف إلى ألمانيا.

إنه هناك في الأمان، ورغم ذلك أخاف عليه مثلما يخاف هو عليّ من هذه الحرب.

أخرجت صورته وبدأت أنظر إلى تفاصيل وجهه؛ جبهة عريضة وعينان حزيتان، كنت أبكي وأنا أنظر إلى الصورة، سمعت شهقات خلفي كانت رندة تبكي بصمت، قالت:

- اشتقنا له.

- كثيرا.

كنا نهمس لبعضنا وكأننا ندفع الحزن والخوف عنا، امتلأنا حزنا على أحبّتنا الغائبين وامتلأنا خوفا عليهم، كانت الكلمات مليئة بأهات الماضي وقسوة المستقبل الآتي.

جاءتني رسالة على هاتفي المحمول وأنا بين اليقظة والحلم، قرأتها وكأنّ مطرقة نزلت فوق رأسي، كانت من ابنة أخي حنين التي تسكن درعا، تقول فيها، عمي صبحي كيف حالكم جميعا، هربت مع مجموعة من الناس إلى الأردن بعد أن رأينا الجحيم، أنا الآن في خيم الزعتري، طمّني عنكم.

أخبرت رندة ثم قلت:

- ماذا سأفعل؟

قرأت الرسالة مرات كثيرة، رأيت حين تبسم من خلال الكلمات.
خاطبتها:

- أنا أحن إليك فهل أنت كذلك؟

- لا أحب في هذه الدنيا إلا أنت.

- لَمْ لَمْ تَأْتِ إِلَى دِمَشْقِ؟

- كان الطريق مزروعاً بالألغام.

- لكنك ستأتين أخيرا.

- آه يا حنين! كأن المخيم صار فلسطين.

لم تجب، كانت تبكي في مخيم الزعتري.

في الخارج سمعت هرجا ومرجا، ثم جاء صوت أبي عايد:

- أستاذ صبحي، جاءت لجنة من المنظمات الفلسطينية لبحث مشكلة المخيم.

كان هنالك أربعة جلسوا خلف طاولة في غرفة المطبخ، تحدثوا عن مشكلة المخيم، وأن هناك شعور بالخرج من إخراج المسلحين بسبب وضع المخيم في المنظمات الدولية في الأمم المتحدة.

رفعت يدي وقلت:

- نستطيع إخراجهم بأقل الخسائر.

– کیف؟

سألني أحدهم:

- نستطيع أن نقوم بعمليات فدائية، أو نعطهم الأمان ليعودوا عن
غيهم، أو...؟

قاطعني رجل آخر من اللجنة:

- وما أدراك أننا لم نجرب ما قلت.

غلى الغضب فى عروقى وقلت:

- أتم دائما تجربون وتفشلون، وهذا ما أوصلنا إلى ما نحن فيه.

أخذ رجال اللجنة يصرخون، تركتهم وخرجت لأتنفس هواء نقيا
بدل الهواء الفاسد فى الداخل، كانت صبحية تقف أمام باب غرفتي،
ركضت نحوها وقلت:

- يوم جميل حين أراك.

طوقتني بيديها الرقيقتين.

سألت رندة:

- ماذا حدث فى الاجتماع؟

- اللجان مثل طبل فارغ.

كانت رائحة القهوة تأخذني إلى عوالم أخرى، ليس فيها لجان، ليس
فيها كلام فارغ، ليس فيها احتمالات متعددة لوجوه متعددة، كان لها
وجه واحد هو وجه الحقيقة التي تغذي الروح.

قالت صبحية، ومازال طعم القهوة يأخذني إلى عوالم أخرى:

- فى بيتي سأراك كل يوم.

- سيعود المخيم.

- لا أظن.

قالتها ببساطة، ثم أردفت:

- أسلم جورج بعد أن تزوجني، لم أطلب منه ذلك، أخذني معه
وذهب إلى شيخ الحارة ونطق بالشهادتين.

- هذا يعني أنه يحبك.

- ليس من أجلي فقط، بل من أجلكم، من أجل أن نعود أسرة
واحدة، كنت أحاول أن أقول لكم لكنكم لم تسمعوا!

- كم تعذبت!

- أريد أن نعيش تحت سقف واحد حتى أنسى سنين الفراق.

- سأزورك لأيام.

- هيا الآن.

- غدا.

- وعد؟

- وعد.

حين ذهبت كانت تقفز فرحا، ثم التفتت إليّ وقالت:

- سأنتظرك عند النافذة.

ظننت أنني عملت على نغم التوفيق النفسي بين ما أنا فيه وما كان، لكن الإحساس بالعدم طوّر تلك الحساسية النفسية إلى ما يشبه الموت. كنت أشعر أن ما حدث وما سيحدث لن يؤدي إلى الجنون، فالخوف العدمي وانتظار الموت يؤدي إلى عدم التماثل النفسي، يؤدي إلى الهذيان.

إننا أسرى لهذه اللحظة التي تقف ما بين الموت وما بين انتظاره، وهذا ما يدفع إلى عدم التوازن، بل يدفع إلى جنون قد يستمر لحظة وقد يستمر طويلا. إنه انعدام اللحظة.

يأتينا إحساس بهذا الانعدام، إحساس ليس له وجوه، قد يكون موتا وقد يكون حياة، وقد يكون ما بين الموت والحياة. أليس ما يفصلنا عن الحياة هو الموت، وما يفصلنا عن الموت هي الحياة.

سهرت مع صبيحة في بيتها الواسع الجميل المليء بأشجار الكباد والنارنج تتوسطه بحيرة رخامية صافية المياه إلى ساعات الصباح الأولى، تذكرنا طفولتنا الجميلة رغم فقرنا في ذلك الزمان، كان الضحك يخرج من قلوبنا الصغيرة النقية، فيشيع أجواء الحب في

منزلنا المكون من غرفتين وبئر ماء وثلاث شجرات أزد رخت.
كنا نتسابق أنا وأخي فاتح في قراءة القصص المصورة، سمير،
ميكي، سوبرمان، وغيرها، وكنا نبيع ما نقرأه لنشتري أعدادا جديدة.
سقطت الدموع من عيني صبحية وقالت:

- رحمة الله على أخي فاتح؛ كان مقبلا على الحياة، لكن الحياة
منعته من هذا الحق.

- كان يفحص الصراصير والذباب وأبا بريس، يحنطها ويفحص
تفاصيلها.

- لهذا دخل كلية العلوم وتفوق فيها.

- لكن الموت لم يمهلها، أخذ السرطان ينهش جسده الطويل
النحيل، وحين رأى الحزن على وجه أمي قال لها، أمي لا تحزني لو
مت؛ فقد قرأت كتباً بعدد شعر رأسي، وعرفت شوارع دمشق حارة
حارة، هذا ما أردته من الحياة يا أم صبحي.

- ومن يومها لم تعد تريه حزنها؛ كان حزنها يخرج معها حين تخرج
من غرفته.

للحقيقة لم تعد أمي بكامل عقلها ليلة وفاة فاتح؛ كانت تضحك
تارة وتبكي أخرى، قلت في نفسي: لقد جنت أمي، احتضنتها، بكت
على كتفي، بينما كان أبي يذرف دموعه بصمت.

بعد فاتح لم أعد أستطيع العيش في دمشق، كرهت الأمكنة التي
مشينا فيها أنا وأخي فاتح، دمشق التي أحببتها كرهتها، أحسست أن
بعضي قد دفن معه، أخبرت أمي أنني أريد السفر لأنسى، وسافرت
إلى السعودية لتدريس الأدب العربي، وكانت قرعتي في أقصى جنوب
الجزيرة العربية على الحدود اليمنية في مدينة نجران.

لم أكن من هواة الكتابة، ولكن بعد أخي فاتح كتبت رواية في
زمن قصير، وقدمتها إلى اتحاد الكتاب العرب فوافقوا عليه وطبعوها
ونلت عليها عضوية الاتحاد.

أليس من المدهش أن إحساسي بالإحباط جعل مني كاتباً؟! كانت صبيحة تستمع وتستمتع بالذكريات التي تعرفها والتي لا تعرفها، واعتذر جورج أخيراً قبل أن يدخل لينام حتى لا يستمع إلى ذكريات خاصة جداً.

رائحة الموت تفوح من ذكريات عائلتنا، لماذا مصير فاتح الدرامي ومصير بدرية التي جنت قبل أن تموت قبل زواجها بشهر واحد؟!

سكنت صبيحة دموعها وهي تردد اسم بدرية.

- بدرية، بدرية، لم أنسها أبداً، أتذكرها كل يوم، هي تعيش معي، تتنفس معي، تمشي معي، تأكل معي. كانت صديقتي في الطفولة، وها هي صديقتي في الموت والحياة، في كل يوم أصحو مع بدرية، أنام مع بدرية، أبكي وأضحك مع بدرية.

وتحسّر صوتها ثم عادت تقول:

- أتصدق يا أخي، أنا متّ مع بدرية حين ماتت.

ثم ابتسمت وقالت:

- جئنا لنفرح فأخذنا الحزن.

- أحزاننا صغيرة إلى جانب الحزن الكبير الذي نعيشه.

- للحزن إيجابيات، لولاه لما التقينا.

- لكل شيء وجهان.

- يا الله! كم اشتقت لكلامك! بدرية لم تفارقني بوجهها البريء، وأنت لم تفارقني بأفكارك.

- لكن أفكار فاتح كانت أنضج.

- لكل نكهته، أنت أفكارك عميقة وساخرة، أما هو فأفكاره عميقة وجادة.

- لو عاش لكان شيئاً مهماً.

- حين مات أخذ قطعة من روحي .

طلع الفجر ونحن نراجع ماضيها، أذن الفجر فخرج جورج من غرفته، توضأ وصلى .

بعد أن انتهى نظر إليّ وقال:

- الأديان كلها من منبع واحد .

غطتني صبحية وكأنني طفل صغير وقبلتني قائلة:

- تصبح على خير .

كان الحلم جميلاً، بستان وورود وأشجار مثمرة، وصبايا يمشين بين الأشجار، يتحادثن ويتسمنن، كانت موسيقا الطبيعة تلف المكان، شعرت أن وراء هذا الربيع وهذا الهدوء مشكلة كبيرة، وسألت نفسي: لم هذا الشعور؟!

ابتعدت عن البستان حين انتابني هذا الشعور، وحين فتحت عينيّ كانت صبحية تقدم لي مع ابتسامتها فنجان القهوة الصباحي . كانت ذكريات الأمس ثقيلة على نفسي، استغربت رندة تجهمي وشرودي، أحببتها بشكل غير مباشر حين قلت لصبحية على مائدة الإفطار:

- ذكريات عائلتنا أعادت أحزاننا .

هزت صبحية رأسها، كان وجهها شاحباً، فانتفت نظرة الاستغراب من وجه رندة .

وضعت صبحية أمام علي ومحمد الأطعمة التي يجبانها، وقالت بسعادة:

- هذا أشهى فطور أتناوله في حياتي .

قلت مداعباً:

- هذا يسيء إلى جورج .

- ابتسم جورج وقال:
- أنا أضم صوتي إلى صوت صبحية.
- نظرت صبحية بانتصار وقالت:
- لن تستطيع أيها الأديب دق إسفين بيننا.
- ضحكت ملياً:
- أديب، ما زلت هاوياً.
- أنت أديب مهم، لكنك لم تنل حظك بعد، حتى الأدب في عالمنا قبائلي ومنحاز.
- ثم سألت:
- أخبرني، ماذا حدث لمكتبتك الكبيرة؟
- تركتها تحرس البيت، وأنا أتألم يوماً حين أنهض من نومي ولا أجد كتبي تنتظرنني.
- تتحدث عن كتبك وكأنهم بشر.
- بل أهم، انظري حولك البشر يقتلون بعضهم أما الكتب...
- أليس هناك كتب أسوأ من البشر بأفكارها المدسوسة؟
- لكنها أفضل من إنسان ينهي حياة إنسان آخر.
- تذكرت كتبي وغياب المعارك يعلوها أو تمزقت بفعل صاروخ أو سرقت أو تدفأ عليها جاهل يبغي الدفء.
- صبحية، أنا خائف على كتبي.
- لا أتصورك بدون كتاب في يدك.
- حين أرى كتبي كأنني أرى أبنائي وأخوتي الأحياء منهم والأموات، سأذهب ذات يوم لأطمئن عليها.
- لا تفعل، أخاف عليك.

- نحن نعيش الخوف في كل ساعة.
- أخذنا نسمع انفجار صواريخ وإطلاق رصاص وحرث الطائرات السماء بهديرها المرعب.
- ألم أقل لك، نحن نعيش الخوف، هذا هو زمن الخوف.
- جاء علي ومحمد يرتجفان، وأخذت رندة تدمدم آيات قرآنية.
- قالت صبحية بيأس:
- ماذا سنفعل؟
- نحن لانفعل، الذين يقتلون هم الذين يفعلون.
- أخشى أن أفقد أحدا، يكفي ما فقدناه.
- والذين يفقدون أحبهم في هذه الحرب العنيفة، أليسوا بشرا؟!
- قلبي يتقطع عليهم.
- أتمنى أن أنام ثم أصحو وقد عاد الهدوء إلى دمشق.
- الأمنيات شيء والواقع شيء آخر.
- فتح جورج التلفاز، أخبرنا المذيع عن اشتباكات تجري في الحجر الأسود وفي حجارة وفي السيدة زينب وفي الرقة وفي إدلب وفي درعا، في كل مكان.
- ما ذنب الناس؟
- إنهم ساديون؛ يقتلون من أجل القتل.
- نهضت دون وعي، استغربوا وقوفي، قلت باستحياء:
- حين أغضب أنهض، عادة جديدة أورتني إياها الحرب.
- قال جورج:
- حين خرجت لأشتري الفطور، كان هناك على الجدران إعلانات عن استهداف المسيحيين.

- أخشى عليها من هذه الحرب.

- سيحفظها الله.

كانت رندة تستمع دون تعليق، رأيت في عينيها ضوءاً من الحب لم أره من قبل، وأخيراً قالت:

- في كل يوم أكتشف فيك إنساناً آخر.

نظرت إليها مستفهماً فأضافت:

- أنت الآن خليط من الحب والخوف والعواطف والذكريات.

قالت صبحية:

- هذا هو أخي.

- قبل التقاعد أم بعده.

- ما زلت شاباً.

لم تكن تلك الذكريات لتزيد من سعادتي، بل لم تكن تعطيني قدراً من الألم الذي عشته من قبل، منطقة وسطى ما بين السعادة والألم، أحسها تسري في عروقي وكأنها تلازمي بقية حياتي.

كنت أدرك أن تلك الذكريات تفتح معها أبواباً كثيرة من الشوق والسعادة والألم والهموم، لكنها خلطة لازمة لكي أعيش.

حتى لو لم أذكرها مع صبحية أو رندة فهي تتردد في داخلي كأنها خفايا الروح.

حاولت نسيانها ذات مرة فهجم عليّ إحساس مرعب؛ خليط من الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير، مع قسوة الحاضر.

سألني رندة:

- مذعدت من عند صبحية وأنت شارد.

- صبحية نبشت ذكرياتي بعد أن غطاها غبار الحرب.

مجموعة من الأطفال قدموا الإيواء دون أهلهم، بكوا في باحة الإيواء، بكى الجميع معهم، كان بكاءؤهم نشيجا مستمرا، علا في الفضاء، حزنيت له القلوب، وتوقفت العقول، وبات الجميع في ذهول اللحظة، وكأنَّ يومًا موعودًا قد حل.

كان البكاء احتفال جنائزي لمشاعر انفجرت في لحظة كالفاصل بين حياة وحياة، بين ما كان وما سيكون.

كيف نأتي بأب قد فقد أو أم ماتت تحت الركाम، أو أخ كان يقاسم أخاه لعبته؟!

هنا يبدو الحزن الدافق في البكاء لحظة الفقد، بل لحظة مواجهة الحياة دون رفيق، أو حنون أو سمير، هاهنا يتميز هذا البكاء عن البكاء العادي؛ لأنه ينبع من أعماق الروح.

ولم أجد نفسي إلا وقد انضم بكائي إلى جانب بكائهم، ومن خلال غباش دموعي رأيت أختي جليلة تدخل الإيواء مع بناتها الثلاث، خافضة الرأس، يائسة.

حادثها منصور مسئول الإيواء، وعادت بعدها نحو باب الإيواء بانكسار. خطوات قليلة انفلشت فيها ذكرياتي معها، حين مات أبي طلبت أخذ حصتها من البيت، الذي بنيت به بعد سفري إلى السعودية، وأعطيتها شيئا لاحق لها فيه، كانت قد آثرت المال على الأخوة، وفترت العلاقة بيني وبينها؛ لم يعد بيني وبينها زيارات أو مجاملات. وخلال فترات كنت أزورها، لكن استقبلها البارد دفعني إلى عدم زيارتها مع الزمن.

وبدون تفكير نزلت الدرج ووقفت أمام جليلة وجها لوجه، دهشتها عقلت لسانها، لكنني ابتسمت وقلت:

- تعالي، سأقاسمك غرفتي.

لم تتكلم، في نظرتها خليط من القسوة وتأنيب الضمير وإقدام وإحجام.

وأخيرا نطقت:

- أنت هنا؟!

كانت جملتها تدل على دهشة من أفكار ماضية، كانت قد حشتها في ذهنها عن وضعي المادي، إذ كانت تقول: صبحي عظمه ذهب.

جاء مسئول الإيواء فقلت له:

- هذه أختي ستنزل في غرفتي، بعد قليل سأوافيك بهويتها.

- كما تريد.

وذهب.

تسمرت جليلة في مكانها بينما بناتها يقبلنني فرحات، وأخيرا سألت:

- كيف هي رنده؟

- بخير، إنها في الداخل.

لم أر جليلة خجولة كما رأيتها اليوم، كادت تتعثر أكثر من مرة وهي تصعد الدرج، استقبلتها رنده بحفاوتها المعتادة، ثم أخذت تعد الطعام.

- لم ألم تخرجي معنا؟

انفجرت باكية:

- بيتي صار على الأرض، أمضيت حياتي وأنا أبنيه حجرا فوق حجر.

- المهم أنك بخير.

كنت ضائعا بين مشاعر شتى، فالزمن البارد بيني وبينها يضرب ستارا من حديد، حاولت تمزيقه وإبداء أقصى حالات الاهتمام، لكنها كانت تضع ستائر حديد أخرى، بنظراتها الفاحصة الصامتة التي تلسع دون أن تتكلم.

هي بالقرب مني، لكنها مازالت بعيدة عني، باعطني بالمال فلم يعد بمقدورها شرائي.

تساءلت: ألا يمكن أن تنفجر أحاسيسنا حربا أخرى؟!

كانت رندة تلاحق ما أحس به خوفا مما سيحدث، وأخيرا انفجرت جليلة قائلة:

- صبحي أنت تكرهني منذ أخذت حصتي من ميراث أبي.

- أنا نسيت الأمر.

- لم تنسه، أنا أعرفك.

- انظري حولك، الكره في كل مكان، أما أنا فلم أعد أكره أحدا.

صمتت جليلة، لم تقتنع بكلامي، حاولت تغيير الحديث:

- زارتنى صبحية وزرتها.

قفزت وكأن حية لسعتها:

- أخيرا وضعت يدك بيد هذا المسيحي النجس.

- هو مسيحي، لكنه ليس نجسا، انظري حولك إنهم يقتلون

باسم الإسلام، فهل هم مسلمون؟!

- سأظل على موقعي منه.

- أنت حرة.

- صرت مخطئة.

- قلت أنت حرة.

وبقيت صامتة بقية الليل، حدثتها عن حنين وهروبها إلى خيم

الزعتري، ثم زمت شفيتها وتمتت:

- تركتها أمها وتزوجت، نساء آخر زمن.

نهضت متأخرا على صوت رندة وهي تقول:

- صبحي، أختك جلييلة ليست هنا.
أدركت أن جلييلة مازالت تحمل كرها دفيناً، أحسست بالبؤس والقهر، صرخت:

- ألم تتعلم مما يحدث حولنا؟! أم أنها تعيش في عالم آخر؟!
أمسكت يديّ وكنت أحركهما بعصية:

- هديّ نفسك.
ثم أضافت:

- هل ضميرك مرتاح تجاهها؟
- مرتاح جداً.
- إذن، انس.
سقطت دموعي فجأة:

- لكنها أختي، أختي الذي أكل الحقد قلبها مثل أولئك الذين يقتلون بعضهم حولنا.

في تلك الليلة انهمرت القذائف حول الإيواء كال مطر، رأيت نفسي مارداً يمسك بالقذيفة ويردها من حيث أتت.

نسيت خوفاً وضعفياً، نسيت دموعي، كنت أفكر في علي ومحمد، خفت على خوفهما، حزنت على حزنهما، بكيت على بكائهما، لم أستطع تحمل تلك الحالة، خرجت، كان الفجر يفتح نهاره على دم جديد وبارود جديد، وموت جديد.

طوال حياتي وأنا أعيش بالأمل، لكن الأمل الآن طريق مسدود بالبارود والدم والحقد والموت.

جاء أبو عايد وقال يائساً:

- يقولون إنَّ الإيواءات ستقصف كلها.

تصورت القصف طال علي ومحمد، وهما الآن جثتان هامدتان،
حينها يعلم الله ماذا سيحدث.

تقصيت عن الخبر فلم أصل إلى نتيجة.

سألني رنده:

- صبحي، ما بك؟

- أفكر في الرحيل.

- أين؟

- إلى لبنان عند ابن خالتي محمود في عين الحلوة.

لم أتم جملتي حتى وقعت قذيفة هاون وسط الإيواء، تمزقت
الأجساد في الباحة، وصارت الفوضى سيدة الموقف، حملت ولديَّ إلى
الداخل كي لا يروا الأجساد الهامدة والدماء المسالة.

دخلت رنده والدم يملأ وجهها، قفلت باب الغرفة وأمسكت
بيد رنده، صعدت سيارة الإسعاف المتوقفة أمام الإيواء، كان خدها
مجروحاً، قالت الممرضة:

- شظية سطحية.

ارتاحت أعماقي المضطربة، نظرت إلى الخد النازف الذي كان يرقد على
صدري بحنان، هم يريدون قتل الحنان، يريدون قتل كل ما هو جميل.
حين عدنا كان كل من علي ومحمد يتوقعان في زاوية الغرفة، وقد
أطل الخوف من عيونهما.

وقفت أمام الباب أتففس كي لا أختنق، جاء أبو عايد وأخبرني أن
هناك اجتماعاً مع منصور مسئول الإيواء، حيث حذرنا من التجمع
في باحة الإيواء، تجنباً للقذائف.

قلت لذاتي:

- صرنا كالجرذان.

وتعبت وأنا أتكى برأسي على الجدار قبل أن أغفو.

قال علي:

- أنا فرحان يا أبي.

وقال محمد:

- بل أنا أسعد منه.

سألتهما:

- لماذا كل هذه السعادة؟

- لأننا في السماء.

نهضت منزعجا، كنت في زمن مضى أتمهل الأمور، أحاكمها،
أترؤى، والآن أصبحت متعجلا، مضطربا، تغلب عليّ اللاعقلانية،
صارت حياتي عبئا على حياتي، تصورت أنني سأصل إلى اللامعقول
إن عاجلا أو آجلا.

كان في داخلي بناء عظيم من القيم، صرت أفقدها واحدة واحدة،
حين أرتجف أو أخاف أو أصمت أو أتكلم.

ثم وصلت إلى قناعة أنني لم أعد أحب الحياة؛ لأن قدراتي على
المحاكمة تراجع، فلم أعد أسمع الهمس؛ لأن الانفجارات عطلت
الهمس الراقى، وسحبت الهواء من الهدوء الرومانسي.

آهٍ مما أنا فيه.

وآهٍ مما نحن فيه.

هرول أبو عايد بينما كنت أجلس على الدرج وقال بحزن:

- يقولون إنَّ حارتنا قصفت.

قلت بهدوء:

- البيوت تموت أيضا.

قتلوا بيتي، لم يكن مجرد حجارة وأخشاب، إنه من لحمي ودمي،
لقد أسالوا دمه كما أسالوا دماء الناس، أزهقوا روحه كما أزهقوا
أرواح الناس.

قتلوا ذكرياتي فيه، قتلوا دفئي وحبي وهدوئي، قتلوا نومي
وصحوي، قتلوا جنوني وهدوئي.

سقطت دموعي بصمت، أدار أبو عايد وجهه، كان يبكي.

قال:

- أرجو أن يكون الخبر كاذبا.

- حين نترك البيت يموت في داخلنا.

من أعطاهم الحق في قتل أحلامي، في البيت كبر أولادي، حين
نجتمع على مائدة الغداء أو العشاء تبادل الابتسامات والكلمات، وفي
الأمسيات نجلس في الشرفة نحتسي الشاي أو القهوة، نتحدث عن
المستقبل، لم نكن نعرف أن أحلامنا يتربص بها الرصاص والدمار.

لماذا تموت البيوت قبل أصحابها؟!

في تلك الليلة عدت إلى البيت، تسامرت مع أولادي، مشيت فيه
من غرفة إلى أخرى، أخذت أتأمله وكأنني أودعه.

سألني عدنان:

- ما بك يا أبي؟

وقال سامر:

- بابا، دعنا نتحدث عن زياد الرحباني وفيروز وشعر محمود
درويش.

تحدثنا حتى الصباح، كان قلبي يرف كحمامة بيضاء.

قلت:

- أخشى أن أفقد البيت.

قال عدنان:

- بنيت هذا البيت منذ أربعين عاما، وسيبقى.

- أتظن ذلك يا عدنان؟!

كان صوت فيروز يسبح في الفضاء: يا شام عاد الصيف مبتردا،
سبحت مع صوتها، مع النجوم والقمر والليل والنسمات الطرية،
لكن الخوف لم يغادرني.

وغادر عدنان إلى أوكرانيا بلد الصقيع والثلج، وغادر سامر إلى
ألمانيا بلد بسمارك، وغادرت بدور إلى السعودية، وغادر كل من فاتح
وبدرية إلى القبر.

وبقيت أنا، مع ذكرياتي وكتبي وصوت فيروز ونسمات الشام،
كنت قانعا بما بقي لدي؛ لأن القدر أكد لي هذه الحقيقة.

كنت أكتب القصص والروايات تنفيسا عما يعمل في داخلي، وكان
بيتي هو الحزن الدافئ الذي ألجأ إليه حين يعمل في داخلي حزن
أو هم.

كنت أتخاور مع نفسي أحيانا، هذا المخيم ولد من العدم، فهل
نعود إلى فلسطين يوما ونترك ذكريات عمرنا في هذا المكان، أم أنه
رحلتنا الأخيرة.

كان إحساسي يقول إنَّ بنية المخيم الرخوة ستنتهار يوما، لكنني
كنت أجم هذا الإحساس، لأحافظ على نمط حياتي التي اعتدت
عليها.

كان الذين لا أعرفهم يهثون لهجرتنا الثانية، كأننا جئنا من عالم
أبله وسنذهب إلى عالم أكثر بلاهة.

قال أبو عايد:

- جاءت سيارة كراتين الإعانات.

وقفت أنظر إلى الجموع التي تجمهرت حول السيارة، وكانت رندة
تنظر من الأعلى، هناك كنت أوزع الجوائز على الطلاب المتفوقين،
وها نحن نتلقى في عين المكان نتلقى الطعام كالمشردين.

صعدت يائسا، وقفت رندة أمامي وقالت:

- ذلك زمن وهذا زمن.

ثم قرصت إلى جانبي وقالت:
- أنا آسفة.

أخذت أتنفس بصعوبة، وكأنَّ الهواء اختفى، الأشياء امامي غائمة،
أمسكت بي يد رقيقة، سمعت صوتاً آتياً من بعيد:

- صبحي ما بك؟

لم أعد أرى شيئاً ولم أعد أسمع شيئاً، نزلت إلى واد عميق مظلم
لا قرار له، في الوادي أشواك وحجارة ونباتات شوكية تنمو للتو
وتموت للتو.

سألت نفسي، أين أنا، أجانبي صوت ليس كالأصوات البشرية؛
عميق، ضخم، متطاوّل الأبعاد:

- أنت في وادي الأموات.

- أنا ميت.

- لم تمت ولكن على وشك الموت.

كانت صبحية ورندة تناديان من أعلى الوادي، كنت أنظر إليهما
بلا مبالاة، كنت أريد قول شيء لكن الكلام لم يخرج من فمي.

شيء ما يشدني إلى تحت ونداء رنّدة وصبحية يشدني إلى فوق.

كنت بلا إرادة وكأنني في ساحة حرب أنتظر مصيري، وفجأة لم
أعد أراهما ولم أعد أسمعهما، غرقت في سبات عميق، ليس كالنوم،
رأيت أبي وأمي، وجدتي القابلة القانونية وهي تطعمني التين حين
أزورها في بلدة التل.

رأيت بدرية وفتاح يتسلمان، رأيت الأموات الذين أعرفهم والذين
لا أعرفهم.

حين فتحت عينيّ كانت صبحية ورنّدة تبكيان، سألت:

- لم البكاء؟!، هل حدث مكروه لعلي ومحمد؟

- إنها نائمان وخير، لكن أنت...

- أنا رأيت الأموات.

- الحمد لله، حمى خفيفة.

أمسكت يدي رندة ونظرت في عينيها:

- هاأنا عدت.

لم تكن المشاحنات بيننا عائقا في التعلق بها، أو التفكير بالانفصال عنها، كانت شخصا لازمالي، ليس كزوج، بل كعامل أمان في هذه الحياة.

كانت تعبر لي أحيانا عن مدى كرهها لي، بسبب عصبيتي ومزاجي السيء، لم أكن أصدقها، بل لم تكن تعني ما تقول.

يرادوني إحساس أنها قد نبتت من داخلي، أرتاح لوجودها حتى في أشد حالات الخصومة.

كثيرا ما أحاول أن أتأسف فأجدها تصمت أو تبكي، لحظتُ ذلك، أريد الانطلاق بها نحو عالم لا خصومة فيه ولا حزن.

رندة سريعة الغضب لكنها سريعة العفو.

قلت لها مرة:

- أتكرهيني؟

- أنا لا أحب غيرك.

كنت أريد سماع ماكنت أعرفه.

عادت صبيحة إلى بيتها بعد أن اطمأنت على صحتي، في ذلك المساء قدمت لي رندة طبقا من شرائح اللحم، قلت:

- تقديم لي ما أحبه، أنا ماذا قدمت لك؟!

- قدمت لي كل ما تتمناه المرأة.

استمتعت بشرائح اللحم، ثم قلت لرندة:

- وصلت حافة الموت.

- سأموت قبلك.

تبدأ خيوط الحب من لحظة الحزن، ثم تنسج تلك الخيوط بخيوط غير مرئية، خيوط سماوية، روحانية، تتغلغل في النفس، لتعطي ضوءاً مبهرًا من الراحة.

اقتربت من رندة، نظرت في عينيها العسليتين، همست:
- كأننا ليلة عرسنا.

ابتسمت خجلى، أمسكتها من يدها ونهضنا نحو فراش المتعة، ولم نكد ننتهي حتى بدأ عزف القذائف من كل صنف ولون.

كان الإيواء يهتز بفعل القذائف، نهض علي ومحمد من النوم وهما يصرخان، أردت الاغتسال سريعاً حتى لا أموت جنباً، اشتد القصف قبل أن أضع نقطة ماء فوق جسدي، الصبيان يصرخان ورندة تحاول التخفيف عنهما، انتهيت سريعاً، أسرعت رندة نحو الحمام، احتضنت علياً ومحمداً فأحسست بالدفء.

قلت لهما:

- لم الخوف؟! نحن بخير.

لم أكد أنهى كلامي حتى دخل غبار ودخان كثيف الغرفة، كأن الانفجار وقع في وسط الغرفة، خرجت رندة بنصف ملابسها، لم أكن أدري ما أفعل، أنا خائف والصبيان خائفان ورندة خائفة.

كنت أسمع صراخ الخائفين في الإيواء، أسمع ركضهم، أسمع تنفسهم السريع، أسمع استغاثتهم، أسمع وجعهم وانكسارهم وقلة حيلتهم.

صرخت بلا وعي:

- كفى، كفى.

لم تسمع القذائف لأنها بلا آذان، ولم ترأف لأنها بلا قلوب، ولم تر لأنها بلا عيون.

من الإجحاف أن تحس أنك بلا حول ولا قوة، نحن بشر خلقنا
الله من أجل أن نقرر حياتنا، لكننا اليوم يقرر الآخرون مصير حياتنا
وموتنا، لم يستشيرونا، فقد قرروا ونفذوا، صرنا أرقاماً للموت
والعذاب والآلام.

قلت لرنة:

- سنرحل من هنا.

حلمت بالعودة لفلسطين، إلى مدينتي يافا حيث عاش أبي وأجدادي،
ولكن هجرني الآن من مخيم إلى آخر، إلى مخيم عين الحلوة في صيدا،
هل كنت تصدقين أن نهاجر من مخيم إلى آخر؟!

وبكيت كالنساء، غمرتني رنة بيديها الرقيقتين وبكت معي،
نظرت إلى علي ومحمد وقلت:

- من أجل هذين سأرحل.

لبست بسرعة وقلت:

- سأذهب إلى عين كرش لأقدم تصريحاً إلى لبنان.

- والقذائف في الخارج.

- أنا واثق أنني لن أموت.

بعد أن قدمت تصرّيحاً للذهاب إلى لبنان، وجدت نفسي في باب
توما، حيث صبحية الحنون، فرحت بي وكأنها لم ترني منذ مدة طويلة.

قلت دون مواربة:

- سأذهب إلى لبنان.

- وأنا، سأبقى وحيدة.

- زوجك، ألا يكفي؟!

- بعد سنوات الجفاء تريد أن تتركني.

- لم أعد أتحمل خوف علي ومحمد.

انهارت صبحية على الأرض من الألم، قلت:

- لن أذهب بدونك، فهل يقبل جورج؟!

- سيقبل، المهم أن نكون معا.

- في المساء حين يأتي جورج ستتحدث بالهاتف.

قالت رندة وهي تضع الغداء:

- إذا تركت صبحية ستموت على فراقك.

- أرجو أن يوافق جورج.

- سيوافق، صبحية عنده أغلى من كل شيء!

كان علي ومحمد يتحدثان عن السفر بفرحة غامرة، كان الألم يعتصر

قلبي لأنني سأترك دمشق الحنون التي عشت فيها وتعلمت فيها وحلمت فيها.

في المساء هاتفتني صبيحة، عرفت من كلماتها التي كادت تطير من الفرح أن جورج قد وافق، تحدث جورج معي وأخبرني أنه فكر بإرسال صبيحة إلى إحدى الدول المجاورة لأنه يخاف عليها.
سألته:

- وأنت؟!

- لا يمكن أن أترك عملي، ولكن سأزوركم بين الحين والآخر.

لم نزم تلك الليلة بسبب أصوات القذائف وسيارات الإسعاف المولولة، نهضت باكرا، كان جورج ينتظرنني بسيارته مع صبيحة، ليوصلنا إلى كراج السومرية.

كان أبو عايد قد نهض باكرا وجلس أمام بابه، نظر إليّ بحزن وقال:
- ستركنا يا أستاذ.

- سأعود يا أبا عايد.

- من يترك مكانه لا يعود.

حين احتضنته كان جسده يهتز كذبيحة خرجت روحها، سارت السيارة مبتعدة عن الإيواء، عن المدرسة التي عملت فيه سنوات كمدير، كانت المسافة إلى السومرية أشبه برحلة طويلة عبر الصحراء. أخذت أتملّئ شوارع دمشق، حاولت البكاء لكن دموعي جفت، هنا رأيت محمود درويش وهو ينشد لدمشق، وهنا سمعت فيروز في معرض دمشق الدولي على أنغام ماء بردى، وهنا فرحت حين نلت شهادة الماجستير، وهنا تألمت على عذاب ابني سامر، وهنا رأيت أولادي يكبرون.

دمشق كانت حاضرة في جميع تفاصيل حياتي، وأنا كنت حاضرا في جميع أماكنها، لا أنسى سهراتي الصيفية مع أصدقائي، نتحدث

بالسياسة والفن، نشرب الشاي والقهوة ونأكل الفواكه الدمشقية
والفستق الحلبي، كان زمانا جميلا قد مضى.

صحوت على شخص يطرق نافذة السيارة قائلا:

- أستاذ، صيدا؟!

هزرت رأسي إيجابا، ونزلت، ودّعت صبيحة جورج بالدموع،
وودعته بنظرة أسف على ما بدر مني، اهتزت الجبال المحيطة
بالسومرية بأصوات الصواريخ وكأنها تودع خوفنا.

قبل أن أركب السيارة تنفست عطر دمشق، تنفست هواءها، كأنّ
سكيننا تقطع جسدي، أخذت زخات خفية من المطر تسقط حاولت
أن أغسل وجهي، نظرت إلى السماء لأبحث عن الشمس كانت مخفية
خلف غيوم سود.

ودعنا جورج بيديه وبدموعه، كانت رحلة عسيرة توقفنا مرات
عدة على الحدود بسبب ازدحام النازحين إلى لبنان، وبعد ساعات
عدة من المראה والبرد ختمت وثائقنا وكأننا خرجنا من نفق.

للمرة الأولى لم نسمع أزيز الرصاص ولا صفير القذائف ولا صراخ
سيارات الإسعاف، أحسست بفرحة لكنها ما لبثت أن انطفأت
كفقاعة الصابون لأنني ابتعدت عن دمشق.

همست صبيحة:

- ألا تفكر بكتابة ما يحدث لنا ولغيرنا؟!

- ما أحس به غيلان بركان من الغضب.

وصلنا منتصف الليل عند ابن خالتي محمود في خيم عين الحلوة،
بعد أن حصلنا على تصريح بالدخول، كنا متعبين حتى النهاية، قدم
لنا محمود عشاء خفيفا ورحب بنا كثيرا، بدا البيت صغيرا، أولاد
محمود ينامون في زاوية الغرفة، وامراته حليلة قدمت لنا ما تستطيع،
كان السقف من الزنك.

قال لي محمود:

- لا تؤاخذنا؛ بيتنا متواضع.

- لكن قلوبكم رحبة.

في الصباح استقبلتني الزواريب الضيقة لمخيم عين الحلوة،
وأصوات الرصاص بين الفينة والأخرى.

قلت لمحمود الذي كان يعرفني على الشارعين الفوقاني والتحتاني:

- هربنا من تحت الدلف لتحت المزراب.

ضحك عن أسنان صدئة مكسرة:

- هكذا هم، منظمات فلسطينية وإسلاميون ودولة لا تعرف أنت
مع من ولا من ضد من.

- هذه أحجية سياسية.

لم يعلق، بل أشار إلى الصور الكبيرة والصغيرة المعلقة على أبواب
مفارز أمنية أبو عمار و خليل الوزير وآخرون وآخرون.

أفرزت الرطوبة عرقا في جسدي النحيل، نظرت إلى يميني فرأيت
البحر بصفحته اللامعة الهادئة.

- هل تعلمت السباحة؟

ضحك قائلا:

- وهل عندي وقت للسباحة؟!

اشترينا بعض الطعام وبعض الأشياء البسيطة، دفعنا مبلغا مذهلا.

- كيف تعيشون في ظل هذا الغلاء الفاحش؟

- ليس باليد حيلة.

رأيت الملتحين ذوي الأثواب القصيرة ورأيت الأعلام السوداء،
وعلم فلسطين أمام مقرات يجرسها أشخاص يحملون رشاشات.

- مم يخافون؟

- الجميع هنا يخاف من الجميع، هنا المخيم على كف عفريت،
تراه هادئاً ثم يشتعل فجأة كعود من الثقاب، هنا يا أستاذ صبحي
الناس لا تبالٍ بالرصاص ولا بالقذائف، تعودوا، عودتنا إسرائيل على
القصف والموت، وصرنا نحن نتقن هذه اللعبة.

- لعبة الحرب؟!

- نعم.

حين عدنا اقترحت صبحية أن نبحث عن بيت، قلت لها:

- كنت أفكر في هذا.

ثم أخذت رزمة من النقود ووضعتها في جيبِي، قلت لها:

- أعيدي نقودك.

- نحن الآن عائلة واحدة، لا فرق.

اقترح عليّ محمود أن أسكن في أحد الإيواءات للنازحين السوريين،
فقلت محتداً:

- انتفخ قلبي من الإيواءات، أريد بيتاً أفتح بابه صباحاً وأغلقه
ليلاً.

بحثنا يوماً كاملاً إلى أن وجدنا بيتاً غير صالح للسكن بهائتي
دولار، نظرت بدهشة:

- دولار، هل هي عملتكم؟

- هنا يا أستاذ لا يتعاملون إلا بالدولار.

واجهتنا مشاكل عديدة، منها قذارة الزواريب وغلاء المعيشة، في
البداية امتنعت عن التسجيل في الجمعيات الإنسانية المنتشرة في المخيم
لمساعدة اللاجئين، لكنني رضخت للأمر أخيراً.

كنت أضحك على نفسي أو أخجل وأنا أقف مع المهجرين
لأحصل على كرتونة مواد غذائية.

أحسست بضياح وقهر وألم، أحسست بانكسار نفسي، لكن الواقع كان أقوى من كل تلك الأحاسيس الإنسانية، كان الموت أهون عليّ من جميع تلك الأحاسيس.

عرفت رنّدة ما يجول في خاطري، فقالت حين خلونا:

- هذا حقنا، الحرب ساوت بين الغني والفقير.

من إيجابيات هذه الحرب أنّ الجميع باتوا بحاجة إلى مساعدة، لم يعد هناك طبقات، الطبيب يقف معي للحصول على كرتونة مواد غذائية، وكذلك المهندس، وصاحب المصلحة العقارية، وبائعو المازوت، والبناءؤون والطلبة وغيرهم وغيرهم.

هل هذه إيجابية أم مسخ لجهود الإنسان؟! لكن هذه الجمعيات الإنسانية تحسست الوجع المادي للمهجري الحرب، لكنها لم تتحسس الوجع النفسي، لم أنم تلك الليلة الفاصلة ما بين افتخار الإنسان بمقدرته وعمله وما بين عجزه وفشله وذلكه.

ماذا بقي من الإنسان؟! ذكرياته ديست بالأقدام، أحبابه تفرقوا، وبات مهموما ذليلاً.

اقتربت صبحية وهي تحمل فنجان قهوة وقالت:

- صبحي، لم تكن مهموما هكذا في الشام.

كانت عيناى مليّتين بالدموع، أضافت:

- ليس بيدنا شيء نفعله أمام جنون هذه الحرب.

ثم أجهشت بالبكاء، ومن داخل الغرفة سمعت صوت بكاء رنّدة.

دخل علي ومحمد وهما يضحكان، أخبراني أنّ مجنونا في أحد الزوارب يحمل رجل دجاجة، ويسير مثل الدجاجة، ويقلّد صوتها. سألت:

- لماذا جنّ؟

قال علي:

- قالوا لنا إنَّ رصاصة دخلت رأسه وما زالت فيه إلى الآن.

حياتنا دوما رصاص وموت وجنون.

وجدت نفسي أسير في زوارب عين الحلوة، أرى البيوت المتلاصقة وكأنها تخاف من المجهول، تخاف من الرصاص والدم، تخاف من أولئك الذين ينظرون إليك بابتسامة بلهاء ويدهم على الزناد.

سرت خلف شاب يشبه ابني سامر، قلبي مكسور لأنني لم أراه منذ ثلاث سنوات، غادر إلى ألمانيا بعد قصة حب فاشلة وترك غصة في روحي.

لم أقدر أن أثنيه عما عزم عليه، خشيت عليه من الجنون أو الانتحار.

- انسها يا بني، ستجد حبا آخر.

لم يقتنع، وغادر تهريبا إلى ألمانيا عن طريق تركيا واليونان، مازالت يده الباردة، وهو يودعني، ألمسها كل ليلة، دموعي تبلل الوسادة، تلك اللحظة تعاد آلاف المرات، واليد الباردة تلمس أعماق روحي. سامر بذهابك كسرت ظهري.

وجاءت الحرب بعثيتها وجنونها ودخانها، ولم أنس تلك اليد الباردة في تلك الأمسية التعيسة، مازالت محفورة في ثنايا روحي، مازلت أسلم عليه آلاف المرات كل ليلة، مازلت أودعه آلاف المرات، مازلت أبكي على فراقه آلاف المرات.

بقيت مرافقا الشاب إلى أن دخل بيته، رأيت تجمعاً حول رجل مقطوع الرجل، يلقي خطاباً سياسياً ودينياً، توقفت لأستمع.

كان يقول، اتقوا الله يا عباد الله، هذه الأمة العربية سامحها الله قد ماتت منذ زمن، منذ تركت دينها، نريد أن تعود القدس عربية، ليس القدس فقط بل فلسطين كلها، اتقوا الله يا ناس، وإلى الجهاد...

كان الناس يضحكون ويتبادلون النكات أثناء خطابه، ثم عرفت

أنَّ رجله قطعت في إحدى غارات الطائرات الإسرائيلية على عين
الخلوة عام ٢٠٠٦.

حين انتهى صفقوا له، ابتسم ابتسامة المنتصر واتكأ على عصاه
ورحل، ورحلت أنا إلى أعماقي أسترجع الخطابات التي سمعتها على
مدى ستين عاما.

عدت أدراجي إلى بيتي كئيبا، جلست بين علي ومحمد، قبلاني،
عدت إلى الحياة، جلست صبحية قبالي وقالت:

- طبخت لك أكلة تحبها، ملوخية ناعمة.

قبلت رأسها ونسيت الخطابات السياسية الرنانة.

كان يوما ليس كباقي الأيام، ضحكت رندة حتى سقطت دموعها،
وضحكنا كلنا، هذا اليوم كان استثنائيا في حياتنا، لم نسمع فيه إطلاق
رصاص ولا هدير طائرات، ولا ولولة سيارات الإسعاف، ولا أنين
جرحى.

قلت لهم:

- أشعر بالفرح.

كانت رندة تنظر إليَّ نظرات فيها قبول جنسي، هزرت رأسي،
ابتسمت، وعندئذ قلت:

- سأخذكم إلى البحر.

فرح علي ومحمد، وأعدت كل من صبحية ورندة بعض الأطعمة
الخفيفة وبرادًا من الشاي.

كان البحر صاخبا أحيانا، هادئا أحيانا أخرى، جلسنا على الصخور
قرب ملعب صيدا البلدي، سرحت في الامتداد المائي الأزرق، كانت
رندة قد أخذت تتألق في شفق الشمس، نظرت إليها صبحية وقالت:

- أنت لا تكبرين يارندة.

خجلت رنده، خاطبتها بنظراتي، تشاغت بصب الشاي، وحين
كانت صبحية مشغولة بالصبيين همست لي:

- نظراتك تفضحني.

- أنت حساسة.

عدنا نشرب الشاي ونحن ننظر إلى غروب الشمس، أخذت أفكر
كيف أصف هذا المنظر في الرواية.

حين عدنا شلحنا تعبنا النفسي وخوفنا على الشاطئ، حين اختليت
برنده جلست إلى جانبها، احمرَّ وجهها خجلاً، قلت:

- في كل مرة أريدك فيها تحجلين، أنا زوجك.

لم ترد، أطفأت الضوء، بدت رنده في تلك الليلة ناضجة جداً،
شبهية جداً، جميلة جداً، كأحسن نساء الأرض.

أفقت صباحاً على طرق الباب، كان محمود، أخبرني بلهفة أنَّ هناك
توزيعاً للبطانيات والأغذية في جمعية النجدة، وأخبرني أن أصرح معي
جوازات السفر وكارت العائلة وكارت وكالة الغوث الدولية الأبيض.

وقفت أمام المرأة أمشط شعري الذي شاب نصفه، كانت
الشمس قريبة من رؤوس المنتظرين والمتحيزين والمتعبين، تذكرت أبي
حين أخبرني عقب هجرته من فلسطين إلى سوريا، كيف كانوا يقفون
ساعات طويلة أمام مركز الإعاشة من أجل أن يسدوا رفقهم.

أخذ يأسى يكبر وأنا أقف تحت الشمس الحارقة، فكرت في ترك
هذا التجمع والذهاب إلى بيتي في اليرموك لأموت هناك.

ومع العرق الذي غسل جسدي، أخذت الألسن تلعن الحرب
التي جاءت بها إلى هنا، وأخذت العيون التائهة تبحث عن الفردوس
المفقود.

وأخيراً أخذت حصتي من المواد الغذائية والبطانيات وعدت
متعباً، يائساً، مشوش التفكير.

سكبت فوقى الماء البارد واندست فى الفراش .

انفتح باب بيتى على مصراعيه فى اليرموك، كنت ألبس بدلة فاخرة وربطة عنق أنيقة، أضواء فى كل مكان، بدا البيت متسع عما قبل، تجولت فيه، صوت حذائى على الأرضية، يلفه صمت، ميزت أصواتا آتية من مكتبتى .

اتجهت حذرا، كان الباب مواربا، فتحته بهدوء، رأيت شخصا يجلس على كرسي مكتبى، وحوله أشخاص يستمعون إليه، جلست معهم وأخذت أستمع :

- هذه المكتبة التى ترونها بنيتها خلال ثلاثين سنة من عمري الأدبي، كنت أوفر النقود لأشتري هذه الكتب كتابا كتابا، إلى أن أصبحت عامرة كما ترونها، ولقد قرأت معظم ما فيها .

حاولت الوقوف والكلام لأكذبه، لكنني لم أقدر، تحول الناس الذين يستمعون إلى وحوش كاسرة، تنظر إليّ بأنياب حادة وعيون محمّرة مع محدثهم .

نهضت وأوان الفجر وأنا أرتجف من الحلم، استيقظت رندة على ارتجافي .

- ما بك ؟

- حلمت حلما مزعجاً .

- استغفر الله ونم .

دفنت رندة رأسها فى صدري وبكت، بقينا هكذا حتى انبلج الصباح .

اعتدت الحياة المملة فى عين الحلوة، الشوارع نفسها والزوارب نفسها، والوجوه نفسها، والرايات نفسها، والحراس أنفسهم، والقمامة نفسها .

هذه الحياة موت بطيء، أتمسك مشاعري فلا أجدها، أعود إلى ذكرياتي فأراها مقطوعة الأوصال، أصمت فيصرخ داخلي، أتكلم فأجد أنه بلا معنى .

لم هذا الإحساس بالعدم؟!

تمثلت حياتي الأولى النشيطة، في الجامعة، وفي الكتابة، وفي مشاهد تمثيلياتي التلفزيونية أثناء التصوير، كانت الحياة مجالا رحبا فأصبحت أضيّق من خرم إبرة.

حاولت أن أحيي بعض الأمسيات الأدبية في عين الحلوة علني أعيد شيئا فقدته، فأخذت أحيك بعض العلاقات مع رجال نافذين في المخيم، لكنهم خافوا أن أحسب على فريق دون آخر، واستمر الخوف من هذا ومن ذاك إلى أن طردت الفكرة من رأسي تماما.

هناك كثير من التجاوزات كانت تحدث في المخيم، فأحد النافذين كان يسجل في الإيواء الذي يملكه، والذي يسكنه المهجرون السوريون ألفين أو أكثر من العائلات، بينما لا يتجاوزون في الواقع الفعلي مائتين، يأخذ الحصص الغذائية الزائدة وبييعها قبل أن تصل إلى المخيم ويحولها إلى دولارات في رصيده البنكي.

صرنا سلعة تباع وتشتري في سوق الحرب.

أدماني الموضوع فحاولت نسيانه.

جلست على صخور شاطئ صيدا أتأمل البحر الهائج، راودتني فكرة السفر عبره إلى أي مكان، لكن صورة بيتي شدتني إلى العودة.

هل أستطيع بناءه من جديد وأنا في هذا العمر المتقدم، يكفي أنني أشم رائحة ياسمينته، أرى كتبتي، وصوري وأشيائي، والكرسي الذي أجلس عليه في الشرفة، أرى عمري.

كان البحر يصطخب كلما اصطخبت أفكاري، أحاول ترتيب أفكاري، فلا أستطيع، أحاول استعادة الجزئيات التي تسنيني ما أنا فيه فلا أستطيع، أحاول وأحاول فلا أفلح، وقفت على حافة الصخور التي تमित الأمواج، راودتني فكرة الانتحار، لكنني استبعدتها، فالحبر لن يحميني إلى بيتي بل البر بكل أحجاره وصخوره وقسوته، نظرت إلى الشوارع والساحات، أحسست بالغربة، أنا لا أنتمي إلى

هذه الأمكنة، أنا أنتمي إلى مكان يعرفني وأعرفه، يشعر بي وأشعر به، مكان يعرف خطواتي وصوت تنفسي وغضبي وسروري.

أخذت فكرة الأمكنة تحتل مساحة من تفكيري، لكنني صحت من أفكاري على صوت صبيحة وجورج، عانقت جورج وسألته:

- كيف هي الشام؟

- مجروحة تتألم.

نظر إلى الغرفتين وقال:

- هذا البيت لا يعجبني، أريد أن أستأجر لكم شقة في صيدا.

- لا داعي لذلك، تدفع مئات الدولارات والعيش واحد.

قرب العصر أخذنا جورج بسيارته إلى الشاطئ.

لو كانت دموعي بعدد قطرات البحر لذرفتها على ما جرى لنا، ولو كنت من الأبطال الأسطوريين الذين يتبدلون إلى وحوش كاسرة لا تموت لأوقفت تلك الحرب المجنونة.

انتبهت إلى جورج وهو يقول لي:

- غدا سنذهب إلى المطعم وقت الغداء.

- أنا أحب طعام البيت.

- كما تريد.

سألت صبيحة زوجها:

- أما زلت تسمع أصوات الرصاص والقذائف؟

- تلك الأصوات صارت شيئا عاديا في حياتنا.

لم أعرف إنسانا شاعريا وحساسا مثلما عرفت جورج في تلك الليلة، كان يتحدث بمنطق عقلي وحساسية لا مثيل لها، تحدث عن الأسباب التي دفعت إلى تلك الحرب المجنونة، من فساد وظلم واستبداد، لكنه في المقابل أشار إلى أنَّ الضحية أصبحت

جلادا، وأنَّ تبادل الظلم من الطرفين أصبح سمة هذه الحرب.
وتساءل: من يدفع الثمن؟! ثم أجاب: أنا وأنت والآخرين الذين
لا ذنب لهم، ولا ناقة لهم في هذه الحرب ولا جمل.

كنت أستمع إليه بشهية بالغة، وكان يرد على تعليقاتي بمنطق وحكمة.
انبلج الفجر ونحن نتحدث، مضى الليل كأنه ساعة، لم نشعر
بالممل والنعاس.

قلت له قبل أن أنهض لأتوضأ وأصلي:

- أسعدتني تلك الليلة الأنيسة.

- وأنا أشد سعادة لأنك استمعت إليَّ بتواضع.

ودعت صبحية زوجها بالدموع، ثم بابتسامة لتشد من عزمه.

- سأخاف عليك كل يوم.

- وأنا سأشتاق إليك كل يوم.

حسدته لأنه سيرى دمشق ويتنفس هواءها.

تعرفت لاحقا على رجل يملك مخزنا في الشارع التحتاني لبيع
لوحات وكتب وملابس من التراث الشعبي الفلسطيني، حدثني
عن أسرار نخيم عين الحلوة، وخفايا زواريبه، والفئات التي تحكمه
خارجيا وداخليا، وحصاره، والناس الذين يخرجون عن القانون
ويلتجئون إليه، ووجع الناس فيه.

كنت أستمع إليه كمن يقرأ كتابا، وكان يتحدث بسلاسة وعفوية
وثقة.

ثم أشار إلى الشارع الذي يمتد خمسين مترا وقال:

- هذا الشارع حرثه الإسرائيليون عام ١٩٨٢ بصاروخين اثنين،
جعلاه عاليه سافله، وها هو عاد كما كان.

ثم أخذ نفسا وقال:

- سأعرفك على جنرال فلسطيني.
دخلت زواريب عديدة إلى أن انتهيت إلى بيت عادي أمامه حراس مسلحون.

سأل أبو شامل أحد الحراس:

- هل الجنرال أبو سحيم موجود؟
- كان نائماً، سأرى إن كان قد استيقظ.
ودخل ثم خرج إلينا قائلاً:
- تفضلوا.

البيت من الداخل لا يشبه بيوت عين الحلوة التعيسة، فيه حديقة واسعة، وبيتا كبيراً من الحجر، ومصطبة رخامية، ومدافع نصبت في أرجاء الحديقة.

استقبلنا الجنرال أبو سحيم في الحديقة، عرفته على نفسي فرحب بي وقال:

- مشكلة الفلسطينيين في سوريا أنهم اتخذوا المخيمات وطناً لهم، ولهذا حدث لهم ما حدث.
وافقته على ذلك وأضفت:

- كتبت رواية في الثمانينيات من القرن الماضي توقعت فيها أسوأ مما يحدث الآن.

ضحك الجنرال وقال:

- لكن شعبنا لا يقرأ كثيراً، انشغل بتجارة العقارات والبيع والشراء.

- كأنك ابن ذلك المخيم.

- أبناء المخيمات متشابهون.

قدمت لنا خادمة فلبينية القهوة، تحدثت كثيراً عن المخيم، كيف كان مركزاً تجارياً مهماً بالقرب من دمشق، وفي غمضة عين تحول إلى

مدينة مهجورة، هجرها أهلها ذات صباح نهار بارد وتركوا وراءهم كل شيء.

كان الجنرال يستمع إليّ وهو يشرب قهوته من فنجانه المذهب، وهو يهز برأسه، وأخيراً قال:

- أراد النظام في سوريا تكليفي بإخراج المسلحين من المخيم، لكننا اختلفنا على التمويل، فأنا أردت أخذ تمويل رجالي من السلطة الفلسطينية، لكن النظام لم يقبل فهو يريد تمويل تلك العملية لأنها أرض سورية.

قلت:

- ومعاناتنا من يمولها السلطة الفلسطينية أم المعارضة أم النظام، لقد ضعنا بين هذا وذاك وهؤلاء.

- أنتم سبب ضياعكم، التفتم للأموال المادية وتركتم جوهر القضية، قضيتكم صارت احتفالات وخطابات وتصفيق.

- هذا صحيح.

- لا نصل إلى الحقيقة إلا متأخرين.

حين خرجنا ابتسم أبو شامل قائلاً:

- كله كلام، نسمع كلامهم منذ ستين عاماً، قل لي، ماذا تغير.

- الذي تغير أن مصائبنا كبرت، وقضيتنا ابتعدت عنا بعد السماء عن الأرض.

- هذه هي النهاية، نهايتنا، انظر إلى شعبنا يموت في البحر وهو هارب من الجحيم، وهم يضحكون لأن القضية انتهت، هذه هي النهاية، صدقني.

كان أبو شامل يتحدث بقهر وغضب، ثم تابع:

- انظر إلى هذا المخيم، إنّه أشبه بثكنة عسكرية، محاط بالخواجز وشعبه فقير معدم، ومع ذلك تجد فيه أحدث أنواع السلاح، منذ

خرجنا من فلسطين ونحن نجد السلاح، ما الذي تغير، زعماءنا
يجب أن يتغيروا.

- أعداؤنا يعملون، ونحن نتكلم ونسمع ونصفق.

وصلنا إلى مفترق طرق، ودعت أبو شامل واتجهت نحو البيت
بخطوات وئيدة مضطربة.

كان كل من علي ومحمد ينتظراني أمام الباب، قال:

- أُمِّي وعمتي تنتظرانك على العشاء.

- وأنتما.

- ونحن أيضا.

لجأت إلى فراشي بعد الطعام، تصفحت الإنترنت، في كل يوم
أخبار سيئة عن المخيم، قتل بالمجان ومجاعة، وآخر ما كان فتوى من
مشايخ المخيم بتحليل أكل القطط والكلاب والحمير والدابة المقتولة،
لقد وصلنا إلى عصر ما قبل التاريخ، عدنا وحوشا كاسرة.

زرت أبو شامل في اليوم التالي، تصفح الإنترنت على شاشته
الكبيرة وقال:

- المشايخ يتدخلون في السياسة، حسب هوى من يدفع لهم، فهذا
يحيي زواج النكاح في الحرب، وذاك يحيي قطع الرؤوس، وآخر يحيي
إمارات ذات طابع عرقي.

ثم يصمت وهو يقلب الصفحات على الشاشة وأخيرا يقول:

- كلهم مخطئون ومصيبون في آن، لم نعد نفهم شيئا، عصرنا هو
عصر التوهان والمصالح المتضاربة والأفكار المتصادمة، ليتنا لم نعش في
هذا العصر الحردوني.

كان كلامه يصب في عين الوجع، وجع الجميع شعوبا وقبائل، أما
وأحزابا.

قلت له:

- هذه الصفحات الفيسبوكية والتويترية قلبت العالم رأساً على عقب، الكل يشترك في الانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهو جالس في بيته، الكل يغير آراء الكل، وهو مرتاح في بيته، متكئ على الوسائد، أو يشرب القهوة أو الشاي أو يمارس الجنس، تعقدت الأمور إلى حد التوهان، لم يعد هنالك أبيض أو أسود، صار الكل رمادياً، بل لم يعد هناك لون.

تكلمت بحدة وغضب، استمع إليّ باهتمام كما استمعت إليه، أضفت:

- عصر التوهان هذا لا دين له ولا طائفة ولا عرق، بل يضرب الأديان والطوائف والأعراق، يضربها حتى تدمى القلوب وتوه العقول، وتموت الأرواح، كأن روح إبليس نفخت في أرواح البشر فجعلتهم قبائل شتى لا يحتكمون لغير السلاح.

- هذا صحيح يا أبا عدنان، الأمور تعدت حدود المعقول إلى اللامعقول، انظر إلى شعبنا، من موت إلى آخر ومن نكبة إلى أخرى ومن تشرد إلى آخر، والعالم يقف عاجزاً عن مساعدتنا.

- اعتمادنا على العالم في حل قضيتنا جعلنا أضحوكة الدنيا، انظر إلينا المهلاك يلاحقنا من الكويت إلى العراق إلى ليبيا إلى تونس إلى لبنان وأخيراً سوريا، وصلنا إلى ذلك بسبب اعتمادنا على الغير، لم نجن غير الخيبة والضعف حتى انتهى بنا الأمر بأن نكون طعاماً للأسماك البحر المتوسط.

- لكننا الآن كما يقولون نعيش في عالم كأنه قرية صغيرة، إذا همست همسة سمعها المشرق والمغرب، سيتدخلون بنا إن أردنا ذلك أم لم نرد.

قلت محتداً:

- لكننا الأساس، نحن قبان الميزان، وإلا فلن نكون.

- الذكاء أن تجعل رأي العالم يصب في مصلحتك.

- هذا صحيح، ولكن من أين تأتي بهذا الذكاء؟!

عدت إلى البيت ممتلئاً بالرؤى والأفكار وبكثير من الإحباط.

- سأتكلم لأرتاح، في مخيم الزعتري بينما كنت ذات يوم أملاً الماء خارج الخيمة، وقف رجل سبعيني بسيارته الجديدة أمامي وهو ينظر إليّ ويتسمم، ابتسمت له احتراماً لسنه، في تلك الليلة دخل الخيمة مع مسئول المخيم، عرض عليّ الرجل السبعيني بأنه يريد أن يزوجني من ابنه الشاب الذي لم يأت معه لأنه أعجب بي، وأراني صورة شاب تتمناه كل فتاة، فكرت تلك الليلة كثيراً، كنت أريد أن أتخلص من حياة المخيم النعيسة فوافقت في اليوم التالي، ويا ليتني مت ولم أفعل. انخرطت في البكاء قبل أن تقول:

- قصتي يا عمي قصة عبدة تباع وتشتري، إنهم يبيعون البنات في منافي الحروب، يبيعون أعراضهم بالمال لا بالحب. لم تعد تستطيع الكلام، تمددت وصمت، تركتها وخرجت. همست رندة:

- مسكينة، تعذبت كثيراً، سمعنا ما قالت.

القصة اكتملت وأنا أرى دموع حنين على خديها، الرجل السبعيني لم يزوجها لابنه الوهمي، بل أراد أن تكون عروساً له هو، سافر معها إلى بلده، وهناك عرفت الحقيقة المرة، صارت زوجة رجل سبعيني على حافة القبر.

كان يضربها ويعذبها وسجنها في البيت.

كأنها كانت في حلم، عثرت على جواز سفرها، وأخذت بصمته على ورقة سفرها وحدها وهو نائم، وحجزت بطاقة سفر على الإنترنت، وسافرت بعدها إلى لبنان.

انتهت القصة هنا، انهمرت دموعي على عذابها وعذاب آلاف الفتيات اللواتي بيعت أجسادهن بسبب تلك الحرب المجنونة.

لم أعد متوازنا في الأيام التي تلت مجيء حنين، صرت أنسى ما عزمت على شرائه من السوق، وصرت أتوه في الزوارب الضيقة المتشابهة فأسأل أحدهم ليدلني.

وبقيت حنين صامتة وحيدة طوال الوقت رغم وجودها بيننا، حاولت التكلم معها، لكنها كانت تختصر؛ فالكلام يخرج وجعها إلى السطح.

- إذا تكلمت سيخرج حزنك.

تنظر بعينين دامعتين وتلقي رأسها على كتفي، وتتمسك بي وكأنَّ أحدا يشدها إلى الخلف.

وكنت أسمع من رندة وصباحية العبارة التالية:

- الزمن كفيل بأن ينسيها مأساتها.

كنا نخرج إلى الشاطئ كثيراً لتنسى، كانت تجلس على الصخور صامتة تتأمل سقوط الشمس في المياه فتسقط دموعها، لم يعد بمقدوري تحمل حزنها فصرت أتحاشى الجلوس معها، لاحظت رندة ذلك فدخلت عليَّ وقالت:

- إذا ابتعدت عن حنين فلن تجدها إطلاقاً.

- حزنها يقتلني.

- وابتعادك يقتلها.

ذات صباح جاءت إليّ حنين وقد لبست فستانا أزرق كلون السماء
وأمسكت يدي وقالت:

- عمي، أعرفك تحب الشاي، سأشرب الشاي معك على شاطئ صيدا.
- رأيت ذلك تطورا إيجابيا في انتصارها على حزنها، وحين جلسنا
على رمل الشاطئ قالت حنين:
- أنا آسفة، أريد أن أنسى ولكن.
- كلنا نحاول الانتصار على حزننا، انتصري.
- لكن ما حدث أفضع من الموت.
- كلامك دليل على قوتك.
- صبت الشاي ونظرت إلى مياه البحر التي تعكس أشعة الشمس
الصباحية، وقالت:
- أشعر أنني أضعف مخلوق في هذا الكون.
- القوي يشعر بضعفه والضعيف يشعر بقوته، تلك هي معادلة الحياة.
- كلامك يمنحني القوة.
- أترين تلك الشمس مازالت دافئة ومضيئة منذ ملايين السنين،
مازالت قوية، لماذا لا نشبهها.
- الصقيع يلفني رغم دفء الشمس، ذلك الوحش المسن أحسه
مازال ينهش جسدي كوحش أسطوري.
- اتركي الماضي وانظري إلى المستقبل.
- أيّ مستقبل ونحن مشردون.
- لن تدوم الحرب إلى الأبد.
- سوريا الجميلة لن تعود كما كانت، أتصورها كعروس ميتة.
- سوريا لم تمت في الماضي ولن تموت الآن.
- عمي، أنت متفائل رغم حزنك.

- هكذا علمتني الحياة.
- عمي، اكتب ما حدث لنا.
- البارحة فقط بدأت بتسجيل بعض الملاحظات، سأبدأ بكتابة رواية عما قريب.
- في مخيم الزعتري هنالك قصص تبكي الحجر قبل البشر.
- عدنا إلى البيت، ولم نكد نجلس حتى بدأ دوي القذائف ولعلعة الرصاص من كل جهة في المخيم، قالت رندة بسخرية مرة:
- رائحة البارود تشم أجسادنا.
- وقالت صبيحة:
- إننا محكومون بالحرب.
- وقالت حنين:
- الصغار يحبون إطلاق المفرقات وهؤلاء يحبون إطلاق الرصاص.
- لم أعلق، قالت رندة:
- ليس من عادتك الصمت.
- ليس للكلام معنى في حضرة الرصاص.
- جاء كل من علي ومحمد وهما يحملان قفصا في داخله عصفور صغير، نظرت إليهما نظرة عتب فقال محمد:
- البائع لم يبعنا العصفور إلا مع قفصه!
- ولم لم تطلقاه إلى الآن؟
- أطلق محمد العصفور فوقف على السطح ثم اختفى، صفق الجميع لحرية العصفور، فقلت:
- والقفص، ماذا ستفعلان به؟
- وبدأ بتحطيم القفص وهما يرددان، لا بد للقيد أن ينكسر، لم أضحك منذ زمن طويل كما ضحكت في تلك اللحظة، كانت

ضحكة انتصار من القلب، انفردت أسارير حنين، وأخذت كل من
رندة وصباحية يقبلان الطفلين، مع ضحكات آتية من أعماق القلب.
هنا بدأ الفاصل بين حياتين حياة الواقع المربرصاصه وقذائفه
ومآسيه، وحياة البراءة الوادعة بما تحمله من صدق وعفوية.

نظر كل من علي ومحمد إلى القفص نظرة انتصار، ثم نظرا إلى
السماء فلم يريا سوى سماء زرقاء صافية وادعه.

قال علي:

- عاد العصفور إلى أهله.

وقال محمد:

- لا بد أنه سعيد الآن بحريته.

ثم وضعوا القفص المحطم في كيس قمامة وأخذاه إلى الحاوية.

كانت حنين مازالت تبتسم، ثم قالت:

- كأنَّ عليا ومحمدا حطما قفصي.

هذه الجملة أدخلت الفرح إلى قلبي، رأيت في عيني بصيرتي حنين
تخرج من أقفاص لا قفص واحد، حين تلمس الحديد يذوب كما
تذوب قطعة السكر بيد طفل، كنت أرى ذلك وأنا ابتسم، فانتبهت
إلى علي وهو يقول لي:

- أنت سعيد لأننا حططنا القفص.

وقال محمد:

- إنه سعيد لأننا أطلقنا العصفور.

- صحيح، لكنني أكثر سعادة لأنكما حطتما قفص حنين.

أخذت حنين تبكي وتضحك في آن، قلت لها:

- افرحي، تحطم قفصك إلى الأبد.

- هذه دموع الفرح يا عمي.

كنا جميعا في هذه اللحظة قلبا واحدا، عقلا واحدا، إرادة واحدة،
حزنا وفرحا واحدا، تماهت أشياءنا مع بعضها حتى شعرنا بوحدتنا
الكلية في هذا الزمن الميت.

ذلك اليوم كان نقطة بيضاء في لوحة سوداء، عينا حنين أضاءتا
وجهها، بدا البريق واضحا في ذلك اليوم، وأخذت حركاتها تتشكل
بحيوية وكأنها خلعت جسمها ولبست جسما آخر.

طفلان قلبا المعادلة، جعلنا نعيش لحظة حياة في ظل الموت
المتراكم حولنا، كأننا يدوران في أرجاء الغرفة وكأنهما لم يقوما بعمل
جهدت أياما، ولم أستطع لأعيد حنين إلى الحياة.

نهضت حنين وقالت:

- اليوم سأعد طعام الغداء.

بعد الغداء لم يدم الفرح طويلا، بدأت الأمور بإطلاق رصاصة
واحدة تبتعتها أخرى، ثم بدأ نهر من الرصاص والقذائف، من كل
مكان وفي كل اتجاه.

قالت حنين:

- ماذا يفعلون هؤلاء المجانين.

قلت:

- نحن فئات أو قبائل شتى، هذه الفئة تابعة لدولة، الفئة
الأخرى تابعة لدولة أخرى، الثالثة لغيرها، هكذا هي اللعبة، نحن
نموت يا عمي من أجل لعبة دولية.

أخذت أصوات القذائف تعلو على صوتي، بقينا متسمرين في أماكننا
كالأصنام، وحين حلّ المساء سمعت خطوات كثيرة تمر من أمام
بيتي، كان هناك أناس كثيرون من سكان المخيم ومن مهجري الحرب
يحملون بطانياتهم ويتجهون مع خوفهم إلى مدرسة تقع خلف بيتنا.

قال شخص حين سألته:

- نحن نعيش في خيام، رصاصة واحدة تخرق كل الخيام.
وقال آخر:
- الموت يلاحقنا أينما ذهبنا.
وقال ثالث:
- تعبنا من الهروب.
قلت لهم:
- اذهبوا إلى المدرسة وأنا سأبقى.
قالت رنده:
- إما أن نذهب جميعاً أو نبقى جميعاً.
تمددت، أدرت وجهي نحو الحائط، كانت أصوات القذائف
والرصاص وكأنها سيمفونية بلا روح.
- نفذت إلى عوالم شتى وأنا بين اليقظة والحلم، كانت تلك العوالم
تشكل كلما اشتد القصف، كانت كل من رنده وصباحية تتمتعان
آيات قرآنية بصوتين هامسين، بينما قالت لي حنين بجرأة ووداعة:
- عمي، احك لنا شيئاً من تاريخك، هم يكتبون تاريخهم القذر،
دعنا نستمع إلى تاريخك المضيء.
- صوتهم أعلى من صوتي.
- عمي، نريد أن ننسى رصاصهم القذر وقذائفهم الملوثة، نريد أن
نعيش في عالم آخر غير عالم القتلة.
- عالمهم أقوى منا، أوصلنا إلى الهجرة الثانية، هجرة نحو الموت
واللامكان، هجرة نحو الهاوية، المخيم يا حنين لم يكن مجرد مكان
نعيش فيه، صار وطناً ثانياً، فيه ذكرياتنا وطفولتنا، مراهقتنا وجنوننا،
لقد قتلوا كل ذلك.
- لم أعهدك يائسا.

- مابي ليس بأسا، بل هو شيء مابين الموت والحياة، لا أدري كيف أصف تلك الحالة، قرأت عنها لكنها كانت مختلفة حين شعرت بها، إنَّ ما نقرأه مختلف تماما عما نحس به.

- لكن كتبك تقول غير ذلك، كأنَّ الكتاب مصابون بانفصام الشخصية.
- حاولت كثيرا أن تكون كتابتي تصويرا للواقع، لكنني لم أصل إلى ذلك.

لم أصل مع حنين إلى هذه النقطة حتى اهتز البيت بفعل قذيفة انفجرت قريبة من البيت، كأنَّ البيت طار ثم سقط، كان الجميع يرتجف، وكان غضبي يزداد.

هدأ القصف قليلا فرنَّ جوال صبحية:

- جورج، كيف أنت، ما بك، أنطون؟

وهي تستمع تغير لونها وصوتها.

وحين انتهت المكالمات انهارت صبحية باكية.

- هل حدث مكروه لجورج؟

- أخوه أنطون الذي عارض زواج أخيه مني عاد من ألمانيا ويعمل الآن على تهريب السلاح بين لبنان وسوريا، وهو يهدد الآن بقتلي.

قلت بتحد:

- ليأت وسنرى.

- أخي أنت لا تعرف أنطون، اشتهر بألمانيا بكونه رئيس عصابة في الملاهي الليلية، وكان جورج ينجل ذكر اسمه أمامي.

قالت حنين:

- لن يجده يا عمتي، سنخبئك داخل عيوننا.

بكت صبحية وهي ترمي رأسها على كتف حنين، لم أكن أدري أنَّ الأيام ستأتي بهذه المصائب مجتمعة.

كنَّ ييكنين وأصوات القذائف تعلو وتنخفض، أنطون، شاب مستهتر، غادر إلى ألمانيا بعد أن سرق شرف ابنة عمه فغضب عليه أبوه وطرده، ارتبط اسمه بتجارة المخدرات، وها هو الآن يتجه إلى تجارة السلاح لأنها الرباحة في عصر الحروب.

اقتربت من صبحية وقلت بقوة:

- إذا اقترب منك أنطون سأقتله.

صمت الجميع وصمت لحظتها أصوات الرصاص والقذائف.

استؤنف القصف وبشدة أكبر، اهتزت زوارب المخيم الضيقة الفقيرة، سمعت ركض الناس في تلك الدروب الضيقة، وكأنهم يهربون من ذواتهم.

حين تزوج جورج وصبحية بعث أنطون رسالة تهديد إلى أخيه عبر البريد الإلكتروني يهدد بقتله وقتل عروسه، لم يخبرها جورج بتلك الرسالة، لكنه أخبرها بعد حين.

بعد منتصف الليل بوقت طويل همست رنده في أذني قبل أن أنام:

- ماذا سنفعل؟

- لا أدري.

كان أزيز الرصاص وأصوات القذائف قد خفت، لكن أفكاري وظنوني مازالت مشتعلة...

لم يكن لي ظهر لأقف في وجه أنطون وعصابته، ابن أختي ثائر يحمل السلاح مع الثورة في المخيم، وأخوه أجد يحمل السلاح مع النظام، صار الأخ عدوا لأخيه، وعدنان في أوكرانيا، وسامر في ألمانيا، وإمام في الإيواء في الجزائر.

وصلت إلى حائط مسدود، حين غفوت، رأيت صبحية تقبل عليّ بثوب عرس أبيض، كان البحر خلفها والأشجار أمامي، فجأة يعترض طريقها رجل يحمل سلاحا بمنظار، تهرب منه، ألحق بها، يمسكها من شعرها الطويل، يطرحها أرضا، تنظر إليّ مستغيثة، يطلق

النار على رأسها، ثم على جسدها، صوت الرصاص ينخر عظامي،
أتسمر مكاني، يجر الرجل جسد صبيحة المدمى، نحو جرف، يلقي
بجثتها ويختفي، أقف على طرف الجرف، قاعه بلا نهاية، أصرخ فيرتد
صوتي صدى: صب، صب، حي، هـ.

أنهض من غفوتي مرتعشا، أشرب كأسا مليئا بالماء، عاد الناس
يثرثرون في الزوارب، يضحكون، اندفع علي ومحمد إلى حضني قائلين:
- بابا، خلصت الحرب.

دلفت إلى غرفة صبيحة، كانت نائمة كالملاك، ودواء مرض القلب
إلى جانبها، تأملتها، ليس هناك أحد بهذا الصفاء وهذه الوداعة،
صوت تنفسها كملمس الحرير، فتحت صبيحة عينيها فرأتني،
ابتسمت:

- ماذا بك يا صبحي؟

- لا شيء، أنا ملك وأنت نائمة.

- أتودعني؟

- لن يمسك إنسان وأنا على ظهر الأرض.

- ولكنهم.

- أكمل، أقوى مني، بسلاحهم ومالهم وحقدهم وشذوذهم.

- قال لي جورج، عليّ أن أترك لبنان.

- إلى أين؟

- حين يأتي جورج سنعرف.

انتابني شعور قوي بالتسكع في الزوارب، طالعني رائحة الطبخ
والقمامة ودخان الرصاص، وفوارغ القذائف.
كنت أسير بلا هدف.

-٧-

فتحت الزواريب لي ذراعيها من جديد، كأنها امرأة اشتاقت إلى
ممارسة الحب، أو كفتاة تنتظر حبيبها على فرس أبيض.
وجدت نفسي أمام متحف أبو شامل، كما أحببت تسميته،
استقبلني مبتسماً:

- عادت الحياة إلى المخيم كما كانت.
- كما كانت أو كما يريدون أن تكون.
- سأطلب لك قهوة.
ونحن نحتسي القهوة رأيت في عيني أبي شامل أسمى لا يوصف،
سألته:

- لم هذا الحزن في عينيك؟!
- نحن متشابهان في الحروب العبيثة.
- هل هرب الشيخ الأسير من عبدة أم قتل؟
- يقولون إنه لبس هو وفضل شاكر ملابس امرأة وتسلا إلى هنا
إلى عين الحلوة.

- كلنا على فوهة بركان.
- كل ذلك مرهون بالتجاذبات الإقليمية والدولية.
- إلى متى نظل لعبة بيد الغير.
- إلى أن نصبح شيئاً.

جاءني حدس أن صبحية أمامي جثة هامدة.

قال أبو شامل:

- أين شردت؟

- أخذنا الحديث، سأعود إليك.

أمام مدخل البيت وجدت سيارة جورج، أخبرني أن أنطون مطلوب للنظام، وأنهم حققوا معه ثم تركوه، كان وجه صبحية كالأموات.

حين اختليت بجورج قال لي:

- يجب أن تسافروا إلى بلد آخر غير لبنان، لست مطمئناً إلى وجود صبحية هنا.

لم أجب، كنت مشلول التفكير، وعندها قال جورج:

- ابنك إمام في الجزائر، قل له أن يرسل لكم دعوات، هناك سيلتم شملكم وستبتعد صبحية عن الخطر.

هاتف إمام أمامه، وحين أغلقت الخط قال جورج:

- ريثما تصل الدعوات، استأجرت لكم شقة في الطابق الخامس على الشاطئ، هناك أمان أكثر.

لم يكن أمامي سوى القبول، لم أتصور الشمس دون صبحية، لم أتصور القمر دونها، لم أتصور لذة الطعام دونها، كيف كانت نسياً منسياً، وأصبحت الآن كل شيء.

نظر إليَّ جورج وكأنه يقرأ أفكاري وقال:

- أعرف مكانة صبحية عندك، تصرف دون استشارتك، اعذرني.

وضع في حقيبة السيارة أغراضنا البسيطة، تجاوزنا الحاجز، دخل هواء نقى رئتي، تراقصت الأشجار على جانبي الطريق، كأن الناس يتسمون، سيارات أنيقة، أطفال يلعبون بالكرة في ملعب أخضر، مطاعم ممتلئة بالرواد، شبان وشابات يسرون على الشاطئ يمسون الشمس الآفلة بأيديهم.

قلعة صيدا الأثرية تربض على أقدام البحر، الشاطئ حزين، وجه
صباحية صاحب كشحوب البحر في مغرب الشمس، كنا صامتين،
فقال جورج:

- تحدثوا يا جماعة، لم الصمت؟

وفتح المذيع، تحدث المذيع عن مآسي الحرب، عدد القتلى في
سوريا، الدمار، المسلحين، النظام، الإيواءات، الحصار، الجوع،
السيارات المفخخة، غلاء المعيشة، المهجرين، لم يترك شيئاً لم يتحدث
عنه، عن البطاطا والبندورة، والخس والتبغ والموز الصومالي، عن
النساء العاريات والنساء الكاسيات، عن نكاح الجهاد، واللواط
والذقون والأنفاق والنفاق، تحدث عن العثمانيين وأمراء الخليج،
وباعة الفول السوداني وتجارة العقارات وسوق النخاسة، تحدث عن
بيع الأعضاء البشرية، وسوق النسوان، والحرير الدمشقي، وباب
الحارة، تحدث عن الشوارب المعقوفة والأرز المصري، ومخادع أمراء
الحرب، تحدث عن أجهزة المخابرات وأقيبتها، وعن الجامعة العربية
والأمم المتحدة، والقرارات الفارغة والخطابات الرنانة، تحدث عن
عارضات الأزياء وتجار الحروب، والأنبياء والقديسين وعلماء الآثار
وممارسة الجنس، تحدث عن المشكلات الاقتصادية العالمية، وعن
النظريات الفلسفية، تحدث عن يوم القيامة، وعن الموت وعن الحياة،
تحدث عن المشكلات الزوجية وعن الخيانات الزوجية، تحدث عن
وسائل التعذيب، وعن أحاديث الرجل والمرأة في المخدع، تحدث عن
الإحصاءات العالمية وعن حقوق الإنسان، عن حقوق الطفل والمرأة،
تحدث عن المشاكل البيئية وعن طبقة الأوزون، وعن رواد الفضاء،
وعن المساحات الكونية اللامتناهية، وعن النظرية النسبية لأينشتين،
تحدث عن زواج الأثرياء، وعن القصور وعن مدن التنك، تحدث
عن المال والبنين، وعن عقوق الوالدين، وعن زواج السفاح، وعن
الزواج المدني، وعن تعنيف النساء، تحدث عن المن والسلوى، تحدث
عن الربيع العربي الذي أزهز دماً، عن الربيع التونسي والليبي
والمصري والسوري، تحدث عن أثرياء الحروب، وعن الجمعيات
الإنسانية، وعن حب الوطن وحب الله والوالدين...

تحدث وتحدث وتحدث، ولم ينقطع الحديث.

كنت في عالم آخر؛ عالم وردي وعالم مأساوي، وعالم بين بين، عالم يضيع بين توهان الأفكار التشاؤمية والتفاؤلية.

عدت إلى الواقع حين توقف جورج أمام بناية من حجر أحمر، كانت أمواج البحر مرتفعة، وخف حارس البناية وحمل الأغراض نحو المصعد.

كانت شقة فاخرة تطل على الأوتوستراد من جهة وعلى الشاطئ من جهة أخرى.

قلت:

- إيجارها مرتفع.

قال جورج:

- لا يهم.

سهرنا تلك الليلة على الشرفة، أكلنا وتحدثنا وضحكنا، امتد البحر أمامنا أسود كعيني الطي، علي ومحمد في الداخل يشاهدان أفلام كرتون على شاشة كبيرة، كانت دمشق الجريحة حاضرة في أحاديثنا، وقلت أخيراً:

- لم يعد هناك ما يفرح.

- بعد أيام سآتي وأودعكم إلى الجزائر.

قال جورج حزينا.

ونظر إلى صبحية وأضاف:

- لن يصل إليك أنطون.

صباحاً، غادرنا جورج، لوح لنا بيده قبل أن يركب سيارته ويتجه نحو الأوتوستراد الذهاب إلى بيروت، جلسنا على الشرفة نشم نسمات البحر العليل، أغلقت عيني كَأَنِّي كَأَنِّي في حلم، صحوت على رائحة القهوة وصوت رندة:

حين ألمسها، وأسوار القلعة القديمة تحتوي أشعة الشمس الصباحية
لتعطي لونا أقرب إلى لون النار.

فجأة خرج رجل من داخل القلعة يحمل رمحا وقال:

- من أنت؟

قلت له:

- سلاحك قديم لا يخيفني.

- لكنه يقتل.

- كيف تقتل ميتا؟

- أنا مثلك!، مثلما يقتل الحي حيا.

- لم أفهم.

- ستفهم حين تموت.

- أريد أن أفهم قبل الموت.

- القاتل لا يقدم سببا لضعفته.

- من أين أنت؟

- من بيزنطة.

- تتكلم بلغة العصر.

- وأنت تتكلم بلغة الأحياء.

- الميت ليس الذي يدفن في القبر، بل الذي لم يعد له بيت.

- هذه القلعة لنا، للأموات.

- سأذهب.

- الأموات لا يذهبون، إنهم يرقدون.

رفع رمحه وصوبه نحوي.

قلت له:

- كنا نتحاور.

- لا يعجبني حوارك.

أطلق رمحہ نحوی فعاتد ضحکات الصبايا وضحكة الشيخ المتحشجة، عادت الأمواج تهدر، والشمس تلامس سطح البحر، عادت السنونو تطير، والناس يسرون، عادت الأغاني على أرصفة الكورنيش، وعادت المطاعم تعج بالناس.

عادت قلعة صيدا مضيئة، وعادت الأعمدة الجرانيتية تلامس السماء، عاد المخيم كما كان، دافئًا حنوًّا، وعاد السهاري يطرقون أرصفته بأحذيتهم اللامعة.

عاد عدنان وسامر وإمام حولي، عادت بدرية ونظيرة وفتاح وعطا.

عادت أمي وأبي، عاد الضحك وعاد السهر.

قلت له:

- لا تحاورني، أطلق رمحك في صدري.

أهو طعم الموت أم طعم الحياة؟!

كانت القلعة قد اختفت تمامًا، وكذلك البحر والأغنيات، والضحكات والناس، وحل سكون لم أعهده من قبل، حلَّ الفجر وأنا على الشرفة، جاءت رندة وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها.

- مازلت هنا؟!

- كنت هناك.

- أين؟

- كنت أحلم.

نظرت إلى القلعة، كانت ساكنة وسط بحرها المظلم، اشتقت الدخول إليها الآن، اشتقت إلى رؤية الرمح وانتهاء الحياة.

هل تشتهي الموت يا صبحي؟

نعم، حين لا يعود للحياة طعم نشتهيه.

أليس الذل الذي نعيشه أقسى من الموت؟!

أيها البيزنطي، أيها الصليبي، يا من كنت، أقبل إليّ برمحك
وسهامك السامة واقتلني. قتلكم كان قتل رجولة لا قتل جناء كما
يحدث الآن.

كانت القلعة تقترب مني كلما غرقت في التفكير؛ بحجارتها
وأعمدتها وصمتها وأسرارها.

أقبلني أيتها القلعة، اربضي فوق صدري، فما أحمله في صدري أثقل
من حجارتك.

دخل الرمح في مياه البحر كشهاب من نار.

ها هو البحر نفسه الذي يحتضن عشرات الجثث من المخيم ومن
بقاع سوريا المختلفة، حين لفظتهم الأرض والقلوب القاسية.

ها هو البحر يهدوئه المريب، وأسماكه التي اقتاتت على أجساد
الهاربين من الموت.

هنا، في هذا البحر، يجب أن نبني المساجد والكنائس وسط الماء؛
لنقرأ الفاتحة على الأرواح الضائعة، ونقيم القداديس لنهدأ الأرواح
المعذبة.

لم يعد للأرض معنى، حين تلفظ جثث أبنائها، حين يضيع البيت
تضيع الأرض، معادلة قاسية لكنها صحيحة.

أيها البحر، أشتاق إلى الأجساد التي ابتلعته، أشتاق إلى ذكرياتي
معهم حتى لو لم أعرفهم، يكفي أنني رأيتهم مرة واحدة، أشتاق إلى
رؤيتهم يضحكون أو يحزنون، أشتاق إلى صراخهم وصخبهم.

لم تعد وحيدا أيها البحر، جاؤوا يسلونك بأغنياهم وضحكاتهم،
بأحزانهم وخوفهم التي اختزنوها فيك، صرت بحر الأحزان، صرت

ملجأ الخائفين، صرت المكان الذي لا مكان له، صرت المقبرة، صرت كل شيء.

هنيئاً لك أيها البحر، هنيئاً لأولئك الذين اختاروك وطنا حين فقدوا أوطانهم، هنيئاً لأسماكك، لحيتانك، لياهلك المعجونة بملح الأجساد المتعبة.

صحوت من أفكارى على رنين جرس الباب.
وقفت صبحية أمامي بوجه مصفر كالأموات، اتجهت نحو الباب، أمسكتني من الخلف.

- لا تفتح.

- لن يجروا على لمسك.

كان أمامي رجل بسيط يحمل عبوتين كبيرتين من الماء، ابتسم قائلاً:

- هاتان لكم.

جلست صبحية مهددة القوى، وضعت العبوتين وعدت إلى أفكارى.

كنا نرتشف قهوة الصباح، كانت قلعة صيدا خلف صبحية، كنت أنظر إلى القلعة، نظرت صبحية إلى القلعة وقالت:

- أنت تحب الآثار.

- سنزورها اليوم.

ظهر الخوف على وجهها من جديد.

- أنطون المسيحي، كيف يصدر السلاح إلى هؤلاء المسلمين؟

- أنطون ليس مسيحياً، وهم ليسوا مسلمين، إنها لعبة دولية، نحن ضحيتها.

نهضت قوية، نسيت خوفها وقالت:

- بعد الفطور سنزور القلعة، ولننس أنطون.

جاء الرمح من ناحية القلعة، انغرز أمامي في جدار الشرفة الرخامي، حاولت الانشغال عنه بكتابة بعض الملاحظات حول الرواية.

تكاثر الناس في الشارع ونحن نتناول الفطور وكانوا ينظرون إلينا، ثمة رجل منفرد كان ينظر إلينا، سألت صبيحة:

- هل تعرفين أنطون؟

قالت رندة:

- دعها تأكل.

- مربوع، واسع العينين، شعره طويل، له لحية، بياض عينيه بلون أصفر.

- انظري إلى ذلك الرجل البعيد عن الناس، هل يشبهه؟

- إنه ليس برجل، إنه تمثال.

دقت النظر إليه، كان يتحرك، أخرج سلاحا من تحت ثيابه ولوّح لي به.

صرخت:

- إنه هو.

نزلت في لحظات، وقفت بين الناس، كانوا ينظرون إلى رجل معلق على الأسلاك، تركت جمع الناس وركضت نحو الرجل المنفرد، كنت كأنتني في حلم، كان الشاطئ يشلح أمواجه العاتية كجثث هامدة، وكانت الشمس على وشك الطلوع، كنت اقترب من الرجل وهو يبتعد عني، حتى تلاشى تماما وكأنه لم يكن.

صار الخوف يأكلني كما يأكل صبيحة، حتى من الهواء والشمس والصمت.

كأنَّ الرجل سرابا، ليس هناك غير البحر والسماء والصخور وطيور البحر، ولم أكد أقف حتى هاج جمع الناس وماج، سقط الرجل عن الأسلاك على الرصيف ودق عنقه.

جاءت سيارات الأمن العام وسيارة الإسعاف، أخذوا الجثة وانفض الجميع وبقيت وحدي، بحثت عن أنطون، مشيت الشاطئ من جنوبه إلى شماله، نظرت في وجوه أصحاب المقاهي وروادها، فلم أعر على شبيه أنطون، تعبت، جلست أستريح على الرمل، فغفوت بسبب نسائم البحر، رأيت نفسي وأنا صغير في حارات المخيم الطينية.

الثلج يتساقط، والبرد قارس، وأنا حافي القدمين، أكور كرات الثلج وأرشق بها المارة، فرحي لا علاقة له بالبرد ولا بأصابعي المتجمدة.

تصرخ جليلة:

- صبحي، ادخل، ستمرض.

حين خيم الظلام دخلت البيت، كانت أمي قد حضرت حساء ساخنا، لم تستطع مرور السنوات أن تغير من دفته إلى الآن.

جاء أبي يحمل سكه المعهود، فيه حبات من البطاطا والشوندر، وقطعتان من الفحم الحجري، فأخذ الدفء يغزو عظامي الباردة، ثم غفوت على أغنية قديمة لفيروز آتية من مذياع جارتنا.

شربت الشاي مع أبي، وغنى لي أغنيته المعهودة:

- صبحي، زين زين، وادع العين يابا.

وقبلني قبل أن أندس في فراشي.

كان لأغنيته التي غناها لي قصة حين كنت رضيعا، كان حارسا ليليا لحاصل أخشاب على أطراف المدينة، فجاءه ضبع ذات ليلة باردة، وأخذ يدور حول غرفته الصغيرة ليقوعه في شبابه، حمل أبي الفانوس والعصا، ولحق به، وهو يغني تلك الأغنية.

نزلت دموعي وأنا أتذكر هذه الحادثة وتلك الأغنية، أبي لم يعد في عالم الأحياء، أتذكر يوم رحل، بعد موت أمي بستة أشهر، وكان يردد خلالها: الله يرحمك يا أم صبحي، وتسقط دموعه بصمت.

كنت أقبل رأسه الأبيض، كنت أحب رائحته وحديثه وشايه اللذيذ، وذكرياته عن فلسطين، كان يرى الدنيا من خلالي، بعد رحيل أخي فتّاح، وكان يقول:

- لم يعد لي غيرك في هذه الحياة.

ولم أدرك قيمته إلا حين غاب، فدموعي كانت تنزل دون إرادة مني كشلال.

وكان في بيتنا القديم ميزة لم أعدها في البيوت الفاخرة التي رأيتها، هذه الميزة هي ميزة الفصول، فشجر الأزد رخت وشجرة الخوخ الوحيدة يكسوها الربيع ويعريها الخريف، والورد الجوري يفتح ويذبل، وماء البئر دافئ شتاء بارد صيفا.

لم أكن اعلم أنني سأفقد تلك الفصول بجمالها حين بنيت بيتا من ثلاث طبقات فوق بيت الفصول، انمحت الفصول بجمالها كأنها لم تكن، فقدت معها الاستمتاع بالجمال، أصبح البيت باردا، ليس هناك أشجار تحرك نسائم الصيف أوراقه ولا يعلق الثلج على أغصانه شتاء.

كنت كمن فقد شيئا عزيزا عليه، كنت أتذكر تلك الجلسة، في باحة البيت تحت قبة السماء، يوم لم يأسر التلفاز الناس، كنا نتسامر، نضحك، نشرب الشاي، نعد النجوم، ام كلثوم جليسة سهراتنا، ثم نذهب إلى فراشنا استعداد الأحلام هنيئة.

كانت أياما من الماضي السعيد.

لم يكن الفقر همنا الأول، السعادة التي فقدناها لا توازيها أموال العالم.

عدت من تلك الأيام الجميلة على صوت شاب يقف أمامي على رمال الشاطئ، ويقول:

- أستاذ صبحي.

تحفزت، تصورت أنطون يقف فوق رأسي وفي يده سلاح الغدر.

- من أنت؟
- أنا تلميذك في المرحلة الإعدادية.
- ابتسمت وصافحته، قال:
- كنت طالبا عندك، لم أكن كسولا ولم أكن مجتهدا، لكنني كنت أستمع بدروسك، كنت أنتظر درسك بفارغ الصبر.
- أيام جميلة، لن تعود.
- مازلت شابا يا أستاذ، كأن السنين لم تغيرك.
- جلس قبالتني على الرمل، تحدثنا عن مدارس وكالة الغوث الدولية، وعن أوضاع المخيم المعيشية المترفة قبل الحرب، وأخيرا قال:
- أستاذ صبحي، كنا نعيش في عالم آخر، ليس من المخيم إلا اسمه فقط، هو مدينة تجارية بكل معنى الكلمة.
- ما السبب في رأيك في انهياره السريع وهروب أهله.
- الفساد والمحسوبية والتفاخر بالمال.
- أنت قادر على التحليل، ماذا درست يا...؟
- أحمد، درست الهندسة الميكانيكية وخرجت من المخيم قبل أن أجد عملا.
- آسف أنني لم أعرف اسمك، من يمتهن مهنة التعليم تمر عليه آلاف الأسماء والوجوه.
- قال:

- والطالب لا يتذكر سوى أستاذه المميز.

ثم أعطاني رقمه الخليوي وغاب عني وكأنه لم يكن. عادت صورة أنطون تلح على مخيلتي، لكنني نهضت وذهبت إلى السوق واشترت خضارا وفاكهة وعدت إلى البيت حيث كان الجميع ينتظر عودتي، قبلتني حنين وكأنني عائد من سفر، وقبلت صبيحة رأسي، ونظرت رندة إلى نظرة اشتياق، أما علي ومحمد فقد تعلقا بي.

بعد الغداء قلت لصباحية لأطمئنها:

- أعتقد أن أنطون قتل.

شهقت وقالت:

- لا أتمنى ذلك؛ فجورج سيحزن على أخيه.

- أليس عندكم صورة له؟! يجب أن نراه لنعرفه.

- سأبحث عنه في النت، لأنه كان بطلا من أبطال المصارعة في ألمانيا.

ونهضت تبحث عن صورة أنطون في النت.

أما أفكاري فسبحت في شوارع دمشق، في شارع الصاحية أمام المحلات البراقة، أمام الوجوه المتسمة، أمام عبق الياسمين، أمام روح الله في الأرض، ثم وجدت نفسي في القيمرية، أمام الوجوه الضاربة في التاريخ، أمام النفوس الأبية، أمام مياه البحيرات المباركة، أمام الأشكال الهندسية، أمام تاريخ الصدف في العالم، أمام رائحة الطعام، أمام عبق الحكايات الشامية الجميلة.

ثم وجدت نفسي أمام قوس جوبيتر، أمام الحجارة التي تحكي التاريخ، أمام القوة الروحية والجسدية، ثم وجدت نفسي في قصر العظم، أمام الصبايا الراقصات، وأمام الياسمين، أمام الحب، أمام النوافير تخرج من القلب إلى الروح، ومن الروح إلى القلب؛ تحكي حكايات التاريخ الدمشقي، تطيب الجسد، تداوي الروح، تنتشي بعبق الياسمين.

جلست على طرف البحيرة، سمعت الماء يحكي الماء، سمعت الأشجار تحكي الأشجار، سمعت الحجارة تحكي الحجارة، سمعت السماء تحكي الأرض، كل شيء حولي يتكلم بهمس الروح.

تحدثت إلى التماثيل الشمعية، دخلت الحمام ونظفت روحي، أمام النافورة الباردة المياه، شربت الشاي، كانت الشمس دافئة لطيفة.

فجأة، ارتبكت النوافير، وسكنت المياه، وغابت الشمس، واختفت التماثيل، وسقط الياسمين على الرخام البارد، دخل مسلحان بشعرهما

الطويل ولحيتهما، جلسا إلى جانبي ومدَّ أحدهما فوهة سلاحه نحو صدري، ثم أطلق النار، صحت، كان الرمل يملأ وجهي وكنت أسبح في العرق.

كانت حنين تجلس فوق رأسي، وتسبح نظراتها في المدى الأزرق، حين صحت قالت:

- كنت تحلم.

- أحلامنا أصبحت كوابيس.

- كنت أتمشى فوجدتك تنام على الرمل.

مدت يدها، أمسكت بيدي، أحسست براحة واطمئنان، في عينيها خوف دفين، ابتسمت وقالت:

- إنهم ينتظروننا على العشاء.

- والناس الذين بقوا في المخيم يموتون جوعاً. رأيت صباحاً على النت فواجه لم يكن يتصورها عقل؛ رجل في منتصف العمر يموت من الجفاف، ورب أسرة لم يذق الخبز منذ ثلاثة أشهر، كان يعيش على الماء والحشائش، المخيم الذي كان متخماً بالطعام يموت من الجوع.

أمسكت يد حنين، سرنا على الرمل، كأننا نسير فوق السحاب، حكى لنا البحر حكاياته، وغنى لنا الموج أغنياته، التقت السماء بالماء، وطيور البحر تحدَّث الماء والسماء.

ركضنا على الرمل، ركض البحر معنا، ركضت السماء، أخذنا نلهث، لهث البحر، لهثت السماء، ولهثت الطيور.

كنت شيئاً آخر، وكانت حنين شيئاً آخر، كنت البحر والسماء، وكانت حنين الطيور التي تلامس سطح الماء.

قالت:

- أريد أن أسير هكذا إلى الأبد.

- هذا البحر أخذ منا أناساً نحبهم.

- البحر ليس له ذنب.
- شدت حنين على يدي حين رأت شخصا يقف أمام باب البناية،
عيناه واسعتان.
- همست:
- قد يكون أنطون.
- لكنه أعمى.
- عيناه صافيتان كالبلّور.
- في هذه الحياة أشياء كثيرة تخدعنا.
- كان العشاء دسماً، جلست بعدها على الشرفة، كانت هناك على
الشاطئ خيام تتصب.
- لم يعد هناك مكان للخائفين.
- سقطت دموع رندة، وحين مسحت دموعها تكلم البحر، بدت
الجزيرة الوحيدة في صيدا وكأنها تحرس قلعتها.
- رن الهاتف، كان عدنان سأل عن الجميع ثم قال، أوكراينا قادمة
على صقيع لم يأت منذ مائة عام.
- رن جرس الباب، ركضت صبحية نحو الشرفة مصفرة الوجه،
قلت لها:
- القاتل لا يدق الجرس.
- كان جورج، جاء محملاً بأشياء كثيرة ورائحة دمشق.
- سألته:
- كيف هي دمشق؟
- جريئة لكنها بعافية، حين سقط الثلج في شوارعها بدت
كعروس في ثوب أبيض.
- سألته صبحية:

- وأنطون.

- لم أسمع عنه شيئاً.

أكلت الحلوى الدمشقية فكانت علقماً في فمي.

- هل جاءت دعوة الجزائر؟

- لم تأت بعد.

قال جورج:

- أغلقت محلي، سأبقى هنا.

ثم قال:

- سنذهب جميعاً إلى مصر.

- اشتقت أن أرى الأهرامات وأبا الهول وقبر جمال عبد الناصر.

بدأت صبحية مرتاحة لهذا الاقتراح، سهرنا تلك الليلة دون منغصات، ضحكت صبحية من أعماق روحها، كان القمر بدراً فوق البحر، وكان الصوت الوحيد في الكون هو صوتنا وصوت البحر. كأنها سهرة من سهرات الماضي السعيد، كانت أمي وأبي وبدرية وصبحية يستمعون إليّ وأنا أقرأ في قصة ألف ليلة وليلة، السندباد البحري يقفز من بحر إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، مغامرات لا تنتهي، وخيال لا حدود له.

قالت رندة ونحن نستعد للخلود للنوم:

- أين شردت؟

- في بيتنا القديم، تحت شجرة الأزد رخت، تحت قبة السماء الصافية، وصوت مياه النافورة، ورائحة الشواء من جارتنا الجزائر. كانت أمي وأبي وأخواتي وبيدي كتاب ألف ليلة وليلة، والسندباد البحري كأنه لا يموت، مهما حدث له لا يموت، لكن الناس الآن يموتون، هل السندباد ليس من البشر أم هو شخصية خيالية، صنعه خيال شهرزاد.

- الآن يا رندة الناس يموتون، لم يغامروا مثل السندباد ولكنهم يموتون؛ كأنهم قطع من الزجاج قابلة للكسر.

- في القصص لا يموت الأبطال.

- لماذا لا نكون أبطالاً، لماذا كتب علينا ألا نكون أبطالاً حتى لا نموت لأنفسه الأسباب.

- تلك قصة وهذا واقع.

- لكننا نعيش في عالم أغرب من الخيال، أليس هذا تناقضاً؟

- وأيضا نعيش في عصر التناقضات.

- نحن في القرن الحادي والعشرين لكننا ما زلنا نعيش في العصر الجاهلي.

تمددت الأفاعي داخل أرواحنا، أنطون هل هو ذلك الشبح الذي لا يمكن لمسه، أم هو الإنسان الخارق كما في الأفلام الأمريكية، أم نحن لا شيء، لا أدري.

لمست رندة خدي فارتعش جسدي.

- أريدك يا صبحي أن تبقى صلباً كما عرفتكَ.

- أنا أعيش في جسد ليس لي.

صارت تمسح على شعري مثل طفل صغير، غفوت، عادت رندة امامي صبيبة جميلة، في بستان مليء بالورود، ركضت، لحقت بها، كنت أسمع ضحكاتها، تحركت الورود، تحركت رندة، اختطفَتْ منها قبلة.

- سيرانا الناس.

- أنت زوجتي.

- دع قبلاتك لوقت آخر.

نظرت إليّ رندة:

- فيم تفكر؟

- فيك.

- كيف؟

- هكذا.

وقبلتها، وفي تلك الليلة مارسنا الجنس كما لم نمارسه منذ شهور.
في الصباح كانت أمواج البحر تضحك بنعومة، والشمس تمنح
دفئاً لذيذاً.

قال جورج:

- الحياة جميلة.

- الإنسان هو الذي جعلها بشعة.

نزلت مع علي ومحمد ليلعبا على الشاطئ، لحق بي جورج، ركضت
مع ولديّ، لهتت ثم جلست على الرمل، جلس جورج إلى جانبي،
وهمس بمرارة:

- أبا عدنان أريد أن أخبرك بشيء.

نظرت إليه، أضاف بمرارة أكبر:

- صبيحة ليست مصابة بمرض القلب، بل هي مصابة أيضاً
بالسرطان.

بكى البحر قبل أن أبكي أنا.

- لهذا اخترعت قصة أنطون من أجل أن تسافر للعلاج في مصر.

- ولم؟

- كانت ترفض السفر، لولاكم لما كانت هنا.

أحسست أنني مثقل بكل شيء؛ بالهموم والأحزان والدموع
والغربة والموت، مثقل حتى نقي العظام.

صبيحة هي نهاية المطاف لأحزاني، لم أشبع من رؤيتها بعد سنين
الجفاء.

قلت لجورج:

- سنهاجر من مصر إلى إيطاليا عبر البحر كما يفعل الآخرون،
وهناك سنعالجها.

- لكنهم يموتون في البحر.

- صبحية ستوت وسنموت معها.

- سنجتمع كلنا في السماء.

وأضاف:

- صفيت أعمالي في الشام من أجلها.

- وإمام؟

- سيأتي إلى مصر وسنساfer معا.

- ودمشق؟

- سنعود إليها حين تبرأ من جراحتها.

كان علي ومحمد يضحكان، ضحكت معهما، لكنه ضحك اسود،
يبعث المرارة ويمرض الروح، وحين صمتوا، جاء البحر بأواجه
الرخية ليدمل الجروح.

جلست مكاني، لم أتكلم أو أتحرك، توقف موج البحر، بردت
الشمس، توقفت الحياة.

رأيت دموعا في عيني جورج، لم يعد البكاء يكفي للحزن، ولم تعد
الحياة تكفي للسعادة.

قلت بقسوة:

- لماذا اخبرتني؟

- إن لم تعلم اليوم ستعلم غدا.

- قل لأهبي نفسي للفراق.

- صبحية قوية، ستتغلب على مرضها.

لم يكن المساء كالمساءات السابقة؛ صوت الموج يأتي كهمسة عاشق،
والقمر بدر في سماء مرصعة بالنجوم، وصباحية في أبهى حلتها، تحيط
بها رندة وحنين، بينما علي ومحمد يجلسان أمامي.

كان الشاي ساخنا، وقالب الكاتو يتوسط الجميع، وزعت رندة
قطع الكاتو علينا وصبت الشاي.

- لن أكل وأشرب قبل سماع صباحية تغني لفيروز.

وجاء صوت صباحية الخجول رخيا كالمساء، غنت للقدس سلام،
وغنت لدمشق ومجدها، وغنت للعروس، ودقوا المهابيح، أخذتني إلى
عوالم بعيدة، ليس فيها دماء ولا آلام، ليس فيها موت ولا دمار، ليس
فيها جوع، ليس فيها أرامل ولا أيتام.

أخذتني إلى كل شيء جميل، سهول خضراء، ملائنة بالورود، ووجوه
ضاحكة، وشمس دافئة، وأولاد يلعبون، ومياه صافية ترتفع نوافير
نحو السماء، وصبايا جميلات، وسماء صافية، وحقول مفعمة بالخير.

حين انتهت من الغناء امتقع وجهها ثم سقطت على الأرض،
حدث ذلك في لحظات، خط فاصل بين العوالم الرخية وقسوة الآلام.

حملها جورج كما يحمل عصفورا جريحا، في المصعد نظرت إليّ
بعينين ذابلتين وابتسمت ثم همست:

- آسفة لأنني لم أكمل غنائي.

لمست يدها، كانت باردة كالثلج.

السيارة تركت البحر خلفنا.

فحصها الطبيب وقال:

- أريد صورة ثلاثية الأبعاد.

بعد الصورة خرج علينا الطبيب مع مجموعة من الأطباء وأخبرنا
بضرورة استئصال الرحم خلال ثلاثة أيام.

بكى جورج بصمت.

قلت له:

- صبحية قوية.

تمنيت ألا أنظر إليها وهي ممددة على السرير.

نظرت إليّ نظرة استعطاف:

- أنا آسفة!

- ستعافين وتغنين لفيروز.

خرجت وتركت جورج عندها، سمعته يقول وهو يبكي:

- سأموت إذا حدث لك شيء.

نظرت إلى السماء وأنا في حديقة المشفى وصرخت:

- لماذا يا رب يلاحقنا الموت؟

تمنيت أن أصبح فقاعة تذهب في الهواء وتختفي، تمنيت أن أصبح
شيئاً لا يعي الأشياء، هذا عذاب لا تطيقه الصخور فكيف بالبشر،
تجار الحروب يعشون بالأرواح وتجارة الأعضاء، الدماء تسيل،
والدموع شلالات، الأطفال بلا آباء وأمّهات، الدنيا تنفجر، وكأننا
في دهشة يوم القيامة!

قال لي جورج بياس:

- نامت.

- لا وقت للصحو في هذا الزمن.

- اذهب للبيت، سأبقى معها.

- هي غالية عليّ كما أنت.

أصرّ على ذهابي، أضاءت الشمس صفحة البحر، مشيت، كانت صبحية ترافقني حين أضاءت الشمس صفحة البحر، إنها هنا معي، تركض على الشاطئ، تلعب مع طيور البحر، تمنيت أن أظل أسير وتبقى صبحية معي، تركض على الرمل، تغسل قدميها بماء البحر الذي أضاءته الشمس.

وقفت على الشاطئ قبالة قلعة صيدا وصرخت:

- صبحية، لا تموتي.

امتص البحر صدى صوتي، نظر إليّ رجل بارتياب، ثم أخذ يتعد بخطوات سريعة كيلا ألحق به، بقيت أسير وأسير حتى بدت صيدا ورائي، أحسست بالتعب، فجلست على صخور قرب الشاطئ، تمنيت أن يتلع البحر جسدي، يغيبني إلى الأبد، لا يبقى مني شيء، صبحية لن تكون بيننا قريباً، أريد أن يعود الزمن إلى الوراء، لكن الزمن بلا قلب، كالصخر الذي أجلس عليه، كل شيء حولي بلا قلب، حتى أنا كنت بلا قلب حين عادت صبحية.

رنّ هاتفي، كان عدنان، عرف حزني من نبرة صوتي، صرخ بألم:

- قل لي بربك يا أبي ماذا حدث.

- صبحية عمّتك مريضة بالسرطان.

صمت عدنان، كان يبكي بصمت، ثم قال:

- أين أمي؟

- حين أصل البيت سأهاتفك.

كانت هنالك أصوات في داخلي تصرخ، تعبر البحر وتصرخ، تعبر السماء وتصرخ، تعبر أعماق الأرض وتصرخ.

لم أستطع أن أنهض، البناءات أخذت تتلاشى، والشوارع اختفت،

والبحر جمدت مياهه، والشمس بردت، والسيارات توقفت، والناس
بدوا كالأصنام.

أين أنا؟!

نهضت راكضاً بين السيارات المتوقفة والناس الأصنام والشوارع
المختفية، ومنظر البحر المتجمد، والبنائات المتلاشية، ركضت طويلاً
ولكن إلى أين؟!

توقفت ألّهث، ثم عاد كل شيء إلى طبيعته، كانت صيدا قد ابتعدت
كثيراً، وكنت متعباً إلى حد الإعياء، مددت يدي المتعبة لسرفيس قادم،
توقف أمامي، كان السائق ينظر إليّ بعينين بارزتين وخدين محمرين، لم
يسألني عن وجهتي، توقف عند البناية التي أسكن فيه.

- كيف عرفت؟

- انزل، لا وقت لدي.

اختفت السيارة بسائقها ذي العينين البارزين والخدين المحمرين.

كانت صبحية في استقبالي ويدها ألّوم صورنا القديمة.

- هذه أمي تجلس سعيدة تحت الشجرة، وذاك أبي يشرب النارجيلة
أمام بركة الماء، وهذا فتّاح يقرأ في كتاب، وتلك أنا أركض في حديقة
المنزل.

صرخت:

- كفى، كفى.

- لماذا تصرخ يا أخي؟! ذكرياتنا الجميلة في هذا الألبوم.

- لكنهم رحلوا جميعاً.

- كلنا سنرحل يوماً ما.

تمنيت لو مت في هاتيك الأيام الجميلة.

اقتربت مني صبحية وهمست:

- إنها أيام الحقيقة.

وتابعت:

- منذ زمن كان علينا توقع ما يحدث الآن، كل ما حدث من صنع أيدينا، الآخرون فقط أداروا العجلة.

- ما العمل؟

- لا عمل سوى أن يأتي جيل جديد يعيد تاريخنا المضيء.

- لكن تاريخنا مليء بالدم.

- لنرم هذا التاريخ في الحاويات التي امتلأت بالجثث.

اختفت صبحية مثلما ظهرت.

صبحية، ابقني إلى جانبي، تنتشي روحي حين تكونين قربي، أحس أنني مازلت حيا، كيف ضاعت تلك الأيام الجميلة في دمشق، كيف لم أكن معك هناك، حين كان القمر بدرا، والنجوم تلمع، والشمس تسطع، والناس يضحكون، والدنيا بهجة؟!

همس أحد المارة في أذني:

- الماضي مهما كان تعيسا يصبح ورديا.

كان الناس يتكاثرون حولي، لا أعرف من أين أتوا، ولا أين يذهبون.

سألت أحدهم:

- هل رأيت صبحية؟

- كانت هنا ثم حملتها سيارة إسعاف.

صرخت:

- كيف عرفت؟

- نحن أقاربك.

تصفحت وجوههم، لم أعرفهم.

أحاطوا بي وهم يضحكون ساخرين:

- صبحي الجمال، ألا تعرفنا.

- من أنتم؟

كان أخي فتّاح الذي مات منذ ثلاثين عاما معهم، تباعد الناس عني، مشيت مع أخي على الشاطئ، ثم قال:

- عمتي صبحية ستأتي إلينا قريباً.

قلت بحزن:

- لا تقل هذا.

- أخي، هنا لا ألم ولا جراح، هنا لا حقد ولا كراهية، جميعهم عائلتك، لا يقظة هنا ولا نوم، لا هموم ولا أحزان، ولا تنتظر الموت.

قلت:

- هل مت مثلك؟!

- ليس بعد.

فجأة انفض الأموات عني، اختفى فتّاح معهم، كنت أجلس على مصطبة البناية، وكان حارس البناية ينظر إليّ بدهشة ثم قال:

- هل أنت مريض يا أستاذ، أتريد مساعدة؟

- لا، لا، شكراً.

دخلت البيت، استقبلتني رندة بفستان فاضح، ثم أمسكتني من يدي وأدخلتني إلى غرفة النوم، وقالت:

- انتهت الآن.

تخلصت من يدها بعنف وقلت:

- أنت مجنونة؟! في النهار والبيت مليء؟!

- أختك صبحية مع زوجها في الغرفة، وعلي ومحمد يلعبان خلف البناية، وحنين في السوق، إنها فرصتنا.

ثم أغلقت الباب بالمفتاح، وخلعت ثوبها الفاضح، فظهر فخذاها الأبيضان الطريان، قامت ببعض حركات الإغراء، تقدمت منها، لكنها كانت امرأة أخرى، جاءت رندة بثياب الطبخ وقالت:

- صبحي، لماذا تصرخ؟!

- هل جورج وصبحية في الغرفة.

- أنسيت؟! صبحية في المشفى وجورج عندها.

ثم وضعت يدها على رأسي وأخذت تتمتم ببعض الآيات القرآنية، كانت يدها الأخرى تتحرك برتابة، وعيناها تتابعانها كبندول الساعة، شممت البخور، رأيت صوراً لم أدركها، ابتعدت المرأة المغناج عني وهي تصرخ من الغضب، كنت هادئاً كطفل أخذ يغرق في النوم.

حين فتحت عيني كانت رندة تنظر إليّ:

- ماذا حدث؟

- اتصل جورج وكان يبكي.

- هل ماتت صبحية؟

- قال إنها فقدت الوعي.

- سأذهب إليها.

- لكنك متعب.

- إنها بحاجة إليّ.

خرجت، كان المطر يهطل بغزارة، أنابيب من المياه تنصب من السماء على الأرض، الناس يتراخضون نحو شيء ما، ركضت معهم، وقفوا أمام جدار عال من الإسمنت، كان الماء خلفه، أرادوا تسلق الجدار، حاولت تسلقه معهم، نظرت إلى فوق، كانت صبحية في الأعلى تنظر إليّ، لوحت لها بيدي، عيناها واسعتان، ووجهها بعرض الجدار.

همست:

- أسرع إليّ.

ركبت سيارة أجرة، لحق الناس بالسيارة، دخلت السيارة زواريب صيدا القديمة، ولم أجد نفسي إلا أمام المشفى.

كان جورج مازال يبكي، دخلت غرفة صبحية، كانت نائمة كالملائكة، أنايب الأكسجين تدخل فمها، تمر عبر دمي، تنفجر شراييني.

- صبحية، لا تتركيني.

رفّت رموشها، رفّ قلبي، توقف نرف شراييني، اقتربت منها أكثر، كان صوت تنفسها بعيد المسافات، خاطبتها:

- إذا عاد وعيك لن نهرب من الموت أبدا، سنعود إلى دمشق، سنعود إلى أحضان الموت لنحيا، وعندئذ، سنسير أنا وأنت في الحارات القديمة الباكية، نبكي مع الباكين، وتألّم مع المتألّمين، ونتنفس هواء الياسمين، لن نهرب أبدا، هل تعدينني يا صبحية؟!

فتحت صبحية عينيها، تأملتني قليلا وابتسمت، ثم عادت إلى اللاوعي.

لم يكن جورج يقوى على الكلام، قلت بتصميم:

- ستعود إلى وعيها.

- هربنا من الموت فلحق بنا.

- صبحية لن تموت.

صرخ في وجهي:

- لكنها جثة هامدة، لم يبق فيها إلا النفس الذي يخبو مع تقدم الزمن.

انهار جورج على الأرض؛ كان ينشج كطفل صغير فقد لعبته، أمسكته بقوة من كتفيه وقلت:

- أنا أعرف صبحية، إنها قوية كجبل، تحدثنا من أجلك،
وستتحدى المرض والموت.

جاء الطبيب، كان وجهه يائسا مثل جورج.

رأيت صبحية وهي تجلس إلى جانبي، تبسم كصباح جميل، تضع
رأسها على كتفي، تنظر إلى مساحة خضراء نبتت فيها الورود من كل
لون، مشينا بين الورود، قلت لها:

- هذه الورود تفتحت من أجلك.

ثم توقفت.

ذبلت الورود، وصار العشب أصفر، وعندئذ، اختفت صبحية،
جاء جورج وهو يلهث:

- أين صبحية؟!

- كانت معي واختفت.

صحوت حين دخل ثلاثة أطباء غرفتها مهرولين، منعوني من
الدخول، ومن خلال الزجاج رأيتهم وهم يحاولون إنعاش قلبها
بالصدمات الكهربائية، كنت أراها ترف كحمامة ذبيحة، كان جسدها
اللين يحاول استعادة أفق الحياة، أحسست أنني أموت معها.

اللحظات تلك تعادل سنوات عمري الستين.

- أرجوك، لا تتركيني، حياتي ستصبح صحراء بدونك.

هدم الجسد اللين، غطوا وجهها بغطاء أبيض، كان جورج يرتجف
خلفي، وحين سقط على الأرض نقلوه إلى غرفة أخرى، كنت أنظر
إليها تحت الغطاء، كانت نائمة، أسمع صوت تنفسها، ولم أدرك أنني
أسمع صوت تنفسي.

رفعت الغطاء عن الوجه الملائكي، مازالت الابتسامة على وجهها.

صبحية، لم فعلت بي هكذا؟! لو بقي الجفاء بيننا لكان أفضل، لو
لم تنبشي سنوات الأخوة الضائعة لما كنت هنا حزينا حتى العظم؟!

حين عدت إلينا عادت تلك السنوات الجميلة، كنت أخجل
حين أتذكر عنادي معك حين تزوجت جورج، كنت أحسّ أنّ الحياة
قصيرة، وأنّ اختيار الإنسان مقدس، لكنني لم أكن أفصح عن ذلك
إما عنادا أو تكبرا.

الآن، عرفت أنّ الإنسان يعيش بالخطأ وهو يدرك الصواب، بموتك
أدركت خطأي القاتل، حين عرفت خطأي عرفت تفاهتي، أنت الآن
جسد بلا روح، أما أنا فروح معذبة داخل جسد.

كنت أدور في الغرفة دون هدف وصباحية مسجاة أمامي:

- انهضي، تكلمي معي، أضيئ الشمس المطفأة في أعماقي.

كنت أصرخ بلا وعي، حين دخل ممرضان أعطيانني إبرة مخدرة ولم
أشعر بعدها بشيء.

في البيت، كانت رندة تجلس فوق رأسي دامعة العينين.

- هل دفنوها؟

هزت رأسها إيجابا وحزنا.

ما زالت رائحتها في المنزل، تشبه رائحة البحر والشمس والصخور والخبز، تشبه طعم الليل الهادئ، ورائحة أزهار الربيع، كنت فقط أشم رائحتها، فيها ابتهاج وحزن، فيها غناء وعذاب، فيها خليط من رائحة الموت والحياة.

حين أشم تلك الرائحة تكون صبحية حاضرة معي؛ بقوامها، بحديثها، بمشيتها، بطيبتها، بضحكتها، ببكائها، لم يتبق منها إلا تلك الرائحة، كأنها روحها عششت في أعماقي، كنت سعيدا بها قدر تعاسي على فراقها.

عاد جورج وبكى حتى تألمت الحجارة.

قلت:

- ما زالت صبحية معي، هل تشمها؟

مددت يدي أمام أنفه، شم عطر صبحية، حديثها، ضحكتها، حزنها، فرحها، ابتسم ابتسامة خجلى.

قال:

- قبل موت صبحية حجزت إلى مصر لنعبر البحر إلى إيطاليا.

- لنكون طعاما للأسماك.
- لتأكلنا الأسماك خير من أن يقتلنا البشر.
- والآن.
- لا أعرف.
- بقيت طوال الليل أفكر في البحر والهروب.
- رنَّ هاتف رنده، استمعت إلى المتحدث، ثم رمت الهاتف، عيناها مفتوحتان، وامتنع وجهها، وارتجفت يداها.
- ماذا حدث؟
- أخي احمد، مات بشظية.
- كيف؟
- كان ذاهبا إلى المدرسة ليأتي بابنه، سقط برميل مات هو وآخرون، وأصيب ابنه والآخرون.
- ثم انفجرت دموعها، أخذت الغرفة تنز دموعا، نهرا من الدموع.
- سكتت فجأة وتساءلت:
- لماذا أبكي؟!
- صرخت بها:
- رنده.
- عادت إلى رشدتها وبكائها ففرحت.
- نحن أمة من دون الأمم إذا لم نبك أحزاننا لا نعيش، كنت فرحا لأنها عادت إلى حزنها، لو ضحكت لفقدت عقلها من هول الصدمة، ولكن هل اليكاء في ظل أزمت الحزن يمحو لحظات الجنون؟! ثم توصلت إلى أن المصيبة إذا لم تغسلها الدموع يغيب العقل ولا يعود.
- كنت أنظر إليها بينما حنين تحتضنها كطفل فقد أبويه، وفجأة نهضت قائلة:

- سأعود لأراه.
- لكنهم دفنوه منذ يومين.
- كانت تبكي وهي تقول:
- سأنبش قبره، أريد أن أراه للمرة الأخيرة.
- ليس هناك أحد ينبش القبور في الحرب، في هذه الحرب الملعونة يموت أحباؤنا دون أن نراهم.
- سكنت بين يدي حنين مرة أخرى، وجلس كل من علي ومحمد قربها حزينين صامتين، ثم صرخت فجأة وكأنها تصرخ من داخل قبر:
- كيف يذهب دون أن أراه؟! هذا ظلم.
- تقطّع قلبي عليها، إنهم هناك يقتلون أجبائنا ونحن هنا نبكي، يفعلون الجرائم دون أن يحاسبوا.
- جاء جورج وسمع بالمصيبة الجديدة، أراد أن يبكي لكن دموعه جفت، وجلس على الأرض يعتصر دموعه، بكت رندة مصيبتها ومصيبته، وبكى جورج مصيبته ومصيبتها، وبكىنا جميعاً مصائبنا.
- لم يعد البكاء يقدر علينا فصمتنا وكأننا من عالم آخر.
- قلت لجورج:
- سنذهب عند إمام في الجزائر، الغ حجز مصر.
- دعوني أعد إلى دمشق لأموت هناك، لا معنى لحياي بعد صبحية.
- إذا ذهبت لن تكون صبحية معنا.
- عانقني وبكى، نهضت رندة ومسحت دموعها وقالت:
- سأصلي ركعتين ثم أضع لكم الطعام.
- نظرت إليها وهي تسير نحو المطبخ وكأنها امرأة أخرى، هل يغير الحزن مشية الإنسان؟! هل تنهدم الجدران في داخله فيصبح إنساناً آخر؟! آخر؟!

لم تكن الأيام التالية بأفضل من الأولى، إن لم تكن أسوأ، كنت خلالها أجلس على الشرفة وأرى خيام النازحين، في أعالي جبال صيدا، بألوان وأشكال، تراها من بعيد وكأنها تحتفل بعيد أو كرنفال، وحين تقترب منها، تشم مآسي الإنسانية والموت والدموع.

حاولت الذهاب حيث الخيام، لكن صمت رندة منعني من التحرك، أما جورج فقد كان يمضي نهاره إما على الشاطئ أو أمام قبر صبيحة، وحين يعود يأكل لقيمات ثم يدخل غرفته حتى الصباح. وكثيرا ما كنت أنهض فأراه يحمل صورة صبيحة، والدموع في عينيه.

الموت والأماكن فرقنا الأحباب.

الموت والأماكن خلقنا نوعا من الانكفاء على الذات.

الموت والأماكن أسست جدراننا سميكة من الأحزان والدموع.

الموت والأماكن نحتنا في صخور الذكريات فأنبئت جزرا بئسة وحزينة بدل الواحات الجميلة في الماضي.

الموت والأماكن وحدث أعمار الناس، وحدهم الهم والحزن، وحدثهم المأساة، حتى صاروا في عمر واحد.

الموت والأماكن جمعت البشر في طريق الجلجلة، جعلت هناءهم تعاسة، وجعلت آمانياتهم كابوسا.

- لماذا نكابد الحياة بسبب ظلم الآخرين؟

قالت رندة:

حين كنت صغيرة؛ كان أبي يأخذني إلى سينما غازي قرب المرجة، أحس بيده الدافئة في الأيام الباردة.

حسبت أن الحياة مجرد ضحكات تخرج من القلب، حين أتفرج على إسماعيل ياسين وشارلي شابلن وغيرهما.

أين أنت يا أبي لتعيد لي تلك الحياة الدافئة؟! أين أنت حيث كانت
قلوبنا تضحك قبل أفواهنا؟! أين أنت لتعيد لي ذكرياتي الجميلة في
البيت والمدرسة والجامعة؟!

الآن، لم نعد كما نحن، صرنا أحلاما محطمة، وذكريات ضائعة،
وموتا مقيما، كنت أراقب رندة بعد صلاتها؛ كثيبة، دامعة، منهزمة،
تائهة، أنهزم وأتوه، نتوه جميعا.

أرى أبي وهو يأتي مساء في المساءات الثلجية، يحمل في حقيقته
بعض حبات البطاطا، وقوالب من الفحم الحجري، تشتعل القوالب
فيشتعل الدفء، يصبح كأس الشاي الساخن أغنى من العالم كله.
تبدأ أُمِّي بحكاياتها الأسطورية، ويتسم أبي وهو يدخن، كان
الدفء يعيد لنا الحياة؛ مثلما الحكايات تعيد لنا الخيال.

حين أنام أتحدث مع أبطال الحكايات، أركض معهم في الغابات،
أسبح معهم في البحر، لم أخف من أشكالهم الغريبة.

أريد صياغة تلك الحكايات بطريقة أخرى تناسب العصر، أفكر
كثيراً قبل أن أخط كلمة واحدة على الورق، أسأل الشخصيات أسئلة
كثيرة، وأغلبها غيبة، عن أقاربهم وعن أوطانهم، عن ألعابهم، عن
مدارسهم، لا أتلقى إجابات شافية، ينظرون إليّ، يضحكون أو يعبسون،
ثم يتعدون ويختفون، وعرفت أخيراً أن لا أوطان لهم.

وهناك شخصيات أخرى من الحكايات تتحدث إليّ رغم صغر
سنها وكأنها أحد الحكماء، كنت أستعين معظم الوقت بهؤلاء كي
يحلوا لي الألغاز، ويحييوا عن الأسئلة التي تدور في ذهني.

من تلك الألغاز مسألة الموت، وتحديد مصير الإنسان، كانت
إجاباتهم غامضة، وأخيراً عرفت أن مصير الإنسان يحدده قدره.
ولكن لم جاء تجار الحروب ليصنعوا أقدار الناس على مقاسهم، لم
يتركوا ليعبثوا بأقدار الناس، وهمهم الوحيد جمع المال أو السلطة؟!
لكن المال والقدر شيان مختلفان.

كانت تلك الشخصيات يتعدون عن الحكمة أحيانا، يلفون ويدورون، حول الصياغات اللفظية المتعددة التي صنعتهم، ويتهربون من الإجابة، ثم يخفون قبل إعطاء رأي مفيد، أبحث عنهم، في جوف الليل، أو عند القيلولة، فلا أرى منهم إلا أشباحا تتحرك فوق الجدران ثم تغيب.

جاءت حنين وقطعت عليّ أفكارى:

- هناك شاب بالباب يريدونك.

وقف أمامي، كأنني أذكر تلك الملامح:

- أنا طالبك يا أستاذ أحمد عطوه في المرحلة الإعدادية.

كان شعلة من الذكاء.

- كيف عرفت أنني هنا؟

- أنا ناطور البناية التي بجانبكم.

- ناطور؟

- تركت كلية الطب وجئت مع من بقي من أهلي.

- وأبوك؟

- خطفوه ثم قتلوه.

ومسح دمعة كادت تسقط من عينيه.

- جئت أقدم لك العزاء في أختك، رحمها الله.

- شكرا لك.

جلسنا على الشرفة نحتسي القهوة المرة، قال:

- سمعت عن مكتبك الكبيرة.

- قتلوها.

- أو سرقت؟!!

- لماذا يسرقون الكتب، لا أحد يشتري الكتب في عصر الجوع والحرب، هم أصلا لا يقرأون، لو كانوا يقرؤون لما حدث ما حدث، أعتقد أنهم تدفئوا عليها في البرد القارس.

صمت قليلا ثم قلت:

- أختي ماتت مرضا وقهرا، وأخو زوجتي مات قتلا، هناك يموتون ويدفنون دون جنازة، في عصر الحرب يصبح الإنسان كالبهيمة. كان هناك دموع في عيني، نظرت إليه كان خجلا، لأنه لم يعرفني إلا قاسيا داخل الصف.

- لا تحجل يابني، فأنا لم أعد ذلك الإنسان القاسي، الحرب فتحت القبور وفتحت معها العقول والعواطف، انظر إلى الناس حولك، صاروا كتلة من المشاعر والعواطف، لا تجد أحدا إلا يبكي، القوي قبل الضعيف، والكبير قبل الصغير، وحدثت الحرب المشاعر فخرجت إلى العلن دون موارد أو تحايل.

أخذت دموع أحمد الساقطة تلمع تحت أشعة الشمس:

- ابك يا بني، نحن لم نعد نحن، كنا شيئا وأصبحنا شيئا آخر، قد يكون لهذه الحرب الملعونة شيء ايجابي وهو أننا لم نعد ننظر إلى المرايا. أخذ يبكي وهو يقول:

- حين اتصلوا بنا وطلبوا فدية ليطلقوا سراح أبي، قلت لهم: خذوني بدلا منه، لم نعد نملك شيئا، لكنني أملك نفسي.

صمت قليلا، ثم بدأ الغضب يكسو حزنه:

- لم أره منذ ذلك الحين، سمعنا أقاويل كثيرة عن مصيره، لكنني أعتقد أنهم قتلوه، لأنهم لم يعودوا يتصلون بنا، أبي ابن السبعين عاما يقتل لتشابه في الأسماء.

- إن قتل فهو شهيد، وإن بقي حيا أرجو أن تراه ويراك.

ومسحت على شعره.

- أحسست أنك مثل أبي ولهذا قلت ما قلت.
- لا عليك، أنت مثل أولادي، لقد وُحِّدنا لهم، لم يعد بيننا حواجز.

نهض ليذهب وقال:

- أرجو أن تزورني يا أستاذ.

وفجأة سمعنا صراخا وعويلا، ركضنا نحو الجهة الجنوبية من الشاطئ، كان الناس مجتمعين حول جثة امرأة تأكلها النيران، وضع أحدهم بطانية فوق جثتها، وجاءت سيارة الإسعاف ونقلتها إلى المشفى.

لم أعد أقوى على الوقوف، جلست على صخرة قرب الشاطئ، وتأملت المياه الزرقاء، والسماء الصافية، التي لم تبك لما أصاب المرأة.

جاء أحمد وجلس إلى جانبي وسرد لي قصتها بحزن:

- يقولون إنها نازحة مثلنا، زوجها مقعد بسبب الحرب، وأولادها جائعون، حين ذهبت لتأخذ حصتها الغذائية قالوا لها في البلدية إن اسمها قد شطب، فأحرقت نفسها.

- أصبح الناس يموتون من أجل لقمة العيش في القرن الحادي والعشرين، لا من أجل منصب ولا مال، هذا هو عصر الانحطاط يا بني.

- صدقت يا أستاذ.

بقيت جالسا على الصخرة حتى لسعني برد منتصف الليل، كانت حنين تنتظرني أمام الباب، قالت بهمس:

- عمي، أريد أن أقول لك شيئا.

جلست قبالتها، كان وجهها شاحبا، وصوتها مرتجفا، وبصعوبة قالت:

- عمتي صبيحة كانت قبل قليل تنام إلى جانبي، وكانت تلبس بدلة عرس بيضاء.

ابتسمت قائلاً:

- كنت تحلمين فظننت أن الحلم حقيقة.

قالت بغضب:

- بل رأيتها كما أراك الآن، لم أكن أحلم.

- أقرئي بعض الآيات القرآنية وستزول هذه التهيؤات.

- قلت لك كانت بجانبني ولمستها.

مشيت مع تهيوّاتها فقلت:

- اشتقت لها، أريد أن أراها.

أمسكت بيدي، كانت يدها باردة كالثلج، نظرت إلى وجهها،
كانت عيناها مفتوحتين، والحدقتان متسعيتين، ووجهها شاحبا.

أخذت الوسائس تناوشني، وأخذ العرق البارد يغسل جسدي.

كانت الغرفة مظلمة والستائر منسدلة، نظرت حنين إلى زاوية
الغرفة وأشارت قائلة:

- ها هي عمّتي.

نظرت حيث أشارت فلم أر شيئا.

- لم أرها.

- انظر جيدا.

وبدأت تصرخ، وتبكي إلى أن فقدت الوعي.

دخلت رنّدة وأخذتها بين ذراعيها.

لم أدر ما أفعل، كنت أسمع بكاء حنين الموحّج، وكأنه آت من
أعماق سنين البؤس، من أعماق السفر برلك، وحروب تيمور لنك،
وطاعون دمشق الأسود، وانتكاسة ٦٧، وضياع فلسطين.

كان نواحا ليس كالنواح، وبكاء ليس كالبكاء، إنه بكاء روحي،
يدخل في نقى العظام، يسير مع المقهورين، ويتوجع معهم.

لم يتبق من حنين إلا أنفاس تخرج وتعود، تلك الأنفاس العالقة في
ثنايا الروح، المنغمسة في أتون الحزن، والموت، والألم، البقية الباقية من
أرواح معذبة.

خرجت إلى الشرفة لأتنفس هواء البحر، لحقت بي رندة وفي يدها
كأس شاي ساخن.

نظرت إلى البحر والأضواء المتراقصة على مياهه، وأصوات أمواجه
الهامسة.

- الحياة جميلة يا رندة، لكنها لا ترينا إلا وجهها القبيح.

- هذا ابتلاء.

- متى يرفع؟

- لن يدوم هدوء ولن يدوم ابتلاء، ألم تكن تقول ذلك؟

بقيت نهاراً وأنا جالس في مكاني، كانت نائمة طوال الوقت،
وكنت قلقاً طوال الوقت.

كانت رندة تضع الطعام أو الشاي والقهوة دون أن تتكلم، كنت
أنظر إلى عينيها البائستين حيث غادرهما بريق الأمل.

أيقنت أن حنين سوف تموت، حاولت إخراج الفكرة من رأسي،
لكنها تملكنتني كلياً، وبصمت أخذت أبكي كطفل صغير، حين جاءت
رندة مسحت دموعي كي لا تراها، وخرجت إلى الشاطئ، سرت
مع الشمس، ومع الأمواج، ومع طيور البحر، سرت دون أن أشعر
بالتعب، تصورت حنين وهي تقول لي: لا تتركني، أنا بحاجة إليك.

سمعت خطوات تلحق بي، كان تلميذي أحمد.

- أستاذ، مررت بقربي ولم تلتفت إليّ.

- الأحزان أعمت عيوننا.

سار معي، أخبرني أنه يفكر في العودة حتى لو قتل، فهذه الحرب
لن تنتهي بهائة عام.

حدثته عن قصة حنين في مخيم الزعتري وزوجها المسن، كانت
كلماتنا كحفنة رمل تطير مع النسيم.

عدت إلى البيت، نظرت إلى حنين المتقوعة، وابتسمت بشحوب،
عاد جورج مساءً، بدا كرجل ضائع.

- سنسافر إلى مصر أو ليبيا.

- وعملك؟!!

- ورشتي أحرقت.

جاءت رندة وأنا أهم بالنوم وهمست:

- اتصل إمام، قال إنه بعث لنا دعوة للجزائر.

- ماذا سنقول الآن لجورج؟

- يذهب معنا وهناك نفكر.

- سنحاول... إن قبل.

لم أنم تلك الليلة، كنت أرى حنين وقد سقطت من الشرفة،
وجورج أحرق نفسه على موت صبيحة، وعلي ومحمد يغرقان في مياه
البحر، ورندة متمددة في منتصف الغرفة دون حراك.

صباحاً، شربنا القهوة أنا وجورج في الشرفة، وحينئذ، قال:

- لن أترككم، مهما حصل لن أترككم، أرى صبيحة فيكم وأراكم
في صبيحة.

عانقته، شممت رائحة صبيحة، قرأنا الفاتحة معاً على روحها.

- سأذهب لأحجز إلى الجزائر.

كأن بحر صيدا يودعني.

فجأة علا وغضبت مياهه، ذهبت حيث طرف الماء، حين لامست
مياهه قدمي هداً فجأة ثم عاد إلى الهيجان.

لماذا يا بحر؟

لماذا الغضب؟

سأحملك إلى الأبد أينما ذهبت، لن أنسى قلعتك التي تحرسك، لن أنسى زرقتك الساحرة، لن أنسى غياب الشمس خلفك، لن أنسى همساتك في الليل.

يد أمسكت كتفي من خلف البحر، كانت حنين.

- تودع البحر أم تودع صبحية؟!

- الاثنين معا.

ذرفت دمة فعلا موجه، ابتسمت فهدأ.

- البحر يفهم أحاسيسنا.

كان هناك مركب في البعيد يرسل ضوءا خافتا:

- تلك عمتي صبحية تودعك.

رفعت يدي، لوحتها، بقي الضوء قليلا ثم اختفى.

قالت حنين ثم أردفت:

- لكنها هنا.

وأشارت إلى صدرها.

أمسكت بيدي وقالت:

- كأنا سنموت.

- لم نعد أحياء منذ بدأت الحرب.

وقفنا على حد الماء، همس الماء، همس البحر، كانت حنين تتمتم أغنية حزينة وهي تشد على يدي.

قالت حنين:

- دموع البحر هي دموعي.

- أنا أيضا.

- لولاك لرميت نفسي في أعماقه.

وخاطبت البحر:

- أليس كذلك يا بحر؟

في لحظة، هدأ البحر وكأنه لم يكن، ثم هاج فجأة وغمر نصفنا بموجة عاتية.

ارتجفت يد حنين وقالت:

- هذه هي دموعنا، هذا هو البحر.

جلسنا على الرمل، جاء جورج وهو يحمل بطاقات الطائرة.

قالت حنين:

- ركبنا الطائرة مع ذلك العجوز الخرف، أحسست أنني أركب همارا لا طائرة.

قلت:

- ركبناها مرة حين درست في السعودية.

جلس جورج إلى جانبي، نظرت إلى جانب وجهه، كبر كثيراً بعد موت صبيحة، أصبح شيخاً، ربت على ركبته، ابتسم وقال:

- حين أرى البحر أرى صبيحة.

- حين كنا نذهب إلى اللاذقية كانت تخاف من البحر.

- حين تعلمت السباحة كانت تختفي عن الأنظار.

قلت وأنا مأخوذ بحالة غير عادية:

- أظن أنها مازالت تسبح منذ الآن وإلى الأبد.

- هل قدرنا البحر أحياء وأمواتاً؟!

لم يتكلم جورج، كان ينظر إلى المياه السوداء والقمر يلقي بضوئه الحليبي فوقها، وكأن هناك أشباحاً تتحرك.

- فيمَ تفكر؟
- قال وعينه تلمعان في الظلام:
- أفكر أن أذهب إلى صبحية، أفكر في الموت.
- نحن كلنا مشاريع أموات، حين خرجنا من بيوتنا لم نعد أحياء.
- وقف جورج ومشى باتجاه البحر، لحقت به كان كالنائم، أمسكته، بكى وهو يقول:
- اتركني، صبحية تنادينني.
- أمسكته بكل قوتي وهز زته وصرخت:
- صبحية ماتت، ماتت.
- انهار على الأرض وأخذ يبكي، كانت ملابسه قد ابتلت كلها، وكانت حين تنظر إليه وكأنها أصابها جمود.
- حين بدل جورج ثيابه نام دون أن يتحرك.
- في عيني رندة تساؤلات كثيرة...
- حين اختلينا قلت لرندة:
- لن ينسى صبحية حتى لو ذهب إلى آخر الأرض.
- لم أره هكذا.
- أشعر به يهرب وروحه متوقفة هنا.
- تغيرت نظرتي لجورج، جورج حنون، صبحية سبقتنا بالإنسانية سنوات طويلة حين اختارته.
- التقت نظراتنا، كان لدينا رغبة دفينّة، لكن ما حدث أجهض تلك الرغبة.
- كان بيننا وبين ركوب الطائرة يومان.
- جاء احمد وأنا أودع البحر:

- جئت تودعني وأنا أودع البحر.

في عينيه دمعتان لم تسقطا:

- لم نعد نتحدث إلا عن الوداع.

قال وأضاف:

- أقول لنفسي أحيانا يا ليتي لم أعرفك، كنت أرى فيك والدي
الذي قتلوه، قلت عوضني الله بأب آخر، أتنفس حين يتنفس،
وأضحك حين يضحك، وأحزن حين يحزن، لم أعرف أنك ستغادرني
بهذه السرعة، أنا الآن يتيم يا أستاذ، يتيم الوطن والأب.

أبكاني أحمد، احتضنته بقوة وقلت:

- لا، لا تقل هذا، سأعود إليك.

- الذين يذهبون لا يعودون.

- سأعود يا أحمد، سأعود، لن أترك دمشق.

حزنا أمتعنا القليلة المتبقية، لمحت أحمد وفي عينيه دموع حين
ركبنا السيارة، كنا صامتين وكأننا في جنازة، في كل مرة نبتعد عن
دمشق، نبتعد عن الذكريات، نبتعد عن المياه التي سرت في دمائنا،
نبتعد عن الأرض التي تعرف وقع أقدامنا.
هل الابتعاد هو قدرنا؟

في كل مرة نبتعد، تنقص أحلامنا، تتقطع أوصالنا، تمسح ذاكرتنا.
لم نكن نريد الابتعاد، ولكن الرصاص أبعدنا، جنون الحرب أبعدنا.
تركت روحي في دمشق، على أغصان التينة في البيت، على كل حبة
توت شامي كنت أفطفها لتتلون يداي بدماء الأرض.
كيف سيعود أطفالي والموت يلاحق أطفال بلدي؟! لو كنت
وحيدي هناك لبقيت، لو كنت شجرة هناك لبقيت؟! فهل أعود
وتعود أيامنا كما كانت؟! لا، لن تعود الأيام كما كانت إلا إذا كنا ما
نراه أمامنا حلما.

كانت أحلامنا كأحلام الآخرين، نحلم كيف نتقدم في حياتنا،
نحلم بفلسطين، وجاءت الحرب في سوريا، صفعتنا جميعا، خلطت
أحلامنا بأحلام الشياطين، أصبحت أحلامنا كوابيس نهارا وليلا.
كنت أريد أن أكون شيئا في عالم الكتابة، لكن ما جرى قلب
مفاهيمي، بل قلب حياتي رأسا على عقب، ما حدث وما سيحدث
هو حلم أسود بل موت أسود.

أبدعت الشياطين سطورها، وكتبت بدماء الأطفال والنساء
والشيوخ، كتبت ولم ترتو بعد، كتبت ولم تتوقف بعد، كتبت في مستنقع
عفن، لم تنج الأرواح، لم ينج الصالحون، ولم ينج أيضا الطالحون،
واختلطت الأرواح الطيبة بالخبثية، وعادت تدق على أبواب حمراء
كالدم، أبواب لانهاية لها، تدقها أياد مدماة.
تغيرت علاقتي برندة عن ذي قبل.

لم أدرك أنها بهذه القوة وبهذا الصبر، لم أعرفها جيدا إلا بعدما حدثت
الحرب، كانت في نظري مجرد امرأة تطبخ نهارا ونهارا الجنس متى
شئنا، لكنها الآن فيها من الذكورة جانب كبير، وفيها من الأنوثة
جانب أكبر.

كنت أتكلم معها دون أن أفكر فيما سأقوله، لكنني الآن أنتقي
كلماتي، أتروى في التعبير عن مشاعري، أمارس الجنس في أوقات
متباعدة، لكنها حقيقية، وليس كما كنا من قبل.

كنت أحاول من قبل أن أكون زوجا وبعض إنسان، والآن صرت
إنسانا وبعض زوج، ارتبطت روحي مع روحها بشكل أوثق، صرنا
روحا واحدة في جسدين.

هل أخرج هذه الأحاسيس من تحت الرماد؟

حين وصلها نبأ مقتل أخيها في الحرب بسبب برميل متفجر من
طائرة هيلوكوبتر، اندهشت كثيرا وهي صامتة، ثم بكّت قليلا، لم تكن
هكذا من قبل، كنت أخاف أن أقول لها عن موته خشية انهيارها
لكنها كانت أقوى مني بكثير.

نعيش نحن البشر، وقد نموت ولا نكتشف ما حولنا، وقد
نكتشفهم في فترات متأخرة من حياتنا، فرد ذلك إما إلى غبائنا أو إلى
انشغالنا بما هو عادي من حياتنا اليومية.

عصفت بي هذه الأفكار حين همت برندة بالنوم إلى جانبي، لاحظت
أن نظراتي إليها لم تكن عادية.

- ماذا بك يا صبحي؟ أرى في عينيك كلاما لم تقله.
- لا شيء، فقط كنت أتذكر حياتنا السابقة وما يجري الآن.
- لم أفهم.
- بصراحة، لم أعد أراك كما كنت في السابق، وهذا خطئي.
- ابتسمت:
- لم أعد أعجبك، صرت عجوزًا في نظرك.
- أمسكت يديها وقبلتها وقلت:
- لا، لا، لا، اكتشفت أنني لم أعرفك من قبل، ندمت على السنين التي مرت دون أن أدرك هذا الاكتشاف.
- أنا كما أنا لم أغير.
- همست بصوت أنثى حقيقية:
- أعترف لك أنني أخطأت في حقك، تحملت جنوني وطيشي وأحيانا عدم إنسانيتي.
- أنت زوجي.
- أنت ملاك في شكل إنسان.
- ابتسمت:
- أنا أقول أقل من الحقيقة.
- كأنك لست أنت.
- ضممتني إليها بلهفة، كان بي رغبة أن أمارس الحب معها لكن لحظة الاعتراف منعتني من ذلك.
- الأيام العادية تكون كالأيام الميتة، لا شيء فيها يهز النفس والروح بتنا نشعر أننا نعيش دون هدف ودون قابلية.
- أما الأزمة فقد جعلت أرواحنا تنهض من جديد غيرت نظرتنا إلى الأشياء والناس، أشعرتنا أننا لسنا نحن والناس الذين حولنا ليسوا هم.

صمتت رندة، وضعت رأسي على صدرها، أحسست براحة لم أشعر بها منذ خروجي من دمشق.

لم أكن أعبر عن رأبي في الأيام العادية، الآن، لم يعد يهمني، أشعر أنني أمام حقيقة، بل حقائق تقول لي، قل الحقيقة مهما حصل، فبعد هذه الحرب لم يعد هناك ممنوعات لأنك إن لم تفعل فلن تكون أنت.

حين نامت رندة تأملت طويلا، وكأنني لم أرها في حياتي، حتى وجهها تغير، أصبحت أكثر أنوثة، وأكثر نضرة، كانت تتنفس بانتظام، تنفست معها، حلمت معها، غصت في خفاياها، كانت نقية كضوء الشمس، لم أدر كم من الوقت مر وأنا على هذه الحال إلى أن غفوت. صحت على همس حنين وهي تقدم لي فنجان القهوة مع ابتسامة رأيته بريئة:

- أعرفك تحب الشاي، لكنك ستشرب قهوتي في يومنا الأخير في صيدا.

- كأنك تودعين صيدا برشفة مرة.

- الأمكنة التي نحل بها تصبح جزءا منا يا عمي.

كيف سأودع بحر صيدا وقلعتها وناسها وشاطئها والنازحين إليها الذين يترაკضون وهم يحملون حصصهم الغذائية بانكسار وخيبة.

كيف سأودع أحمد الذي أعاد إليّ بعضا من تاريخي المهني، وكيف سأودع زواريب عين الحلوة وتناقضاتها التي لا يحلها ألف حلال.

كيف سأترك صبحية مع البحر والليل والغربة، أشعر أن روحها تشعر معنا، ترفرف فوقنا، تناديننا، أن ابقوا إلى جانبي.

كان جورج صامتا طوال الوقت الذي سبق رحلتنا إلى منفى الجزائر، عرفت ما يعتمل في نفسه، قلت له:

- أنا أفكر مثلما تفكر.

- ندمت لأنني تركت صبحية وحيدة.

- سترحل روحها معنا أينما ذهبنا؟! كلما تذكرناها تكون إلى جانبنا.

- لم أنسها لحظة واحدة.
- إذن هي إلى جانبك.
- لماذا رحلت باكرا؟ لماذا تركتني؟
- هي لم تترك وحدك، تركتنا جميعا.
- سنين المعاناة سببت موتها باكرا.
- عمر الإنسان مقدر.
- قال بعصبية:
- إذن لم هربنا من الحرب الملعونة؟
- لم نهرب من الموت، الموت معنا أينما ذهبنا، بل هربنا من تقطيع الأوصال وزيادة الأحران.
- أخذ يبكي بصوت عال، تركته وحيدا في الغرفة إلى أن يهدأ.
- كان علي ومحمد فرحين بركوب الطائرة، ولكنني شعرت أن الطائرة هي نعشي لأنها ستبعدني أكثر عن دمشق، وقفت أمام المبنى علني أرى أحمد، كانت موجات البحر صغيرة ميتة، حزينة كنفسية، درت حول المبنى بحثا عن أحمد، أريد أن أعانقه مودعا، لكنني لا أحب الوداع، ولكن قد لا أراه مرة أخرى، فلم يبق على ذهابنا إلى المطار سوى ساعة واحدة.
- نزل جورج وقال:
- سأذهب إلى قبرها، لن أتأخر.
- وحين غاب ظهر أحمد بدلا منه.
- حاولت ألا أودعك فلم أستطع.
- قال أحمد، وفي عينيه دمعان.
- أردت قول شي لكنني صمت، فهم أحمد من صمتي كل شيء، أحس أنني سأبكي إذا تكلمت، لذلك صمت، ووقف إلى جانبي ينظر إلى البحر، ثم ضحك فجأة.

- ما حدث جعلنا نتعرف على أمكنة لم نفكر بزيارتها!، أظن يا أستاذ أن في سفرنا هذا فائدة؟!

- هذا ليس سفرا، إنه هروب، وحين تهرب لن تفهم ما يدور حولك.

صمت طويلا وهو ينظر إلى البحر.

- ستتصل بي، أليس كذلك؟

- هذا أكيد.

قلت وأضفت:

- سنتواصل على الواتس.

ابتسم وهو يقول:

- الله يرحم أيام البوسطجي.

- تلك الأيام مباركة، لأن ناسها يملكون قلوبا طرية.

لم أستطع أن أعانقه، مشيت بعيدا عنه، نحو البحر، نحو السماء، نحو أعماق الأرض.

تركت الطائرة بحر بيروت والفيلات منتشرة على شواطئها، كنت أنظر من خلال النافذة، وأنا ذاهل.

قلت لرندة التي كانت صامتة حزينة:

- إلى متى نهرب؟

- يبدو أننا سنهرب بقية حياتنا.

قالت ذلك ونظرت إلى البحر الذي لفه ضباب أبيض.

كان جورج واجها، أما علي ومحمد فقد كانا فرحين بركوب الطائرة، بينما حنين إلى جانبهما تتحدث معهما فيبتسمان، التفتت نحوي وابتسمت ولم أفهم مغزى تلك الابتسامة الغامضة.

نهضت من مقعدها وعانقت عنقي بيديها الطريتين وقبلتني وهمست:

- أنت أبي الآن.

- وأنت ابنتي منذ مات أخي.

برقت عينا رندة فرحا فجأة وقالت:

- سأرى إمام، منذ سنة لم أره، في كل يوم كنت أحلم به، أحاول أن أتحدث معه، لكنه صامت حتى في الحلم، هل لأنني تركته يسافر إلى الجزائر ويعيش في إيواء عين طايا، مع حشاشي حارة المغاربة في المخيم كنت أخاف عليه من موت الحرب العبيشي.

- سيعيش معنا من جديد، وسينسى تلك الأيام، لا الأيام الصعبة تدوم، ولا الأيام الهائلة.

همست وفي عينيها دمعة:

- لن أتركه مرة أخرى، حتى لو لم يتكلم معي كلمة واحدة.

- انه حنون، لا يظهر حنانه بقدر ما يظهر غضبه.

- سأقبله كما هو، سأعوضه عن الحنان الذي فقده، لن أغضب منه، المهم أن أراه أمامي.

وأدارت وجهها نحو نافذة الطائرة وبكت بصمت.

هبطت الطائرة في مطار هواري بومدين بعد أن رأيت العاصمة الجزائر من الجو، واستغرقت الرحلة حوالي أربع ساعات من الطيران المستمر، ولكنني فوجئت بحجزي لأنني لم أخبرهم عن وصولي المتأخر في ذلك المساء، أثار هذا الحجز في نفسي، لم يتكلم جورج بكلمة واحدة، وانتظرتنا رندة والأولاد وحنين في الصالة مع الحقائب، بعد ربع ساعة أو أكثر جاء رجل أشيب من السفارة الفلسطينية وأخرجنا مع الاعتذار.

فورا هاتفنا إمام، ثم نقلتنا سيارة إلى أحد الفنادق الرخيصة في العاصمة، أما حنين فقد ألقت بعض النكات لترطب الجو.

ذهب جورج، ثم عاد بعد ساعات مصفر الوجه مضطرب
الحركات، سألته:

- ما بك؟

- لا شيء، أنا متعب فقط أريد أن أنام.

في تلك الليلة سهرنا مع إمام حتى الفجر.

في الصباح المتأخر حَضَرَت رنّدة وحنين طعام الإفطار، لم يخرج
جورج من غرفته، ذهبت إليه، كان الباب مفتوحاً، لم يكن جورج
هناك، كان على سريرهِ ورقة مطوية، قرأتها:

- أخي أبو عدنان، أنا أحبك، أحب عائلتكم، لكنني لم أستطع
العيش بعيداً عن قبر صبيحة، حين تقرأ رسالتي أكون في الجو عائداً
إلى صيدا، حاولت ألا أعود لكنها كانت تناديني في الصحو والمنام،
سامحني، إذا عدت إلى صيدا ستجديني إلى جانبها فوق التراب أو تحته.

محبكم جورج

كنت ذاهلاً، دامع العينين.

قرأت حنين الورقة وقالت:

- هل هناك حب مثل هذا في هذا الزمن؟

من المغيّب أن نتحدث عن حب كهذا، لكن ما حصل بعد الحرب
أن هذا المحرم أصبح شيئاً عادياً، بسبب أزماتنا النفسية المتكررة بعد
خروجنا من المخيم.

كانت رنّدة صامتة، وحين نظرت إليها قالت:

- تريد رأيي، معه حق، يريد أن يشعر أنه لم يتخل عمّن يحب
حتى لو كان تحت التراب.

- أريد أن نتحدث عن هذا دون خجل، هذا الحب ليس كحب
شبكات التواصل الاجتماعي، إنه حب قديم قدم حب مجنون ليلي
وروميو وجوليت، أريد أن يأخذني هذا الحب ذات مرة تحت جناحيه،

لتعريف أنني لست أقل من أولئك الذين أحبوا من أرواحهم قبل أجسادهم.

نظرت إلى رندة بشغف، وأخيرا ابتسمت:

- لقد كبرنا على هذا الحب يا صبحي.

- الحب لا يكبر إنه يتغذى من الروح.

لماذا بدأ هذا الحب بعد الحرب؟ لماذا علينا أن ندفع ثمن حبنا أرواحا ودماء ودموعا؟!

لماذا نغمض أعيننا عن كنه الحب إلى أن تحل المصائب؟!

لماذا لانغوص في معنى الحب إلا إذا فقدنا أعزاء أو أصدقاء أو ذكريات جميلة، أو أمكنة عشنا فيها طويلا ثم فقدناها؟!

أهو التمسك بقدر من الأمل بعد الإحساس بالضياع، أم هو عودة إلى نكهة الإنسانية فينا، لنبلغ مراتب لم نبلغها قبلا؟!

عشت طويلا، ولم أكن أشعر بهذا الإحساس، إلا بعدما حصل ما حصل.

لماذا علينا أن ندفع الثمن حتى في الحب؟

لماذا اختلفت حياتنا الحالية عما سبقها، كأننا متنا ثم عشنا حياة جديدة؟!

ما السر في إحساسي بهذا الحب النقي الخالص بعد أنهار الدماء والعذاب؟!

لم أتصور أن الإنسان يعيش الحياة بمتناقضاتها، رأينا الموت ألوانا فانفتحت أمامنا آفاق من السعادة راحت تنظر إلينا بعيون خفية، نحاول تجنبها لكنها تلاحقنا، تنام معنا، تأكل معنا، وتسير معنا.

ابتعد أيها الحب فقلبي مليء بالهموم، لكنه يلح علينا، يأخذنا إلى عوالمه الشفافة، ليهمس في آذاننا، يشكل أشواقنا القديمة بقلب جديد، لا زيف فيها ولا ادعاء، نهرب منه، يلحق بنا، ينظر إلينا بعين

الحقيقة، نعبس في وجهه فيضحك لنا، وحين يغيب لحظات نشواق إليه، وحين يأتي نهرب منه.

لماذا علينا أن نكابد الضد، موت وحياة، لقاء وفراق، عذاب وفرحة، حب وكره؟!

هذه الأضداد صارت هي حياتنا التي نحياها، لا نعرف كيف دخلت إلينا ولا كيف تعلقناها، فما يجري هو مراسم دفن الماضي، من أجل أن تتشكل من جديد، بحب جديد، وذاكرات جديدة.

لكن عسر الحالة لم يترك لي مجالاً أن أعيش تلك اللحظات برؤاها الخلاقة، أن تنظر إلى الأشياء بعين جديدة، فهذا أمر يستحق الوقوف عنده، أما أن تتغير مشاعرك رغم سنوات عمرك فهنا الذهول.

مشاعري تغيرت تجاه رنده، رأيتها امرأة أخرى، اقتربت منها أكثر، عرفت كيف تفكر، كيف تطبخ، كيف تبكي، كيف تفرح، كيف تحب، كيف تكره، وكيف تصبر، لم تعلمني الحب الجديد فقط بل علمتني الصبر حين تلقت خبر مقتل أخيها بفعل برميل متفجر من طائرة، بكيت قليلاً، لكنني كنت أعرف أنها تبكي حين أغادر الفندق، وحين أعود أرى في عينيها إصراراً على الحياة، وذات يوم أخذت تشتكي من ضعف الرؤيا في عينيها اليسرى، وقد أفادنا الطبيب بوجود ماء أبيض في عينيها ونصحنا بإجراء العملية وإلا فقدت البصر، لكننا لم نكن نملك المال اللازم.

قالت بعد أن لمحت الضيق على وجهي:

- حين أصل ألمانيا سأجري العملية.

وابتسمت وهي تقدم لي كأساً من الشاي.

شعرت أن الأشياء التي تمر بنا مرتبة منذ زمن بعيد، أحسست بالخوف من المستقبل إلى جانب الحب الجديد الذي أشعر به.

كاد المال الذي معي ينفد وأنا في بلاد لا أعرف فيها أحداً.

شعرت رنده بما أفكر فيه، فاقتربت وهمست:

- أصلي جزائرية قبائلية قبل أن يهاجر أجدادي إلى فلسطين، لا بد أن عز الدين الذي كان يهاتفنا ما زال مع عائلته في دراع بن خده، ما رأيك أن نزورهم؟

تذكرت لهاثي وراء المساعدات في لبنان، تذكرت الوقوف في ضمن طوابير تحت أشعة شمس حارقة أمام بلدية صيدا، وتذكرت الركض نحو الجمعيات الإنسانية المنتشرة في عين الحلوة.

همست بقهر:

- أما كفانا ذلاً؟

- سنزورهم فقط ولن نطلب منهم شيئاً.

استهلكت فاتورة الفندق معظم ما أملك، وانتظرت رد الصليب الأحمر الجزائري من أجل الإيواء، ولكن ولا مجيب، بسبب كثرة النازحين ولذلك وافقت على زيارة عائلة الحاج التي تنتمي إليها زوجتي. كانت الجبال خضراء على جانبي الطريق، جلست رندة إلى جانبي، وحنين إلى جانب علي ومحمد وإمام جلس وحده صامتاً.

- حالة إمام تسوء يوماً بعد يوم.

- هو هكذا لكنه ازداد صمتاً.

- أخشى أنه يتعاطى المسكرات.

- قال لي إن الإيواء مليء بالحشاشين من حارة المغاربة في المخيم، لو فعل مثلهم لما قال.

- اللص ينفي التهمة عن نفسه بالحديث عن الشرف.

...

- سأحدث معه.

بعد حوالي ساعتين وصلنا إلى محطة حافلات دراع بن خده أو ميرابو، كما يطلق عليها سكانها، كانت اللغة هي العائق الوحيد للتفاهم، نحن نتحدث العربية وهم يتحدثون لغة نصفها أمازيغي ونصفها فرنسي.

هاتفنا عز الدين فأجاب بأنه سيأتي إلينا.

استقبلتنا عائلته بترحاب شديد مشوب بريبة.

لم نملك مالا للعودة للجزائر، اجتمعت العائلة فيما بينهم، وفي اليوم التالي أخبرونا أننا يمكن أن نبقي ونسكن في غرفة كانت محل حلاقة نسائية في أسفل البيت، وبقرارهم هذا انتشلونا من بئر التشرد، وفوق هذا خصصوا لنا مصروفا شهريا، وعندئذ أحسست أن ليل حياتي قد بدأ.

أخذت الأيام تكرر، والحرب هناك تنتعش، والموت يحصد الأرواح، والدماء تروي الأرض، نمنا في تلك الغرفة المستطيلة إلى جانب بعضنا، فأما أن تموت أو يصيبك الذل.

لم يعد للطعام طعم، ولم يعد للمشي طعم، ولم يعد للخبز الجزائري طعم، عليك أن تعيش التشرد على هامش الحرب المجنونة، تعيش دون أن تعيش، تتنفس دون أن تتنفس، تأكل دون أن تأكل، تضحك دون أن تضحك، تضاجع دون أن تضاجع، تبكي روحك، وتراقص في ذهنك الأفكار المجنونة، تشد على جرحك دون أن تنزف، فالجرح دون دم أقسى أنواع الجراح.

كنت أسير معظم الأحيان دون هدف، فأنا الآن إنسان بلا هدف، أتحدث إلى شخص يمر قربي لا أفهم عليه ولا يفهم لغتي.

أصرخ قهرا:

- لعنة الله على فرنسا، قضت على اللغة التي توحدنا.

يبتسم محدثي قائلا:

- من سوريا، الله يبارك.

جميعهم يعرف سوريا، قلوبهم طرية كأشجارهم الخضراء، في نفوسهم فسحة كبيرة كبلادهم المتسعة، صدورهم رحبة كرحابة شوارعهم، وبسطاء كندى الصباح.

تتعدد الأمكنة والجرح واحد.

إنهم يعرفون سوريا من باب حارتها، من بيوتها الجميلة، من بحراتها، من ياسمينها، من رجالها الشجعان، من نسائها الفاضلات، يعرفون أكلاتها وسهراتها، ولكنهم لا يعرفون ما خلف ذلك من بلاء.

سوريا التي وحدث نظرتنا إلى الأشياء، شظايا الحرب كسرت الحواجز وبان المخفي، وظهرت الشياطين تسرح وتمرح، تقتل وتذبح، تدمر وتعبث، وباب الحارة مستمر في سلسلته، مستمر في منح فسحة أمل ولو ضئيلة لأولئك الرجال الذين مروا على دمشق بكبريائهم وعنفوانهم وخلافاتهم ثم ذهبوا ولن يعودوا.

في البداية قلنا بسيطة، لكن البساطة أصبحت تعقيدا، أصبحت آلاف مؤلفة من الأموات، وآلاف من المعاقين، وآلاف من الأطفال المشردين، وآلاف من الأرامل، وآلاف من البيوت المدمرة، وآلاف من المشردين، لم يعد باب للحارة، انخلع وتسوس، وأخذ الغرباء يدخلون ويخرجون متى شاءوا.

هل نأخذ الأمكنة معنا أم أنها تبقى حشرات في ذاكرتنا؟

سألت نفسي هذا السؤال وأنا أجلس على حوض شجرة في الرصيف.

يا الله!!

من كان يفكر أنني سأتي إلى هنا، يزيد هروي فيزيد هروب الأمكنة من حولي، المخيم يصبح ذكرى عميقة في النفس، يصبح شيئا من الماضي، وهذا المكان الذي أنا فيه لا أرى فيه جذوري، أراي فيه كطحلب ينتهي إلى الياس ثم إلى الموت.

جلست رندة إلى جانبي في عينيها حزن لكنها ابتسمت.

- ما الذي جاء بنا إلى هنا؟

- الحرب يا رندة.

- دخلت عامها الخامس وكأنها تبدأ الآن.

- حرب داحس والغبراء، ستبقى أربعين عاما، بل قرنا، بل كل القرون.

- هم يشعلون الحروب ونحن نهرب، نهرب من أنفسنا قبل أن نهرب من التي الأمكنة ولدنا فيها، ستبقى الحرب داخلنا حتى لو توقفت، سنبقى ننزف، سنبقى نموت.

سنبقى نبكي، سنبقى نجتر ذكرياتنا الضائعة، أحيانا أنسى لم نحن هنا، أنسى لم حدث ما حدث، وحتى أنسى نفسي.

كانت رندة تنظر إليّ باهتمام:

- أعرف أنك تحدث نفسك أحيانا.

- منذ زمن طويل وأنا أحدث نفسي لكنه حديث غير هذا الحديث، اختلفت أحاديثنا فاختلفت توجهاتنا.

- صرت إنسانا آخر.

- وأنت أيضًا يا رندة أنا أراك الآن امرأة أخرى، كلنا تغيرنا، نار الحرب صهرتنا، كأننا ولدنا من جديد، أفكار جديدة، حياتي جديدة، أمكنتي جديدة، صار بيتي ذكرى، والأماكن الأخرى صارت محطات سفر.

- إلى متى سنسافر؟

- إلى أن تنتهي الحرب المجنونة.

- الجنون لا يتوقف.

مشينا معًا في البلدة الوادعة، أريد أن أتحدث إلى جميع الناس هنا لكنهم لا يفهمون لغتي العربية، تقلص الذين أتفاهم معهم بصعوبة إلى ثلاثة أشخاص عز الدين وعبد الله وليندا الطيبية، أولئك الذين نسكن عندهم.

مساحة واسعة وعدد كبير وتفاهم قليل، هذا الإحساس يدفعني إلى الجنون، أو اللجوء إلى كتابة روايتي لأعوض الحديث مع الآخرين. عدت مجهد النفس إلى البيت/ المحل، وضعت حنين أمامي فنجاننا من القهوة وابتسمت قائلة:

- هذه قهوة جزائرية من ليندا.

كانت الشوارع هنا تفوح بتلك الرائحة، أراهم يحملون فناجينهم في الشوارع، يتلذذون بشرها خلال ساعة أو أكثر، حاولت أن أعرف السبب لكنني تعبت ونمت.

صحوت على رائحة القهوة الجزائرية، أشعر معها أنني أسترخي في بيتي في المخيم، شعرت معها بجمال الحياة، شعرت بالصفاء، حين أذهب في نزهة مع أولادي إلى الغوطة، أجلس تحت شجرة وأقرأ كتابا، ونضحك ونغني ونرقص ونتناول اللحم المشوي، نعيش حينها لحظات لا تنسى.

القهوة الجزائرية تأخذك إلى عالم من السحر والجمال والهدوء والعمق، تسبح في ملكوت أفكارك وتمارس حياتك بهدوء، تشعر براحة الحياة لا بتعبها، كأنها تؤكد اخضرار الجبال، فينتعش الجزائري بالأمل يتسم وهو يعمل، وهو عاطل عن العمل، يحب وهو يتألم، يضحك وهو يبكي، إنها تمنحك رحابة لانهاية لها.

حين يحيطك المكان الجديد بأشياء صغيرة، تصبح تلك الأشياء رمزا لشيء عظيم، لا نعرفه إلا من خلال التأمل، بل الإحساس به. جلست في أحد مقاهي الرصيف المنتشرة بكثرة في البلدة، لأشم رائحة القهوة الجزائرية، لأرى وجوه الناس وهي تبدأ حديثا دافئا في حضرة القهوة الجزائرية، كنت أسمع لغتهم التي لا أفهمها تعبر عن الفرح والتعاطف والحب والعتاب، حينها فهمت لغتهم من خلال تعبيرات وجوههم، من خلال ابتساماتهم وضحكاتهم، وفرح عيونهم، كنت أحس برائحة المكان، حين كانت فرنسا تعبر هاتيك الدروب الجبلية، وتذوق الأحوال على يد أولئك المتعبين، الذين فرحوا بالنصر بعد أن دفعوا أرواحهم ودماءهم من أجل أن تبقى جبال الجزائر خضراء، ومن أجل أن تبقى رائحة القهوة الجزائرية تعبق بالمكان. ولكن حين يكون المكان عربيا واللسان غير عربي تصاب بالحزن.

حتى الأمكنة أعطوها أسماءهم، دراع بن خده يسميها الجميع ميرابو، سموها على اسم خطيب الثورة الفرنسية الذي كان يحاول التوفيق بين النظام الملكي والثورة، ومات مسموماً في النهاية.

إنهم يغيرون أسماء الأماكن لتبقى ذاكرتهم وحضورهم حين يرحلون، أنه المكان الذي يلبس رداء ليس له، فالشاخصات على أطراف الطرق تدل بوضوح أن هذه دراع بن خده بلدة جزائرية قبائلية أبا عن جد، فالمكان هو المكان، والزمان قد تبدل والألسنة التي تتداول اسماً مزيفاً لا تعرف ما وراء الأكمة.

خلصت إلى هذا الاستنتاج، بينما أقبلت رندة وهي ترتدي ثوبا قبائلياً مطرزاً بألوان زاهية، كأنها في يوم عرسها، وجه أبيض طافح بالفرح، ومشية دلال وابتسامة كثغر الورد.

- من أين لك هذا؟

- أعطتني إياه الدكتورة ليندا.

- جميل ولكن...

قالت بغضب:

- الحرب جعلتنا عالة على الآخرين.

- تبالهذه الحرب الملعونة!

دخلت وخلعت الثوب، سمعت صوت بكائها،

وقفت أمام الستارة، نظرت إليّ وهي تمسح دموعها:

- هكذا أفضل، هذا الثوب يذكرني بذل الحرب.

- لكنني لم أنس الحرب، الحرب أصبحت تعيش في داخلي، أسمع أصوات القصف على بعد آلاف الأميال، أسمع أنين الجرحى وهسيس الأرواح حين تغادر الأجساد، أسمع أصوات الناس في المخيم، أسمع صراخ الباعة الجوالين، وزمور طنبر المازوت، وهشة مكنسة أم خليل وأم النور وهما تكتسنان الحارة، أسمع السباب والشتائم حين

تقوم مشاجرة في شارع لوبية، يتجمع الناس من كل صوب بلحظات ويتفرقون بلحظات، أسمع قرقرة أرجلتي مساء في شرفتي، وأسمع قرقرات أرجل مقهى أبي حشيش، أسمع لهائك حين تصلين إلى النشوة، أسمع زقزقة العصفير صباحا على شجرة الكينا العملاقة أمام بيت أبي طلال، أسمع هدير تركتور القمامة، أسمع نداء الأطفال صباحا وهم يبيعون الكاتو، أسمع صوت خطواتي على الرصيف وأنا ذاهب إلى المدرسة، أسمع أصوات الجارات وهن يتحادثن أمام الأبواب الخارجية، أسمع وشوشات صبية وشاب يقفان في زاوية حارة وفي عيونهما وله وحب، أسمع خطوات غير متزنة لرجل عاد لتوه من الخمار، أسمع بكاء الرضع في جوف الليل حين يكون الأب والأم مشغولين بممارسة الحب، أسمع زمامير السيارات في الأعراس، أسمع صوت المقرئ في سيارة الموتى، أسمع وأسمع ويحتضني الحنين إلى تلك الأصوات.

تختلط الأمكنة، أشعر أنني مقيد، بل تائه، بل على وشك الموت، بل الموت بعينه.

تلك الأمكنة التي نفتني الحرب منها كانت أمكنة الروح والذكريات، أمكنة الطفولة والشباب، لأجد نفسي في مكان أخذ اسما مزيفا، اسم ميرابو الماسوني، أتصوره لو عاد حيا لضحك ملء فيه وقال: - هاهو اسمي يردده أصحاب بلدة قبائلية جزائرية جميلة.

عافاكم أيها الفرنسيون، لقد انتصرتم على ذاكرتنا، أعدتم مجد فرنسا في الأمكنة، استعمرتم الأمكنة بأسمائكم، ورحلتم دون أن ترحلوا، أنتم تعرفون أن الأمكنة لا ترحل، لقد استعمرتم لغة المكان، من أجل أن تصادروا مكان اللغة.

وها نحن نردد لغتكم في الصباح كأنها أذكار الصباح والمساء، استبدلتم اللسان القويم بلسانكم، استبدلتم الذاكرة العربية بذاكرتكم، ولكن هيهات فالأحاسيس عربية لكن اللسان غير عربي، مشاعر الجزائريين هي مشاعر الأنبياء، انتصرتم شكليا دون مضمون، فهذه

المشاعر بنيت عبر قرون، عبر التاريخ والجغرافيا، بناها شعب الجزائر
عبر قرون وقرون، عبر المحبة والوجع، عبر جمال طبيعته وشجاعة
رجالها، ورقة نسائه، عبر براءة أطفاله وحكمة شيوخه، بناها باتساع
أرضه وجمال أزهاره.

لن نفرحي يا فرنسا، انتصرت على اللغة، لكننا انتصرنا عليكم
بأحاسيسنا، بمشاعرنا، بقلوبنا العربية، انتصرنا رغم وجع اللغة.

ليس وجعنا أقل من وجع اللغة، فكلما نطق أحدهم اسماً فرنسياً
على مدى اتساع هذه البلاد، يطعن لغتنا في ظهرها، يسيل دمها، ثم
تصحو كطائر الإغريق، المشاعر تعيد رسم التوازن إلى الخيوط التي
تربط أرواحنا وتاريخنا.

قيدوا اللغة ليمنعوا التخاطب، ليفرقوا الأحبة، ليضعوا جسوراً
للتباعد، لكنهم لم يغيروا النفوس، لم يغيروا القلوب ولم يغيروا الأرواح.
إنها لعبة خبيثة لعبة اللغة، امتدت عبر مائة وثلاثين عاماً، ثلاثة
أجيال أعادوا ترتيب لسانهم، قتلوا ليخيفوا، سجنوا لدمج الجميع في
سجنهم الأبدي، لكن أرواح الجزائريين طارت كطير اللقلق في الجبال
الخضراء، وبقيت حرة رغم قيد اللغة.

لا أدري وصف تلك المشاعر الخلاقة، وأنا أسمع من جميع الذين
التقيت بهم.

- الله يبارك.

حين يعرفون أنني من سوريا تنفرج أساريرهم، فسوريا حية في
أعماقهم، حية كعبد القادر الجزائري وجميلة بوحريد، حية في أرواح
شهداء الاستقلال، فحين وقفت أمام نصب الشهيد الضخم، غمرني
البحر بزرقته الساحرة وكأنه يقول، مات مليون ونصف مليون شهيد
من أجل أن تبقى زرقه البحر.

كانت مشاعري مزيجاً من الفخر والفرح والحزن والاستحياء
والشعور بالذنب، لأنني زرت الجزائر البيضاء وأنا مشرد مكسور

الخاطر، بقية إنسان يبحث عن مكان آمن، هاربا من الموت باحثا
عن الحياة، كنت جبانا لأنني هربت، تركت ذكرياتي وهربت، تركت
صوري وهربت، تركت أرصفتي وهربت، تركت أصدقائي وهربت.
أنا أشعر بالخجل إلى نقى العظام، أشعر بلا قيمتي، أشعر
بصغاري، مشاعر الفخر والاعتزاز التي حملتها طوال حياتي ماتت ولم
يبق لي إلا الأحاسيس الدونية.

لم فعلت بنفسي ما فعلت؟

تمنيت أن تسقط الطائرة في البحر لأغسل غاري، لأغسل دونيتي،
لأغسل هروبي من الموت.

ذلك البحر سيكون خلاصي من خجلي.

حين دخلت محل الحلاقة الذي ننام فيه كانت رندة قد فقدت
أعصابها تماما.

- ماذا حدث؟

- ألا تشم الرائحة؟! إمام يشرب الخمر، وأنت تعيش في أوهامك.

كنت مذهولا:

- مابك صامت؟، أين صبحي الذي أعرفه؟

وقفت أمام إمام، عيناه مفتوحتان حمراوان، ووجهه محتقن، حين
واجهته بالحقيقة نطق جملة وغادر المكان:

- الحرب علمتني كل شيء.

ترك دراسته بسبب القصف اليومي والخوف من الموت، وهرب من
واقعه إلى واقع أقسى، إلى فقدان العقل والإدراك، من أجل أن ينسى،
وحين يصحو يتذكر، مرة أخرى فيعود إلى عالم النسيان، ومع الزمن
يصبح إدمانه لا من أجل النسيان بل من أجل المتعة، متعة السقوط.
جلست محبطا ويائسا.

كانت رندة تبكي ووقفت حين متهدلة الكتفين:

- هذه الحرب كشفتنا، كشفت ضعفنا وقوتنا، كشفت حياتنا وموتنا، تركتنا عراة، فعلت بنا الأعاجيب.

قلت ذلك ونهضت لأنني كدت أختنق، عندئذ صرخت رندة:

- ألا تريد أن تفعل شيئاً؟! إمام سينتهي، سينتهي.

التفت إليها وفي عيني دمعتان تجمدتا وقلت:

- وماذا فعلت لأحافظ على بيتي؟! لأحافظ على كتبي، لأحافظ على ذكرياتي، لأحافظ على رصيفي، لأحافظ على هواء نخيمي، لأحافظ على أصدقائي، إمام هو واحد من أولئك الذين لم أستطع أن أحافظ عليهم.
بكت رندة بمرارة:

- لماذا هذا العذاب، لماذا؟

لم أستطع أن أقاوم دموعي وأنا أهرب إلى الشارع.

تلقفني جاري الذي أسلم عليه دوما:

- ما بك أيها السوري؟! ستفرج.

- لا أمل لمن يترك بيته.

دعاني إلى أحد مقاهي الرصيف، وطلب لي قهوة جزائرية، نسيت همي حين عقلت رائحتها المميزة.
قال:

- اسمع هذه الحكاية حيث كنت شاهدا عليها، في العشرية السوداء التي مرت على الجزائر في تسعينات القرن الماضي، كنت أسير في الشارع، وكانت امرأة حاملا تسير أيضا، من إحدى زوايا الشارع خرج رجال يحملون سكاكين طويلة، بقروا بطن الحامل، سقطت على الأرض وهي تستغيث، أخذت أصرخ فهربوا، حملت المرأة إلى أقرب مستشفى، شارفت على الموت وكان حملها الأول، والمرأة الآن حية ترزق، ولديها الآن ستة أولاد، وقد أصبحت صديقا لزوجها، أليس معي حق حين قلت لك ستفرج.

تركني الرجل وهو يردد:

- الله يبارك.

سرت في شوارع بن خده لا ألوي على شيء، ولم أجد نفسي إلا أمام
حقل أخضر لا مثيل لخضرته، يطل عليه جبل مرتفع أخضر أيضًا.

ارتجف قلبي من هيبة الجبل، أنا الذي لم أرتجف في حياتي، لماذا
يجب أن نعرف حقيقتنا بعد دفع ثمن باهظ، هل هذه هي الحياة أم
نحن الذين لم نر الحقيقة، حين أعمتنا الراحة عن رؤيتها.

جلست على حجر في السهل وفكرت بـ إمام، أقسى شيء على
الإنسان أن تسلب إرادته، حين يعرف أن ابنه يتناول الخمر وهو
يتقاسم معه غرفة واحدة.

كانت ساعات بطيئة ومميتة، أقسى من جميع الذين ماتوا في الحرب،
أقسى من الأجساد المطحونة بقنابل الطائرات وقذائف الهاون، أقسى
من أن تفقد قدمك أو يدك وأنت تسير في الشارع.

تساءلت:

- هل أنا بلا قيمة الآن؟

يوميًا أشعر أنني أدفن نفسي، ثم أخرج من القبر لأعود إليه
آلاف المرات.

جلست حين إلى جانبي، احتك ثدياها بكتفي وهمست:

- أنا أشعر بك يا عمي.

مسحت على شعرها الناعم، أحسست بقلبها ينبض أمام كتفي،
وفي عينيها نظرة برؤس وقوة.

تقيأت ذكرياتي مع إمام، أمسك يده الصغيرة، أدخله السينما أو
أشترى له لعبة ليغو، كان بريئًا وظننت أنه سيقم كذلك، لكنه
انقلب وحشا.

وقفت أمام المرأة أنظر إلى نفسي، لم ألمه بل لمت نفسي، حبي هو
الذي جعله وحشا.

ربيت أجيالا وراء أجيال لكنني عجزت عن تربية ابني.
إنها الحرب، لا أننا نحن لا الحرب.

مفارقة غريبة كشفتها الأحداث بعفويتها وعفويتها، باللحم الميت
واللحم الحي، مفارقة وضعتني أمام نفسي في قفص الاتهام.
مالا يعقل حين تعتقد أنك تسير على منهج سليم فتكتشف أنك
كنت تسير في حقل من الأخطاء والخطايا.

لم يؤلني إدمان إمام بقدر ما المنى إدمان نفسي على منهج معين،
دفنت رأسي في الوسادة وبكيت، وضعت رندة يدها على ظهري وقالت:
- لا تلم نفسك.

- أنا المسئول عن انحرافه.

- بل نحن كلنا وهذه الحرب الملعونة هي أولنا.

- لم أعد صبحي الذي تعرفين.

بكت بحرقة.

نعم لم أعد أنا، صرت مسالما بسبب الحرب، تخلت عن كبريائي
بسبب الحرب، تخلت عن طقوسي بسبب الحرب، تخلت عن عنادي
بسبب الحرب، تخلت عن كياني بسبب الحرب.

ماذا فعلت بي الحرب؟

سؤال طرحته على نفسي وأنا أتجه إلى السهل الأخضر تحت الجبل
الأخضر في دراع بن خده.

لم يغيرني موت أخي فتاح ولا موت أخواتي بدرية وصباحية ونظيرة
وفتاح وعطا ولا موت أبي أو أمي وإنما غيرتني هذه الحرب اللعينة.
وقفت في السهل وصرخت:

- أنا لست صبحي، أنا لا أعرف نفسي، توقفي أيتها الحرب
اللعينة لأعود كما كنت، توقفي لأكمل حياتي كما كانت، توقفي من
أجلي ومن أجل الذين فقدوا ذاكرتهم وأسماءهم وأحباءهم وكل ما
هو عزيز لديهم، توقفي إن لم تتوقفي، سنكون أشباه أناس تمشي على
الأرض، وتتناسل دون روح.

أيتها الحرب لقد سرقت أرواحنا.

وصرخت وصرخت ولكن ما من مجيب.

- ١١ -

تحت شجرة صفصاف كبيرة في السهل جلست عجوز أشارت لي
بعضها، حين وقفت أمامها كانت أخاديد السنين تحفر على وجهها
الأعوام تلو الأعوام.

قالت:

- هل انتهيت من الصراخ؟
- الآن انتهيت، ولكنني سأصرخ غدا وبعد غد، وعلى مر الأيام.
- اسمع يا بني، اصرخ ما شئت، ولكن لن تأخذ من صراخك
سوى الصدى والفراغ.
- من أنت؟!
- توقعت سؤالك، ليس المهم من أنا، المهم أنت، اذهب إلى ذلك
البيت في أسفل الجبل، وستعرف من أنا.
- وأشارت بعضاها إلى بيت قديم تحت أقدام الجبل.
- نظرت إلى البيت ثم التفت إلى العجوز، كانت قد اختفت مع
شجرة الصفصاف.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- ثم ظهرت من جديد وقالت:
- لن تعرف من أنا إلا إذا ذهبت إلى ذلك البيت.
- واختفت مرة أخرى.

اتجهت نحو البيت بدافع الفضول، لفتني أصوات غير مفهومة لم أعرف مصدرها، وقفت، تلفت حولي، لم أجد أحدا رغم وجود الأصوات.

كانت الأشجار تتكلم والأرض والعشب والسماء وحتى الجبل، وكلما اقتربت من البيت علت الأصوات، كانت تلك الأصوات تشبه الأنين ومراسم الجنازات وأزيز الرصاص وقصف المدافع والبكاء، تداخلت تلك الأصوات من حولي، أحاطت بي، حاولت الانفلات منها وإغلاق أذني لكنني كنت أسمعها، حاولت العودة لكن سداً من الأشجار الشوكية وقف في طريقي، ثم سمعت صوت العجوز تقول:

- أكمل طريقك، لا تراجع.

لم أخف من أصوات القصف لكنني خفت في تلك اللحظة.

اقتربت من البيت وأنا على يقين أنني لن أعود حيا.

كان البيت جديدا وكأنه بني للتو، بابه أبيض ناصع يلمع تحت الشمس، حين اقتربت من الباب انفتح على مصراعيه، تراجعت لكنني سمعت صوت العجوز يأمرني بقوة:

- ادخل.

دخلت وأنا أرتجف. كانت باحته الداخلية تتوسطها قبة مزخرفة عالية، وتفوح في أرجاء المكان رائحة بخور قوية، توقفت الأصوات وبدا الصمت مريبا وخيفاً.

تقدمت أكثر، كان هناك تابوت مكشوف في وسط الباحة، فيه جثة امرأة في غاية الجمال، تلبس ثوبا أمازيغيا مطرزا وتتقلد حلياً ثمينة.

كانت الجثة وكأنها غسلت للتو، وعلى وجهها ابتسامة لم أرها على وجوه الأحياء، حين نظرت إلى عينيها أخذتا ترفان ثم نظرت إليّ قائلة:

- أنا هي العجوز التي رأيتها في الخارج.

حينها لم أخف فنظرتها وجمالها غطيا على خوفي، ثم نهضت فبدت في ثوبها الأمازيغي كعروس تزف ليلة عرسها، جلست قبالي على كرسي من بخار الماء وقالت:

- اسمي كهينة، وهذا البيت هو بيت أبي وأمي وأجدادي، أنا أم خمسة رجال جزائريين أشداء قتلهم الفرنسيون في يوم واحد لأنهم حملوا السلاح في وجهه، بعدهم حملت السلاح وصعدت إلى الجبل وأخذت أوطاد الفرنسيين واحدا إثر الآخر، حتى ضج مني الحاكم الفرنسي في الجزائر البيضاء، وأرسل من أجلي الدبابات والطائرات والجنود، صار هذا الجبل كتلة من نار، وحين قتلت جاء أولادي الخمسة، حملوني فوق أكتافهم، لم يدفنوني في ذلك اليوم، أتوا بي إلى بيتي هذا، قلت لهم: - اخرجوا أريد أن أغتسل... ومازلت أغتسل إلى الآن، ومازال أولادي ينتظرون في الخارج.

أخذ الماء يفور في الباحة الداخلية، واختفت المرأة خلف ضباب الماء الساخن.

عادت الأصوات تلف المكان.

فجأة، دخل القاعة خمسة رجال أشداء، أحاطوا بالتابوت وأخذوا يرتلون آيات قرآنية، فبدأ صف الأشجار الذي سقته المرأة بدمها أشد خضرة من ذي قبل.

أردت مغادرة المكان لكن صوت العجوز كان حازما:

- لا تذهب، يجب أن تعرف القصة كاملة:

حمل الرجال النعش وداروا به في أرجاء القاعة، ثم تركوه يطير وحده يعلو وينخفض، يختفي ويظهر.

ثم شاهدت المرأة تخرج من التابوت بثيابها الأمازيغية وتقول لي:

- لم يقتلوني، بقيت حية، ولم يجروا أي فرنسي أن يدخل بيتي حين كنت حية أو حين كنت ميتة، حين أرادوا الدخول نبتت أشواك برية في طريقهم، عادوا من حيث أتوا وبقيت أنا حية.

وتردد الصدى في القاعة المزخرفة:

- أنا حية، أنا حية...

واختفى النعش والرجال، بقيت وحدي، لا أدري كم مر من الزمن، كنت أسمع فقط صوت الماء وحفيف الأشجار وزقزقة العصافير.

خرجت، كانت الشمس على وشك الغروب، بين صفي الأشجار الخضراء مشيت، كأني أطيّر في الهواء، في آخر الطريق كان هناك مزارع عجوز يحمل منكوشة على كتفه ويده الأخرى بقايا زواته. استوقفني مندهشا:

- كيف دخلت في هذه الطريق؟

- كنت عند المرأة الجزائرية المناضلة وأولادها الخمسة.

- رحمة الله عليهم جميعا، قدموا أرواحهم من أجل الجزائر، هذه الطريق لم يستطع دخولها إلا من أحبته تلك المرأة المناضلة وأولادها الخمسة، تحكي لهم قصتها ثم تختفي، أتدري لم يستطع أحد هدم بيتها، حاول بعض أقربائها لكنهم فشلوا.

- لأنها مازالت حية.

- نعم، مازالت حية مثل جميع الذين ماتوا من أجل الجزائر، أنا أعرفها وأعرف أولادها، قبل أن يستشهدوا وبعدما استشهدوا، أصبحت قديسة، أحيانا تأتي وأنا أزرع الشجر تحط من السماء أو تنبت من الأرض. وتقول لي:

- بو بشير، اعتن بأشجارك جيدا، ستبقى الأشجار حية بعد أن نموت، تلك الأشجار التي زرعتها بيدي تزداد اخضرارا.

ثم مسح العجوز على جبينه وأكمل:

- السفح والجبل كأنا أرضا جرداء، بعد أن قتلوا كهينة وأولادها الخمسة، خرجت من الأرض عيون ستة، روت السفح والجبل، عاد

السكان إلى هنا بعد أن هجروا السفح والجبل، ومنذ ذلك الوقت والخير والبركة تملآن السفح والجبل.

صمت قليلا وأضاف:

- بقيت كهينة وأولادها في قلوب الجزائريين ورحلت فرنسا.

وقفت أتأمل السفح والجبل والأشجار الخضراء، وارتسم في خيالي البيت الذي يضم جثة كهينة، لم أدر كم وقفت، لم أدر كم تأملت، لم أدر كم ذهب بي الخيال إلى آفاق وآفاق، عادت كهينة صافية كالماء، كخضرة الشجر، كالحقيقة والخيال.

عدت إلى البيت وأنا في حالة ذهول، استقبلتني رندة غاضبة:

- يكفيني ذلا، سأعود إلى سوريا لأموت هناك.

- ما الذي حدث؟

- لم أعد أطيق التشرد.

في تلك الليلة أخبرني عدنان من أوكرانيا أن أخته منار خرجت من مصر مع زوجها وأولادها على متن مركب متجه إلى إيطاليا في هجرة غير شرعية.

- لم أعد أطيق الانتظار؛ أولادي يذهبون في كل مكان، تضمهم أماكن مجهولة، ووجوهات غير معروفة، ماذا أفعل؟ لم أعد أطيق الانتظار.

قلت لرندة:

- سنعبّر الحدود إلى ليبيا، ومن هناك سنعبّر البحر لنكون إلى جانب منار وسامر.

- هذا ما أريده وإلا سنعود إلى سوريا.

- الناس يغرقون في البحر.

- أفضل من أن يقتلهم شخص ليس عدوا لهم.

- يحتاج هذا الهروب إلى دولارات أمريكية لتكون الأسماك على استعداد لاستقبالنا.

- كم تريد؟

- خمسة إلى ستة آلاف دولار.

- سأطلب المبلغ من ابنة خالي في السويد علّها تنجدنا.

انتظرنا أياما عصيبة، كان الشيطان يهمس في آذاننا أن منار وأولادها صاروا طعاما سائغا لحيتان البحر المتوسط.

أخذ عدنان يهاتفنا يوميا، يريد خبرا منا عن أخته وأولادها فنخبره أننا لا نملك أي خبر فيغلق الهاتف غاضبا، ثم يأتي دور سامر يصرخ عبر الهاتف:

- أريد أن أشلع قلبي قبل أن أسمع خبر غرق أختي وأولادها.

ويأتي دور بدور من السعودية متجهة بدعائها إلى العلي القدير أن يحفظ منار وأولادها من كل سوء.

كيف حدث هذا في أيام قليلة؟ كيف انقلب البحر إلى أحضاننا فجأة، إلى أحلامنا، إلى كوابيسنا؟! كيف انقلب البحر إلى وحش، له فم كبير وبطن كبير وأسنان حادة، بعد أن كان مكانا للرومانسية والشعر والأمسيات الجميلة.

- أيها البحر لا تبدل جلدك، ابق كما أنت.

وقفت إلى جانبه وصرخت، لكنه صمت، هدرت أمواجه بلغة لم أفهمها، كانت صفحته ملساء كحد الشفرة، وكان صمته عميقا، حاولت أن أفهم لغة الصمت التي يتقنها فلم أفجح.

غضبت من البحر وأنا أنظر إليه:

- إذا أخذت أحبابي سأكرهك إلى الأبد، انتبه أيها البحر أنت مليء بالأسرار وأنا مليء بالحقد على القتل، انتبه أيها البحر، لا تغير علاقتنا وإلا...

وسقطت فوق رمل الشاطئ وأنا أبكي بصوت مسموع علّ البحر يسمعني .

وأتى الخبر:

وصلت منار إلى إيطاليا بعد ستة أيام في البحر.

كان عدنان يخبرنا عبر الهاتف متهدج الصوت وكأن صوته جاء عبر أمواج البحر الباكية.

عاد البحر إلى أحضان الرومانسية، وعادت أمسياته تطرق أحلامنا، لم تغدر بنا هذه المرة أيها البحر، لكنك غدرت بكثيرين سبقوا منار وبكثيرين سوف يلحقون بها، مرة تضحك أيها البحر ومرة تعبس، لا أعرف من أنت، بل لا أعرف كيف تختار الضحايا وتترك الأحياء.

وصل صوت منار عبر الهاتف المحمول متعبا، مالحا كملوحة مياه البحر.

- أنا بخير يا أبي وحزمة ومايا وشام بخير أيضا.

كان صوتها قد تغير، غيّر البحر بخوفه صوتها، غيّر البحر بأعماقه لهجتها، غيّر البحر بجبروته كلماتها.

- أأنت ابنتي منار؟

- نعم يا أبي، هل نسيت صوتي؟

وأرسلت لي صورتها عبر الواتس.

هذا البحر يغير الأشياء، يعجنها بملوحته وقوته، وقسوته، ليعبر بالناس إلى شواطئ جديدة لا يحبونها أو إلى شواطئ لم يتوقعوها.

لماذا هذا التغير؟!

تتغير الناس عبر سنوات وسنوات، وقد لا يتغيرون، ولكن البحر يغيرهم بلحظات، عبر ساعات، عبر أيام.

- ما بك يا بنتي؟

- كاد البحر يبتلعنا، مقابل لييبا كشر عن أنيابه، أخافنا حتى الفرع، ثم تركنا للحياة من جديد.

يا إلهي! إنها رحلة موت حقيقية، يكررها الناس يوميا، هربا من الموت إلى الموت، هربا من جحيم الرصاص إلى الأعماق المظلمة الباردة.

هل الموت في البحر هو غير موت الحرب؟
لكن هذه الرحلة، هي رحلة من الموت إلى حياة أو موت.
ولكن، هل الحياة التي نهرب إليها مثل تلك الحياة التي كنا
نحياها؟

هناك شيء مختلف بين الحياتين، لا أدري ما هو، هل هو الفارق
بين حياة الموت وحياة الحياة، هل هو فارق الهواء الذي نتنفسه،
والشوارع الجديدة التي نسير عليها.

تلك شوارع المخيم تحمل ذكرياتنا، تحمل خطى من نحب، تحمل
بصمات من نعرف، لكن هذه الشوارع النظيفة غريبة عنا، خطى
الغرباء تختلط بخطانا، ذكريات الغرباء تختلط بذكرياتنا.

شوارع المخيم القذرة تحكي قصتنا، وهذه الشوارع النظيفة تحكي
قصة الآخرين.

هل قذارة شوارعنا هي من أوصلنا إلى ما نحن عليه أم أن نظافة
شوارع الآخرين تظهر نقائصنا؟!

كنت أستمع إلى ابنتي وهي تتحدث عن حياتها الجديدة، كل شيء
على ما يرام، الطعام، الشراب، المسكن، مدارس الأولاد، ولكن رنة
الحزن في صوتها لم تفارقها.

- لماذا الحزن يا بنتي؟

- كأني أعيش في الماضي لا في الحاضر.

- الحياة الجديدة قد تجعل الإنسان حزينا على ماضيه.

- أبي، هنالك شيء لا أعرفه يحزنني، لأنني فقدت رائحة شوارع
المخيم، رائحة الناس الذين أعرفهم، رائحتك أنت وأمي، رائحة
أخوتي، لا أعرف، أنا بين السعادة والحزن.

- يعيش الشخص في الهلام حين يدخل حياة جديدة، اتركي ذلك
للزمن.

- لن يحدث هذا قبل أن أراكم.

- تريد أن نعب البحر؟!!

- نعم يا أبي، سيكون البحر حنوناً إذا عرف أن الوالدين سيلتقيان بالأحبة، سيلتقيان بالأبناء.

لم أفكر بذلك إطلاقاً.

كان بحر صيدا حنوناً، قرب قلعته كنت أناجيّه، كانت أمواجه تغسل همومي، ولكن المفهوم تغير فجأة، صار البحر خصماً، ينتظرنى كي أعبره، أتحداه لكي أعبره، ومن يتحدى البحر يخسر.

قالت رندة:

- نحن نموت هنا ببطء، يجب أن نعب البحر.

وقالت حنين:

- عمي، الأمر سيان، لعبتنا لعبة حظ، هيا نلعبها.

وقال إمام:

- سأعب البحر ولو سباحة.

أما علي ومحمد فقد كانا فرحين بركوب البحر.

صرخت فيهم:

- والناس الذين يموتون غرقاً، ألم تسمعوا بين فترة وأخرى أخبارهم، سمك المتوسط شبع من الجثث، حتى إن أهل تونس باتوا يكرهون أكل السمك لأنه شبع من لحم البشر.

قالت رندة:

- إما أن نعود إلى سوريا أو نعب البحر، هناك سأرى أولادي وأحفادي، أما في سوريا فلن نرى سوى الجثث والبيوت المهدامة والخوف الذي يأكلنا ونسمع أصوات الانفجارات بدل موسيقى بيتهوفن.

- هنالك مخاطر عديدة في الصحراء والبحر و...

قاطعتني رنده:

- لن نكون أفضل من الذين عبروا.

- هذا قرارك.

- لا طريق أمامنا غيره.

كانت ليلة ساخنة بالتوقعات، ليلة كان قمر الجزائر يتوسط سماء صافية، جلسنا تحت قبة السماء دون ضوء سوى ضوء القمر، تبادل النظر، نريد أن نقول شيئاً بل أشياء، لكننا فضلنا الصمت على الكلام، هنالك البحر ينتظرنا والصحراء، وعلى الضفة الأخرى حياة جديدة لم نختبرها.

هاتفنا عبد الرحمن، شقيق رنده من ألمانيا، سائلاً:

- هل قررتم؟

- قررنا.

- على بركة الله، هنالك صديق عزيز على قلبي سيأتي من لبنان اسمه علي سترافقونه في رحلتكم.

نعم أيها القمر، ينبغي أن يكون هنالك رفاق في رحلة الموت، لن نكون وحيدين حينما نموت، سستبادل الموت والحياة، قد نبسم حين نلاقي مصيرنا الجماعي، وعندها نموت بسلام، دون خوف من البحر أو الصحراء أو قطاع الطرق.

في تلك الليلة القمرية، أشياءنا القليلة وضعناها في حقائب صغيرة، وتركنا حقائب السفر مليئة، وحيدة، لأن الصحراء والبحر لا يتمانان الحقائق الكبيرة، إنهما يريدان الأجساد شبه عارية من الذكريات والأحلام، يريدان جسداً خالياً من كل شيء، سننهض في الرابعة صباحاً، ونتحرك في السادسة نحو العاصمة الجزائر.

هاتف عليا الذي وصل صباحا من لبنان مع أخيه زكي وزوجته،
كان صوته متفائلا.

- سنلتقي في محطة خروبة للحافلات قبل منتصف النهار ومن
هناك سنتجه إلى وادي سوف، ومن هناك سنعبّر الحدود إلى ليبيا.
لم أكن أريد أن أترك القمر وحيدا، ولكنني أغمضت عيني في تلك
الليلة دون أحلام.

وصلنا قبل الظهر إلى ملتقى الحافلات في خروبة، كان المكان يعج بالناس، وكانت أفكارى تتصارع ما بين إقدام وإحجام، إذا أقدمت على هذه الخطوة فإن دمشق ستغيب طويلا، قد يكون نهاية العمر بعيدا عنها، أو أنني سأراها بعينين من زجاج.

آه يا دمشق! أبتعد عنك نحو القارة العجوز، وقلبي ينزف كما تنزفين، وروحي طفت فوق البحار والصحاري! سأبتعد وتبتعدين، لست فرحا لهذا البعد وأنت أيضا، حين أعود إليك، سأراك مثل امرأة في ليلة عرسها، ولكن روحي ستكون محطمة بسبب فراقك، سأفرح بك لكنها فرحة إنسان على وشك الموت.

جاء علي، كانت ابتسامته تسبقه، وجاء معه بعض أصحابه، لكن ما لفتني هو ابن أخته اليتيم محمد الذي سيلجأ إلى أوربا وهو قاصر ليلم شمل عائلته.

- سنتطلق الحافلة إلى وادي سوف عند الثالثة عصرا.

فرحت وتأملت، لم يعد هناك مجال للتراجع إما الموت أو الوصول.

تعلقت بالجزائر مثلما تعلقت بدمشق، الحزن اعتصرني فصمت فترة طويلة، وأخيرا همست في أذن رنده:

- سنعود إلى سوريا؟!

- حين تستقر الأمور سنعود.

- الآن.

- أنت مجنون.

- فراق دمشق كالموت.

- عد وحدك.

وبعد قليل وضعت يدها على يدي وقالت بحنان:

- أعدك أن نعود إلى دمشق.

هدأت نفسي، كأنني عدت إلى شوارع المخيم، إلى شوارع دمشق أسير فيها بأمان وأشم رائحة الياسمين الدمشقي.

ركبنا البولمان إلى وادي سوف في الصحراء الجزائرية، كانت رحلة طويلة، عبرنا فيها الجبال والأنفاق، رأينا مناظر خلابة، عشر ساعات متواصلة كنت في كل لحظة فيها أشعر أنني ألبس فيها وجهها من الوجوه المتعددة لأشخاص لا أعرفهم وليس وجهي الحقيقي، لم أكن أملك خياراً آخر، كانت المناظر الخلابة التي مرّت خارج زجاج البولمان كأنها كوابيس من عصر الشياطين.

سهوت قليلاً، ودّت نفسي أن أسير في دمشق، في غسق جميل، توقفت هناك وأنا أرى الشمس على وشك المغيب، اختفت الحواجز والمظاهر العسكرية، اختفت أصوات القذائف وأزيز الرصاص، عادت دمشق كما كانت، بهية، آمنة، كامراً مطيعة.

ماذا حدث؟

هل أحلم؟!

لا، لم تحلم.

- صبحي، أنت تتكلم في منامك.

- كان حلماً رائعاً.

- لم يحن وقت النوم بعد.

- كنت في دمشق وقت الغسق، كانت هادئة وجميلة، صوت فيروز في شوارعها لا أصوات الرصاص وأنين الجرحى.

- هذا حلم، مازال الناس هناك يموتون، وما زالوا يجوعون، هناك ليل دامس، لا موسيقا بل رصاص وقذائف.

- ستعود دمشق كما كانت.

- ليس الآن.

- المكان الأول هو الأجل، إن ابتعدت أجسادنا عنه تبقى أرواحنا متعلقة به.

وصلنا قبل الفجر إلى مدينة الألف قبة وقبة، مدينة وادي سوف في صحراء الجزائر، كانت سيارة أخرى تنتظرنا في شارع جانبي، أعطانا المهرب تعليمات بعدم الكلام والخروج من السيارة اثنين اثنين حتى لا نلفت النظر.

علينا أن نحذر دائما، وأن نصمت دائما، وأن نكون مثالا للطاعة، هكذا علمتنا الحرب.

هنا الصمت من نوع آخر، صمت معجون بالتعب، معجون ببقايا الموت الذي تركناه خلفنا، صمت نازف حتى العظام، صمت القبور وصمت الموت.

علمونا دائما أن نخاف، والصمت عنوان الخوف، صدى قدميك يجب أن تحسب حسابها، لسانك قطعة ميتة في فمك، وأحلامك التي تركتها خلفك عليك أن تنساها لتعيش لحظة الصمت.

نظرت إلى القباب المنتشرة في المدينة النائمة الصامتة وكأنها ميتة.

عاد الهواء الساخن يضغط على صدري ليخرج تنفسي عن صمته، صعدنا إلى شقة، كنا نتهامس وكأننا لسنا بشرا، واكتشفنا أنها بلا ماء ولا مرحاض، ولا شيء من مقومات الحياة حتى نحافظ على صمتنا.

كانت الشقة مليئة بأشخاص آخرين، في غرفة صغيرة وحارة، تمددنا نحن والنساء، بعد يوم متعب، نجتر كلماتنا بصمت، ننظر إلى بعضنا بصمت.

- هذا بداية العذاب.

قال علي، ووضع حذائه تحت رأسه ونام:

- كيف لنا أن نتحمل ما سوى ذلك.

- لن تكون هناك عودة، هنالك طريق واحدة الصحراء والبحر.

كانت عيوننا مفتوحة على كل الاحتمالات: الأمن الجزائري، المرض، المهربون، قطاع الطرق وأشياء أخرى.

دارت هذه الاحتمالات في رأسي وأنا أنظر إلى تلك الفرش المتسخة التي نمنا عليها.

قال زكي ضاحكا:

- هذه الفرش للعزاء يجلسون عليها دون أن يخلعوا أحذيتهم.

ابتسمنا ابتسامة باهتة، نظرت من النافذة الضيقة الوحيدة، كانت القباب منتشرة في كل مكان، وقد سمعت أن هذه القباب تسحب الهواء الساخن إلى الأعلى بسبب حرارة الصحراء.

صباحا لم نأكل ولم نغسل وجوهنا، كأنا نعيش في مغارة، جاء أحدهم وقال لنا:

- انزلوا اثنين اثنين إلى البولمان الذي يقف خلف المبنى، بهدوء، لا تتكلموا.

تلك الشقة امتصت منا إنسانيتنا، أعادتنا إلى العصر الحجري، حشيت بأشخاص من جنسيات مختلفة، سوريون، أفارقة، وغيرهم، هربوا من واقعهم، وأخذوا يتناقشون بالسياسة، هذا مع وهذا ضد، والكل هارب نحو المجهول.

كلكم سواء، يكفيكم تنافرا، اصمتوا، يامن قبلتم البحر والصحراء طريقا لكم.

عادت السيارة تنهب الطريق نحو بلدة الدبداب الحدودية، وعلى الوجوه تساؤلات عن المصير، أحيانا يتحدثون وأحيانا ينامون، وأحيانا يأكلون، كان الوقت يمر بطيئا ومملا، والسائق الصغير السن ينهب

الأرض بياضه الكبير... كان علي ومحمد ينامان على بعضهما، وإمام صامت كعادته، وكانت حنين تنظر إليّ بلا معنى، ورندة تصحو أحيانا وتنام أخرى.

سألت حنين:

- متى نصل؟

- لا أعرف.

- تبدو هذه الطريق لا نهاية لها.

- مثل عذابنا لا نهاية له.

ابتسمت بمرارة:

- عمي، نحن نسافر من أجل أن ننسى أحزاننا، لكن يبدو أنها تتراكم مع الزمن.

- من يترك بيته لا يمكن أن يحس بالسعادة.

- أحيانا أحس أنني سعيدة إلى أبعد الحدود، وأحيانا أرى نفسي أتعس إنسانة في الوجود.

- في هذه اللحظة.

- هذا الشعور يداهمني مع تقدم الرحلة.

- أما أنا فلا شيء.

- كيف؟

- لم أعد أدرك ما بين الفرح والحزن، انهدمت الجدران بينهما وأصبحت تائها.

- كالمتشائل.

- تماما.

- يبدو أننا أضعنا طريقنا حين خرجنا، ولكن لا طريق سوى الخروج، أولئك الذين لا نعرفهم وليس بيننا وبينهم ثأر أو دم كانوا سبب مصائبنا.

- أصدقاء الحروب ليس لهم وجوه، ليس لهم ملامح، ليس لهم قلوب، كأنهم ولدوا من حجارة الأرض، أو كأن الأرض لفظتهم من أجل عبثة الحياة.

مالت نحوي حتى بان جزء كبير من نهديها من خلال فتحة فستانها، ونظرت إليّ نظرة فيها مزيج من الدلال والعتب، أدت وجهي لكنها واجهتني:

- عمي، نحن نتحدث وهم يفعلون، انظر إلى هذه الصحراء، من جعلنا نتوه فيها، وحين يأتي دور البحر لن تغسل مياهه أحزاننا أبداً.

- أشعر أنني سأبقى تائها في هذه الأرض، حين كانت فرنسا تحتل سوريا كانت الحالة مختلفة، كانت النهاية معروفة، الآن نهايات لانهاية واحدة، أنفاق من الحلول، وصراع من أجل لا شيء.

- ذلك العجوز الذي استباح جسدي، كان يقول، وقد بانت أسنانه النخرة: حربكم أعطتنا فتيات جميلات كالحوريات. كان بصاقه يسقط حول فمه وهو يتكلم، كنت أخاف النظر إليه كما لو أنني أنظر إلى شيطان.

- هو جزء من الصورة يا عمي، جزء من هذه الحرب الملعونة، وهناك أجزاء وأجزاء، الصورة لن تكتمل الآن، نحن نهرب لأننا جزء من الصورة، الأجساد التي ماتت من الجوع في مخيم اليرموك جزء آخر من الصورة، البراميل المتفجرة والبيوت المهدمة جزء آخر من الصورة، قطع الرؤوس وأكل الأكباد جزء آخر من الصورة، طفل لاجئ يحمل بيده كسرة خبز لم يغتسل منذ زمن جزء آخر من الصورة، المرأة الباكية التي انتهك عرضها على شاشة التلفاز جزء آخر من الصورة، الهاربون في البراري جزء آخر من الصورة، العائلات التي تشتتت في بلاد الله الواسعة جزء آخر من الصورة، هذه الصورة هي جزء من الحياة القائمة الآن، هي جزء من الموت، من الحب، من الألم، من الانعتاق، هي جزء من الجحيم.

وصل الباص في الجحيم، في منتصف نهار حار إلى بلدة الدبداب.

فكرت أنني سأرتاح في بيت بارد بعد هذا الجحيم، أنزلونا بسرعة كأسرى حرب وحشرونا في بيت لم يكتمل بناؤه بعد، الرمل الصحراوي يتموضع في جميع أركانه، وأخذوا النساء إلى بيت آخر. زاد العطش، زاد التعب، جلسنا في باحة البيت على الرمال في انتظار عبور الحدود.

بعد فترة انتظار قالوا لنا إن النساء أصبحن في مكان ما بين الجبال وهن في انتظارنا، ولم يفصحوا عن شيء آخر.

منعنا المهرب وليد الأسمر الوجه ذي الملامح العربية - لا أدري إن كان هذا اسمه الحقيقي أو أنه اسم مستعار - من الحديث ومن الخروج، وجمع ثلاثمائة دولار عن كل شخص.

- إذا لم تدفع فلن تعبر الحدود، هذا ثمنك وهذا ثمن الحدود العربية.

فرغونا من كل شيء، من أحاسيسنا ومشاعرنا وإنسانيتنا وكرامتنا وذكرياتنا.

من الصعب أن يصبح الإنسان شيئاً مهماً في لحظات، أنا لست ذلك الشخص الذي كنته، انقلبت إلى لاشيء، انقلبت إلى مجرد عابر سبيل، تدفع من أجل أن تعبر الحدود إلى المجهول.

أنت لا أنت، انس كل شيء كنته من قبل، وعش تلك اللحظة وإلا فلن تستطيع إكمال الطريق، انس عملك وكن شيئاً لا قيمة له، انس أحلامك وإحساسك بالإنسانية، وعش تلك اللحظة من أجل ألا تموت، انس ذكرياتك، وعش الحاضر وإلا لن تعبر الحدود، انس ماضيك وأمكنتك التي تركتها، وتعلق بهذا المكان المجهول، عشه بكل تفاصيله، وإلا لن تكون شيئاً.

لكن التعب والنسيان بدأ يعشش فينا قهراً، بدأ يرمينا بين ضفاف التمرد والتوهان، أخذ النسيان يجرنا من أنفسنا، لم نعد نحن قبل الدبداب مانحن عليه بعد الدبداب.

تساءلت والتعب والقهر يأخذ مني كل مأخذ:

- هل أنا صبحي حقا؟! من كان يلبس بدلة فاخرة وربطة عنق ويجول في المدرسة على الصفوف، يتعرف على طرائق تدريس المعلمين، وييدي ملاحظاته.

وهجم النسيان عليّ كوحش وقال:

- أنت لست صبحي، أنت شخص آخر، شخص هارب من الموت، شخص بلا قيمة، تحافظ على حياتك وتترك الآخرين للموت، أنت لست صبحي الذي كان يحب الفقراء ويعطف عليهم، هربت بروحك وضحيت بأرواح الفقراء، أنت لست صبحي، أنت إنسان آخر.

وهجم عليّ وحش التعب فسهوت قليلا، رأيت نفسي معلقا ما بين السماء والأرض بحبال سميكة، أتأرجح كبندول ساعة قديمة، أقرأ قصائد محمود درويش في الهواء الطلق، أمام جمهور لا أرى سوى عينيه، ولا أسمع إلا صوت تنفسه، لا يحمي الجمهور إلا التصفيق، تصفيق ليس كالتصفيق، تصفيق كالنواح أو البكاء الصامت.

وكلما أقرأ قصيدة أرى الجمهور يتسع ويتسع، أرى نفسي أتأرجح أكثر، أرى العيون تلتهمني والأكف تقترب مني بأصابع من حديد، تقترب من عنقي، أناشيد الأرض والحب والسريالية، تعاود رصف نسياني إلى حدود المعقول واللامعقول. إلى حدود الحب والكره، إلى حدود الأمل واليأس، إلى حدود الجمال والبشاعة، إلى حدود الحياة والموت.

انتهت الأشعار ولم يعد في القاعة إلا العيون المتوحشة والأصابع الحديدية والهمس القاتل، انطفأت أضواء القاعة، اقتربت العيون والأصابع، وازداد الهمس وحشة، همسوا في أذني وهم يضغطون عليّ بأصابعهم الحديدية، ويحيطون بي بعيونهم المخيفة:

- هروبك يعني موتك، لن تستطيع أن تكون أنت بعد الآن، كلمات قصصك ماتت، أفكارك ماتت، أحلامك ماتت، أناقتك، غرورك، صوتك، ضحككتك، رصيفك، سماءك، أرضك، كلهم ماتوا فكيف ستعيش أنت؟ صرخت وأنا أنهض:

- سوف أعود، سوف أعود.

كان وليد المهرب ينظر إليَّ بعينيه الكبيرتين ووجهه الصحراوي:

- انهض، السيارات ستعبر بك الحدود.

- لا، لا، لا أريد.

- إذا لم تنهض سنتركك هنا.

- أين أولادي؟

- في السيارة.

- وزوجتي وابنة أخي؟!

- في مكان عند الجبل...

نهضت كالمجنون، ركب الشباب سيارة تويوتا في الحوض،
واندسست بين السائق ورجل مسلح، لمحت في الخلف علي ومحمد
وإمام، والشمس تلهب الأجواء.

سارت السيارة على طرق متعرجة، وكان المسلح ينظر بين الفينة
الأخرى بمنظار مكبر ليستكشف إن كان هناك من رجال للحدود،
دخلنا بسرعة البرق أرضا جرداء مليئة بالحجارة، مليئة بالمرتفعات
والمنخفضات، السيارة تكاد تطير، بعد حوالي نصف ساعة وجدنا
النسوة مع سيارات أخرى في انتظارنا بين جبلين، أخذت السيارات
الخمسة تسير خلف بعضها في جو صحراوي شديد الحرارة.

كنا نتحدى أنفسنا وحرس الحدود كلما تقدمنا في المسير، جفت
حلوقةنا بسبب حرارة الجو، وكان الماء قليلا وساخنا، كنت أنظر إلى
علي ومحمد وهما يفترشان أرض السيارة، وقد احمر وجهاهما وذبلا
كزهرتين أدركهما العطش، لم يرد السائق على سؤالي حين سألته عن
المسافة، كان يقود بجنون، والغبار يعج خلف السيارات وكأنها هاربة
من مصير محتوم.

كيف وضعت نفسي في هذا المأزق؟

تساءلت، حاولت الإجابة لكن حرارة الجو والأعصاب المشدودة لم تمنحني فرصة للإجابة، كانت السيارات تتخذ إما طرقاً سلكها آخرون أو طرقاً غير سالكة، كأنها تسابق الزمن.

في منتصف وقدة الشمس توقفت السيارات أمام بركة لشرب الإبل، نزلنا، غسلنا رؤوسنا وشربنا، وفي لحظات جفت حلوقنا ورؤوسنا، لكنها لحظات استعدنا فيها شيئاً من نشاطنا.

وصلنا عصراً إلى بيت قيد الإنشاء لا يصلح لإقامة آدميين، حشرونا فيه ونبهوا علينا ألا نتكلم ولا نخرج ولا ولا...
عدنا إلى شعور القطيع.

جلست على الأرض متعباً، مرهقاً، لا قدرة لي على الكلام أو إبداء الرأي.
هنا تشعر بعدم إنسانيتك، كأنك مجرد حيوان مسالم تحكمت فيه مجموعة حيوانات كاسرة.

نام كل من علي ومحمد على الأرض من التعب، أما إمام فقد أوصله وجهه المحترق من الشمس إلى حافة الجنون.

خطرت لي أن أنظر إلى وجهي في المرآة، ثم عدلت عن الفكرة لأنني سأرى إنساناً محطماً، قذراً وكأنه خرج من بطن الصحراء.

كان الرجال يتحركون حركات لا إرادية، يتحدثون بلغط الكلام لينسوا واقعهم، فلم يعودوا مثلي كما كانوا في السابق.

غفوت قليلاً من التعب، وحين صحت رأيت سيارة تقف أمام البيت، اتجهت نحو السائق وقلت بانفعال:

- أريد الذهاب حيث تكون زوجتي.

في بيت على طرف الصحراء كانت زوجتي وحين وبعض النسوة مع أزواجهن، اغتسلت وحلقت ذقني وكذلك فعل إمام.

استعدنا شيئاً من إنسانيتنا، أكلنا لقيحات قليلة، كان جسدي نائماً لكن عيني مفتوحتان.

قالت رنده وهي تجلس إلى جانبي:

- رحلتنا هذه تساوي عمرنا كله.

- من أين لك هذه القوة؟

لم تطل إقامتنا في البيت، ولهذا لم نذق طعم الراحة؛ جاء رجل بسيارته والدنيا بعد مغرب الشمس وأخبرنا أن علينا المغادرة، أخذونا إلى شاحنة كبيرة تجر مقطورة طولها أكثر من عشرين متراً، رنده وحنين وامرأتان أخريان جلسن في مقصورة خلف السائق، أما الباقي ففسلقوا المقطورة.

كانت أرضية المقطورة مليئة بالمازوت، أمرونا أن نستلقي على الأرضية، وحذرونا من الوقوف أثناء الطريق، كنا نستلقي كالنعاج، وأشياءنا القليلة التي بقيت وضعناها تحت رؤوسنا، أسمع همهمة الرجال، أسمع أنينهم، أسمع اعتراضهم، لكنه اعتراض ميت.

فكرت أن ألقى بنفسي من فوق الشاحنة، أريد أن أصرخ بأعلى صوتي، أنا لست حيواناً، كانت النجوم فوقنا تراقبنا وهي هادئة وباردة ولا مبالية، أما علي ومحمد فقد ناما دون أن يكتراثا بالاهتزاز، أما إمام فقد استلقى بعيداً في نهاية المقطورة.

نظرت إلى الأجساد المستلقية المتعبة، لكل منهم قصة وحكاية: حكاية وجع، حكاية فراق، حكاية دموع.

هذه اللحظات تختصر الحكايات، تختصر الوجع والفراق والدموع، بل تختصر العمر كله.

كانت أجسادنا تهتز بفعل الطريق الصحراوي الرديء، كنت أسهو أحياناً، وفجأة أجد نفسي وقد ارتفعت عن الأرضية الحديدية وسقطت على ظهري.

أحس أنني لست أنا وليس هذا المكان لي أبداً.

مرّت الليلة كالكابوس بين صحو وغفوة، بين نجوم وارتطام، زحف الفجر دون أن ندري من أين أتينا ولا إلى أين نسير!

تسللت الشمس على الأجساد المتعبة النائمة، كانوا ينظرون إلى بعضهم وكأنهم خرجوا من القبور، دخلت المقطورة ساحة بيت كبير، نزلنا بأجساد متعبة ونفوس محطمة.

- أين نحن؟

سألت السائق.

- نحن في غدامس في ليبيا.

ثم أضاف:

- ادخلوا البيت ولا تخرجوا منه أبدا.

وركب الشاحنة وأطل من النافذة قائلاً:

- سأعود.

دخلت النسوة غرفة جانبية، والرجال إلى غرفة أكبر، وقد توفر في هذا البيت بعض الطعام والشراب.

رغم الجوع والعطش أثرت الاغتسال بعد وقوفي في الدور لساعة كاملة.

عاد المتعبون الهاربون من الفقر والموت يثرثرون، نسوا أو تناسوا أرضية المقطورة، نسوا الاهتزاز الذي قصم ظهورنا، نسوا أو تناسوا أنهم لم يكونوا آدميين حين استلقوا على الأرضية كالخراف.

- هل عادت إليكم آدميتكم؟

تساءلت وأنا، أنظر إليهم، من يفقد آدميته هل يعود إليها أم تعود إليه؟ كان الجواب صعباً كما السؤال، وكان الأصعب هي تلك الأسئلة التي لا تفيد ولا تضر في ذلك الوقت.

وقفت أمام النافذة أستمع إلى كلام المتعبين، وكان هناك اثنان في باحة البيت للحراسة، أحدهم سائق المقطورة، وقد أشار إليّ أن أخرج وأجلس معه، كان اسمه عادل من حرس الحدود الليبي، يقبض ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف دولار في كل مرة يعبر فيها الصحراء بمهاجرين غير شرعيين.

قلت له:

- نحن أناس شرعيون لكن الحرب غير شرعية.

حدثني عن نفسه:

طلّق زوجته لأنها لا تقوم بأعمال البيت على أكمل وجه، ولديه منها ولد في العاشرة من عمره، ثم فاجأني بقوله:

- أريد أن أتزوج بسورية، هل تساعدني في ذلك؟

ضحكت فبان على وجهه الغضب بينما سلاحه إلى جانبه.

- ما الذي يضحكك؟

- لم يسألني أحد هذا السؤال من قبل.

ولم يخلصني من ورطتي إلا مجيء سيارة أحضرت طعاما وشرابا.

حين عدنا إلى الجلوس، نظرت إلى وجه عادل، كانت المارجوانا قد تركت أثارا واضحة على وجهه وعينه.

قال بحزن:

- أشعر أنني بلا حظ في هذه الحياة، أملك ثلاث سيارات لا يوجد مثيل لها في الزنتان كلها إن لم يكن في ليبيا، وعندى دولارات كثيرة، أنا أبحث عن امرأة تريخني.

- سأبحث لك عن تلك المرأة.

قلت ذلك دون وعي.

انفجرت أساريه، طلب لي عصيرا، وأخذ يحدثني عن أيام القذافي وابنه سيف الإسلام، كنت على علم بكل تلك الأخبار التي سردها لي، لكنه أضاف شيئا بأن القذافي كان صادقا في لحظة واحدة فقط.

سألته:

- ماهي؟

- حين قال بعد أحداث تونس إن الدور سيأتي علينا.

- هل كان يتنبأ؟
- لا أدري، ولكن شعر أن جارته تونس التي اكتوت بنار الربيع العربي سوف يكتوي هو بنارها.
- هل لجأ إلى العرافين؟
- كانت صديقتها مريم نور وهي عرافة عجوز.
- ولم لم يرحل قبل أن يقتل؟
- لأن رحيله يعني موته المعنوي، ولهذا أثر الموت المادي.
- لا أحد يريد الموت المادي، من جلس على الكرسي أربعين عاما يريد الدنيا بما فيها، يريد الخلود، لا يريد الموت.
- صمت عادل قليلا، تغيرت ملامحه، وبدت نظراته قاسية، وأخيرا قال:
- أتابع رأيك إلى حد ما، لكن الأمور لا تسير بهذا الاتجاه مائة في المائة، رموز السلطة يحبون الحياة، لكن الحياة تلفظ أولئك الذين تعلقوا بها، الحياة كائن خرافي لا ذمة له ولا دين.
- لكنه رفض الرحيل.
- هذا صحيح، والسبب ليس شجاعة ولا بطولة، بل إن تركيبة الدماغية، خلال أربعين عاما في السلطة، جعله يشعر أن فراق الكرسي موت معنوي ومادي، إنه تعلق بالسلطة بل قل شغف بها، وهذا ما أفقده توازنه ولم يعد يفكر إلا في البقاء.
- لماذا رحل بن علي؟
- قد يكون الجبن أو أي شيء آخر.
- اذن فالقذافي كان شجاعا.
- ظهر عليه الغضب لكنه أجاب:
- أبدا، قلت لك شغفه بالسلطة أفقده اليقين.
- وما يحدث في سوريا أدهى وأمر.

- في سوريا انكشفت الخيوط، لم يعد الربيع مجرد ثورة بل خرابا على خراب.

- لكن البداية صحيحة والنهاية سيئة.

- لا أوافقك الرأي.

- والنهايات الأخرى أسوأ بكثير.

- رأيك لا يعجبني! لولا أنك ستترك لييبا لكان لي كلام آخر معك.

قال ذلك وحمل سلاحه دون أن يقول لي كلمة واحدة، حينها دخلت سيارة من نوع مرسيدس سوداء، ركبها عادل ونزل منها رجل أسمر لا يتجاوز العشرين من العمر، عيناه حمراوان، ونظراته غائبة عن الوعي، بسبب كمية المخدرات التي تناولها.

جلس مكان عادل وأخذ يمطرني بأسئلة متتالية دن أن يترك لي مجالا للرد، استمعت إليه، ثم فاجأه النعاس فنام مكانه، وأخذ يشخر، وسقط سلاحه إلى جانبه.

وتساءلت هل ما أنا فيه حلم أم واقع؟

إذا كنت في واقع، فهذه ليست الحياة التي أردتها، وإذا كنت في حلم سينقلب عاجلا أم آجلا إلى كابوس، ليس بسبب الشخصيات اللامعقولة هنا، وليس بسبب الأحداث غير المتخيلة، وليس بسبب المشاعر التي تضطرب داخلي، بل بسبب هذا كله.

حين شعرت أنني لست أنا علمت الآن صحة تصوري، وحين أصرت الأحداث على ترتيب عبثي غير متوقع علمت أيضا أنني أعيش في كابوس سريالي.

أحيانا، أحس أنني لم أعد أشعر بشيء، أتكئ على حياتي السابقة لأبقى أنفوس، ولأبقي على ما يبقيني أعرف اسمي وهويتي وشارعي الذي فقدته وبيتي المهدم، وأحلامي الضائعة، وصورة أولادي فردا فردا، كان المائل النائم أمامي ليس شخصا من الآدميين، إنما هو وحش أسطوري وضع أمامي لأعرف حقيقتي، حقيقتي التي كنت أبحث عنها طوال حياتي ولم أجدها.

هاهي حقيقتي، بلا ملامح، بلا مشاعر، بلا أحلام، وبلا آمال، هاهي حقيقتي الفارغة من كل معنى، بعد عمر من العمل والكفاح، هاهي حقيقتي، عارية من كل شيء، منغمسة في الوحل، شاحبة، ذليلة، منكسرة، هاهي حقيقتي، وحش أسطوري من ورق، يشرب الحشيش ويتحكم بمصيري ومصائر الهاربين أمثالي، هاهي حقيقتي، بلا سماء ولا أرض، بلا دفء ولا أضواء، هاهي حقيقتي، أنظر إليها وتنظر إليّ، تضحك مني وعليّ، تبصق في وجهي، ترفعني إلى أعلى وترميني أرضاً، هاهي حقيقتي، بلا عنوان، بلا تواصل، بلا شكل، هاهي حقيقتي، كوابيس، حقول الغام، جثث للأسماك، وتوهان في الصحراء، هاهي حقيقتي، جراح، أحلام ضائعة، انكسار الروح، هزيمة الجسد، هزيمة المكان والزمان.

هاهي حقيقتي: أشلاء، رصاص، قذائف، براميل متفجرة، بيوت مهدمة، أطفال تبكي المستقبل، ونساء تلد الديناصورات.

حين يدرك الإنسان حقيقته قبل نهاية عمره بقليل، فقد يكون إما معتوهاً أو غيباً أو مخدوعاً.

ولكن، من خدعني؟ إنها الحياة، أعطتني أجمل ما تملك وخبأت لي في أواخر عمري أسوأ ما تملك.

حين تنتهي بالسيئ فإنك لا تستطيع فعل شيء، وحين تنتهي بالجميل فإنك تتمسك بالحياة حتى النفس الأخير.

بدأت حياتي سيئة، من فقر وعوز وكفاح وجد وعراك الحياة، وأعطتني ما زرعته، لكنها الآن أعطتني الأسوأ، لا بما زرعته أنا بل بما زرعه الآخرون، وبدقة أكثر بما زرعته أنا والآخرون.

لماذا هذا التضاد الحاد ما بين السيئ والجيد؟! هل لأنني أواجه الحياة على حقيقتها في هذه الأوقات الصعبة، أم لأنني غير راض عما كتته، بل كما كان الآخرون، لكن الآخرين هم أنا وأنت وهو وهي؟! لماذا نلقي اللوم على الآخرين وننسى أنفسنا، عليّ أن أعترف أنني ركضت وراء شيئين؛ النساء والقلم، والاثنان يجبان الهذر بالكلام.

النساء من أجل المتعة والحديث، والقلم من أجل الأفكار التي تعذبت في التقاط صورها كما تعذبت في الركض وراء النساء، كان للقلم متعة تشبه متعة النساء، تلهث وراء المرأة أو الفكرة، فإذا نلتها أصبحت عادية جداً، وتبدأ باللهاث خلف فكرة جديدة وامرأة جديدة.

وأنا الآن، لا أبحث عن العشق الزائف، بل الأفكار التي أوصلتنا إلى همجية كانت خبأة في النفوس، لقد انسل اللصوص إلى مكتبة بيتي، سرقوها، أو أحرقوها كما فعل التتار في مكتبة بغداد.

فقدت ذلك الركن الحبيب إلى نفسي، كما فقدت متعة النساء، كنت كلما رغبت في الأفكار رغبت في النساء.

هذه العلاقة النساء والأفكار تفجرت هنا، اقتحمت عقلي، وانسلت إلى داخل روحي، خواء وإهمالا ونسيانا وعجزاً.
لماذا هذا العجز؟!

هل لأنني متّ روحياً قبل موت جسدي؟!
متعة الجلوس خلف طاولتي في مكتبتي الخاصة متعة لا توصف، كأني أتعرف على وجه نسائي جديد، أحلم بالأفكار وتحلم بي، كأني أتعرف على وجه نسائي جديد، وحين أمسك القلم ترتجف يدي وكأنني أكتب لأول مرة.

كيف أعيش وقد فقدت ذلك الركن؟! وحين لا أصل إلى نتيجة، انتقل إلى فراغ نفسي آخر، أحن إلى الماضي وأبكيه، أبكي الأفكار والنساء، أبكي روحي.

فجأة نهض الحشاش ونظر إلي بعينين محمرتين:

- مازلت هنا؟!

لم أجبه.

- ادخل إلى الداخل، لا أحد يخرج من البيت إلا بأوامري.

- هذا ليس من شأنك.

وحين دخل عادل صمت وكأنه بلع لسانه.

قال لي عادل:

- حضر عائلتك وعائلة صديقك علي، سندهب إلى مصراته.

وخلال عشر دقائق كنا في سيارته المرسيدس، وخلال الرحلة القصيرة أخذ يتحدث عن نفسه، وعن ابنه، وعن زوجته المطلقة، وعن ليبيا في عهد القذافي، وعن ليبيا بعد القذافي.

كان حديثه ممتعا ومملا في آن؛ ممتعا لأنني تعرفت على شخصية فريدة من نوعها؛ يفعل الموبقات ولكنه يتحدث عن نفسه وكأنه رسول البشرية، ومملا؛ لأن شخصيته يمكن اكتشافها منذ اللحظة الأولى.

افتخر بسيارته التي لا مثيل لها في مصراته والتي أحضرها من دبي، أفتخر بأمواله التي جاءت عن طريق تهريب البشر، أفتخر بأخلاقه التي فقدها، هو يريد الزواج من نعجة، يربطها متى شاء ويطلقها متى شاء.

- لن أتزوج إلا امرأة من سوريا.

قالها بملء فيه ثم أضاف:

- سأجلب أهلها وأرسلهم عبر السفن إلى أوروبا، سيرون حياة أخرى غير حياة الحرب والدماء.

ضحكت في سري، وقلت دون أن أعلن:

- قل ما شئت يا عادل، فهذه الأيام لكم، لمهربي البشر، وتجار الحروب والبشر.

نعم، هذه الأيام لكم، عقدتم اتفاقا مع مصانع السلاح، مع من حاكوا المؤامرات، هم يقتلون ويشردون الشعوب وأنتم تتاجرون بهم عبر البحر، في لعبة رولنغ، أنتم تربحون ونحن نخسر.

الخاسر الوحيد هو الإنسان البسيط الذي لا يريد من الحياة إلا العيش، لكنكم آثرتم ألا يعيش من أجل جيوبكم، من أجل سلاحكم.

لماذا لم تذهبوا أنتم إلى أوربا، لماذا يكتوي الناس البسطاء بهذا النفي، لأنكم تملكون المال وهم لا يملكون، تملكون القوة وهم لا يملكون، تملكون السلطة وهم لا يملكون، ليس لهم إلا طريق واحد هو طريق الموت .

الذي يموت في البحر يفنى، والذي يموت في أوربا تتقاسمه هموم وهموم، يضع بين المخدرات والحانات وتجار البشر، يضع بين اللهاث خلف اللقمة المغسمة بالذل .
إنه موت من نوع آخر .

بسبب جيوبكم العفنة وسلاحكم الفتاك، ماتت البشرية، ترك الناس بيوتهم التي بنوها لبنة لبنة، ليتوهوا في البحار المظلمة، أو في ذل هايمات أوربا، أو بين ثلوج السويد والنرويج الباردة كبرودة أرواحكم، ورغم ذلك يبقى هذا الذل أهون منكم .

أنتم أصحاب الفوضى الخلّاقة، أنتم حثالة الحضارة البشرية، أنتم الأخطاء القتالة، لكم الجنة ولنا الجحيم .

لماذا تصفون بالآدمية؟! لماذا تنعمون بكل شيء ونحن لا نلعم بشيء؟! كيف تنامون وتحلمون أحلاما سعيدة؟! لماذا تأكلون الطعام اللذيذ؟! لماذا تلبسون أفخر الثياب؟! لماذا تتكلمون كالآدميين؟! لماذا تريدون محو البشرية من الوجود؟!

ونحن، ماذا نحن؟! نحن لسنا بشرا ولكننا نشبه البشر .

نحن لا نسير على الأرض بل على الجمر، نحن لا نعرف من الحضارة سوى وجهها القبيح، أحلامنا كوابيس، لا نأكل سوى الفتات، لا نلبس سوى ثياب التفضل، لا نشرب إلا الزقوم .

بيننا وبينكم فرق شاسع .

توقفت السيارة وسط الصحراء في حوش أحد البيوت المتطرفة .

قال عادل بأسف:

- هنا، انتهت مهمتي، شخص آخر اسمه مصباح سوف يتولى أمركم.
كأننا عبيد القرن الحادي والعشرين، يأخذنا شخص ويستلمنا
شخص آخر.
كان في الحوش الذي يضم غرفتين وحمام واحد ستون من المهاجرين
من جنسيات مختلفة، من أطفال ونساء ورجال.
وذهب دون أن يودعنا.

- ١٣ -

جاء مصباح عصرا بوجهه المحتقن وخفاقته الزنوبيا وشورته القصير
وقال بعصبية:

- غعمز لوطا . - اجلس القرفصاء . -

وبدا محاضرته الشهيرة:

- انظروا يا ناس، لا تصدروا صوتا، ولا تخرجوا من هذا الباب
الحديدي، الأمن الليبي في انتظاركم، ومن لا يفعل ذلك سوف يضرب
حتى لو كان امرأة، أفهتتم؟!

احتقن وجهه فوق احتقانه وأضاف:

- اسمعوا كلامي، ومن لا يعجبه، ليخرج وليحصل له ما يحصل،
ونحن غير مسئولين عنه، إنه عصر العبيد، عصر النخاسة الرخيصة،
نحن بعنا أنفسنا لهذه العصابات التي أخذت تمارس علينا العنف
الجسدي واللفظي والنفسي، مع أننا دفعنا ثمن عبوديتنا بالدولار.

صاروا يمارسون عقدهم علينا متى شاءوا وكيفما شاءوا، وبأساليب
شيطانية .

أضاف مصباح:

- سيأتي طعامكم وشرابكم إليكم، وستقسمونه بالعدل، المهم،
ابلعوا ألسنتكم، ولا تحاولوا الخروج.

ثم خرج وأغلق الباب الحديدي علينا، وسمعت سيارته وهي تبعد
عن الحوش، نظرت إلى الحوش، كان حوالي ستين إلى سبعين شخصا

يروحون ويحيئون، رجال ونساء وأطفال، بعضهم يتحدث مع نفسه وبعضهم نائم، والآخرين يقفون صفًا واحدًا أمام المرحاض الوحيد لهذه الكتلة البشرية.

تمسك علي ومحمد بسرولي خوفاً، ونظرت إليّ رندة نظرة لم أفهمها، وبدت حنين حزينه، واحتقن وجهه إمام غضبا.
قلت:

- يبدو أننا وقعنا في الفخ الذي نصبناه لأنفسنا.

هنالك غرفتان؛ غرفة للنساء وغرفة للرجال، وجزء من الحوش الرملي مسقوف بالأنترنيت، وثلاثة كراس ملصقة ببعضها مأخوذة على ما يبدو من أحد المطارات، جلست عليه من التعب، وتمددت، أخذتني غفوة، رأيت البحر يعلو لتغمري مياهه، رأيت قاع البحر، كان هناك هدوء غريب، وفجأة ظهرت حورية جميلة الوجه، نصفها إنسان ونصفها سمكة، خاطبتني بلغتي:

- من أين أنت؟

- من اليرموك الذي أصبح خراباً.

ثم أمسكت بيدي وهوت بي إلى الأعماق، حيث كانت ملكة الحوريات تجلس على عرش من ماء، يحطن بها حوريات جميلات.
قالت ملكة الحوريات:

- نحن ننتظرك منذ زمن.

قلت باستغراب:

- أنا؟!!

- نعم أنت صبحي.

- ؟

- لا تندهش؛ فأنت من فصيلتنا منذ ملايين السنين، جداتك؛ حوريات البحر، كن يتحدثن عنك بلهفة، لم نكن نعرف أين أنت، ولكنك الآن

بيننا، جددك خرج من البحر ليعيش على اليابسة، وانقطعت أخباره.
- أنا؟! -

- نعم، أنت.

وأشارت للحوريات اللواتي أحطن بي، حملنني وسبحن بي إلى أعماق أخرى، وهنالك ألبسنني حلة مملكة البحر، أحسست بنفسني وقد تغيرت في لحظات، حين أعدنني إلى ملكة الحوريات قالت:

- انظر، لقد تغيرت، ألم أقل لك إنك واحد منا.

صرخت:

- أنا إنسان ولست كائنًا بحريًا.

أجلسوني على كرسي إلى جانب ملكة الحوريات، نظرت إليّ وابتسمت.

- أنت رجل وسيم.

- قاربت الستين.

- عمرك هنا سينزل إلى الثلاثين.

- لست بحاجة لعمر جديد.

- لا تشاءم، انظر إلى حوريات البحر ستكون أية واحدة طوع بنانك.

- لست ممن يلهثون وراء المتعة.

نظرت إليّ ملكة الحوريات نظرة طويلة وقالت:

- قبل أن ألتقي بك لم أكن أعرف تاريخك الشخصي، لكنني الآن قرأته، من خلال جينات خلايا وجهك، أحقا إنك رجل لا تركض وراء النساء، هل افتح لك ملفك الشخصي معهن؟

صمتٌ حتى لا أسمع فضائحي، ثم سألتني:

- هل لك صفحة على الفيسبوك؟

استغربت سؤالها..

- في الفيسبوك البحري لا تجد كذب الفيسبوك الأرضي، من يكذب هنا تمنحي صفحته فوراً ولا تعود إليه إلا بعد سنوات، ويحظر عليه فتح صفحة جديدة.

- قوانينكم أخلاقية أكثر منّا.

- وتبقى مسألة الأخلاق نسبية.

- ما عندنا مباح ممنوع عندكم، وما عندكم ممنوع مباح عندنا.

- حضارة الأرض قديمة، لكن حضارة البحر أقدم بكثير، نحن نعرف عنكم أكثر مما تعرفون عنا.

- مثل ماذا؟

- مثل حروبكم المستمرة وأسلحتكم الفتاكة، أنتم تقلقوننا بأصوات رصاصكم وقنابلكم وهدير طائراتكم وبوارجكم الحربية، لا تتقنون إلا لغة القتل، أما نحن فنحب الحياة.

- ألم تحدث بينكم حروب؟

- لو حدث ذلك لغرت اليابسة.

- أين بيوتكم؟

- هذا الماء هو بيتنا، لا ملكية لأحد هنا، ولا نتنازع على شيء، ولهذا لا تحدث الحروب بيننا.

- ألا يأكل السمك الكبير الصغير؟

- هذه مقولة خاطئة لتبرروا لأنفسكم لغة القتل، حين تملك كل شيء لا مكان للحقد، لا مكان للحرب، لا مكان للكره.

- والأسماك المفترسة كالقرش مثلاً، ألا تهاجمكم؟

- نحن أصدقاء نزاور فيما بيننا، هي لا تهاجم إلا الإنسان لأنه بدأ بمهاجمتها.

- حضارتكم مثالية.

- عش عندنا ولن تندم أبدا.
- كانت الحوريات حولي يسبحن ويتسمن، يلمسن وجهي بأصابعهن الرقيقة، وملكة الحوريات سعيدة.
- فجأة اختببت المياه، اندهشت الملكة والحوريات، ظهر ملك القرش غاضبا وهو يقول:
- يا ملكة الحوريات، نحن أصدقاء، لكن هذا الإنسان لا مكان له بيننا.
- إنه ضيفي.
- أنفاسه تسمم مياه البحر.
- قلت لك ضيفي.
- اطرديه وإلا فالحرب بيننا.
- نهضت من غفوتي أصرخ:
- أنا أكره الحرب.
- كانت رندة تنظر إليّ باستغراب، قالت:
- كنت تحلم.
- كان حلمًا جميلا لكنه انقلب إلى كابوس.
- وأضفت:
- الحرب والبحر حروفيهما واحدة؛ واحدة من نار وواحدة من ماء، وهما سواء في الموت الغرق والقتل.
- في تلك اللحظة فتح الباب ودخل مصباح بوجهه المحتقن ولسانه السليط.
- اسمعوا، أنتم بلا أخلاق ولا ضمير، أصواتكم كالحيوانات اسمعها من بعيد، الحيوانات وحدها لا تفهم، قلت لكم مائة مرة، خفضوا أصواتكم وإلا سوف أعاقبكم جميعا.

- ماذا ستفعل؟

أجابه أحد الشباب:

- سأضرب المرأة قبل الرجل.

- سأكسر يدك إن فعلت هذا.

في لحظات تماسكا بالأيدي، قلت:

- بدأت الحرب.

علقت رندة:

- يبدو أن الحرب قدرنا.

أخذ المهاجرون يبعدون الاثنين عن بعضهما، لكن مصباح حلف
أيانا غليظة بأن يأخذه معه، وأنه لن يصعد معنا سفينة نوح إلى
إيطاليا.

للم الشباب أشياء ووضعتها في حقيبته وخرج مع مصباح، وعاد
المهاجرون يلوكون ما حدث بأشكال وأشكال.

رفع حسان الحمصي رأسه وتصدر الحديث:

- كنت سأتحدى مصباح لو لم يتحده ذلك الشاب، نحن لا نسكت
على ضيم، سأريه نجوم الظهر حين يعود مرة أخرى ويشتمنا.

كانت المرأة الدمشقية التي ترافقه كزوجها، والتي تركت طفلين
وزوج مخدوع على أمل أن تصل إلى السويد لتلم شملهم، تنظر إليه
على أنه عنتره زمانه، بينما كنت أنظر إليه على أنه دون كيشوت.

أضاف حسان الحمصي:

- أتصدقون يا جماعة، كنت في وادي السايح في حمص، كانت
القذائف تنزل كالطرر، ومع ذلك كنت أتجول في الحي عندئذ، تهدأ
القذائف، كأنهم يعرفون أنني هناك.

ثم أضاف:

- صدقوا أو لا تصدقوا.

أجابه شخص قليل العقل:

- أكمل، نحن نصدقك.

انتفخ حسان الحمصي وهو يكمل كلامه:

- ذهبت إلى أحد قادة المعارضة، استقبلني بالأحضان، وضع في جيبه عشرة آلاف يورو من أجل أن أصبح قائدا ميدانيا في حمص القديمة، أخذت النقود وجئت بها إلى هنا.

ثم حكَّ رأسه وقال:

- فخار يكسر بعضه.

كانت الخسة والندالة تطل من بين عينيه، ومن خلال كلامه، ومن خلال حركاته، ومن جلسته حين يمد رأسه كالحية الرقطاء. كانت المرأة الدمشقية صديقته تنظر إليه وتبتسم وكأنَّ حديثه هو حديث السحر والحكمة، رفع صوته والناس نيام، وهو يشرب العصير ويدخن ويأكل التمر:

- لو قبلت ما عرضه عليَّ أحد قادة المعارضة لكنت الآن أفاوض النظام في جنيف، أنا مفاوض عنيد.

وضحك ضحكة جلجلت في سكون الليل.

اقتربت منه المرأة الدمشقية الخائنة، وهمست في أذنه فذاب واحمر وجهه، وأخذت عيناه تشعان شهوة، كنت أراقب تصرفاته، حاولت أكثر من مرة تحطيم رأسه لكنني ضبطت نفسي، وحين لم أعد أستطيع الصمت، قلت له:

- أنت بلا مبدأ، بلا أخلاق، أنت كاذب.

- أنت رجل كبير في السن ولا أريد أن أمد يدي عليك.

عندئذ، علا صوتي:

- اخرس يا صغير، يدك ستكسر قبل أن تمدها، سأكرر: أنت كاذب، كاذب، كاذب.

لم يرد ثم نهض قائلاً:

- سأقف في صف الحمام.

لا متني رندة:

- دعه يقل ما يشاء.

- هذا وأمثاله من الطفيليين هم أسباب وجودنا هنا، هم أسباب هروبنا، هم أسباب موتنا.

- لن نصلح الكون.

- إذا أصلحنا أنفسنا سيصلح الكون.

صمتت رندة وذهبت إلى بعض أعمالها.

كنت أراقب نفسي؛ جزء مني في الشام، وجزء في ألمانيا، وجزء في أوكرانيا، وجزء في السعودية، تشظت عائلتنا كما تشظى القذائف في الحرب، كنت أرى نفسي أسير في شوارع دمشق، وأنا هنا في الصحراء الليبية، وأرى نفسي أسير في شوارع الجزائر، وأنا هنا في الصحراء الليبية، وأسير في شوارع عين الحلوة أو صيدا وأنا هنا في الصحراء الليبية، كنت عدة أشخاص في شخص واحد، وكان أولادي ينادونني؛ عدنان من أوكرانيا، ومنار وسامر من ألمانيا، وبدور من الرياض، كنت أراهم يركضون نحوي، دون أن يصلوا إليّ، أركض نحوهم ولا أصل إليهم، أناديهم، يلوحون لي، ألوح لهم، يبقى كل في مكانه، وفيما بيننا أصوات انفجارات وضجيج وبكاء وسيارات إسعاف وسقوط منازل وأرواح تصعد إلى بارئها.

كان الجميع في انتظاري وكنت في انتظار الجميع، كنت أريد التحدث إليهم، وكانوا يريدون التحدث إليّ، كانوا كسراب الصحراء الليبية ينظرون إليّ وأنا أنظر إليهم، لا شيء يفصلنا سوى تلك المسافات،

المكانية والزمانية، أجد نفسي مقعدا عن قطع تلك المسافات، كنت أحتضنهم، أقبلهم، أسير معهم في شوارع المخيم، نأكل الشاورمة من محل الزعيم، والضجيج في شارع اليرموك عرس واحتفال، والأصوات المتداخلة زغاريد، وأبواق السيارات بهجة، والقمر في السماء يبتسم، والنجوم تتوهج وتخفت.

لم نكن نعرف هاتيك الأيام التي فقدناها، كنا نعتبرها جزءا من حياتنا المملة، لكننا الآن نتوق إليها، تلك المساءات السعيدة ذهبت ولن تعود، أذابتها الصحراء الليبية، وسيغسلها هذا البحر المالح الجبار، قد يغسل أرواحنا حين تنتظر أسماكك لحومنا من أجل طعام إنساني شهوي، حين نصبح جثثا لا روح فيها، سوى لحمنا الآدمي الهارب من نار الحرب، نقدمه لأسماك ذلك البحر الرابض قربنا. كنت أنظر إلى حسان الحمصي وهو يرمقني بنظراته الشذرة:

- ماذا بك؟

- لا شيء.

واستدار يدخن ويثرثر مع تلك العاهرة الدمشقية.

انفتح باب السجن بقوة، أصدر صوتا كالأنين، تقدم مصباح من حسان الحمصي ونظر إليه باشمئزاز قائلا:

- هذا المكان ليس مكانا لعلاقاتك النجسة أنت وتلك المرأة.

ونظر إلى المرأة الدمشقية باشمئزاز أيضا، بدا حسان الحمصي غائبا عن الوعي وأخيرا قال:

- إنها خطيبي.

- أنت تكذب.

وجعله يركع أمامه وأمسك وجهه بجمع كفه قائلا:

- إذا تحدثت معها مرة أخرى سأجعلك تندم.

لم يفعل حسان الحمصي شيئاً، بدا كالأرنب بين يدي مصباح، وعرفت فيما بعد أن ابن الغزاوية قد وشى به.

في تلك الليلة لم ينم حسان الحمصي، وصمت كأنه بلع لسانه، وبدأت الدمشقية الخائفة وهي تجلس بعيدة عنه أشبه بامرأة محطمة.

في اليوم التالي ظهر مصباح، حين رآه حسان الحمصي غطى رأسه وادعى أنه نائم، لكن مصباح ابتسم للمرة الأولى وقال:

- حضروا أنفسكم، عند الفجر ستركبون البحر إلى إيطاليا.

تعال صيحات الفرح من المهاجرين، فعاد مصباح إلى غضبه:

- ألا تفهمون، اخفضوا أصواتكم.

همدت الأصوات، لكن نظرات الفرح تبادلتها الأعين بصمت.

خرج مصباح فأخذ الجميع يحزمون أمتعتهم، عاد وأطل من الباب الحديدي قائلاً:

- لن تأخذوا حقائبكم معكم، سترة النجاة من الغرق هي التي تحتاجونها فقط.

وأغلق الباب.

رفع حسان الحمصي الغطاء عنه وقال:

- سأخذ حقيتي وليفعل ومعلمه حازم ما يحلو لهما.

لم يلتفت إلى كلامه أحد، لكنني كنت أسمع أصوات التذمر المنخفضة، الخائفة من عودة مصباح.

قال آخر:

- لن آخذ شيئاً، حين يأكلني السمك لا أحتاج إلى حقيتي.

لكن العيون الفرحة كانت تتبادل النظرات دون كلام.

صرخ أحدهم:

- سننتهي من هذا السجن.

تهكم آخر:

- سذهب إلى سجن القارة العجوز أو إلى بطن الحيتان.

ضحك الجميع، ركضوا في باحة الحوش الترابي دون هدف،
جلست رندة وحنين وعلي ومحمد إلى جانبي وأخذنا نراقب الجميع
ونحن نبسم.

فجرا، كان الجميع يجلسون على الأرض، جاءت عدة سيارات
بأضوائها التي بدت كعيون تتلصص في الظلام.

كنا نتهامس دون كلام، كنا نتنفس دون أن نشعر بالهواء، وكانت
قلوبنا تدق في صدورنا كطبول أفريقية، نقلونا إلى غرف من قصب
على شاطئ بعيد، صفوا الشباب الذين لم يأتوا بعائلاتهم ونقلوهم
بقارب مطاطي إلى السفينة التي تقف في عرض البحر.

حين تريد الوصول إلى القارب المطاطي عليك أن تنزل في الماء إلى
مستوى صدرك ثم يقوم الرجال بسحبك.

ذهبت بعض النسوة وعدن ييكن، بعد أن ركب القارب المطاطي
كانت السفينة قد سارت.

- ماذا حدث؟

سألتهن وهن ييكن.

- لم يبق لنا مكان، قالوا لنا، نصيكن في الرحلة القادمة.

سنعود إلى مصباح وغضبه وكلماته اللاذعة ووجهه المحتقن كأننا
عبيده.

قال إمام لأمه:

- لماذا لم تتركوني اذهب مع الشباب؟

قالت:

- ننجو معا أو نموت معا.

وقفت حائراً مكتئباً، وقف صبي أمامي من إريتريا، لم يجاوز السابعة،
ابتسم وقال بلهجة عربية فصيحة:

- تبدو مكتئباً.

ابتسمت، نسيت حزني وكأبتي، قلت:

- تتكلم العربية بطلاقة.

- أنا أتكلم العربية هكذا.

- مدرستك في إريتريا تعلّم العربية جيداً.

- لم أتعلم العربية في المدرسة وإنما من أفلام الكرتون.

- ممتاز.

كان علي ومحمد ينصتان ويتسمان.

- ما اسمك؟

- أبو.

- جميل هذا الاسم.

- هل أسرد لك قصة الوحش والحساء؟

قبلت هذا الصغير الأسمر الذي أفرح قلبي الحزين.

- قل، كلي آذان مصغية.

قال بلغة سليمة، لم يخطئ لا بالضم ولا بالفتح ولا بالكسر.

- كان هناك وحش في الغابة المظلمة، وكان الناس يخافون الدخول

إلى تلك الغابة ليتمتعوا بمناظرها الخلّابة، بسبب هذا الوحش الشرير
الشرس.

توقف عن سرد الحكاية وسألني:

- هل الحكاية جميلة؟

- جميلة جداً، أكمل.

- وذات مرة قررت فتاة جميلة أن تتحدى الوحش وتدخل الغابة ليلاً، وحين رأى الوحش الفتاة الجميلة في الغابة أحبها وانقلب إلى حمل وديع، وأصبحت الغابة تأتمر بأمر الفتاة الجميلة لا بأمر الوحش، وصار الناس يدخلون الغابة ليتمتعوا بمناظرها الخلابة.

قلت مشجعاً:

- الحكاية جميلة كجمال تلك الفتاة الشجاعة.

جاء والد أبو مبتسماً وعرفني على نفسه:

- أنا فيلمون والد أبو.

قال أبو صارخاً:

- إنه فيلي وليس فيلمون.

وضحكنا بسبب خفة دم أبو.

قال فيلمون:

- لا بدّ أنه قصّ عليك قصة الوحش والحساء.

- نعم، كيف عرفت؟

- كل من يتعرّف عليهم يقص عليهم هذه الحكاية.

جاءت فتاة أصغر من أبو قليلاً وقالت لفيلمون:

- أُمي تريدك يا فيلي.

ذهب فيلمون وبقيت الفتاة وأبو.

سألني الفتاة:

- ماذا كنت تعمل في بلدك؟

- مدير مدرسة.

- هل قصّ عليك أبو قصة الحساء والوحش؟

- نعم، أنت ما اسمك؟

- أنا ديلينا أخته، وعندي حكاية أجمل من حكايته بألف مرة.
قال أبو غاضبا:
- أنت كاذبة، اذهبي من هنا.
- جاءت الأم سارة وحملت خفافتها وهزتها قائلة:
- لاتزعجا الرجل، هيا.
- أنا سعيد بهما، لغتهما العربية السليمة جذبتني إليهما.
- ابتسمت الأم وذهبت.
- شجعت ديلينا قائلاً:
- هيا ديلينا أخبريني حكايتك.
- حكايتي هي حكاية التايتنك التي سنركبها إلى إيطاليا، لكن سفيتنا لن تتحطم أبداً، ولن تغرق مثلما غرقت التايتنك.
- ومن أين جاء لك هذا الإحساس القوي؟
- لأنّ سفيتنا أقوى من التايتنك، الذين ركبوا التايتنك كانوا أغنياء، أما نحن فقراء، والله يقف مع الفقراء لامع الأغنياء.
- لكن الله أعطى الغني ولم يعط الفقير، إذن فالله يقف معهم لامعنا.
- يقف معهم بالمال والجاه، لكنه لا يقف معهم عند المحن والشدائد.
- دهشت من تفكيرها ومناقشتها الأمور بشكل منطقي، كان علي ومحمد يستمعان إليه بدهشة.
- لكن الله لم يقف معنا حين قامت الحرب ومات الفقراء.
- أنت واهم، وقف معك لأنه نجاك من الموت، أو الإصابة.
- ديلينا، هل دخلت المدرسة؟
- أنا في الصف الأول.
- قال أبو:

- وأنا في الصف الثاني، أنا أسبقها بمراحل.

- قد تكون الأكبر لكنك ليس الأفضل.

كنت أستمع إليهما وكأنني أرى فيلماً مشوقاً.

جاء فيلمون وقال مبتسماً:

- إنهما ولدان شقيان.

ولحق به عمهما أحمد قائلاً:

- هذه نتيجة التقنية الحديثة.

- هذه التقنية جعلت لغتهما سليمة مائة بالمائة.

وجرنا الحديث إلى إريتريا، كانت تيتي الصبية التي هربت معهم من الفقر تنظر وتبتسم، كانت تسمي نفسها ملكة أفريقيا، ويبدو أنها كذلك.

قال فيلمون:

- قطعنا صحراء السودان وليبيا، مات منا أربعة وعشرون شخصاً عطشاً، كنا نشرب الماء بغطاء الزجاج لنبقى على قيد الحياة، كانت رحلة تساوي الموت.

قال أبو:

- كانت مغامرة لطيفة وجريئة.

وقالت ديلينا:

- أمامنا رحلة التايتنك.

جلست رندة وحنين مع تيتي وسارة وفلورا، كان حديث فيلمون وأحمد ممتعاً وهادئاً ومفيداً، نسيت خلاله حسان الحمصي، نظرت إلى ماحولي، لكل واحد هنا حكاية بحجم المآسي التي نعيشها، بحجم الموت، ليتني أستمع إليهم جميعاً، كانت حكاياتهم أغرب من الخيال. بدا بيت مصباح وماحواه من هؤلاء الهاربين اختصاراً للمآسي البشرية، ركن من الموت، وركن من الحياة، وركن من الدم، وركن

من الدموع، وركن من التوهان، وركن من الإنسانية.
أركان يحدوها الأمل بالوصول إلى جنة أوربا.

ذات ليلة، جاء حازم كبير المهربين، كان شابا فتيا، يلبس الشورت
والشيشب، لكنه كان سليط اللسان وكأنه خارج من الجحيم.
قال بلؤم:

- اسمعوا، لا تجعلوني أعاملكم كالبهائم، سمعت أنكم ضججتم
لأنكم تأخرتم بالسفر، أنا لا أعمل في شهر رمضان أبدا، ومع ذلك
سأجد طريقة لتأمين مركب، أنا أحاول الخلاص منكم، أنا أدفع من
جيبتي لقاء طعامكم وحمايتكم.
قال شخص كان يقف بعيدا:

- لكنك قبضت منا على كل رأس غنم، أقصد على كل رأس بشري
ألفا وستمئة دولار.

ضجّ الحاضرون بالضحك، كشر حازم عن أنيابه:
- اخرسوا، وإلا سأسلمكم للسلطات الأمنية، وعندئذ ستعرفون أن
جحيمي هو جنة بالنسبة لهم.
صمت الحاضرون، ابتلعوا ضحكهم، ابتلعوا ذلهم، وساد صمت
قطعته امرأة:

- نحن آسفون سيد حازم.
لم يلتفت إلى كلامها، رmqها بنظرة متعالية، واستدار ليخرج، تبعه
مصباح، وحين وصل إلى الباب الحديدي استدار قائلا:
- لا تشعلوا أيّ ضوء، ولا تصدروا صوتا، إذا شعرت بكم
السلطات الليبية لن أحميكم.
وخرج.

ران صمت على الحاضرين، صمتوا في العتمة، ابتلعوا أحاديثهم، كانت
عيونهم تنظر في العتمة كقطط خائفة بلا حياة، وكانت قلوبهم تدق بلا
حياة.

جاءتني صبحية عند الفجر، لم أكن أحلم، عيناى مفتوحتان،
أحاسيسي تعمل، كدت ألمسها وهي تقول:

- صبحي، البحر غدار، عد إلى بيتك، عد إلى كتبك، عد إلى
شارعك، عد إلى رصيفك، عد إلى أصدقائك، في أوربا لن تجد كل
هؤلاء، ستجد شوارع باردة، وأرصفة بلا أصدقاء، وكتبا بلا لغة.
اقتربت منها وقلت:

- إلى أين أعود يا أختي، إلى كتبي التي تدفئوا عليها، إلى بيتي
الذي هدموه، إلى شارعي الذي أقاموا عليه الحواجز، إلى أصدقائي
الأموات والهاربين.

- شعرك صار أبيض، لم يعد في عمرك بقية لتذهب نحو البحر.
- لكن سامر ومنار هناك، سأراهما قبل أن أموت.
- قد لا تراهما، قلت لك البحر غدار، ينتظر الهاربين ليلتلعهم.
- لم يبق لي مكان أعود إليه، أتمنى أن يتلعني البحر لأدفن بلا قبر،
حين يذهب بيت الإنسان عليه ألا يكون له قبر.
ثم سألتها:

- ما أخبار جورج؟
- جورج عاد إلى البيت منكسرا، يمضي وقته بالاستماع إلى أغاني أم
كلثوم التي كنت أحبها.

عادت صبحية من حيث أتت، صرخت:

- عودي، لم نكمل كلامنا.

كانت رندة تنظر متسائلة دون كلام.

- كانت صبحية معي، إنها من لحم ودم.

لم تعلق وذهبت إلى بعض أعمالها.
جاءت تيتي وألقت تحية الصباح وجلست، نظرنا إلى بعضنا، ابتسمت،
قلب أبيض ليس كالجسد.

قالت:

- أراك مهموما.
- وهل يأتي هنا إلا المهمومون؟!
هزت برأسها موافقة ثم قالت:
- حدثني عن نفسك.
- أنا إنسان هربت منه الحياة، نسي ما كان من قبل، ولم يعد له
مكان سوى الهروب.

ثم سألتها:

- إريتريا ليس فيها حرب، ما الذي جاء بكم؟
- الفقر مثل الحرب، الناس هناك يموتون جوعا.
- الهروب نوع آخر من الموت.
- صحيح، لكنك تموت في أوروبا وأنت شعبان لا وأنت جائع.
- لو كنت فقيرا لما غادرت دمشق.
- أنت لم تشعر بشعور المحرومين.
جاءت سارة وانضمت إلينا، تحدثنا عن الفقر والحرب والهروب.
جاء أبو وقال:

- ماذا تتكلمون؟

نظرت إليه أمه سارة نظرة غضب، صمت وتراجع.

قالت تيتي:

- سنركب البحر، قد نكون أو لا نكون.

- هذه لعبة حظ.

قالت ساره:

- كيف يتحمل الإنسان تلك اللعبة، يقامر بحياته من أجل أن يعيش، وإلا سيموت من الفقر أو الحرب.

قالت تيتي:

- حياة الإنسان كلها مقامرة، منذ ولدنا ونحن نقامر من أجل الحياة، والآخرون يقامرون بنا من أجل الموت.

قلت:

- هم يملئون جيوبهم ويفقرون شعوبهم، وفي الحروب يتاجرون بالسلاح، يثرون على حساب فقرنا وموتنا.

قالت سارة:

- شياطين في أشكال آدمية.

قالت تيتي:

- بل إنهم يعلمون الشيطان طرقا جديدة في الاحتيال.

جاء رمضان ونحن في حالة انتظار، انتظار الموت غرقا أو العيش في المنفى الاختياري؛ أمران أحلاهما مر، لكنني وجدت أن الحل الأول هو الذي يحسم المعركة لصالحنا.

الموت؛ لأنَّ العمر قد تقدم، والمنافي تحتاج لأن تبدأ من جديد، والجديد لدينا قد فات، بل قد مات.

ماذا سأفعل في المنفى بعد هذا العمر؟! أيشعر الإنسان بلذة العيش وروحه معلقة بمكانه الأول وهو يعيش بمكان آخر؟!!

يبدو أنني أصبحت أنانيا، إذا مت سيموت علي ومحمد ورندة وحنين، إنهم في مستقبل العمر أما أنا.

وهزئت من نفسي، أنا لم أقرر مصيري بل هي الأقدار، ولكن،
إذا لم أكن أنا نيا فساأرمي نفسي في البحر، إذا لم يتلعننا جميعاً، لكنني
أحسست بتراجعي قبل أن أقرر، لمن أتركهم، ماذا سيفعلون بدوني،
وعجزت عن الإجابات، لأنني أحسست بجبني، فلم أعد أقرر شيئاً
حين قررت الحرب مصيري، أنا إنسان بلا إرادة.

اعتدلت جالسا وأنا أعد النجوم، جاءت رندة وهمست:

- لمَ لمَ تنم؟

- أفكر في الرحيل.

- كلنا سنرحل من هذا المكان.

- وانتبهت لكلامي.

- ماذا تقصد؟

- كنت أمزح.

تركتني وانزوت في ركن بعيد، كنت أرى ظهرها يبكي.

جلست إلى جانبها:

- رندة، أحس بوجع في روحي حين تبكين.

- إذا مت ماذا سنفعل في الغربة؟

- أنا مخطئ.

ثم نظرت إلى أعماق عينيها.

- أتحافين عليّ؟

- سؤال سخيف.

وابتسمت.

- الآن ذهب وجع روحي.

نظرت إلى السماء، كانت الشمس قد بدأت تسخن، والنهار سيكون
قطعة من الجحيم.

- الصيام والحر عدوان.

قالت:

- الأجر على قدر المشقة.

ثم نهضت.

- سأصلي صلاة الضحى.

ومشت مبتعدة، كانت رוחي ترقص حولها وكأنها ملك من الملائكة.

تمددت حنين أمامي عارية كما خلقها الله، رأس رندة وجسد حنين، جاءني رغبة جامحة في إشباع نزوتي الجنسية، اقتربت من جسد حنين وكأنني أقرب من حقل ألغام.

داعبت ثدييها ومؤخرتها، استكانت لي، قالت:

- أنا لست رندة.

- أعرف.

- تعرف وتستمر.

- هذه الأيام بلا قيم.

وأطبقت على شفتيها، قاومت، لكنها استكانت، فركت جسدها وهي تتأوه.

- أتشعرين باللذة؟

- نعم، نعم، استمر.

في هاتيك الأوقات، ليلا أو نهار، صباحا أو ظهيرة، كانت ممتعة إلى حد الموت.

بعد أن انتهينا، نهضت من الغفوة متعكرا؛ كأن ما حدث كان حقيقة.

كانت حنين تمد لي يدها بفنجان قهوة وتبتسم.

- غفوت بعد الإفطار .
- نظرت إليها، كانت شهية وناضجة، أخذت فنجان القهوة وانزويت
أشربه بصمت، لحقت بي، تعلقت برقبتي .
- ماله، الجميل .
- اقشعرّ بدني، واجهتني بوجه ضاحك، لم أنظر إلى عينيها .
- عمي، انظر إليّ .
- ثم قربت وجهها حتى لفحتني أنفاسها .
- أتخجل مني يا عمي ؟
- لا، ولكن .
- ماذا بك ؟
- لا شيء، رأيت حلما مزعجا .
- اقتربت ولامس وجهها وجهي .
- قل، ماذا رأيت ؟
- الأحلام السيئة يجب ألا تقال، هكذا يقولون .
- حلمت بيتك، بأولادك، بكتبك، بشارعك، برصيفك، بأصدقائك،
قل يا عمي .
- نعم، نعم، حلمت بكل ذلك، وحلمت أن مركبنا ستغرق .
- سقط فنجان القهوة من يدي، قالت :
- سكب القهوة خير .
- وهل نحن الآن بخير ؟
- مازلنا أحياء .
- لكن عمّتك صبحية لم تنج .
- هذا قدرها .

الآن نظرت إلى أعماق عينيها، إلى أعماق روحها، كان الحزن يلف نظراتها.

ارتبكت وأنا أنظر إليها.

- سأحضر لك فنجانا آخر.

وضعت الغطاء على رأسي، سمعتها تهمس:

- نوم الهنا.

وسمعت خطواتها تذهب بعيدا، شعرت بقشعريرة لم أعدها من قبل، وضعت فوقي غطاء ثانيا، لكن القشعريرة لم تذهب، جاءت رندة، رأنتني أرتجف:

- ماذا بك؟

- أشعر بقشعريرة قاتلة.

- الوقت والمكان ليسا مناسبين للمرض.

جاءت حنين مسرعة خائفة، وضعت يدها الطرية على جبیني، نظرت إلى عينيها وقلت:

- جسدي صار عجوزا، لا يحتمل برد الصحراء.

أدخلت كلتا يديها الطريتين داخل صدري، وقالت:

- مازلت أبا الشباب.

غلت رندة بعض الأعشاب، شربت الكأس ونمت، ومازالت يدا حنين داخل صدري، صحوّت على صوت مصباح المحتقن الوجه وهو يهدد ويتوعد، ثم خرج وأغلق الباب وراءه.

أخذ الجميع يتهامسون:

- نريد أن نركب البحر، نموت أو نعيش لا يهم، كافينا ذلا.

قال آخر ساخرا:

- دفعنا دولاراتنا من أجل هذا الذل.

ضج بعضهم بالضحك الأصفر، وصمت آخرون، لكن الجو السائد كان محبطا.

بعد الصمت وقف أحدهم وسط الساحة الترابية، وخلع قميصه فبان شعر صدره الكثيف، وقال صارخا:

- اسمعوا يا جماعة، يجب أن نقوم بمظاهرة، إما أن يعيدوا لنا أموالنا أو نركب البحر.

قال أحدهم مازحا:

- مظاهرة ضد النظام أم ضد المهرين حازم و عدنان .

قال الرجل بجدية، وكأنه فقد عقله:

- ضد كل هؤلاء وضد أنفسنا.

أخذت الضحكات والهمسات تتعالى، علق أحدهم:

- سأقوم بمظاهرة ضد نفسي لكي أنجو من السجن.

تعالى الضحكات أكثر، وقف الرجل الذي خلع قميصه، مدهوشا، يائسا، ونظر إلى الحشد الذي حوله، جلس على الأرض، ومرغ رأسه بالتراب، وقال وهو يبكي:

- نحن أنذل، أنذل.

تحولت ضحكات الذين سخروا إلى ضحكات صفراوية باهتة.

أضاف الرجل:

- قصفوا بيوتنا فهربنا، سبوا نساءنا فأغمضنا عيوننا، منعوا عنا الطعام والشراب فتحملنا، وضعونا في السجون فصمتنا، سرقوا منا ذكرياتنا، شوارعنا، حاراتنا، صورنا، أسرنا، كتبنا، لوحاتنا الجدارية، أقلامنا، مدارسنا، أحلامنا.

كان يتكلم وهو يمرغ رأسه بالتراب:

- أخذوا منا كل شيء، لم يبقوا لنا شيئا واحدا من إنسانيتنا.

ثم نظر إلى الحشد وخاطبهم والتراب على وجهه ورأسه والدموع في عينيه :

- قولوا لي، ماذا بقي منكم، لم تبق إلا أجسادكم العفنة تأكلون وتشخون، أحلامكم ضاعت، لم يعد لكم شيء، أنتم أموات في صورة أحياء.

وبكى طويلا، ثم ذهب حيث ينام في الساحة الترابية، وغطى رأسه، ولم يتبق إلا الصمت ودموع الرجال والنساء تتساقط بصمت. ظهر القمر موشحا بحمرة في تلك الليلة، كأن دم دمشق صبغ لون القمر.

نظرت إلى القمر وخاطبته:

- أيها القمر، أنت ترى الذين يموتون الآن، تسيل دماؤهم أمامك، وترتفع أرواحهم في سمائك، أنت ترى كل ذلك وأنت صامت، فهل أنت حزين مثلي أيها القمر؟!

اهتز وجه القمر حين انفتح الباب الحديدي بعد منتصف الليل، وظهر مصباح مع بعض الرجال، ولم يكن حازم معهم. قال أحدهم:

- اسمعوا، البحر هذه الليلة بلاطة واحدة، حضروا أنفسكم للخروج إلى المركب عند الفجر، اتركوا حقائبكم هنا، سنرميها في البحر إذا كانت معكم، لا تأخذوا إلا سترات النجاة، فرصة النجاة من الغرق صفر في المائة.

تذكرت أغنية فيروز، من يركب البحر لا يخشى من الغرق.

ارتجفت رعدة، احتضنتها حنين، وبان القلق في عيني محمد وعلي، وبقي وجه إمام جامدا.

لماذا هذا الجمود والجحود عند إمام، كنت أحبه وهو صغير ومازلت
أحبه، لكنه تغير كلياً منذ تعلق بالحمام، ما الذي في الحمام غير إمام، أهو
العشق والتعاشق فيما بينهم، أم هي روح المغامرة والحرية والانعتاق.

وبدت حنين وهي تضع يدها على كتف رندة وكأنها صبيحة
التي رحلت دون وداع، شطرت قلبي إلى نصفين ورحلت، تركتني في
منتصف الطريق ورحلت.

كيف يتفاعل العشق والموت؟

تمنيت أن أعرف العلاقة بينهما، هل العشق يؤدي إلى الموت أم
الموت يؤدي إلى العشق؟

-١٤-

جاء الرجال بسياراتهم قبل الفجر لنقلنا إلى الشاطئ، بدت حركة الناس مضطربة وخائفة وفرحه، مضطربة بسبب المجهول وخائفة من الموت، وفرحة لقرب الخلاص.

أمسكت حنين يدي وقالت مبتسمة:

- أخيراً، سنعبّر البحر يا عمي نحو أوروبا.

- أأست خائفة؟! -

- أنت عمي وأخاف.

كنا نضحك لننسى القادم، نظرت إلى رنّدة، كان وجهها يضيء الفجر.

قلت لحنين:

- انظري إلى امرأة عمك، إنها لا تخاف أبداً.

- امرأة عمي امرأة صالحه تؤمن بالقضاء والقدر.

ابتسمت رنّدة، لكن وجه إمام مازال متجهماً.

قال محمد:

- سنركب البحر.

- بل سنعبّر البحر.

وقال علي:

- أنا أحب البحر.

قلت ضاحكا:

- والبحر يجبك.

أمرنا الرجال بركوب السيارات في الخارج، تدافع الناس أمام الباب الحديدي، حيث نخرج منه لأول مرة، وكأنهم يتسابقون نحو الموت، حشرونا في إحدى السيارات الصغيرة، كانت بلا مقاعد، تكومنا فوق بعضنا، وسارت السيارة باتجاه شاطئ زواره، لم نكن نرى شيئا في هذا الفجر، لكن القدر كان يرانا جميعا، أنزلونا على شاطئ رملي، غاصت أرجلنا في رماله الناعمة، طلبوا منا الجلوس على الرمال والصمت، جاء الذين ركبوا السيارات الأخرى وانضموا إلينا، ثم طلبوا منا أن نسير عشرة عشرة دون أن نتكلم كلمة واحدة.

كنا نسير نحو قدرنا، هذا هو عصرنا عصر الموت المجاني، كان هناك على الشاطئ قارب مطاطي، غصنا في مياه البحر إلى منتصفنا لنصل إليه، تفكيرنا لم يعد لنا، صرنا أشخاصا آخرين، نتجه نحو الماء للانعتاق من النار، كأننا نركب صهوة جواد أبلق، يطارد بنا نحو المجهول، أمسكنا رجال التهريب الذين كانوا على القارب ورمونا كأكياس الطحين داخل القارب المطاطي، سار القارب المطاطي ثلاث أو أربع دقائق في يم البحر، وإذا بسفينة صيد تنتظرنا، نشلونا من أيدينا ورمونا داخلها.

جلست أنا وإمام متكورين على أنفسنا، جاء أحد الرجال وقال بصراحة:

- هيا انزلا إلى غرفة المحرك.

قلت باستكانة:

- ولكن زوجتي وابنة أخي و...

لم يدعني أكمل، أمسكنا أنا وإمام من رقبتينا وأنزلنا عنوة إلى غرفة المحرك، كان هناك رجال مثلنا محشورون في الغرفة المظلمة التي ليس لها إلا فتحة واحدة نحو السطح، كنت أسمع توافد المهاجرين إلى السطح بالعشرات، وحينها بدأ خشب القارب يئن فوقنا، وحين

اكتملت الأعداد الكبيرة، دار محرك السفينة المتهالكة، فبدأت تنتشر رائحة المازوت الخائفة، وسارت السفينة تتهاذى فوق الماء، وأخذ أحدهم إلى جانبي، يدعو ويقرأ بعض الآيات القرآنية بصوت مرتفع، ردد بعضهم خلفه، شعرت أن الخشب فوقنا والذي أخذ يتزايد أئينه بشكل متواصل سينكسر ويسقط فوقنا ونموت قبل أن نغرق، أخذت رائحة المازوت تتزايد، ففقد أحدهم وعيه، جحظت عيناه وارتخى جسده، فحملوه بعض الشباب إلى سطح السفينة ليستنشق هواء نقياً، أخذت فتحة الهواء الوحيدة فوقنا تصغر بسبب الأجساد التي تسدها، أخذنا نصرخ لإبعادهم من أجل ألا نخنق، كنت أنظر إلى إمام بين فترة وأخرى خوفاً من أن يفقد وعيه، كان بعضهم قد بدأ يتقيأ ويتبول على نفسه.

اقترب الموت دون رصاص ولا انفجارات ولا قناصين، اقترب في هذا البحر المترامي الأطراف، حيث لا هواء سوى رائحة المازوت. هذا الاختناق من أجل حياة جديدة لا نعرفها وقد لا نعرفها.

كيف يصدق هذا الاختناق في بحر مفتوح؟! فعلى ظهر السفينة تكوي الشمس الناس وفي الأسفل يختنقون برائحة المازوت.

البحر من ورائكم والعدو أمامكم. إما أن تختنق أو تصاب بضربة شمس، حدد اختيارك لتصل إلى الحياة التي تبحث عنها.

بدأت روائح البول والقيء تطغى على ما عداها، أنك الجميع بعد ساعات من الإقلاع، لكنهم لم يهتموا بكل ذلك، كانوا يفكرون في النجاة من هذا البحر الطاغية.

بعد عشر ساعات أخذت غرفة المحرك تفرغ من الناس، صعد جميعهم إلى أعلى، أخذ صوت خشب السفينة يئن فوقى أكثر فأكثر، كنت آخر الصاعدين وأنا أهمل حقيقة أوراقي فوق ظهري، كان المنظر خيفاً؛ مئات من الناس يجلسون إلى جانب بعضهم كأكوام بشرية، أو يقفون ككتلة واحدة، كانت الشمس حارقة، ووجوه الناس يائسة، وكانوا يصرخون على بعضهم بعدم التجمع في مكان واحد وإلا الهلاك.

أحسست بالهلاك قبل الهلاك، صفحة البحر تبدو كبساط غامق
مجهول، يستطيع أن يتلع مركبنا مع أرواحنا في ثوان معدودات.
نظرت إلى رندة وحنين وعلي ومحمد كانوا يجلسون إلى جانب أبو
وأخته وأمهما سارة من إريتريا،

إلى أين نذهب في هذا المحيط الأزرق؟ نظرت إلى الصفحة التي
تبتلع مدنا بأكملها، كان هناك حصان أبلق يسير فوق الماء، أسمع
صوت حوافره على بلاط أرصفة دمشق الأسود، وأسمع صهيله
يملاً الفراغ اللامتناهي، صبية جميلة تصرخ أنا دمشق، أنا دمشق
تركب ذلك الحصان العجيب، في إحدى يديها نصل سكين يلمع تحت
الشمس، وفي اليد الأخرى جذوة نار تتقد تارة وتحفت تارة أخرى.
ركضت وراء الحصان والصبية الجميلة دمشق، صرخت:

- أين تذهبين؟

لم ترد عليّ، بقي الحصان الأبلق يطارد في ميدان البحر، وبقيت
حوافره تطرق أرصفة دمشق السوداء، وبقيت الصبية الجميلة دمشق
يعلو صوتها، ويرتفع نصلها، وتزيد جذوة نارها.

بدأ الحصان يصاب بالجنون، يقفز قفزات غير متوازنة، أخذ
الخوف يغزو عيني الصبية دمشق، تمسكت بالحصان، خافت الوقوع،
النصل يشق الماء شقاً، والنار تشعل صفحة البحر، وأنا أركض وراء
الحصان، وأنادي الصبية الجميلة دمشق.

انقسم البحر إلى نصفين، ظهرت جزيرة أرواد والصبية الجميلة التي
تبيع التحف تحت سور قلعة أرواد، تنظر إليّ، أعشقتها، وهي تنظر إليّ،
أشتري قطعة منها، ماء وكوخ ورجل وفتاة وثلج يتساقط، ألمس
يديها، ألمس وجهها، ألمس ضحكتها، أصدق بها، إنها نفسها الصبية
دمشق، التي تشق البحر بالنصل وتشعل صفحة الماء بالنار، رأيتك
في ذلك الزمن هادئة وادعة، بريئة، بينما أنت الآن تشقين البحر
بالنصل وتشعلينه بالنار.

ماذا حدث؟

لا أصدق أنك تلك الصبية التي تبيع الهدايا لزوار الجزيرة.

لامس النصل وجهي، واقتربت النار من روحي، فهمست بقوة:

- بل صدق، حين يمتلئ المكان بالموت والنار، يجب أن تصدق كل شيء، كل شيء.

صحوت بل لم أصح تماما، أخذ بعضهم يسب البعض الآخر، تجمع الرجال في مكان واحد من السفينة، وخلا مكان استعدادا للنزال والعراك.

صرخ فيهم رجل علا صوته فوق الحصان والنصل والنار:

- عودوا إلى أماكنكم، إذا انقلب المركب لن يرحمنا البحر، عودوا، عودوا.

عاد كل إلى مكانه خوفا من الموت، بل خوفا على الحياة، وعاد الحصان الأبلق يطرق بحوافره بلاط دمشق الأسود، وعاد النصل وحيدا يشق صفحة البحر، والنار ملأت سطح الماء، لم تعد الصبية دمشق تركب سهوة الحصان، أخذت تتلاشى شيئا فشيئا حتى بدت في النهاية كضوء خافت بعيد في صحراء البحر.

نهضت من بين الجموع الظامئة حلوقهم لشربة ماء عذبة في بحر مليء بالماء المالح، وبدأت أصرخ:

- لا تذهبي يا دمشق، لا تذهبي، عودي، دعيني أرك.

نظر إليّ الناس العطاش، حسبوني جنت للتو، لكنني تلفت حولي وجلست.

ذهبت دمشق ولن تعود، وذهب الحصان والنصل والنار وبقي البحر، ذهبوا جميعا وتركوني في عرض البحر أواجه مصيري، أواجه موتي، كيف لي أن أعيد كرة حياتي الذهبية، هل يعود الزمن أم تعود الأمنيات نحو كف القدر.

تلك الحياة الماضية لم تكن لي، كانت لشخص آخر يشبهني، كنت أراه من بعيد أو قريب، متفائل طموح، بل يستطيع أن ينطح الصخر، لكنه الآن مجرد ذبابة في عرض البحر، يبحث عن جيفة ليبقى حيا، يبحث عن أمان ليستطيع النوم، يبحث عن حب بعد أن رأى الكره أكثر من زبد البحر.

لماذا لم أبق أنا؟ لماذا هذا التحول الذي لا طائل له؟ لماذا، ولماذا؟

كنت لحظتها بلا إرادة، بلا حياة، نظرت إلى إمام، كانت ملامحه متعبة وغاضبة، بينما حنين بدت كوردة جورية ذابلة تحتاج إلى ماء لتتفتح وتحيا.

أما رندة فقد أتعبت روحي بوجهها الذي أحرقتة الشمس، بينما وجهها علي ومحمد بلا ملامح، نظرت إلى الوجوه، اليأس سيد الموقف، تصورت إمام يلبس بذلة العرس، وحنين تلبس ثوب الزفاف الأبيض، كأننا يسيران على الماء كل في اتجاه، يلحقان بالصبيّة دمشق التي ظهرت مع الحصان والنصل والنار.

صرخت:

- إمام.

لم يسمع أحد صوتي، كنت أصرخ خلال غفوة صغيرة أعادتني إلى الواقع، إلى البحر الواسع والشمس الحارقة والوجوه المتعبة... سأزورك يا إمام، أحلف لك، ستكون حنين لك لأنني أريد رؤية أولادك، سيتحول عشق الحمام إلى عشق دائم، وستكون راضيا من الحياة التي غضبت منها، وعندها سأنتحى عن حياتك إذا لم ييلعنا البحر، مرت الساعات كالدهر على ظهر المركب، شعرت أنني على ظهره منذ ولدت بل قبل أن أولد.

هناك على سفح جبل قاسيون أجلس، الهواء العليل يداعب مخيلتي، ودمشق أمامي كتلة من نور، هناك أغفو على صوت الأذان وأجراس الكنائس، صخور الجبل القاسية تصدر مع الريح أصواتا شجية، تلك الصخور لها قلب عاشق، كأنها ولدت في زمن العشق،

ولدت قبل أن يولد الكره في النفوس، تلك المياه الناعمة تخيفني أكثر
من تلك الصخور الصلبة، الماء والصخر ضدان في المادة، وضدان في
الروح، وضدان في المشاعر.

لست أدري كيف لاحت مني التفاتة فرأيت تاتا السمراء الإريترية
الجميلة تبسم رغم وجهها المتعب، قالت لي عن نفسها ذات يوم أنها
ملكة من إريتريا، الآن تأكدت أنها ملكة أفريقيا كلها وليس إريتريا،
رفعت لي يدها ولوحت لي مع ابتسامتها الآسرة، عندها عادت صخور
قاسيون تصدر تلك الألحان الشجية.

توقف محرك المركب، ساد الهرج المرج، وزحف الخوف على
الوجوه في لحظات، أخذت امرأة تلطم على خديها، وهي تحتضن
أطفالها الثلاثة، وتحدث بلغة لم أفهمها، لكنني فهمت حزنها، كانت
تقبلهم بحرارة قبل أن يتلعبهم البحر، وتذرف دموعا ساخنة تحت
شمس حارقة.

إذن حانت اللحظة.

احتضنت الأم أولادها الثلاثة وأخذت تقبلهم مودعة بدموع
سخية، ودعت رندة عن بعد وكذلك إمام وحنين وعلي ومحمد،
ودعتهم بنظراتي ودموعي تسقط لأنني لا أستطيع الوصول إليهم.
عاد محرك القارب يعمل مرة أخرى فصرخ الناس فرحا، ذهلت
المرأة وضمت أولادها من جديد إلى صدرها، كأنه كابوس استمر
للحظات بل لسنوات بل لعقود، ازداد بكاء المرأة، لكنه الآن بكاء
فرح لا حزن، واستمر المركب في شق طريقه إلى المجهول، لم يعد البحر
كئيبا كما كان قبل لحظات، رأى المتعبون على ظهر المركب الشمس
باردة لا حارقة، رأوا السماء ضاحكة، ورأوا زبد البحر وكأنه ثلج
سقط في الصيف، رأيت تاتا وهي تبسم، بادلتها الابتسامة، أخذت
حوريات البحر تسبح في الخيال، بحثت غن الصبية الجميلة دمشق
والحصان والنصل وجذوة النار فلم أجدها.

عادت الكآبة ككابوس، أين يمكن أن تذهب الصبية دمشق والحصان، وفجأة، خرجا من عمق البحر، كانت حوريات البحر يحطن بالحصان، لم يكن في يد الصبية لا النصل ولا جذوة النار، كانت تبكي، دموعها تبدو كالآلىء تسقط في البحر، سمعتها تصرخ:

- انكسر النصل وانطفأت النار.

- لكن الحرب مازالت مشتعلة.

قلت لها:

- صار النصل داخل النفوس، والنار أكلت الأرواح وأحرقت القلوب، صار الناس كوحوش الغابة، بل هم أشد قسوة.

عاد الفتى من جزيرة أرواد يحمل هديته التي أحبها، احتضن أمه، وقبل أباه وأخوته، ووضع الرجل والمرأة والثلج والكوخ والنار فوق طاولة دراسته المتواضعة، وصار يتأملها، الثلج يتساقط فوق الكوخ، والرجل والمرأة يجلسان أمام موقد النار في الكوخ، الدفء يعم المكان رغم برودة الجو.

جاء أبي صباحا قبل أن يخرج إلى عمله، وكان نجارا متواضع الحال، ونظر إلى كرة الثلج والنار، ابتسم قائلا:

- علاقة وثيقة بين الثلج والنار.

- هذه حياة سعيدة يا أبي.

- الصيف الآن حارق وأنت تملك الثلج.

- لو يسقط الثلج في الصيف لكان الجو رائعا.

- لكل أوانه، برودة الثلج تثير مرض مفاصلي.

- ومرض الربو لديك لا يحتمل غبار الصيف.

- حين يموت الإنسان لا يشعر بالمرض.

- أبي لا تقل هذا، رائحة الخشب التي تعلق بشباكك حين تأتي إلى البيت تشعرني بالأمان، وحببات البطاطا الباردة التي تجلبها مساء

مع قطع الفحم الحجري للمدفأة تجعلني أكثر حبا للحياة، وصوت
سعالك وأنت تقترب من البيت، يجعلني أكثر عزيمة على تجاوز
فقرنا.

ضحك أبي ومسح على شعري وألقى نظرة على كرة الثلج والنار،
وغادر في ذلك الصباح، ولم يعد، مات وهو يندق آخر مسمار في
نعشه، جاء إليّ ذلك المساء، بعد أن دفناه على ضوء الشموع، كان في
صحة جيدة، اقتربت خطواته المعهودة في أيام الشتاء الباردة، والثلج
يتساقط كقطن جاف، يحمل في كيسه حبات البطاطا وقطع من الفحم
الحجري، لطرد برد الشتاء.

ابتسم وهو يقول لي:

- لا تخزن يا صبحي، أنا بخير.

- كيف تكون بخير وأنت ميت؟!

- الأموات لا يشعرون بالمرض أو التعب، إذن فأنا بخير.

نزلت دموعي دون إرادة مني.

- صبحي، إذا بكيت فلن أكون بخير.

- ألا تريدني أن أبكي عليك وأنت ميت؟

- البكاء لن يعيدني، البكاء يؤلم الأحياء لا الأموات.

ارتفعت الأيدي والأصوات ملوحة بفرح وبكاء.

- البارجة الطليانية، البارجة الطليانية.

رددت الحناجر المتعبة العبارة مئات المرات، سمعت أحدهم وقد
بدا الإعياء الشديد والخوف على وجهه:

- لن نغرق في البحر، سننجو.

لم يستطع الآخرون الرد، هزّ رأسه مع ابتسامة متعبة، وعندها
نهض شخص ناشد الجميع بالعربية ثم بالإنجليزية البقاء في أماكنهم
وإلا هلكنا، التفت إلى البارجة، كانت على مسافة بعيدة منا، بدت أشبه

بمدينة عائمة، رمادية اللون، ورغم كبرها بدت كنقطة تائهة على سطح البحر، مازالت الأيدي تلوح للبارجة، أياد بيضاء وسمراء، أياد متعبة.

قلت لأبي وهو مسجى في غرفة بيتنا القديم، يعلوها سقف من خشب، سقفه أبي حين كنت صغيرا:

- لماذا رحلت يا أبي وتركتني؟! أنا أحتاج إليك، أحتاج إلى صوت خطواتك، إلى صوت سعالك، أحتاج إلى شايك الساخن وقطع الكعك، أحتاج إلى ذكرياتك عن فلسطين، أحتاج إلى غضبك وإلى ضحكك، أحتاج إلى رؤية السيجارة بين شفتيك وأنت تتكلم دون أن تسقط، لكنني الآن أعذرک، لم تطق الحياة بدون أمي التي رحلت قبلك بستة أشهر، كنت تردد:

- الله يرحمک يا أم صبحي.

اشتقت إليك يا أبي أنت وأمي، اشتقت إلى مشاكلکم، إلى الحب الذي يجمعکم دون أن تظهر هذا الحب يوما.

كانت الأيدي ما زالت تلوح، ثم ظهرت قوارب صغيرة آتية من البارجة وعليها رجال يلبسون سترات النجاة البرتقالية، اقتربوا من قاربنا وأخذوا يرمون لنا سترات النجاة، تخاطفت الأيدي الملوحة السترات وكأنها إكسير الحياة، وبقينا على هذه الحال بين انتظار الموت والأمل بالنجاة.

قال صوت بلغة عربية سليمة:

- هدوء يا شباب، هدوء.

كانت البارجة تقترب منا شيئا فشيئا، نسي المتعبون تعبهم، والشمس الحارقة، نسوا عطشهم وفقدان الوعي داخل غرفة المحرك، وتعلقت عيونهم بالبارجة، رأوها كسترة نجاة كبيرة، جاءت لتخطفهم من موت محقق.

نظرت إلى رنده التي احتضنت علي ومحمد، وإلى حنين التي لوحت لي
بيدها الرقيقة، وإلى إمام المتجهم الوجه، رغم الرضا البادي على ملامحه.
قال لي أبي ذات مرة:

- لا تنتظر شيئاً، سيأتي إليك وحده، عذاب الانتظار قاتل.

لم أعد أنظر إلى البارجة حتى لا أنتظر اقترابها.

قلت لأبي يوماً:

- السعادة هي أن تنتظر شيئاً جميلاً.

- تلك سعادة ناقصة لأنها مغمسة بالعذاب.

- حتى السعادة مغمسة بالعذاب.

- حتى السعادة مغمسة بالعذاب، حين تنتظر شيئاً جميلاً يدق
قلبنا فرحاً، قد تكون الدقات الأخيرة للحياة.

اقتربنا من البارجة أو أن البارجة اقتربت منا، بدت عملاقاً وبدونا
أصغر مما نبدو بكثير، تعلقت العيون بالبارجة العملاقة ذات اللون
الرمادي.

أنزلوا درجاً كأنه يرتفع إلى السماء، تعبت الرقاب وهي تنظر إلى
العملاق المخلص، وبدت العيون أكثر فرحاً.
قال أبي:

- أنا أشتاق لأهلك، أشتاق لها رغم مشاكلنا التي كانت بيننا.

ووضع يديه الكبيرتين فوق بعضهما وأضاف:

- تمنيت أن أموت قبلها، لم أعد أطيق الحياة بدونها.

ونزلت دمعتان على خديه وذقنه وسيجارته.

شعرت أن البارجة ملاك رحيم رغم جبروتها وحديدها الثقيل،
نزل جنديان إيطاليان وأمرونا بالهدوء حفاظاً على سلامتنا، حتى
لا يحدث هرج ومرج وينقلب القارب، أشار إلى شخص بالصعود

وكننت أنا التالي، لم أكن أقوى على السير، صعدت زحفا على الدرج،
جلوس أربعة رجال على قدمي في غرفة المحرك.

لم يعد أبي ذلك الشخص الذي يهتم بالطعام اللذيذ بعد وفاة أمي،
كان شاردا معظم الوقت، يضع يديه خلف رأسه، ويتمم أدعية وآيات
قرآنية، وتدمع عيناه، ثم يغطي رأسه وينام قليلا، وحين يصحو يطلب
مني أن أجلس إلى جانبه وأحدثه بأي شيء.

استقبلتني جنديّة إيطالية على ظهر البارجة ووضعت في معصمي
سوارا من ورق عليه رقم، وكان إلى جانبي جندي أعطاني زجاجة ماء
كنت في أمس الحاجة إليها، سرت باتجاه طاولة أخرى فتش الجندي
الآخر الأشياء والأوراق التي أحملها بدقة متناهية وأخرج هاتفه النقال
من كيس البلاستيك الذي وضعته داخله خشية البلل، ثم أمروا الذين
صعدوا من الرجال بالجلوس على الأرض إلى جانب طائرة هيلوكوبتر
رابضة على أرض البارجة.

لحق بي علي ومحمد وإمام وجلسوا إلى جانبي، احتضنتهم وكأنني
أراهم بعد غيبة طويلة.

سأل محمد:

- ماذا نسمي هذه السفينة الكبيرة يا أبي؟!

- بارجة، لأنها عسكرية وليست مدنية.

وسأل علي:

- كيف لا تغرق في الماء وهي كبيرة جدا؟

- لأن قاع البحر عميق يزيد عن الألف متر.

ابتسما وصارا ينظران إلى الزبد الذي تخلفه البارجة خلفها.

قلت لإمام:

- مبروك.

- على النجاة من الموت.

- وأيضا على شيء آخر.
- ما هو؟
- سأزوجك حين إن أردت.
- صمت، سألته:
- ماذا قلت؟
- لم يرد، لكن الصمت علامة الرضا.
- دمعت عينا أبي وهو يتذكر أمي بعد وفاتها:
- كانت امرأة قوية كالرجال، صبرت على فقري، كنت أحبها كثيرا، لكنني حاولت أن أطلقها أكثر من مرة، كانت تسبني حين تتسع خلافتنا، لم أطلقها حتى لا تعيشوا بدون أم.
- ووضع كفيه الكبيرتين فوق بعضهما وأضاف:
- حين تسب المرأة رجلها تصبح العلاقة ضعيفة بينهما، حينها لا يفكر فيها الرجل كامرأة.
- وصمت ثم أضاف:
- هل فهمتني؟
- نعم، نعم، يا أبي.
- أدخلوا النساء في غرفة بعيدة عن الساحة التي يوجد فيها الرجال.
- ويبدو أن إمام ارتاح قليلا فبدأ يتحدث بكلمات قليلة مع ابتسامة.
- جاءتني أمي في المنام وقالت وقد بدا الغضب على وجهها:
- لا تصدق أباك فيما يقول، عشت أياما صعبة معه، بل قل سنوات، لا أملك فيها قرشا واحدا، الملابس القديمة كنت أخطيها لكم لتذهبوا بها إلى المدرسة، حتى حقيبة الكتب التي كنت تحملها وأنت صغير صنعتها لك من معطف بال لأبيك لبسه سنوات طويلة.
- وصمت قليلا ثم أضافت:

- هل أستمروا في القول أو أصمت؟

أجبتها:

- أعرف كم عانيت يا أمي، ولكنه أبي.

انفجر غضبها:

- أبوك رجل أناني لا يهتمه إلا نفسه، كان يبتنا مهلهلاً وهو يستمع إلى أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وصباح وأسمهان، وكأنه يجلس في قصر.

- هذه طبيعته.

- طبيعة أورثتنا فقرا.

استمرت البارجة في شق عباب البحر، لم نشعر بالغثيان الذي شعرنا به ونحن على ظهر المركب، أحسست بالجوع، جوع لم أشعر به في حياتي، وأهم من هذا أحسست بالنسمات الباردة تطرد من داخلي حرارة شمس المركب، في المساء وزعوا علينا قطعة من السمك وبعض البسكويت وزجاجة ماء، وقبل أن ننام وزعوا علينا أكياس قمامة سوداء لننام في داخلها على أرضية البارجة، كان سريري دافئاً، قلت لرندة:

- حين أنام في سريرك أشم رائحة النظافة.

- نوم الهنا.

ونمت في سرير كيس القمامة، ولم أنهض إلا في الصباح مرتاح الجسد معتكر النفس، بداية الحضارة أن تنام في كيس قمامة، بداية الحضارة أن تنام على الأرض، بداية الحضارة أن تنام ووسادتك هو حذاؤك، بداية الحضارة أن تفرغ مثانتك في البحر وأنت واقف على ملأ من الناس.

قبل أن أخرج من بيتي قصفت طائرة الميغ جامع عبد القادر الحسيني، وفي اليوم التالي انفجرت سيارة على بعد حارتين من بيتي، فانخلعت أبواب البيت وتكومت أمامي، في اليوم الثالث احتل المسلحون المخيم، في تلك الليلة قبل الخروج الكبير لسكان المخيم

لم أعد أقوى على التذكر، ركعت إلى جانب أمي وبكيت معها.

عاد أبي يحدثني عن فتاح وقد دمعت عيناه:

- لماذا حصل هذا مع فتاح؟! يا رب دخيلك، شاب ناجح ومقبل على الحياة نهش السرطان أمعاءه.

كانت البارجة تحت وقدة الشمس وكأنها بساط الريح بالنسبة للجميع، سودا وبيضا، جلسوا على أرضية البارجة وكأنهم يجلسون تحت ظل شجرة وارفة.

قال فتاح لأمي وهو على فراش المرض، حين كانت تبكي لمصابه:

- لا تبك يا أمي؛ قرأت كتبا بعدد شعر رأسي، مشيت شوارع دمشق شارعا شارعا وحارة حارة، دمشق كأنها مدن العالم جميعها، كأنني زرتها كلها، لا تبك يا أمي، لن أفعل أكثر من هذا.

يقف الجميع في صفوف حين يوزعون الطعام على ظهر البارجة، رغم الأمان تبدأ رحلة الذل، أليس غريبا ألا تلتقي الكرامة مع الأمان؟

في خاصرة أخي فتاح كيس براز بعد العملية الجراحية.

ضحك وهو يقول لي:

- صرت أخرج البراز من خاصرتي بدلا من...

واستمر في ضحك متواصل لساعة كاملة، كانت روحي تبكي وهو يضحك، ونزلت دموعه غزيرة وهو يضحك، ثم نام بعدها وبقيت أنظر إليه مدة طويلة.

حين كان الجنود الطليان على ظهر البارجة يوزعون الطعام أو ينظمون الرجال في مجموعات تنتمي كل منها إلى بلد معين، كانوا يصرخون من أجل أن يجلس الجميع:

- سيتداون، سيتداون.

وكان بعضهم يردد الكلمة ساخرا تتبعها ضحكات وهمسات وهمهمات، قال لي فتاح وهو ينظر إلى الباب خشية أن تدخل أُمِّي وتسمع ما يقول:

- أنا لا أخاف الموت، ادفنوني إلى جانب أختي بدرية العروس النقية.

وضحك وهو يقول:

- سأراها قبلك يا صبحي، كم كانت نقية وصادقة.

لم أحتمل فبكيت، وعندها انفجر معي بالبكاء.

يوما كاملا دارت البارجة في هذا الخضم المائي لتلتقط مهاجرين آخرين، صعدوا بوجوه متعبة، اختلط الفرح والتعب على وجوههم، كيف لا وقد أنقذت أرواحهم من موت محقق، قال لي فتاح في لحظة نسيه المرض من آلامه:

- جنون أختنا بدرية ثم موتها مازال لغزا يحيرني، خرجت مع خطيئها بوعي وعادت بلا وعي، شيء لا يصدق بين الوعي واللاوعي، ماذا أرادت أن تقول لنا بجنونها وموتها، كانت صبية هادئة وعطوفة وجميلة ونقية كالماء، كيف انقلب هذا الهدوء إلى جنون، كيف؟

أسئلة بحثت عنها طويلا ولم أجدها أجوبة، أتعرف أين يكمن السر، عند خطيئها واختنا نظيرة التي تزوجت منه ثم ماتت بعد سنوات، هل تأمرا عليها فاتجهت إلى اللاوعي لتهرب من الواقع الخائن.

قلت له:

- أسألتك مشروعة يا أخي، وأنا أعاني مثلك ولم أصل إلى حل.

لمعت عيناه الذكيتان الواسعتان قبل أن يداهما الألم:

- المؤامرة رديف الخيانة.

- كيف؟

- مؤامرة الخطيب وخيانة الأخت.

وداهمه الألم فلم يعد يستطيع الكلام.

جاءت الليلة الأولى على ظهر البارجة بريح البحر الباردة، دفنت نفسي في كيس القمامة، وكذلك فعل إمام والآخرون، ولم تظهر إلا عيونهم تلمع في الظلام، وحمدت الله أن عليا ومحمدا ينامان في الداخل مع أمهما، نظر إليّ رجل من أفريقيا، كأن عينيه تقولان لي كلمني، سألته:

- أتتكلم العربية؟

قال على الفور:

- نعم، أنا من الصومال.

تحدثنا، دفء الكلمات أنستنا رياح البحر الباردة، عندئذ، أخرج رأسه من كيس القمامة وكأنه يتحدى الرياح الباردة ومعاناته الشخصية وقال:

- كلنا محرومون، أنتم محرومون من الحياة ونحن محرومون من المال.

قلت له:

- الظلم واحد مهما تعددت وجوهه.

قال:

- أحيانا أضحك على نفسي وأحيانا أحزن عليها، وبين هذا وذاك لا أجد نفسي لأنني لا أجد حياتي.

قلت له:

- المكان الذي ولدنا وعشنا فيه هو الذي يشدنا إليه، وهو الذي يجعلنا نتوه حين نفارقه.

قال:

- صدقت، الناس في الصومال أغنياء النفوس رغم فقرهم.

في إحدى الليالي لم يستطع فتاح النوم بسبب الآلام المبرحة لمرض السرطان.

كنت نائماً في سرير مقابل لسريه حين سمعته يناديني.

- صبحي، صبحي.

نهضت واقتربت منه، كان وجهه عجينة من الألم.

قال لي برجاء:

- صبحي، لم أعد أحتمل الألم، أرجوك خلصني منه، إنه ألم لعين.

حاولت أن أتكلم لكنه مدَّ يده النحيلة حتى ينهي كلامه.

- لا تقل لأحد، ضع السم في طعامي، أطلق عليَّ النار، أعطني سكين المطبخ لأضعها داخل صدري، افعل أي شيء، لم أعد أحتمل الألم.

مسحت بكفي على جبهته العريضة وقلت ودموعي تسقط:

- أتريد أن أكون قاتلاً لأخي، أتريد أن أكون قابيل سأموت قبل أن أفكر بهذا الأمر.

كانت قسماً وجهه تنبئ عن ألم فظيع.

قلت له:

- سأقرأ لك بعض الآيات القرآنية، علَّك تنام وترتاح.

- الموت هو راحتي.

هبّت رياح قوية في تلك الليلة، تمايلت البارجة قليلاً، ثم استمرت في سيرها دون أن تعباً بالرياح.

كان إمام يرتجف وهو حافي القدمين.

- أين أضعت حذاءك؟

- في القارب.

- نسيته؟

- لا، تركته؛ فقد كان ممتلئاً بالقيء والبول.
- أغلقت القرآن الكريم بعد أن نام فتاح، جلست على طرف سريرى، جافانى النوم.
- دخلت أُمى خلسة ودموعها على خديها.
- كيف نام؟
- قرأت له بعض الآيات القرآنية.
- ياويلي، إنه يتعذب ولا أستطيع أن أفعل له شيئاً.
- ومسحت دموعها ثم همست:
- هل أعطيته الدواء؟
- رفضه ورمى به.

بدت جزيرة لامبيدوزا من بعيد، نهض الجميع وأخذوا يصيحون من الفرح، الإنسان ابن الأرض وليس ابن الماء، تزايد الفرح، اتجهوا إلى الجهة المقابلة للجزيرة، لكن الجنود الطليان أعادوهم إلى أماكنهم، فرحوا كأنها أرضهم، كأنها الأرض التي ولدوا عليها وتربوا فوقها، كانت الجزيرة نقطة في البعيد، كبرت ثم كبرت حتى باتت قريبة جداً، لكننا تجاوزناها وابتعدنا عنها مرة أخرى، حتى بدت صغيرة إلى أن اختفت.

جلس المهاجرون على الأرض، وقد عادت إليهم كآبتهم، هل كرهوا البحر، هل يريدون أرضاً ثابتة يقفون عليها؟! أنا لم أفرح ولم أحزن، لا شيء يفرحني أو يحزنني، تلك مدينتي تركتها تصارع الموت على صهوة حصان جامح، لم تهدأ نفسي، بل شعرت أنها ماتت منذ تركتها.

بعد ثلاثة أيام أسلم فتاح الروح ليرتاح من آلامه، وقفت أمي فوق رأسه ذاهلة في البداية، لم تصدق أن فتاح لن يتكلم معها بعد الآن، لن يسير في البيت، لن يذهب إلى الجامعة، لن يضحك بصوت عال، لن يحمل مريوله الأبيض، ولن يحتضنها ويهازحها، ثم بدأ الذهول يعود إلى أرض الواقع، أخذت تقفز كالمجنونة، وتلطم وجهها وخديها وتنتف شعرها، وبعدها أخذت تدق على زجاج المكتبة الحديدية حيث نضع فيها كتبتي وكتب فتاح، انكسر الزجاج فسال الدم من يدها، ركضت نحوها وربطت جرحها، وقلت متوسلا:

- اهدئي يا أمي.

نظرت إليَّ بعينين مجنونتين وقالت:

- أضحى أن فتاح قدم مات، قل لي إنه لم يموت، أرحني يا صبحي، أرحني.

وانهارت على الأرض باكية نائحة.

مضت البارجة متجاوزة جزيرة لاميدوزا، وتساءل بعضهم إلى أين تذهب بنا هذه البارجة الطليانية العملاقة.

ولم يحصلوا على إجابة عن التساؤلات التي دارت في أذهانهم.

نصبت الأراجيح وألعاب عيد الأضحى أمام بيتنا المتواضع، كان الفرح يعم المكان، ولكن الحزن منعنا من ابتسامة واحدة، وفتح لم يمض على دفنه سوى أربع وعشرين ساعة، جلست إلى جانب

بئر الماء أستقبل المعزين مع أبي، بينما صراخ الفرع يعلو في الخارج، توقفت أتأمل البحر على طرف البارجة، ومئات من أكياس الزباله أمامي، يقبع فيها مهاجرون لكل منهم قصة مأساوية.

حين كانت سيارة الموتى لتتنقل فتاح إلى مسكنه الأخير، بدا الدهول والخوف على وجه السائق حين وصلنا المقبرة، اقتربت منه وسألته:

- هل هناك مشكلة؟

قال والدهول لم يفارق حياه:

- السيارة وصلت إلى المقبرة دون بنزين، اكتشفت أن أنبوب البنزين مقطوع، ومع ذلك سارت السيارة، قل لي بربك من هو هذا الميت؟
- شاب في الثانية والعشرين، قضى حياته القصيرة في الدراسة.

قال بذهول أكبر:

- لا إله إلا الله، هذا الشاب مبروك عند ربه، قضيت خمسا وثلاثين سنة على سيارة الموتى لم يحدث لي ما حدث هذا اليوم.
أخذوا ينسلون من أكياس القمامة، واحدا تلو الآخر، في عيونهم أمل بالوصول إلى أرض صلبة.
قالت أمي والدموع في عينيها:

- كيف دفن فتاح بجانب قبر أخته بدرية، أنا لا أصدق ذلك، حفروا القبر لرجل آخر لم يدفن فيه، ودفن فتاح مكانه، أبى إلا أن يدفن قريبها، كان يحبها وكانت تحبه، إنها عجيبة ثانية في ذلك اليوم، مسحت أمي دموعها، وقامت وتوضأت، وصلت ركعتين ولم تتكلم بعدها أبداً.

عادت الشمس نهارا تلسع وجوهنا على ظهر البارجة، أخذ الجنود الطليان يوزعون زجاجات الماء، كان طعم الماء مختلفا عن طعم ماء دمشق في حاراتها القديمة، الماء ليس هو الماء، هذا الماء لا يروي القلوب العطشى، وماء دمشق ينساب إلى الروح فيروياها.

أمي لم تكن قبل فتاح كما كانت بعد فتاح؛ دوما شاردة، تبسم أحيانا، وقد تضحك، وحين أنظر إليها تتوقف عن الابتسام أو الضحك، وتقول لي:

- لا تخف، لم أفقد عقلي بعد، كنت أخطب فتاح، حملني ودار بي في أرض الدار، جلست معه تحت شجرة الأزد رخت، كان جائعا، حصّرت له الطعام، أكل بشهية وأنا أنظر إليه، وأبتسم له، وقال طرفة ضحكت منها.
- أمي لكن فتاح قد...

قاطعتني:

- أعرف أنه مات، لكنه يأتي إليّ أحيانا، أحدثه ثم يذهب.

كأن البارجة تذهب نحو بحار الدنيا، نظرت في اتجاهاتها فلم أجد سوى المياه السوداء العميقة وزبد البحر خلفها، كنت أسير في إحدى حارات دمشق القديمة، وجدت فتاح يسير أمامي، ظننت أنني كنت أحلم، لكن الناس والشمس وأصوات الباعة وحنفية الماء ردوني إلى الواقع، لحقت به، كنت أريد رؤية وجهه، لكنه كان سريع الخطى، وتساءلت وأنا أسرع خلفه، هل يعود الأموات؟

كان إمام يجلس على ظهر البارجة يدخن، قلت له:

- حين نصل ألمانيا سأزورك حين ابنة عمك.

ابتسم دون أن يعلق بشيء.

استطعت أخيرا أن أسبقه وأنظر إلى وجهه، إنه فتاح بلحمه وشحمه، ولكن كيف، اقتربت منه وسألته:

- من أنت؟

سأل بانزعاج:

- بل من أنت؟

- آسف، كنت أحسبك صديقا.

وانسحبت، لليوم الثالث عبرت البارجة البحر المتوسط باتجاه إيطاليا، أخذت الحيتان تظهر على سطح الماء، كان منظرًا أخاذا وهي تقفز فوق الماء ثم تختفي.

حتى وأنت في أشد حالات اليأس تستطيع أن تشعر بالجمال وتنسى عالمك البائس.

قال لي أخي فتاح وهو على فراش المرض:

- مهما نلت من شهادات عليا فلن أترك دمشق، دمشق هي دمي وروحي.

تعال يا فتاح وانظر ماذا جرى لدمشق، ستبكي دمًا لا دموعًا، أظن أنك لن تتركها، ستموت فيها ولن تتركها، أنا الجبان الوحيد في هذا العالم، لولا علي ومحمد وخوف رنده، لحفرت قبري وسط دمشق، ودفنت نفسي قبل أن يأتي الموت.

لمحت رنده فوق ظهر البارجة وقد امتلأت الما وحزنا، ركضت نحوها، قالت بحزن ولسان متلعثم:

- حنين أصابتها حمى، وهي تهلوس.

- هل حالتها خطيرة؟

- قال الطبيب حين ترسو البارجة سينقلها إلى المشفى.

كان إمام ينظر من بعيد وكأنه شعر بشيء.

- ألا يمكن أن أراها؟

- لن يسمحوا لك.

- سأراها.

ولم أسر إلا بضع خطوات حتى اعترضني جندي طلياني، يحمل عصا، وأشار إليّ بالتراجع، قلت له بالإنجليزية إن ابنتي مريضة وأريد رؤيتها، فلم يغير موقفه، فقالت رنده:

- عد، لا تعرض نفسك للإهانة، سأخبرك عن حالتها أولاً بأول.

عدت يائسا، وجلست تحت الشمس الحارقة، دون أن أشعر بحرارتها، إلى أن غابت وأخذت نسيمات البحر الطرية تواسي يأسِي وبؤسِي.

تعرضت أُمي بعد موت فتاح لعديد من الأمراض الجسمية والنفسية؛ كانت تتخيل أشياء ليس لها وجود على أرض الواقع، وكانت تضحك أحيانا، وتتكلم مع شخص غير موجود، وحين أسألها تَجِينِي ببساطة:

- مع فتاح، إنه يزورني كثيرا.

أمتعض، أحاول أن أصرخ، لكن طبيب القلب نبهني ألا أعرضها لأي نقاش يثير غضبها، أحيانا، كانت تلاحظ امتعاضي فتسألني:

- ما بك يا صبحي؟

- لا شيء يا أُمي، مشاكل العمل في المدرسة كثيرة.

عندها تقول:

- لا تقسُ على الطلاب، الحياة قصيرة وتافهة.

أهز رأسي موافقا، ثم أنسحب إلى غرفتي أفرغ حزني وغضبي بالبكاء.

في البارجة رجال يحبون الحياة على حساب الحياة، يتعلقون بالوهم من أجل الوهم، يحاولون إشعال فتيل الأمل من أجل إبعاد اليأس.

على أرضية البارجة جلس المهاجرون على شكل مجموعات تحت وقدة الشمس، يتجاذبون أطراف الحديث، تضحك الوجوه رغم بؤسها، ويخفون السجائر حتى لا يراها الجنود الطليان، هنالك إضاءات من السعادة في بيتنا رغم الموت والحزن والبكاء.

حين نجحت في الشهادة الثانوية، ظهر اسمي في جريدة البعث، ذات صباح صيفي تتخلله النسائم، أخذت أُمي تحضر لحفلة المولد النبوي، دعت نساء الحي، في مساء اليوم التالي، في باحة بيتنا القديم، كأن حياة جديدة دبّت في جسدها المنهك، أخذت تنظف باحة الدار وهي تغني، تسقي النباتات وأشجار الأزد رخت وهي تغني، وكنت

أسحب لها الماء من البئر التي تعاوننا جميعا في حفرها، أنظر إليها وهي تغني وكأنها تحضر لعرس كبير.

وجاء أبي وقد حلق شعره الأشيب، وجلب بعض الأزهار والفاكهة، وضع الأزهار في مزهرية وجلس على كرسي بجانب البئر وقال:

- أنا الآن في غاية السعادة، سيدخل ابني صبحي الجامعة، ونهض وقبلني بعينين دامعتين ثم جلس صامتا، اقتربت منه وقلت:

- هذه الجلسة تحتاج إلى كأس من الشاي.

هزّ رأسه مبتسما وموافقا.

ولليوم الثالث ملّ المهاجرون على ظهر البارجة وقدة الشمس نهارا وبرودة الجو ليلا، كانوا يتحدثون ليقتلوا الوقت، أو ينظرون إلى البحر ليعودوا إلى ذكرياتهم، رأيت رندة تشير إليّ وعلى وجهها قلق:

- كيف هي حنين الآن؟

- قال الطبيب إنها تعاني من حمى البحر المتوسط.

- ألا يكفي هذا البحر الأجساد التي ابتلعها؟

- أعطاهم مسكنات وهي الآن نائمة.

غنت النسوة بعد المولد النبوي أغاني دينية، ثم تحولت الأغاني إلى رقص وتصفيق وضحكات فيها شيء كثير من الغنج والدلال.

قالت لي أُمّي بعد خروج النسوة من بيتنا:

- لم أفرح يوما كما فرحت اليوم.

وأقبل فتاح ويده كيس من المكسرات وقال:

- سنسهر الليلة ونضحك حتى الصباح.

وعمرّ أبي نارجيلته التاريخية، ووضع في مائها أوراق الورد، ثم نظر إليها متباهيا وقال:

- نارجيلة كالعروس .

في الليلة الأخيرة، هبَّ هواء شديد على البارجة، مالت قليلا، لكنها تابعت سيرها دون أن تعباً برياح البحر ولا بغضبه.

كان مرض حنين يحتل مساحة كبيرة من تفكيري، لم أعبأ بالرياح الباردة كما فعلت البارجة، دسست نفسي في كيس القمامة، ولم أنم حتى الصباح، بعد هدوء رياح البحر.

فرح أمني بنجاحي كان خبرا تناقلته نسوة حيناً في اليرموك.
قالت لهن:

- أحسُّ حين نجح صبحي أن روحي غسلت من الأحزان، ابني أول شاب يأخذ شهادة عليا في العائلة كلها، أولاد عمه لم يتجاوزوا المرحلة الابتدائية، أكاد أطير من الفرح، قال لي أبي هو يقلي بيضات غنم أحضرها من السوق لتوه:

- لم تعرف أمك الفرح منذ زمن طويل إلا حين نجحت.
وابتسم بخبث قائلاً:

- ليلا، اقتربت مني وطلبت، ثم قالت، لو كنت صبية لحملت بولد مثل صبحي أو فتاح، هيا يا رجل أم أنك صرت عجوزا.
لم يخجل مما قاله بل ضحك واستمر في الضحك وهو يأكل بيضات الخروف.

بدأت اليابسة تتراءى لنا من بعيد عصر ذلك اليوم نهض مئات المهاجرين، وأخذوا يتجهون بأنظارهم نحو اليابسة وهم يصيحون ويضحكون ناسين رحلة التعب والموت عبر البحر، أخذت البنايات والسيارات تتراءى لنا من بعيد، شعرت أن ذلك البيت هو بيتي، وأن تلك السيارة هي سيارتي، وأن ذلك الشارع هو شارعي، وأن الذين يسرون على الأرصفة هم أصدقائي، لم أعرف تلك المدينة، ولا لوحات الإعلان فيها، ولا أسماء شوارعها، لكنني أحسست أنني أعرفها، لأنها تحتضن عذابي، تحتضن نفيي، تحتضن ذكرياتي الضائعة

التي تركتها في دمشق، لم أسأل عن اسم تلك المدينة الإيطالية، لكن بعض الأصوات رددت اسمها على مسامعي.

- تورنتو، إنها تورنتو .

غابت شمس تورنتو في ذلك الغسق الجميل، وأخذت الأضواء تشع في الشوارع والأبنية، غسلت الأضواء همومي، انحنت لحزني، كأنها موسيقا هادئة أقرب إلى الجنازية، لكن الفرح يتداخل مع تلك الموسيقا يحلم بها أو تحلم به.

في تلك اللحظات، قامت القيامة على ظهر البارجة، صياح وصفير غطى سماء تورنتو، وطغى على موسيقا الأضواء، وعلى هدير محرك البارجة قبل أن يتوقف.

جاء الجنود الطليان بعصيتهم وصراخهم، فهمدت صيحات المهاجرين وتوقف صفيرهم، أجلسونا على الأرض، وقسمونا إلى مجموعات، واستغرقت تلك العملية ساعتين أو أكثر.

كانت أختي بديرية تلفظ أنفاسها الأخيرة حين جئنا بها من مشفى ابن النفيس للأمراض العقلية في دوما في سيارة أجرة، كانت تتنفس ببطء وكأنها تتنفس أمامي الآن، أنظر إليها وأبكي بصمت، اقتربت منها لأسمع ما تريد قوله، كانت تردد بصوت ضعيف:

- صبحي، صبحي.

قلت لها بقلب مجروح:

- قولي ما تشائين، من فعل بك هذا، خطييك، ثقي أنني سأقتله.

لم تكن تريد الكلام إطلاقاً، كانت تنظر إليّ وتتأمل وجهي وكأنها تودعني، تلك النظرة لن أنساها ما حييت.

توقفت سيارة الأجرة أمام بيتنا القديم، التفتت إلى البيت وأسلمت الروح.

نزلنا من البارجة على الدرج الطويل كما صعدنا، كان هواء المساء منعشا في تورنتو، اصطففنا في صف طويل، ورحب بنا رجال وشابات الصليب الأحمر، بوجوه باشة وكلمات لطيفة.

قلت لإحدهن:

- زوجتي اسمها رنده معها ولدان علي ومحمد وابنة أخي مريضه تدعى حنين.

أجابتنى بلغة إنجليزية والابتسامة لم تفارقها:

- سأفعل، اطمئن.

وذهبت خلف خيام بيضاء نصبوها من أجلنا، مدت أمي ثوب عرس أختي بدرية فوق جسدها المسجى في غرفتنا ذات السقف الخشبي، وأخذت تقول باكية للنسوة اللواتي اجتمعن حول جثتها:

- اليوم عرس بدرية، زغردن.

أبكت بقولها جميع نسوة الحي.

كانت هنالك سيارة إسعاف تنتظر حنين قرب الخيام البيضاء، نظرت إليّ حنين قبل أن يضعوا النقالة في السيارة وقالت:

- ساحمني يا عمي، لقد أزعجتك في حياتك الجديدة.

اقتربت منها وقبلت رأسها وقلت:

- المهم أن تكوني بخير.

وتبادلت النظرات مع إمام الذي غصَّ وأدار وجهه مخفيا دمعتهين سقطتا على خديه.

حاولت الذهاب معها إلى المشفى فمنعوني وأعطوني عنوان المشفى للزيارة فقط، وقفت وحيدا بعد ذهاب سيارة الإسعاف وكأنني أقف وحدي في صحراء قاحلة، أحسست بيد رنده تضع كفا على كتفي وتخفي دموعا في مآقيها، كنت أحب الحياة والمرح والاستماع إلى أغاني فيروز صباحا وأم كلثوم وعبد الوهاب مساء، لكن الحياة علمتني

أن تلك اللحظات السعيدة ماهي إلا ومضات سريعة في ليل طويل .
نقلونا في حافلة إلى مكان مبيتنا، وقبل النزول تناول كل منا كيسا فيه
وجبة طعام كان على أرض الحافلة قرب السائق، نزلنا وجلسنا في باحة
كبيرة، افترشنا الأرض، وأكلنا كالمسولين.

كانت الأيام بعد وفاة أختي بدرية مليئة بالدموع، وهذا لم يمنع
أختي نظيرة من التحضير لعرسها مع عريس أختها بدرية، حيث
طلبها بعد وفاة أختها وكأن شيئا لم يكن، وافقت أمي أما أبي فقد
كانت موافقته على مضض، وكنت أنا وفتاح صغيرين، لم نكن نعرف
ما يدور من ألعيب وخفايا، من مؤامرات ودسائس، حين دخل
بيتنا ذلك العريس الذي ينتمي إلى مسقط رأس أمي قلقيلية دخل معه
ملك الموت، فتساقطت نصف عائلتنا خلال أقل من عشر سنوات،
ماتت بدرية تبعثها نظيرة في الكويت وحيدة غريبة تاركة خمس بنات
بعد أن نهش السرطان ثدييها، ثم لحق بهما أخي فتاح .

أصبح الموت يقيم بيننا دون أن ندري أن ذلك العريس القادم من
قرية أمي هو ملك الموت نفسه، ولكنني شخصيا كان عندي هذا
الإحساس منذ وقت مبكر، نمنا جميعا في غرفة نظيفة في دار للإيواء
في تورنتو، لم نشعر إلا بالصباح قد انبلج، لأننا لم ننم على فراش منذ
زمن طويل .

جلست أفكر في حنين، قالت رندة بصوت حزين:

- سنزور حنين هذا اليوم .

- هذا ماكنت أفكر فيه .

خرجنا قبل أن يستيقظ الأولاد .

أوقفت سيارة تاكسي، أعطيته العنوان فhez رأسه بأدب وابتسم .

سارت السيارة في شوارع نظيفة، على جانبيها بنايات أنيقة مكللة
بالقرميد، كأنني كنت في حلم، لم أكن أظن أن قدومي ستطآن اليابسة
من جديد، كنت على يقين أن أعماق البحر ستكون قبرالي، لم تعد

أمي تبكي على أخوتي أمامي، فقد سمعتها تقول لأبي دون أن تراني:
- صبحي هو دنياي كلها، حين أبكي أمامه على أخوته يمتنع وجهه، يريد أن يبكي لكنه لا يبكي، أخشى عليه من الحزن، لن أبكي أمامه أبدا مرة أخرى.

ساعتئذ، تمنيت أن أضع راسي في حجرها وأبكي وأبكي حتى تفرغ شحنة الحزن التي تملأ صدري، لكنني انسحبت وانزويت في غرفتي، وسقطت دموعي بصمت.

قادتنا ممرضة جميلة وأنيقة إلى غرفة حنين، فتحت لنا الباب، لم يكن على سرير حنين سوى ورقة.

تعجبت الممرضة غياب المريضة، وخرجت من الغرفة بسرعة، بدت رندة ذاهلة وأنا أمسك برسالة حنين بيدين مرتجفتين، وبصوت متهدج قرأت رسالتها:

- عمي، امرأة عمي، أنا آسفة لأنني لم أودعكما، أنا في طريقي الآن إلى مكان لا تعلموه. قد أظل هنا أو أعود إلى سوريا.

لقد فعلت ذلك من أجل إمام ومن أجلكم، العجوز الخرف استأصل رحمي لكي لا أنجب، أنا الآن امرأة عاقر، لستم بحاجة إليها، أتمنى أن يجد امرأة تملأ له البيت أولادا، قد نلتقي وقد لا نلتقي.

وداعا وإلى اللقاء.

حنين التي لن ينسى قلبها حنانكم، جلست فوق سريرها أبكي بصوت عال، وجلست قربي رندة تشاركني بكائي وحزني.

قلت لأمي ذات مرة:

- حين نبكي على أحبابنا الذين ماتوا كأننا نبكي على أنفسنا، لأننا يوما ما لن نكون أبدا.

قالت ذلك وأضافت، وكأنني أجلس أمام فيلسوف قديم:

- الحياة كالهواء الذي لا نراه.

أجبتها:

- الإنسان يتحمل آلاما تعجز الجبال عن تحملها.

- هكذا خلقه الله.

أجابتنني واختفت من أمامي، لتخبز أرغفة ساخنة، عبقت رائحتها في البيت القديم، فمسحت تلك الرائحة الحزن شيئاً فشيئاً، لتوصل نفسي إلى صفاء خالص.

مشيت في شوارع تورنتو كالتائه، كنت أسمع فقط شهقات بكاء رندة وهي تسير خلفي، توقفت وقلت:

- لن نرى حنين مرة أخرى، حنين مثل أبيها، صمم الموت في فلسطين وفعلها.

- ستعود ذات يوم.

- لن تعود.

- لكل إنسان صفة من اسمه، ستحن يوماً وتعود.

حين كنت صغيراً كنت أذهب مع أبي، كان يعمل نجاراً متجولاً في بيوت دمشق القديمة.

كان يفتخر بي أمام من يعمل عندهم ويردد عبارته:

- ابني صبحي ذكي، إنه في الصف الثالث، ومع ذلك يقرأ لنا في كل ليلة قصة من قصص ألف ليلة وليلة، ويشعل سيجارة من النوع الرخيص وهو ينظر إليّ بافتخار، استقبلنا إمام بكلماته القليلة الملهوفة:

- كيف حنين؟!

قلت له بحزن:

- لم يعد هنالك حنين.

- ماتت.

قالت رنده:

- لا، لا، بعيد الشر، هربت لأنها لن تستطيع إنجاب أولاد لك.

- ومن قال إنني أريد أطفالا، من أجل أن يتشردوا مثلنا.

ونظر إليَّ بعينين دامعتين:

- ألم تعدني؟

- وعدتك فأخلفت.

خرج إمام من الغرفة ليبيكي وحده.

كان أبي مساء يحضر الشاي والتمر المطبوخ بالسمن، ويضع يديه خلف رأسه الأشيب، والسيجارة في فمه، وابتسامة على شفثيه، ويقول لي:

- هيا يا صبحي، اقرأ لنا قصة السندباد البحري.

وتقول أُمي:

- انتظر قليلا حتى أخبز بعض الأرغفة.

قضينا نهارا حزينا في تورنتو، رغم جمالها الأخاذ وهدوئها، وناسها الطيبين، وشوارعها النظيفة، لكن القلب المليء بالأحزان لا يحلم إلا بأحزانه.

كنت مراهقا حين أحببت ابنة الجيران عن بعد، ابتسامات من بعيد، وتكبر هذه الابتسامات حين أكون وحدي، تصبح كلمات ومشاوير وهمية، تصبح عالما من النجوم.

كانت حفيظة ابنة الحداد تفتح باب بيتها لتنظر إليَّ، تبسم لي ثم تغلق الباب، كنت أعتني بتصفيف شعري الأحمر السميك وهندامي حتى تراني في أجمل صورة.

وقد عملت صبيا عند أبيها في مهنة الحدادة، لكي أكون قريبا، مع أنني أكره الحديد.

حين تراني متسخ الثياب بسبب صدا الحديد تضحك عن أسنان بيضاء لؤلؤية، اقتربت منها ذات مرة وقلت لها قولي أحبك قالتها بسرعة وهربت داخل البيت.

في تلك الليلة لم أنم، بنيت قصورا وهمية، وبدت لي الحياة أجمل وأرحب.

جلست في إحدى حدائق تورنتو الجميلة، وقلت لرندة:

- كيف سنترك تورنتو دون حنين؟

نظرت إليّ، لم تجب لأنها لا تملك جوابا.

قلت وأنا أنهض:

- سأبعث لها رسالة عبر إيميلها، وعندها ستعود.

عادت أمني إلى السعال ليلا ونهارا، ومع السعال تزرق أطراف أصابعها، وتجحظ عيناها، وحين تراني أنظر إليها تقول:

- ليس بي شيء، نزلة برد.

قلت لأبي:

- لا تدخن وأنت في الفراش.

- وهل مرضت أمك بسببي؟

- رثاها لا تتحملان الدخان.

صوّر الطبيب صدرها وخطط قلبها، صمت قليلا ثم قال لي دون أن تسمع أمني:

- أشك أن عندها بداية سرطان الصدر.

- ماذا؟

صدرت مني الكلمة بوجع شديد، أضاف الطبيب:

- مختبر الدكتور إياد الشطي يعطيك الإجابة الصحيح، وحاول كتابة عنوانه لكنني قلت له:

- أعرفه، أخذ خزعة لأخي فتاح الذي توفي.

في مكان مبيتنا في تورنتو سألت موظفة الصليب الأحمر عن محطة القطار، فرسمت لي خريطة على ورقة بيضاء، استعجلت هذا

الأمير لأن الطليان يأخذون بصمة المهاجرين عنوة إذا طالت إقامتهم،
وعندها لن نتمكن من اللجوء إلى أي بلد أوروبي.

قلت لرندة:

- إذا فعلوا ذلك لن نستطيع لم شملنا مع منار وتامر.

قالت بحزن:

- سأموت أن حدث ذلك.

في ضحى اليوم التالي، استعجلنا الخروج من الإيواء الإيطالي،
واتجهنا حسب المخطط إلى محطة القطار.

قال لي أبي ذات مرة في جلسة صفاء:

- أعدكم على مائدة العشاء واحدا واحدا قبل لقمتي الأولى،
لأطمئن إلى اكتمال عائلتنا، لكنني أخشى يوما أن تتناقص بالموت أو
السفر.

ودمعت عيناه ولم يعد يتكلم.

ركبنا القطار من تورنتو إلى ميلانو، واستغرقت الرحلة تسع
ساعات، قطعنا خلالها إيطاليا من جنوبها إلى شمالها، كان طريق القطار
جميلا كالأحلام، سهول خضراء وغابات كثيفة، وبيوت قرميدية
أنيقة، وكأن رساما أبدعها، تساءلت:

- هل هذه جنة الأرض أم جنة السماء؟

كنت مأخوذا بهذا الجمال الذي لم أر مثله قط، فجأة، رأيت الجواد
الأبلق وفوقه الصبية دمشق، يركض الحصان في السهول الخضراء،
كانت يدا دمشق خاليتين من السيف الذي حملته طويلا.

كأننا يتعدان وأحيانا يقتربان، أردت أن أصرخ بأعلى صوتي:

- أين سيفك يا دمشق؟

في كل صباح يغلي أبي الشاي، قبل خروجه إلى مقهى الدرويشية
قرب سوق مدحت باشا، حيث يجلس مع صديقه أبي صياح وآخرين،

ينتظرون رزقهم، في النجارة العربية في بيوت دمشق القديمة، كنت أراقبه وهو يغلي الشاي بإتقان والسيجارة في فمه، ثم صوت الملعقة وهي تذيب السكر، صار ذلك الصوت علامة بارزة في كل صباح، كان يأتي إليّ بكأس الشاي، في صباحات الصيف الجميلة الهادئة، حيث تتجاذب أطراف الحديث في باحة الدار قبل أن يذهب إلى عمله.

قلت له ذات مرة:

- أنت قنوع يا أبي، اليلداوي عرض عليك أرضا بتراب المصري كما يقولون، ولم تقبل، وهاهي الآن في شارع لوبية تساوي الملايين.

نظر إليّ طويلاً ثم أجاب:

- الإنسان لا يأخذ سوى نصيبه.

- الإنسان هو من يقرر مصيره نجاحاً أو فشلاً.

ينهض، يأخذ سكّه، دون أن يعلّق.

كانت أراضي الأحلام الإيطالية تمر من أمامي وكأنني في كوكب آخر، هذه إيطاليا بأرضها، بشجرها، بعشبتها، ببيوتها، بناسها، لا أتصور تلك الرحلة إلا حلماً جميلاً ما يلبث أن ينتهي.

قلت لرندة:

- أترين الحلم الجميل الذي أراه؟

- كنت سأسألك هذا السؤال.

ضحكنا، منذ زمن بعيد لم نضحك، كانت أرض الأحلام هي التي جعلتنا سعداء.

قلت لأخي فتاح وأنا أسير معه في شوارع دمشق القديمة:

- كأن هذه المدينة هي ملكي، البيوت، الشوارع، وهذه الأزقة الهادئة.

يضحك فتاح ويقف إلى جانب حنفية ماء وقال:

- من يشرب من هذا الماء يصبح شاعراً أو كاتباً.

وأضاف:

- أريد أن أصبح عالما وكاتبا في الوقت نفسه.

كانت أمي تواظب على زيارة قبره كل اثنين وخميس، أذهب معها أحيانا،
وحين لا أكون معها، تعود إلى البيت وقد انتفخت عيناها من البكاء.

تلك السهول الخضراء الحاملة تمنع من البكاء، بل تمنع من الحزن.

سألت رندة:

- هل أنت سعيدة؟

ردت على الفور:

- لا أعرف.

كان علي ومحمد غارقين في النوم على مقعديهما، بينما إمام شارد في
السهول الخضراء.

توقف القطار في إحدى المحطات، صعدت امرأتان مستتان في
غاية الأناقة، كانتا يتحدثان بصوت منخفض وهما تحيكان الصوف.

قلت لرندة:

- أين سنارتك؟

- صارت تحت ردم البيت.

- كنت أتأملك وأنت تحيكن الصوف بمهارة مثل هاتين المرأتين.

دمعت عيناها قبل أن أكمل كلامي، فحياتنا لم تعد بحاجة للصوف
من أجل دفء أرواحنا الباردة.

اختفت أخبار ابنتي منار عشرين يوما منذ خرجت في رحلة الموت على
ظهر مركب من مصر، كنت حينها في الجزائر، في تلك الأيام، كنت أسير
طوال النهار بلا هدف، ودوما أذهب إلى ذلك البيت، بيت أم الشهداء،
أجلس تحت الشجرة المقدسة، إلى جانب قبر العجوز، أم الشهداء.
تجلس العجوز الجزائرية بجانبني، تمسح على شعري، أنام قليلا

بسبب الإرهاق، أرى حمزة ابن منار، بشعره الأشقر وعينه الزرقاوين، ووجهه المضيء، يقبل عليّ راكضاً، ورغم قصر المسافة لا يصل إليّ، يمر وقت طويل وهو يركض، يركض قلبي معه، أسمع لهاته وصوته الحنون يناديني، وأصحو فلا أجده ولا أجد العجوز.

استقبلتنا ميلانو ليلاً بأبنيتها الفخمة القديمة وتاريخها العريق، وشوارعها النظيفة، توجهت إلى المجمع الإسلامي حيث يبيت هناك المهاجرون، فرفض استقبالنا لم نسجل أسماءنا في البلدية، ذهبنا إلى البلدية، كنا نسأل المارة حتى وصلنا إليها، كنا في غاية التعب، ليس بسبب رحلة القطار الأسطورية عبر بلاد الجنة، بل لأن أعماقنا رفضت مبدأ الغربة القسرية.

كان بناء المجمع الإسلامي، وهذا ما اعتقدته، معتقلاً في الحرب العالمية الثانية، أيام موسوليني، لأن غرفه الكبيرة توحى بذلك، أدخلونا إلى غرفة كبيرة مليئة بالأسرة، فيها مهاجرون من جنسيات مختلفة، الأسود والأبيض والأصفر، أشخاص جمعتهم الغربة وفرقتهم الأوطان.

حين عدت من السعودية، هدمت بيتنا القديم وبنيت مكانه طابقين، وعندئذ، قالت لي أمي:

- لا ينقصك الآن سوى العروس.

قلت لها:

- نقودي صرفت في بناء البيت.

- توكل على الله تجد العروس أمامك.

حين كانت أختي فاطمة تشتري أرغفتها الساخنة من الفرن، أعجبتها امرأة، فسألتها إن كان لها أخت تشبهها لم تتزوج فأجابتها بالإيجاب، وكان أن دلتنا على رنده، ولما يمض شهر إلا وكانت رنده في بيتي الجديد.

شعرت أنني أعرف رنده منذ زمن بعيد، كانت جميلة، ذات شعر أشقر، أصولها جزائرية، هادئة، نظيفة، مرتبة، كأنها المرأة المثالية التي فكرت فيها.

قلت لها ولما يمض شهر على زواجنا:

- أعطاني الله ما أردت من زوجة صالحة، وأنت ما رأيك فيّ.

نظرت إليّ بحب وقالت:

- وأنت أكثر مما تمنيت.

كانت ميلانو كعروس جميلة في الليل، سرنا في شوارعها أنا ورندة وعلي ومحمد، وكأنا نسير في أرض الأحلام، من فوق جبل قاسيون كانت دمشق مدينة تغسلها الأضواء، كأنها مجموعة كونية متألئة لا تطالها يد، كيف يا دمشق طالتك الأيدي، وأنت العصية دوماً؟!

ملايين الأسئلة تدور في رأسي، حين بدأت أضواؤك تخفت شيئاً فشيئاً، وأنا بعيد عنك.

قلت لرندة:

- تورنتو جميلة كدمشق في الليل.

- لكن دمشق هي الأجل.

- صدقت، دمشق هي الأجل، دمشق مدينة ليست كالمدن، فيها روح التاريخ وحلاوة العصر، الماضي والحاضر يتعانقان في ائتلاف عجيب. صمت قليلاً وأضفت:

- تركنا أرواحنا هناك، نحن نسير الآن بلا أرواح.

ذات مرة، في أيام الشتاء، حلّ الليل ولم يعد أبي، لم يكن هنالك وسائل اتصال كما هو اليوم، بدأ القلق يهاجمنا جميعاً كوحش خرافي.

ضربت أمي كفا بكف وقالت:

- صبحي، أبوك مات.

لم تكن تظهر هذا الحب أمامه، كنت قلقاً أكثر منها، لكنني كتمت مشاعري.

انتصف الليل ولم يعد، سألت عنه طوال الليل في المستشفيات وأقسام الشرطة وعدت بخفي حنين،

كانت أُمِّي تنتظرني أمام الباب، قلت لها:

- لم أعثر عليه.

لم نَمِ تلك الليلة، ولا الليلة التي تلتها، ولا الليلة الثالثة.

ربطت أُمِّي رأسها بمنديلها، وجلست تغرق في بكائها، ولم تأكل لثلاثة أيام متتالية، وحين سألت صديقه أبا صياح في مقهى الدرويشية أخبرني أنه يعمل في قرية دير العصافير .

حينئذ، خلعت أُمِّي منديلها، ومسحت دموعها، ولبست معطفها، واصطحبت أختي جلييلة، وكأنها تستعد لمعركة فاصلة.

كان أبي يدق المسامير في السقف الخشبي، وحين رأى أُمِّي ابتسم قائلاً:

- أهلاً، أم صبحي.

- لا أهلاً ولا سهلاً، كيف تفعل فعلتك الشنيعة هذه، أخبرنا أنك ستغيب عن البيت.

- أعرف أنك تخافين عليّ.

وبدأ غضبها يغلي وهو في غاية الانبساط.

لم أكن أريد توديع ميلانو الجميلة، كانت أشبه بدمشق الجميلة، كنت أريد السير على أرصفتها، وأتعرف على حاراتها القديمة كما كنت أفعل في دمشق، كنت أريد أن أكل من طعامها، ليكون خبزها وملحها في ذاكرتي لا أنساه، كنت أريد أن أشبع من شمسه وهوائها، وأحدث أهلها، كنت أريد أن أكون ابناً لها، لأنها احتضنتني من فم البحر هي وتورنتو، كنت أريد أن أكون صديقاً، محباً، عاشقاً، لكنني ودعتها في المساء بدموع ساخنة في ليلة باردة.

ركبنا سيارة ستقلنا عبر النمسا إلى ألمانيا، دون جوازات سفر، جوازات سفرنا الوحيدة هي ما نملكه من أمتعة بسيطة، وذكريات كثيرة، عبرت السيارة طرقاً ملتوية، نظيفة، في ليل بارد صامت، كانت غباشة الدموع قد أنستني متعة السفر، وضع السائق السمين أغنيات غربية بصوت عال، وأخذ يغب من مشروب الطاقة ليبقى مستيقظاً طوال الليل.

كلما أوغلنا في الهروب أو غلت نفوسنا بالضيق، ضياع لا رجعة منه.
في تلك اللحظة، شعرت أنني تخلّيت عن اسمي، عن ذكرياتي، عن
بيتي الذي بنّيته بعريقي، عن الحارات الشامية القديمة، عن أصدقائي،
عن كتبي ودفاتري ومخطوطاتي، وحتى عن عائلتي.

كيف يموت الإنسان وهو يتنفس؟! كيف يدفن وهو حي؟! كيف
يأكل وهو ميت؟! لكن الأموات لا يأكلون، الأموات لا يتكلمون،
الأموات لا يمشون.

ولكن، حدث ذلك كله وأنا أوغل في الليل في تلك السيارة، باتجاه
أرض الجرمان أو ألمانيا.

قبل أن تموت أمي أو صتني بوصية لن أنساها:

- صبحي، املا هذا البيت أولادًا، وحافظ عليهم، حين أرى فتاح
سأخبره بذلك، عدني يا بني.

- أعدك يا أمي.

- سأموت الآن وأنا مرتاحة.

وجاءت الحرب ولم أحافظ على وعدي.

كانت رنّدة بلا ملامح وكذلك أولادي في تلك السيارة التي
أدخلتنا خلّسة إلى ألمانيا.

أليس من يترك بلده يصبح بلا ملامح، كنت في تلك اللحظة
كتائه في صحراء، كنت بلا ملامح.

أعلمنا السائق أننا الآن في الأراضي الألمانية، بعد أن تركنا جبال
النمسا، كانت السيارة تسابق الريح وهي تحمل أناسا بلا ملامح.

بعد الفجر بقليل، دخلت السيارة مدينة ألمانية، كان هناك القليل من الناس، أصبح السائق أكثر توترا، أخبرنا أن هذه مدينة أولم، توقف فجأة، وأشار إلى الجهة المقابلة:

- تلك محطة القطار، انزلوا خلال ثوان، هيا.

نزلنا مع أغراضنا القليلة، واختفت السيارة، دخلنا محطة القطار دون أن نلفت الأنظار إلى وجودنا غير الشرعي، اخترت شخصا كبيرا في السن وحادثه بالإنجليزية ليقطع لي تذكرة قطار من الآلة إلى ميونيخ حيث تسكن ابنتي منار في ضواحيها.

حين تكون الأمكنة جديدة نخاف أن نتحرك، نحسب حسابا لخطواتنا، نحسب حسابا لالتفاتاتنا، لكل شخص يمر قربنا أو يجلس إلى جانبنا.

اتجهنا إلى رقم الرصيف، وركبنا قطار ميونيخ، وعلى مدى ساعتين، تصورت السيناريوهات العديدة، حين ألتقي بابنتي منار التي لم أرها منذ ثلاث سنوات، هذا إذا لم تكن لنا الشرطة بالمرصاد وتسوقنا إلى أحد مراكز الإيواء، كانت روعي متعلقة بحمزة، عندما ودعته في مطار دمشق وقت هروبهم إلى مصر، انزويت بعيدا لأذرف بعض الدموع، ركض نحوي، عانقني، أحسست به رجلا قبل أن يكبر، رأيت فيه طفولتي التي لم أعشها.

خرج مني نداء دون وعي:

- همزة.

التفتت إليّ رنده بعينين دامعتين وقالت:

- اشتقت إليه؟!

لم يكن اشتياقا بمعنى الكلمة بل كان لازمة حياة.

حين زرت أمي في مشفى المواساة، حيث كانت تعاني من مرض السرطان، قالت لي وقد بدت قوية على غير عاداتها:

- اسمع صبحي، أنا أعرف أنني لن أعيش طويلا، لكنني لست خائفة من الموت، لا تظن لحظة أن فتاح أغلى منك، حين أذهب إليه سأتركك وهذا ما يؤمنني.

لم أستطع البكاء أمامها، ذهبت إلى الحمام وبكيت حتى جفت دموعي، وحين عدت، كانت في أضعف حالاتها، نظرت إليّ بعين خبيرة وقالت:

- أعرف أنك حنون، خرجت وبكيت، لكنني يا ولدي أريد أن أقول ما بداخلي، يصعب عليّ فراقك، لكنني سأفارقك.

كلما اقترب القطار من ميونيخ أرى أنني أعانق منار وأولادها مايا وشام وهمزة، أقبلهم ويقبلونني، أعانقهم ويعانقونني، أنسى خوف قارب المطاط وركوب البحر، والأجساد المقدسة على ظهر السفينة من جميع الأعراق، تحت شمس حارقة قبل أن تأخذنا البارجة الإيطالية.

في محطة ميونيخ الكبيرة، كانت عناصر الشرطة تجوس المكان، وسمعت قبلا إذا شكوا في أحد المهاجرين غير الشرعيين يسوقونه إلى قسم الشرطة، يجردونه من ملابسه، خشية أن يكون عنصرا إرهابيا، وإذا رأوا أنه هارب من الموت يرسلونه إلى أحد الهايات ليسجل فيها ويبصم بأصابعه العشرة على أنه مهاجر غير شرعي.

في تلك المحطة الكبيرة اندمجت مع كتل بشرية من أعراق مختلفة، كأنها محطة نهاية العمر، كأنها الساعات الأخيرة؛ حين يعرف الإنسان مصيره، يتذكر حياته في ومضات، كشريط سينمائي، يعيش حياته مرة أخرى في لحظات، يفرح ويحزن قبل أن يفارق هذا الوجود.

بدا اليأس على قسّمات رندة، وهي تحتضن عليا ومحمدا، وكان إمام على مقربة منا يدخن، لا أحد يعرفنا في هذه المحطة، حيث السكك تسير نحو المجهول، وحيث الأكشاك المنتشرة تعج بالمشتريين، الجميع يركض، الجميع ليس لديه وقت، الجميع لا يرد على تساؤلات الآخرين، الجميع مشغول كأنهم آلات برمجت نحو أهداف محدده، وبعد جهد جهيد استطعت إقناع أحدهم، وكان شابا سمحا يتكلم الإنجليزية بطلاقة أن يشتري لنا بطاقات قطار إلى روزنهايم حيث ستكون ابنتي منار في انتظارنا، ودلنا أيضا على رقم رصيف القطار ولوح لنا بيده حين صعدنا القطار.

ليلة نلت شهادة الماجستير، أقامت أمي وليمة فاخرة للأقارب والأصدقاء، حيث أوصت الجزار بصنع صفيحة - لحم بالعجين - مع سطلين من اللبن الرائب من جارنا اللوباني البقال، يومها رأيت الفرحة في عيني أمي كما لم أرها منذ زمن بعيد، وبين الحشد الذي كان مشغولا بالطعام اقتربت امي مني وهمست في أذني:

- لو كان فتّاح حيّا لرقص حتى الفجر.

كان في عينيها دموع رغم فرحها.

نزلت في محطة روزنهايم، ولكنني لم أجد منار في انتظارنا، استعرت من أحد المارة هاتفًا خليويًا وهاتفتها فلم ترد.

توقفت في المحطة تائها حزينا، ثم فكرت أن أستقل سيارة أجرة إلى عنوانها، أخرجت العنوان من بين أوراق المبعثرة كحياقي، واتجهت إلى موقف التاكسي، وكانت المفاجأة... أمام صف سيارات التاكسي، وجدتها كالحلم، كان حمزة يرافقها، لم أصدق عيني، صرخت بأعلى صوتي:

- منار.

استهجن المارون صراخي، رندة لم تكن قد رأتها بعد، قالت وهي تسير خلفي:

- هل جنت؟

قلت مازحا:

- ما رأيك لو قدّم لك المجنون منار بشحمها ولحمها؟

- أنت تحلم، لقد ضعنا.

أمسكتها من يدها وأشارت إلى منار القادمة إلينا، حيث رأتنا في تلك اللحظة.

ركضت، زحفت، ببطء، بسرعة، لا أعرف، في تلك اللحظة لم أدرك الأشياء على حقيقتها، شعرت أنّ رنّدة سيغمي عليها، رفعتها، ركضت منار نحونا واحتضنتنا مع حمزة.

فاضت العواطف، غمرت الشوارع والأبنية، لم أكن في الأرض أو في السماء، كنت في عالم آخر، بين النجوم، بين أجراس الكنائس، بين مآذن دمشق، بين الموت والحياة، لا أدري كم عناقاً حدث، كم قبله، كم دقة قلب، تلك اللحظات هي شيء من السحر؛ كأنها غسلت تعب هروبنا، غسلت أحزاننا على أبي وامي وفتاح وعطية وصباحية وبدرية ونظيرة، غسلت أدران الماضي، لو عشت تلك اللحظات من قبل لعادت حياتي خالية من الهموم والأحزان.

ذات ظهيرة، شربت من حنفية الماء قرب الجامع الأموي، ثم غسلت وجهي بحفنة ماء باردة من بردى.

كان هناك شيخ ينظر إليّ ويتسم، ثم قال:

- ماء الشام دواء لظمأ النفوس.

- صدقت يا شيخ، ودواء للأرواح المتعبة.

عادت إليّ الروح، حين جلس حمزة إلى جانبي في رحلة قطار قصيرة إلى كومباور حيث البيت، كان يرحب بي بكلماته البريئة الصادقة، كيف لا، ولم أكن أريد من هذه الدنيا سوى لقائه، مسحت على شعره الأشقر، ونظرت إلى عينيه الزرقاوين، دخلت عالماً سحرياً، من البراءة والنقاء، كانت ابتساماته بلسماً لجراحي.

قلت الجملة المعهودة:

- أأنا في حلم؟

واحضنني حمزة من جديد وأجابني:

- بل في علم.

كالكبار كان رده، هل الحروب تغير الكبار والصغار، الحرب جعلت مني إنسانا آخر، أما حمزة والصغار أمثاله، فساروا في طريق آخر غير الذي رسمناه لهم، إنها بلاد جديدة، وحياة جديدة، نحن نبدأ من حيث انتهينا، وهم يبدأون من حيث بدأوا.

نمت الليلة الأولى، وكأني أنام في سرير في اليرموك، لم أشعر إلا في الصباح، وقد شلحت تعب اجتياز الصحراء وعناء السفينة والبارجة.

أردت القول إنني لم أفارق تلك الليلة دمشق، لكنني حين نظرت من النافذة، رأيت شارعاً آخر رأيت كنيسة أمامي، رأيت وجوهاً غير أصحابي، رأيت هدوءاً، كان بإمكانني النوم في هذا الهدوء ليل نهار.

ذات ليلة، كنت صغيراً، وكنا جميعاً في زيارة عمي محمد خير، في شارع ٢٩ أيار، كنا فقراء، كان غنياً، في تلك الليلة ضعت في شارع مليء بالسيارات، استهوتني السيارات، فعبرت الشارع وفقدتهم، أخذني شرطي إلى المخفر واشترى لي شوكولا وبسكويت، وأجلسني على طاولة مرتفعة، وبدأ بمداعبتني، تذكرت أهلي فأخذت أبكي.

هذا المكان يشبه ذلك المكان، إنه الضياع بعينه، لكنه ضياع الكبير، الذي يعرف ضياعه، وليس ضياع الصغير الذي لا يعرف ضياعه.

بعد الليلة الأولى أحسست بضياع من نوع آخر، الضائع ضلَّ الطريق، لكنني قدت نفسي بإرادتي نحو هذا الضياع.

أين أنت يا دمشق؟

سرت في شوارع كولبامور الجميلة الهادئة، وقفت إلى جانب النهر قرب مقبرة لجنود قتلوا في الحرب العالمية الأولى، لو بكيتم دموعاً

بعدد قطرات النهر لن تعود دمشق، ولن أعود إليها، هنا أحسست بخطاي في هذا الضياع الإرادي، كأنهم دفعونا نحو هذا الضياع، ونحن أصبحنا عبيد هذا الضياع، الفكرة تقول، اترك بيتك أو مت، هاجر نحو اللامكان، عد إلى الضياع من جديد، شعرت أننا كنا أدوات في يد الغير، كأننا دمي يركونها متى يشاءون وهم يتسمون، لم أعد أقوى على الوقوف، جلست على حصي النهر، كان حمزة يرمي الحصى نحو الماء، تصنع الحصى دوامات الضياع، دوامات ليس لها نهاية، كأنني كنت في إحدى الدوامات، في قلب الضياع.

هل فات الأوان يا دمشق أن أراك من جديد، هل في العمر بقية لذلك الزمن، هل أعود لأرى صباحك وليلتك وشمسك وقمرك، أراك كصبيبة تلتقي مع من تحب، أراك حلما وسحرا ودلا، حين أراك لن أعود إلى دوامات الضياع، سأبقى قربك حتى لو تمزقت إلى أشلاء، أشم فيك رائحة طفولتي وشبابي وأفكاري التي صبغتها على الورق من روحي، حين كنت تنامين قبل الفجر بقليل.

انهضي يا دمشق، انهضي، نزييف جرحك هو نزييف جرحنا، وألمك هو ألمنا، وعويل نسائك هو عويل نساءنا، انهضي يا دمشق، أنت حية منذ الأزل وستبقين حية إلى الأبد.

كانت الدوامات تكبر كلما رمى حمزة حصي أكثر، أخذت أغوص في تلك الدوامات، يصطدم ماضي مع حاضري، يؤلفان ضياعا آخر، تندس فيه ذكريات دمشق، لترينني من دوامات الضياع.

كنت أقف على سفح جبل قاسيون، نظرت إلى دمشق المضيئة، أحسست بألم فظيع في رأسي، أردت أن أقول لأمي التي ماتت منذ سنين:

- أُمي ماتت، وأنت أُمي التي لا تموت.

دمشق هي أُمي التي لا تموت.

الآن تركت أُمي تحت التراب، وأُمي التي لا تموت تقاوم الجراح.

قلت وأنا أغوص في تلك الدوامات، إنني ولد عاق، من يترك أمه التي لا تموت من أجل ألا يموت، في بلاد لا يعرف لغتها، لا يسير فيها البشر مع البشر، بل يسرون مع كلابهم، وكأنهم تركوا أصدقاءهم من أجل صداقة الكلاب.

- هل هم على حق؟

سؤال سألته لنفسي.

يبدو أن بعض الكلاب أو جلها أفضل بكثير من بعض البشر، الكلب يسير معك، يصادقك، يأتمر بأمرك، وكثير من البشر يغدرون بك، حين يلمسون المال أو الضعف.

وهذا ما حدث لأمي الثانية دمشق، في صباح رمادي بارد، قلت لابنتي منار:

- في النهاية سأسلم نفسي إلى أحد مراكز إيواء اللاجئين، أو ما يسمى بالهايم.

- ولكنك متعب يا أبي، ارتح عدة أيام ثم تسلّم نفسك.

- أنا لن أرتاح بعد الآن.

- لم يا أبي؟

نهضت، نظرت إلى المارة وهم يضعون أيديهم في جيوبهم بسبب برد ذلك اليوم الرمادي، وقلت بقهر:

- هنا، ليس لي اسم، ليس لي ذكريات، ليس لي أصدقاء، كتبي سرق، بيتي سرق، أحلامي سرق، لم يعد لي شيء، لم يعد لي شيء.

أخذت رندة تصرخ في وجهي:

- لماذا جئت إلى هنا؟! ابق هناك لتموت موتاً مجانياً، ابق هناك لتقطع يديك أو قدميك، ابق هناك لتموت من الجوع كالآخرين، أنت هكذا لا يعجبك شيء.

اقتربت منها بيأس وقلت:

- أنا هكذا دوما.

بقيت يوما أفكر في هذه الجملة، أنا هكذا دوما، توصلت بعدها إلى أنني سأبقى هكذا، إن تغيرت لن أكون أنا، سيكون غيري، وهم يريدون أن أكون غيري، أتحدث بلغة لا أفهمها، أقرأ غير كتبي، أنام في غير سرير، ألبس غير ملابس، أصادق غير أصدقائي.

أنا هكذا دوما، ولن أكون إلا هكذا دوما، ستذهب روحي يوما نحو بيتي الذي عشت فيه، تمشي على رصيفي، تتحدث مع أصدقائي، تقرأ كتبي، تجلس أمام كومبيوتر، حتى لو لم أكن هناك سأكون هناك.

إن لم أكن هكذا سأنسى، وحين أنسى لن أكون أنا، سيكون واحدا آخر غيري، لا أعرفه ولا يعرفني.

تلك هي الحكاية يارنودة، قلتها لها وخرجت أهيم في شوارع لم أعرفها من قبل.

نامت أمي ذات يوم، يومين كاملين حين كانت مريضة، وحين استيقظت قالت لي:

- كنت في عالم الأموات، كأنني لست أنا، صبية جميلة يعشقها الشبان، رأيت أبي وأمي وهم صغار أيضا، وأنا بعمر، لم يكن هناك بيوت ولا أبنية، كان هناك ضباب كثيف في غابة جميلة، كنت أريد البقاء هناك، لولاك رأيت فتاح، كان صغيرا جدا كطائر جميل، كان يناديني باسم آخر لم أعد أذكره، كانوا فرحين مبتسمين، لم يكن هناك دموع، لم يكن هناك أحزان، كانت حياة من نوع آخر، حياة أقرب إلى فرحة الطائر حين يطير للمرة الأولى.

كان النهر يجري ضحلا صافي الماء، وكنت أنظر إلى الحصى الأملس في قعره، أرى الوجوه التي أعرفها والتي لا أعرفها، أدقق في تلك الوجوه، أشاهد حياة أمي، ذلك الاتصال بيني وبينها لم ينقطع، وكأن روحينا مرتبطة ببعضهما.

لم تكن ابنتي منار على وفاق مع زوجها، ما حدث كانت رواسب من الماضي في الشام أو في مصر، أردت فهم ما حدث، لكنني وصلت إلى حائط مسدود.

قلت:

- أنت أدري بمشكلتك، افعلي ما تريه مناسباً.

جلست أفكر فيما قالت لي أمي، كانت حالة فريدة من الانتقال من عالم الموت إلى عالم الحياة، وأخيراً اقتربت منها وسألتها:

- أكنت تحلمين يا أمي؟

- ليس حلماً، إنه حقيقة، قبلت نظيرة وبدرية وصباحية وفتاح وعطا، احتضنتهم، شممت رائحتهم، الأم تعرف رائحة أبنائها، لا، لم يكن حلماً، إنه حقيقة.

قلت لابنتي منار:

- يجب أن أسلم نفسي، إذا أمسكتني الشرطة بدون أوراق رسمية، سأقف عارياً أمامهم؛ خشية أن أكون إرهابياً، سأرفض خلع ملابسي، فلم يبق لي إلا الحفاظ على سرية جسدي، بعد أن فقدت أسرار حياتي كلها.

وجاء سامر، أحسست أن يده الباردة حين ودعني في دمشق ما زالت باردة، أحسست أن لقاءنا ما بين الوداع واللقاء هو أعوام طويلة لا حصر لها، أو أنه لحظة من لحظات الموت، أخذت أبكي وهو يعانقني، لم أبك أمامه أبداً إلا في ذلك اليوم، كانت رندة خلفي تذرف دموعها بصمت.

استمر يعانق عليا ومحمدا لحظات بل ساعات، بل أيام، لم يبك حين عانقني بل بكى حين عانق أخويه، بكى كما لم أره من قبل، وبدا إمام صلباً، فلم يرف له جفن حين احتضن أخاه سامر.

قلت لأبي حين عدت من السعودية:

- كيف قضيت أيامك وحيداً؟

رداً على الفور:

- لم أكن وحيدا، كنت أرى ألبوم صورك، أخاطبك وتخاطبني،
صورك كانت تكلمني، سوف تقول إنني مجنون، لا يهم، المهم أننا
كنا نتحدث يوميا كما لو كنت أمامي، لم يكن معي همزة قرب النهر
في هذا اليوم الرمادي البارد، كنت أخاطب نفسي تارة، وأعود إلى
ذكرياتي تارة أخرى، حين كنت في اليرموك، لم أكن أحس بالكآبة،
كانت الكآبة تمر للحظات ثم تذهب، هنا كآبة من نوع آخر، كآبة
المنفى، كآبة الانفصال عن الأشياء التي تحبها، كآبة الروح الباردة،
كآبة عدم الانتهاء، وكآبة الطرق المسدودة.

سرت على ضفة النهر، كان البط البري يسبح بسعادة، لو أنني
واحدا منهم لكنت سعيدا، لكن احتكاك الحصى تحت قدمي يجعل
البط يتعد خائفا.

اقترب أيها البط، أعطني شيئا من سعادتك، أعطني مفتاح سعادتك،
ثم اتركني.

تأملت البط طويلا، ثم بدأت أرتجف من البرد والجوع، لم يكن بردا
بمعنى البرد، ولم يكن جوعا بمعنى الجوع، كان البرد داخل الروح،
وكان الجوع داخل الروح، كأني انفصلت عن نفسي، عشت لحظات
الانفصال، ثم عدت إلى واقعي.

تدثرت بغطاءين وأنا أرتجف، وضعت منار يدها على جبهتي
وصرخت:

- أبي محمود.

لم أع إلا هذه الكلمة، ثم سبحت في رؤى وأشياء لم أتوقع رؤيتها:
هنالك أقزام يرقصون في شارع مبتل، كنت أسير في ذلك الشارع،
وحين أدخل شارعا فارغا يعودون للرقص أمامي، كانوا يصيحون،
أسنانهم طويلة، وقد خرجت من أفواههم، يخلع أحدهم سنه ويلوح
به كالعصا أمامي، حين أراجع أتقدم نحوه، فيلتصق بي، ويضع
طرف سنه في عيني، يخرج عيني، تصبح عيني كرة، يلعب بها
الأقزام، أركض خلفهم لأستردها، يهربون، تكبر العين، تصبح بالونا

كبيراً، يدخل الأقزام البالون، يطير بهم في الهواء، يرتفعون، أصرخ:
- أعيّدوا لي عيني.

فلا أسمع إلا ضحكاتهم البلهاء كالصدى.

لم تتركني الكوابيس والأحلام المجنونة خلال أيام الحمى الثلاثة،
كنت خلالها في عالم آخر، عالم ليس له ضفاف، عالم مجنون،
وأشخاص لم أعرفهم، وأماكن لم أزرها، كأن الكوابيس وتلك الأحلام
هي عالم مختلف عن عالمنا، عالم ليس له بداية، وليس له نهاية،
كانت رنّدة حين تقترب مني أراها وحشا خرافياً، له قرنان عظيمان،
أو امرأة ذات أسنان حادة تصل حتى الأرض، أما ابنتي فقد رأيتهما
عجوزاً، تحمل شوكة تغرزها في صدري عند الذهاب والإياب، أما
علي ومحمد فقد كانا طائرين أسودين، يحطان فوق شجرة لا أوراق
فيها، أغصانها تتحرك كالأيدي.

لم أعد أطيع الكوابيس، كنت أصرخ بملء فمي:

- اذهبي عني أيتها الحمى.

وجاءت الحمى على شكل امرأة، وجهها أحمر، وشعرها أحمر،
وعينيها حمراوين، وجسدها يشتعل نارا، قالت لي:

- سأذهب عنك، ولكنني سأعود إليك.

نهضت وأكلت وجبة دسمة بعد الحمى.

قلت لمنار:

- كان جدك يحب الأكل الدسم، رغم نحول جسده، كان يأتي
بعد عمله بقطع اللحم المليئة بالدهن، ويقلبها وهو يلبس الكلسون
الطويل، كان أبيض البشرة، محمر الوجه، هادئ الطبع إلا إذا أثارتها
جدتك، ضحككت ابنتي وهي تملأ لي الصحن بعد الآخر، وبدت
رنّدة في أتم سعادتها، وهي تنظر إليّ، قالت:

- صليت لربي حتى تعافيت، خفت عليك.

- من الموت.
- لا تقل هذا.
- رغم أنني حي أشعر أنني متُّ حين تركت كل شيء، أنا أشبه
الأموات.

غصت الفرحة في حلق رندة، دمعت عيناها، أحسست بالذنب،
مسحت على شعرها وقلت:

- يكفي أنك معي.

وابتسمت من خلال دموعها، لم يكونوا يفعلون شيئاً في اليرموك
أو دمشق، كانوا يجلسون في شوارع لوبيه وفلسطين واليرموك بلا
هدف، يربطون رؤوسهم بخرق بالية، يبيعون المازوت أو الغاز، لم
يدخلوا مدرسة أو مسجداً، تراهم يعرفون كل شيء دون أن يعرفوا
شيئاً، في غالب الأحيان، يربون الحمام على أسطح منازلهم المهلهلة،
ويضعون على آلات تسجيلهم أغنيات شعبية تملأ النفس غثياناً،
يصرخون ويغنون في أزقة المخيم، نهارهم ليل، وليلهم نهار، تراهم في
المربع الليلية إلى جانب الرقصات، مرة يخلقون ذقونهم، ومرة تبدو
ذقونهم أطول من شيخ طاعن في السن، لهم مصطلحات خاصة في
اللغة، لا يفهمها إلا هم، كلامهم صراخ، وضحكهم عواء، وحياتهم
هباء، وهاهم اليوم يحملون السلاح في اليرموك، ظهرُوا كأشباح، فلم
يعد هناك أمان حتى في منتصف النهار، نعمة الأمان لا يعرفها إلا من
افتقدها.

عليك السكينة أيها اليرموك، تنفست هواءك، وشربت ماءك،
وأكلت غذاءك، كنت حياتي فأصبحت مماتي، أريد العودة إليك، ولكن
بيني وبينك بحار وسهول ومدن لا تتكلم لغتك، بيني وبينك جبال
من الرصاص وهضاب من القذائف، وأنهار من الدماء، بيني وبينك
جثث ملقاة على الطرقات، أو دفنت على عجل، بيني وبينك أجساد
تموت من الجوع، وأطفال يكون الأثداء الميتة، بيني وبينك جبال من
الذكريات بيني وبينك عشق المكان، بيني وبينك نجاح وفشل، بيني

وبينك ألم وفراق، بيني وبينك كما بين روحي وجسدي، بيني وبينك شيء لا يمكن أن يقتله الرصاص، ولا يمكن أن تفجره أعتى القنابل. إنك أنا وأنا أنت.

ذات صباح حزمت أمتعتي القليلة وابتني نائمة، وحين رأتني قالت بدهشة وحزن:

- إلى أين يا أبي؟

- أخشى أن يفرضوا عليك غرامة مالية إن وجدونا عندك بشكل غير قانوني.

- سامر يعرف موقع الهايم، جاء عندي حين كنت هناك، ابق يومين فقط، لم أشبع منكم.

كان علي ومحمد يلعبان مع حمزة ومايا وشام، يصرخون ويغنون ويلعبون.

ابتسمت ابتني وقالت:

- دعهم سعداء لبعض الوقت.

- لم يعد هناك مكان للسعادة يا ابتني، حين يخطو الإنسان خارج بيته، تبقى السعادة هناك ولا يأخذ معه سوى التعاسة.

في ذلك الصباح خرجنا إلى الحديقة، كانت الشمس تطل من بين الغيوم خجولة باردة، شربنا الشاي وأكلنا المكسرات، وتحدثنا عن الذكريات المؤلمة والمفرحة، تلك الحياة صارت من الماضي السحيق، وتساءلت حينها ونحن نتحدث:

- هل الخوف على الحياة أثمن من المال والأصحاب؟!

وخلصت إلى فكرة؛ أن ما جعلنا نترك كل شيء، ليس الخوف بحد ذاته، بل العجز أمام إناس ليس لهم عقول تعقل، ولا آذان تسمع، فالرصاص قد صمَّ آذانهم، والقذائف أذهبت عقولهم، وحين يجتمع الخوف والعجز، يصبح الإنسان بلا قيمة، بلا عقل، مثل أولئك

الذين يقتلون دون رحمة، تستوي الأشياء أمام هؤلاء وهؤلاء، الذين يقتلون لا قلوب لهم، والذين يُقتلون يموتون من الخوف أو العجز، أو كلاهما معاً، لم أكن أدري ماهي تلك المعجزة الشيطانية التي غيرت العقول، غيرت الناس من بشر إلى وحوش، تساءلت كثيراً، اقتربت أن أعي الحقيقة، لكنها ابتعدت عني بعدي عن دمشق.

بعد عودتنا من الحديقة، نمت قليلاً وحلمت بأبي، كان ضحكا سعيداً، تبدل شعره الأشيب إلى أسود، وغادرت التجاعيد وجهه، كان يلبس ثوباً أبيض فضفاضاً ويجلس على كرسي وثير.
سألته:

- أهى الجنة يا أبى؟

ابتسم وقال:

- بحثت عن أمك فلم أجدها، فوصلت إلى هذا المكان.

- لم تجبني، أهى الجنة؟

- أنا سعيد هنا، لكنني وحيد، لم أر أمك ولا فتاح.

فجأة، بدأ أبى نقطة ضوء بعيدة، ثم اختفى، بحثت عنه، فى الضوء والعتمة، فلم أجده، كانت هناك وجوه كثيرة، بعضها بائس وبعضها فرح، تعبت وأنا أبحث، ولم أجد نفسي إلا وقد نهضت فى أول المساء، لم يكن هنالك وقت للدموع حين غادرنا صباحاً بصحبة سامر إلى مركز إيواء اللاجئين فى ميونيخ.

قلت لابتني قبل أن تنزل دموعها:

- نحن الآن فى بلد واحد، لا تخزنى.

قد ورغم ذلك سقطت دموعها، لم أبك لحظتها، لكنني بكيت فى القطار الذاهب إلى ميونيخ، وقد خبأت وجهي حتى لا يراني أحد، كان كل من علي ومحمد صامتين، أما رنده، فقد كانت مهمومة، وإمام كان فى عالم آخر.

حكى سامر نكتة ليغير جو الصمت والحزن، ضحكنا بشفاهنا لا
بقلوبنا.

في محطة ميونيخ الرئيسية، رأيت أناسا من جميع الأعراق، يركبون
القطارات، إلى معظم الاتجاهات، كنت في عالم سحري، مليء بالألغاز،
مليء بالمفارقات، ومليء بالمفاجآت، على باب مركز الإيواء، ودعنا
سامر، خشية أن يعتقدوا أنه آوانا.

خطواتنا الأولى كانت نحو المجهول، نحو حياة جديدة لا أعرف
نهايتها، ولا أعرف شكلها.

قلت لحارس المركز داخل الكولبة كلمة واحدة:

- أُرّول. أي مهاجر.

أشار لي بالدخول.

كان المركز مدينة كبيرة، فيها عدة أبنية، أوصلنا شرطي إلى البناية
التي ينتظر فيها المهاجرون الجدد إثبات شخصيتهم، دخلنا صالونا
كبيراً فيه أصناف بشرية من جنسيات شتى، يجلسون على الكراسي،
أو ينامون على الأرض أو يتحدثون بالهاتف، أو يقومون بلف السجائر.
جلست، أحسست أنني في صحراء لا أحد فيها، تأملت من حولي،
كل مشغول بحديثه الخاص، جاء علي وقال:

- أبي، أنا جائع.

سمعه أحد الأشخاص الواقف قربنا، ذهب ثم عاد ووضع كيساً
من الطعام أمامنا فيه خبز ومعلبات وقال باللغة العربية:

- كلوا؛ فأنتم متعبون وجائعون.

كان من فلسطين المحتلة، وخرج من صالون الانتظار ليتيح لنا أن
نأكل دون إحراج، انتظرنا طويلاً، حل المساء ونحن ننتظر، تعبنا من
الانتظار، كنت أنام وأصحو فأرى الوجوه نفسها، وتعابير الوجوه
نفسها، ثم ما لبثت الوجوه أن تجددت لتدخل في دائرة الانتظار، إلى أن
حل الليل وقد ملّنا الانتظار، وقبل منتصف الليل بقليل، جاءت

شرطية ألمانية قادتنا بأدب نحو غرفة مستطيلة فيها ثلاثة شرطين، أخذوا بصمات أصابعنا العشرة، والتقطوا صوراً لنا، ثم جاء شرطي آخر قادنا إلى غرفته حيث أعطى لكل منا غطاء للنوم، وكيساً من الطعام، ثم خرج معنا وأشار لنا بالذهاب إلى مبنى رقم ٥٨ حيث تقع غرفتنا، سرنا حوالي مائتي متر، عادت دوامات حمزة، عدت لا أعني ولا أفهم شيئاً، كانت الدوامات شديدة، أخذتني إلى أعماق لا أتوقعها، توقفت قرب شجرة كبيرة، قالت رندة متعجبة:

- ما بك؟

- تعبت.

مرت امرأة من جانبنا، أقبلت مبتسمة:

- أنتم من سوريا؟!

أجابتها رندة:

- نعم، جئنا الآن ونبحث عن البناء رقم ٥٨.

- حمداً لله على السلامة، اتبعوني سأدلكم عليه.

وقادتنا نحو البناء، وتمنت لنا ليلة سعيدة، واختفت كما ظهرت.

تمت:

- هذه المرأة ليست إنسية، إنها جنية صالحة.

ضحكت رندة ونحن ندخل غرفتنا بعد خروج الشرطي الذي سلمنا الغرفة، وكأننا في فندق إلى جانب طريق سريع.

نمت دون أن أشعر، بسبب تعب الانتظار، وفي الثالثة صباحاً أضيئت الغرفة، ووقف شرطيان في منتصفها وطلبا منا الأوراق التي سجلونا فيها وعليها صورنا في القسم الأعلى من الأوراق، ثم انسحبا وأطفأ الضوء.

جلست أنظر إلى رندة التي بدت متعجبة الموقف، لم تتكلم، انخرطت فجأة في البكاء بصوت ضعيف حتى لا يصحو الأولاد، وضعت الغطاء

فوقي، وحلمت دون أن أنام، كان الغطاء بساط الريح، أخذني إلى بيتي، لم أسمع أصوات قذائف، جلست خلف مكتبي لأكتب أفكاري خلال هذه الرحلة السندبادية، وفجأة أخذت الكتب خلفي تشتعل واحدة واحدة، وسمعت صوت الحريق يهمس لي:

- حروفك احترقت ولم تعد تقوى على الكتابة.

ذاب المكتب تحتي، أصبح رمادا، عَجَّ مكتبي بدخان أسود، نظرت إلى نفسي في مرآة الحائط، كان نصفني رمادا ونصفي دخانا.

خرجت صباحا مع رندة وأولادي لنقف في طابور طعام الإفطار، شعرت أنني متسول أبا عن جد، هنا تقف مع أجناس وأعراق وحدتك معهم المصائب، تشعر أنك كنت هنا منذ زمن بعيد، وستبقى هكذا إلى أبد بعيد، لا تحاول أن تحبى رأسك أو تحفضه، ولا تحاول أن تسير بخطوات مترددة بطيئة، انظر إلى الوجوه المتعبة حيث تبادلك النظرة نفسها.

جلست على إحدى الطاولات، بعد أن جلب كل منا صينية طعامه، كنت أشعر بذل واستكانة، أحاول البكاء فلا أستطيع، أحاول الصراخ فلا أستطيع، أحاول أن أقف على إحدى الطاولات وألقي خطابا حماسيا عن الحرب، عن بتر الأعضاء، عن قطع الرؤوس، عن البراميل المتفجرة، عن الذين يموتون جوعا، عن الذين يعيشون في خيام الذل، عن سبايا النساء، عن المخطوفين، عن الوحدة العربية، عن سوق الحميدية، عن الجامع الأموي، وقلعة حلب، وقلعة الحصن، عن البحر والصحراء والسفينة والبارجة.

خرجت مسرعا وتقيأت طعامي في الحديقة، صعدت فوق أعلى شجرة في مركز الإيواء، نظرت إلى الأفق، كانت هناك رؤوس تتطاير في الهواء، وجثث مستلقية على الأرض، حامت الطائرات فوق الشجرة، دخلت واحدة في أذني ثم خرجت من الأخرى.

سقطت على الأرض، تغفر وجهي بالتراب، انتشلتني رندة:

- سقطت من فوق الشجرة.

- أي شجرة، كنت تسير فتعثرت.

نظرت إلى رندة، كانت أجمل نساء العالم، اقتربت منها، حاولت
تقبيلها، ابتعدت وقالت بانزعاج:

- ما بك، جنتت.

- أأست امرأتى؟

وسارت نحو الغرفة هي والأولاد، نفضت الغبار عن ثيابي،
ونظرت إلى الشجرة العالية حيث كنت هناك، كانت رندة قد خلعت
ثيابها، وجلست على السرير تتظنني، كان جسدها الأبيض البض
ينضح أنوثة، مدت يديا لتعانقني، اقتربت منها، كانت ضبابا، بلغ
جنوبي أوجه حين لم أقدر على لمسها، درت في أنحاء الغرفة، أطل عليّ
من تحت الغطاء وهو يضحك، وأطل محمد من زاوية الغرفة يلوك
لسانه، أما إمام فقد نظر إليّ نظرة صارمة وعاد للنوم، درت في أنحاء
الغرفة أصرخ، لم يسمعني أحد.

رندة، لم يعد جسدي لي، لم أأمسك منذ فترة طويلة، أنا إنسان،
أأشتاق إلى جسدي.

واأستمر صراخي فترة طويلة من الزمن، لم أر أولادي، لم أر زوجتي،
لم أر نفسي، وجدت نفسي أأدور في حول جذع الشجرة العالية نفسها،
وبعض أطفال المهاجرين ينظرون إليّ والدهشة في عيونهم، سرت
مع فتاة أحببتها أيام الدراسة الجامعية في حديقة السبكي، قلت لها
بصوت خافت وخجول:

- لماذا ينظر الناس إلينا، أنا لست الوحيد الذي يسير مع فتاة؟!

ضحكت وقالت:

- إنهم لا ينظرون إليك، أنت تنظر إلى نفسك، هذا إحساسك.

خجلت من كلامها، أأمسكت يدها وقلت بصوت عال:

- أأحبك.

نزعت يدها من يدي وقالت:

- بتصرفك هكذا ستجعل الناس ينظرون إلينا.

جلسنا تحت شجرة عالية، والبط يسبح أمامنا في البركة، كان هواء دمشق لطيفا، نمت حينها، وأنا أنظر إلى الفتاة، وحين صحوت لم أجدها، بحثت عنها فلم أعثر لها على أثر.

ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي، سألت عنها، لم يعرفها أحد، نظروا إليّ على أنني مجنون، في البيت نظرت إلى نفسي في المرأة، وقلت لنفسي:

- أنا مجنون حقا؟!

وقفت في الصف أمام المطعم في مركز الإيواء، مددت ورقتي وعليها صورتني أمام الشرطي الواقف أمام باب المطعم، ابتسم في وجهي وسمح لي بالدخول، كان الغضب يغلي في داخلي، حين وضعت اللقمة الأولى في فمي، لم أتصور أنني سأقف في الصف من أجل وجبة طعام مع فقراء إريتريا والصومال وباكستان والبوسنة ومقدونيا وجورجيا وغيرهم، إننا نزحف نحو الطعام كالجراد، وهم هناك يأكلون الأخضر واليابس، ويقتلون الناس، ويهدمون البيوت.

لماذا لا نقف في الصف من أجل جمع رصاص الموت في العالم ودفنه تحت التراب؟! لماذا لا نقف في الصف من أجل أن ندمر الطائرات التي تدمر البيوت وتقتل الأطفال؟! لماذا لا نقف في الصف من أجل حماية ذكرياتنا من الضياع، حدائقنا، بيوتنا، ضحكة القلب، رغيف الخبز، أحلامي؟!

كدت أختنق، وخرجت دون أن أكمل طعامي، خرجت من الهايم أهيم على وجهي، في شوارع لم أطأها من قبل، لم أر شرطة مرور تنظم السير، لم أر سيارة تمر والإشارة حمراء، ولم أر شخصا واحدا يقطع الشارع والإشارة حمراء، كنت أسمع أنه إذا التزمت أمة بقواعد المرور فهذه أمة ناجحة.

نظرت إلى الوجوه، كانت تعبر عن السكينة والهدوء، كانوا يسرون دون أن ينظروا إليك، تخالهم بشرًا أليين، لا يتزاحمون على باص أو قطار، سماعات الهواتف النقالة في آذانهم، ومعظمهم مشغول إما بقراءة كتاب أو تقليب صفحات هاتفه النقال، لم أر أكوام القمامة، كانت هناك حاويات سوداء للقمامة، والشوارع نظيفة، خضراء للورق، وأخرى للزجاج و... لا أصوات باعة جوالين، وهنالك أمكنة لوقوف الدراجات الهوائية، وأشياء أخرى لا حصر لها، عندنا فوضى منظمة، وعندهم نظام منظم، وهذا سر حضارتهم.

عدت من جولتي، بكم من الأفكار، سجلت رؤوس أقلام على ورقة قطار ذاهب إلى المجهول، جلست في غرفتي الكثيفة، أطل من النافذة، وكأنني أطل من غرفة سجن على ساحة سجن، أطفال المهاجرين بيضا وسودا يلعبون، أذهب بأفكاري، أرى أشياء لم أرها، رأيت نفسي في غابة وحيدا، أشعر بالخوف رغم جهالها، كانت مظلمة وباردة، كانت بلا طرق، والأشجار عالية لا أستطيع تسلقها، حتى لو صرخت لن يسمعه أحد، سرت طويلا، ترافقني الأشجار، يرافقني خوفاً، لم يكن هنالك اتجاهات في هذه الغابة، لم يكن هناك شمس ولا دفء، وقفت استطلع المكان، كان مسدودا بجذوع ضخمة كجدران سمكية، تمددت على الأرض، ونظرت إلى نهايات الأشجار، كانت تلتصق بالسماء، سمعت همسا إلى جانبي، كان هناك حفرة في نهايتها ضوء بعيد، نزلت الحفرة، كانت سردابا طويلا، رأيت فيها جنودا مدفونين بأسلحتهم، في عيونهم خوف ما يزال، ازداد خوفاً، أسرعت الخطى، وجدت نفسي بجانب نهر رقيق المياها، تلمع مياهاه تحت أشعة الشمس، كان علينا أن نقف في صف طويل آخر كي نتصور صورة الكثرونية، من أجل فرزنا إلى مركز إيواء آخر أو إبقائنا، حسبما يقرره الحاسب الآلي.

حلمت بالحاسب الآلي يقف إلى جانبي، أخاطبه ويخاطبني:

- أليس لك عقل؟

- عندي عقل أفضل منك.
- أليس لك إحساس البشر؟
- إحساس البشر يعذبهم.
- أليس لك أولاد؟
- أولادي أكثر من أولاد البشر، كنت وحيدا مثلما كان آدم، أما الآن فنحن سادة البشر.
- أليس لك بيت؟
- بيوت الكرة الأرضية مفتوحة لي.
- أليس لك جنسية؟
- لا أحتاج إليها، أتنقل في مدن العالم دون جواز سفر.
- أين سيكون مكاني، هنا أم في إيواء آخ؟!
- هذه أسرار دوله، اخرس.
- واختفى، وكأنه ارتدى طاقة الإخفاء.

التقطوا لنا الصور الالكترونية كمجرمين ارتكبوا أفظع الجرائم، وأخبرونا بالعودة غدا لمعرفة مكان فرزنا الجديد، جلسنا في الحديقة، كانت رنودة كشمس ميونيخ الباردة، التي تطل ساعة وتغيب ساعات، عادت إليّ لحظة التقاط الصورة من جديد، أخذت ملاين الفلاشات يضيء في عينيّ، وكأنها نهر من الرصاص يوجه إلى منتصف رأسي، وتهمس كلمات في أذني:

- أنت مطلوب في جرائم دولية.

دخلت إلى قاعة محكمة، كان القضاة من الدببة والقرود والأفاعي، نظروا إليّ بقسوة، وكان هناك نمر داخل القفص، ودبابة فوق مكتب القاضي، وطائرة تحوم في القاعة، لم أخف من نظراتهم القاسية، بل صرخت فيهم:

- لماذا لم تأتوا بالمجرمين الحقيقيين، أولئك الذين هدموا البيوت وقتلوا الناس، وشردوا الشعوب، أولئك الذين ينبغي أن تلتقطوا لهم الصور، وتنشروها فوق المحيطات والبحار والصحاري، فوق ناطحات السحاب، وفوق الغيوم، أتم تلتقطون الصور لرجل وعائلته هاربين من الحرب وتتركون المجرمين يسرحون ويمرحون، وأخذت حذائي وصرت أضرب بنعله على طاولة القاضي الأكبر؛ الدب الأكبر، وأنا أصرخ في وجهه:

- لعن الله لجان حقوق الإنسان، والمحاكم الدولية، والقضاة والمحامين، الذين لم يحموا الإنسان الضعيف، يلتقطون الصور للضحية ويتركون القاتل، طظ، في محكماتكم غير العادلة، سأبصق في وجوهكم، إن لم تلتقطوا الصور للقاتل لا للضحية، عندئذ، سقطت الطائرة الحربية، وأطلقت الدبابة حممها، فمات الجميع إلا أنا.

ما زال ضوء الفلاش يغبش نظري، لم أعد أرى الشمس ساطعة، والأشجار خضراء، ولا السماء زرقاء، لم أعد أرى وجه رندة بسماحة وجهها وكأبته، لم أعد أرى إمام بعبوسه، لم أعد أرى عليا ومحمدا بضحكاتهم البريئة، أغمضت عيني لأتخلص من ذلك الزيف، سمعت رندة دون أن أراها تسألني بخوف:

- ما بك تنهض وتجلس، أيؤملك شيء؟

- ضوء الفلاش يؤلمني.

سمعت ضحكة رندة وهممة سخرية إمام، قلت:

- نحن غير البشر كلما زاد الضوء ازدادت العتمة.

- أنت واهم.

ردت رندة.

سألتها:

- هل أعجبتك صورتك؟

- لم أرها بعد.

- أنا رأيتهما؛ رأيت صورنا جميعا، كأنها أفيش فيلم كاوبوي أميركي، يضعون أمام مكتب الشريف صور المجرمين، مع مكافأة مالية، للقبض عليهم، مع أن الشريف نفسه ينبغي أن يقبض عليه لجرائمه التي لا تعد ولا تحصى.

- اذهب إلى الغرفة لترتاح.

قالت بعصبية:

- أنا لست متعبا، أنا أعبر عن وجهة نظري.

ولم أكد أنهتني من جملتي إلا ولفت جسدي موجات ضوء الفلاش، مثل كفن أبيض، وجدت نفسي في قطار داخلي، يخترق خضرة من الأشجار والسهول، كأنه حلم جميل، الجالسون يقرؤون كتبهم، بينما انظر من خلال النافذة، ثم أخذت وجوههم تنظر إليّ بغرابة، فهمت نظراتهم، لماذا أنت لا تقرأ مثلنا؟!

قلت لهم بلغتي التي لا يفهمونها:

- قرأت بلغتي كتبا كثيرة، أكثر منكم بكثير؛ قرأت الأغاني للأصفهاني، والأمازي لآبي علي القالي، ومغني الليب لابن هشام، وتاريخ السيوطي، والموسوعة الفلسطينية، وروايات نجيب محفوظ، والبرتو مورافيا، وكافكا، وأشعار غوته وشيلر، واستمعت إلى أغاني فيروز وأم كلثوم وعبد الوهاب، أعترف لكم أن قراءتي لم تفدني شيئا، والأغاني زادتنني ضجيجا، نحن أمة لا تفهم ما تقرأ، ولهذا حدثت الحرب في دمشق، نحن مجرد بشر لا يقرؤون من أجل الثقافة، بل من أجل التباهي، أنا هو إمامكم، صورة مشوهة عن القارئ العربي، التباهي الثقافي، قتلنا جميعا، أنصحكم، لا تقرأوا من أجل التباهي الثقافي، عندئذ، تصبح حضارتكم هشة، ويحدث لكم ما حدث لنا، دمرنا أنفسنا بأنفسنا، ألا خسئت ثقافة لا تهتم بأرواح الناس، نزلت في مكان كثيف الأشجار، أحسست أنني أعرفه منذ زمن بعيد، لا أدري لم انتابني هذا الإحساس، في هذا المكان الجديد الجميل، مشيت بضع خطوات، كنت أسمع وقع أقدامي كطبول تدق بسبب السكون

المطبق، كانت الأشجار عالية وكثيفة الأوراق، حتى أنني لم أر صفحة السماء إلا بصعوبة.

فجأة طارت أوراق بيضاء، والتصقت بجذوع الأشجار، رأيت صورتي على جميع الأوراق، كأني مطلوب حيا أو ميتا، نظرت من خلال أوراق الأشجار، فأخذت الفلاشات الشمسية تخطف نظري، وقفت مكاني، لم أعد أرى شيئا، ثم ركضت خائفا فاصطدمت بجذع شجرة وسقطت على الأرض، كانت هناك ورقة عليها صورتي قرأت تحتها اسمي، صبيح حمود، صرخت، أنا صبحي حماد وليس صبيح حمود، لماذا غيرتم اسمي، مددت الورقة بيد مرتجفة، صورتي بلا اسم، لست أنا الذي خرج من اليرموك حين دخله المسلحون، أنا بقية إنسان آخر، اسم جديد بوجه قديم.

صحوت وأنا ارتجف، ورندة تقول لي:

- صبحي، أنت تحلم.

تطايرت أوراق بداية الخريف وأنا أتمشى في الحديقة الخلفية للإيواء، استوقفتني رجل يجلس على كرسي الحديقة؛ وكأنه ينام على سرير، وبجانبه امرأة تمسكه خشية أن يهرب، كانت دموع الرجل تنقط من أسفل ذقنه بصمت، اقتربت منهما وجلست، سألت المرأة:

- لماذا يبكي؟

- يحق له أن يبكي دما لا دموعا، يبكي وهو نائم، وهو مستيقظ، وهو يأكل، وهو يمشي.

- لم أفهم.

- حين عبر البحر غرق أولاده الخمسة مع أمهم أمام عينيه.

- وأنت من تكوينين؟

- أنا أمه.

ثم صمتت، ومسحت عينيها وأضافت:

- لم يعد لي دموع لأبكي، لو غرقت معهم لكان أفضل لي.

- كيف لم يغرق؟!

- سبح قليلا قبل أن تنقذنا سفينة يونانية، وحين لم ير أولاده وزوجته صار يصرخ، ارموني في البحر، أريد أولادي، ولم يهدأ إلا بعد إبرة مهدئ من طبيب السفينة، أما أنا فأنقذتني خشبة من السفينة التي غرقت، أمر الله، لأعتني به.

يفتح الرجل عينيه وينظر إليّ برية شديدة ثم يقول:

- هل رأيت أولادي؟! كانوا هنا قبل لحظات يلعبون تحت تلك الشجرة الكبيرة.

لم اعد أحتمل هذا الأسى، مثلما لم أحتمل من قبل إطلاق الرصاص في اليرموك، تعقبه القذائف، أسمع مسار القذائف، أحسها تسير في شراييني، ترتعد فرائصي، ويدق قلبي، ثم أسمعها تسقط في مكان قريب، أسمعها تهدم، ترتاح أعصابي قليلا، ثم تعاود القذائف سيرتها الأولى، فأعاود التشنج، حياة ليس فيها إلا انتظار الموت، أو بتر الأعضاء ولا شيء آخر. اقتربت من الرجل، دخلت في عينيه الجنائزيتين، وقلت له:

- أولادك في السماء يلعبون، رأيتهم يضحكون، كانوا حول أمهم، إنهم طيور الجنة، افرح لفرحهم، واضحك لضحكهم. عاد إلى عقله وقال:

- كيف أفرح وأضحك ولم أعد أراهم.

ثم عاد إلى لاعقلانيته وصرخ:

- من حقي أن أراهم.

وأخذ يقفز ويضرب وجهه بيديه، وذهب بعيدا، لحقته أمه مهرولة فزعة.

ما حدث من قبل وما سيحدث، هو ضرب من الجنون، جنون الحرب، وجنون نوبل الذي اخترع البارود، حين وصلت إلى الغرفة في الإيواء، استقبلتني رندة بسؤال لم أكن أتوقعه:

- ظننت أنك ضعت.
- ابتسمت بسخرية:
- بالفعل، أنا ضائع.
- لكنك وجدت نفسك أخيراً.
- نظرت إليها وحبت دمعتيْن في عينيْ:
- لو سمعت قصة ذلك الرجل لأحسست بالضياع.
- اقتربت رنـدة، عانقتني طويلاً، لأن الأولاد لم يكونوا في الغرفة، شممت رائحتها المميزة، نظرت في عينيْ بحزن، أحسست أنفاسها تدخل أنفاسي، همست:
- نحن وحدنا، تعال إلى الفراش، ستشعر بالراحة.
- في الفراش لم أستطع إكمال مهمتي، أحسست بضياـع أكبر، حاولت ضرب رأسي بالجدار، أمسكت بي، لفتني يديها الرقيقتين، وبكت على صدري، بكينا معاً، هذه الأيام لم تعد تلك الأيام، جدران الرصاص والقذائف حالت بيننا، جدران الخوف والبحر، والأحلام المكسورة حالت بيننا، جدران الهروب حالت بيننا، القصص المأساوية التي نسمعها حالت بيننا، كل شيء، كل شيء.
- جاء علي ومحمد ضاحكين وعانقاني، قال محمد:
- أبي، في عينيك حزن.
- كيف تعرف العينين الحزيتين؟
- ليس لهما بريق.
- كبرت وأنت صغير.
- جلست رنـدة، ووضعت يديها في حجرها، وأخذت تستمع إلى الحديث:
- اتركا حزني وقولالي، لم أنتما فرحين؟
- هنا رأيت صديقي فيصل في المدرسة، جاء مع أمه وأخته الصغيرة.

- وأبوه؟

- قال لي، لم يأت، ودعهم وبقي هناك.

واغرورقت عيناه بالدموع، عانقته ومسحت دموعيه وهمست في أذنه:

- أرأيت، إلى جانب الفرح يوجد هناك حزن.

- جاءوا من البحر مثلنا.

- ساروا أياما وليالي في الغابات، ناموا مع الوحوش، أمسكتهم الشرطة مرات عديدة وإعادتهم إلى تركيا، وفي النهاية وصلوا.

قال علي:

- تجدد جلد قدمي فيصل بسبب السير حافي القدمين.

أخذت رندة تبكي بصمت وأدارت وجهها كي لا نراها.

قلت:

- سنزوره جميعا.

عانقاني، همس علي في أذني:

- عيناك تلمعان فرحا يا أبي.

لم أتصور حين رأيت أم فيصل ذلك الشبه الكبير بينها وبين من أحببتها عندما كنت طالبا في الجامعة في كلية الآداب قسم اللغة العربية، كانت من مدينة حمص، صرت اسهر الليالي الطوال لأكتب محاضرة في النقد الأوربي، من أجل إلقائها أمام الطلاب بوجود دكتور المادة، كل ذلك من أجل أن ألفت نظرها، لكنها لم تكن تهتم بي.

ذات مرة اقتربت منها قائلا:

- كيف كانت محاضرتي؟

نظرت إليَّ باستغراب قائلة:

- أنا لا أتحدث مع الشباب.

وسارت بعيدا، كانت تدوس على قلبي كلما سارت خطوة.

قلت لأم فيصل:

- أين زوجك؟

- مازال هناك في اليرموك، خرجت، لأن أولادي لا يهتمون أصوات القصف ولا إطلاق الرصاص، أخت فيصل ميسا أصيبت باليرقان من الخوف، ونجت من الموت بأعجوبة، تركت زوجي وأخذت أولادي وهربت، لم يعارض، وصلت تركيا ثم بلغاريا مشيا على الأقدام، ثم ركبنا ثلاثة أيام في شاحنة بين الصناديق، حتى وصلنا إلى هنا.

- أريد رقم جوال زوجك لو سمحت.

- لن تقنعه بالمجيء إلى هنا.

- لا أريد إقناعه، أريد أن أشد على يديه، زوجك أشجع منا جميعا، من يهرب من بيته لا يستحق الحياة.

لم تجب المرأة، بكت طويلا حتى لم يعد بمقدورها البكاء، وحينها قالت:

- لو خيروني بين البقاء والعودة لاخترت العودة، لكن الحرب لم تنته.

- سنعود.

- لن يعود أحد، ما يجري هو من أهوال يوم القيامة.

أخذت تلك الفتاة التي أحبتها في الجامعة تسترق النظرات نحوي، بعد أيام اقتربت مني وسألتني:

- أمن أجلي تلقي تلك المحاضرات؟

- ؟

- تكلم.

صمت ولم أجب، وأخيرا قالت:

- أنت تحبني، أليس كذلك؟

- وأنت؟
- أنا التي سألتك.
- نعم أحبك، أحبك.
- في ذلك اليوم، سرت معها في حديقة الجامعة، وجلسنا على مقعد في ظل شجرة وارفة، نظرت إليّ بوجه مشرق وسألت:
- أتريد خطبتي رسمياً؟
- فجأني السؤال، بدت المفاجأة على قسمات وجهي.
- ما بك؟
- لم أخرج بعد، ولم أحصل على وظيفة، لم أبن بيتاً، ولم... قاطعتني:
- تقدّم لي كثيرون، عندهم كل شيء، الأموال والبيوت والسيارات.
- أنا الآن لا أملك إلا قلبي.
- دع إذن قلبك يدق وابتعد عني.
- ومشت بعيداً، غطت السماء غيمة سوداء، لم أستطع اللحاق بها، وضعت قلبي على رصيف الحديقة وسحقته، سحقته حتى غطت الدماء حديقة الجامعة.
- ذهبت إلى البيت إنساناً آخر، صامتا، حزينا، ذاهلا، لكنني قوي لأنني أصبحت بلا قلب، استقبلتني أمي بحيرتها المعتادة:
- ما بك يا صبحي، تبدو حزينا على غير عادتك!
- سحقته قلبي على الرصيف.
- ضحكت أمي:
- أجننت.
- نبت لي عقل آخر بدل قلبي.
- وضعت يدها على جبهتي تتحسس حرارتي.

- أمي أنا طبيعي، لكن مشاعري غير طبيعية.

وحين لم تفهم ما قلت، ذهبت لتحضر الطعام، كان الواقع أقسى من تلك الذكريات، فذكرياتي مثل قناديل تطفأ وتضيء في عتمة لامتناهية، أما واقعي في ميونخ، لثلاثة أيام، خلتها ثلاثة عقود، رأيت فيها البلوى فوق البلوى، والدموع فوق الدموع، والحنين فوق الحنين، من أعراق وأجناس مختلفة.

لاحظت المرأة نظراتي المتكررة إليها من بعيد، تأملتها دون الشجر والحجر والبشر.

وقفت أمامي وقالت بغضب:

- لماذا تنظر إليّ، أليس عندك امرأة؟!

- عندي ولكن...

- ولكن ماذا؟!

- أنت تشبهين فتاة أحببتها في الجامعة منذ ثلاثة عقود، هذا كل شيء.

- ما حدث لنا أنسانا ما أكلناه صباحا.

- هنالك أشياء لا يمكن أن تنسى.

بكت المرأة أم فيصل، ووضعت يديها في حجرها ودون أن تنظر إليّ قالت:

- إن لم يمت زوجي بقذيفة، سيموت من الجوع.

- نحن من نموت هنا.

ثم نهضت وقالت بصرامة:

- أنا لا أحتمل نظراتك.

ومشت مبتعدة، ثم التفتت وقالت:

- كنت مدير مدرسة ابني فيصل، أنا لا أنكر فضلك عليه، لكنك

تبدولي زير نساء، بنظراتك لي نزلت من أعلى إلى أسفل.

نهضت وصرخت وهي تبتعد:

- أنا لا أنظر إليك كامرأة أشتهيها، أنا أنظر إليك لأنك تشبهين امرأة عرفتها في زمن السلام والوئام، لازمن القذائف والرصاص، لازمن هجرة البحار، لازمن الهروب عبر الصحراء، لازمن مراكز الإيواء، لازمن الخوف والجوع، لازمن الدموع ووجع الروح، كنت أعرفها في ذلك الزمان الجميل، زمن يعود الإنسان إلى بيته آمناً، يأكل ويضحك، ويشرب ماء بردى تحت شمس دمشق الضاحكة، زمن كحلّم جميل مرّ دون رجعة.

أنت امرأة شوهتك الحرب، وتلك امرأة نقية كالضياء، أنت لا تشبهين تلك المرأة، يقولون إن الإنسان ابن ظروفه، وأنت ابنة ظروفك المشوهة، وتلك ابنة ظروفها الجميلة، حين كان الزمن جميلاً لم ندرك حلمه الجميل، إلا حينما صحونا على أهوال يوم القيامة.

عدت إلى الغرفة أرتجف، كانت رنّة مشغولة بترتيب الأسرة، تمددت على سريرى، ونمت لحظات، قلت لأبي، الذي عاد شاباً:

- هل رأيت أمي وفتاح؟

- رأيتهما للحظات، إنهما في مكان يبعد عني بعد السماء عن الأرض.

- ماذا قال لك؟

- فتاح حزين لأنك تركت دمشق، وأمك عاتبة عليك لأنك تركت البيت.

- وأنت؟!

- أنا لا يهمني سوى رؤيتك.

- أنا نادم.

- لا تندم، ستأتي إلينا بالحرب أو بالسلم.

- أنا أنتظر.

- ونحن نتنظر.

صحوت على رندة وهي تقول لي:

- صبحي، انهض حان موعد المطعم.

تخيلت أم فيصل تمر من أمام النافذة، تنظر إليّ بعينين كبيرتين، وقفت في صف المطعم، كان له بداية وليس له نهاية، نظرت إلى الوجوه؛ كانت خجولة وتائهة، رندة والأولاد يجلسون على الطاولة هناك، صليل الملاعق مثل صليل السيوف، أردت الهروب من الصف، الاختفاء تحت الأرض، أنام على شجرة كالقروء، ألتصق بالأرض كدودة الطين.

إننا نأكل ذلك الطعام كأنه نار في البطون، أعطتني عاملة المطعم عدة صحون، فيها طعام تخرج منه نار مستعرة، وقفت لحظة مفكراً، نظرت إليّ بصرامة وصرخت:

- بيتي - أي عفوا -

أخذت الصينية وسرت وحيدا على بلاط من جحيم، سرت لا أدري إلى أين أسير، كان لهيب الطعام يلف رأسي بضباب ساخن، أسير دون أن أنتهي إلى مكان، أين طاولة عائلتي، أين رندة والأولاد، أضعتهم في هذه القاعة الضبابية، لا أريد أن أرفع رأسي، حتى لا تلتقي نظراتي بنظرات الآخرين،

خرجت وأنا احمل الصينية، أعادتني الشرطة إلى الداخل، أمسكتني يد وقادتني إلى الداخل، كانت يد رندة، أخذت مني الصينية، وأجلستني على كرسي كالتائه، بعدئذ، وقفنا في صف طويل آخر، أحسست بغثيان فظيع بسبب الجو البارد، لكننا دخلنا إلى قاعة، عيون الجالسين معلقة بلوحة الكترونية، تعطيك رقمك ورقم الغرفة التي ستدخلها.

هنا، يقررون مصيرك مكانك القادم، إما أن تبقى هنا أو ترحل إلى مكان آخر، تعلقت عيناى باللوحة كالآخرين، كنت انظر إلى رندة، بين الحين والآخر، فبتبسم لشدة من عزيمتي، أما إمام فقد كان يخرج عدة مرات ليدخن، وبدا التعب والنعاس على كل من علي ومحمد.

أخذت القاعة تتحول إلى بالون منفوخ، يتزحلق الجالسون ويسقطون فوق بعضهم، يحاولون الهروب فيختفون، كان تنفسي يتصاعد، وقفت فوق البالون، أنظر إلى المتساقطين، أريد أن أسقط فلا أستطيع، سقطت الورقة التي تحمل رقمي من يدي، التقطتها رندة وقالت:

- ما بك، نمت.

نظرت إلى اللوحة الالكترونية، أخذت تتسارع مع تسارع دقات قلبي، نهضت ثم جلست، لم يكن أحد في القاعة، ثم امتلأت عن آخرها، شيء ما كالحمى كانت تسيرني، اللوحة الالكترونية دخلت ثيابي، أخذت أضيء، والكل ينظر إليّ، هذا هو رقمي، وتلك رقم الغرفة التي سأدخلها، من خلف زجاج سميك، وقف رجل طويل القامة، يقارب الستين، يضع نظارة طبية، أمامه أوراقنا، أعطانا قلمه لنوقع أوراقنا التي لانعرف لغة محتواها، ثم أعطانا ثلاثة أوراق، الأولى لي ولرندة وعلي ومحمد، والثانية لإمام، والثالثة من أجل استبدالها في محطة قطار ميونيخ بتذكرة سفر في القطار، ثم قال كلمة واحدة:

- كارلسروه.

سألت الشرطي في الخارج عن كارلسروه، فأجاب إنها في غرب ألمانيا، فيها مركز لإيواء اللاجئين.

عادت بنا الدوامة من جديد، تلك الدوامات التي صنعها حمزة في النهر، إنها تتسع وتتسع.

حملنا أغراضنا على عجل كالمطرودين من الفردوس المفقود، واتجهنا إلى الشارع مرة أخرى، ركبنا باصاً أنزلنا أمام محطة القطار، سألت صبية بالإنجليزية عن القطار المتجه إلى ميونيخ، ابتسمت وأشارت أن نصعد القطار التي ستصعد فيه، جلست قبالتنا، وبعد عدة محطات، أشارت إلينا بالنزول وأخذ قطار آخر سيوصلنا إلى محطة ميونيخ، شكرتها ونزلنا. تلك دوامات التشرد يا حمزة، ارم حجارتك في النهر، اصنع دوائرك التي لا تنتهي، اصنع الهروب الذي لا ينتهي، اصنع القهر الذي لا ينتهي، اصنع الموت، اصنع الحزن، اصنع الدموع، اصنع كل شيء إلا الحب والسلام.

هنا نحن نتنقل كزرافات بريّة من قطار إلى آخر، تأخذنا دوامة إلى المركز، ثم تشلفنا نحو الضفاف، صعدنا أدراجاً متحركة، ونزلنا أدراجاً أخرى، وضعنا بين زحام البشر، إلى أن أنقذنا من هذه الدوامات شابان عربيان نزلوا في محطة ميونيخ الرئيسية، ثم ودعاني بابتسامات وغابا بين الزحام.

بدلنا الورقتين بتذكريتين إلى مدينة كارلسروه، ثم تنهنا بين الزحام مرة أخرى إلى أن وجدنا أنفسنا أمام سكك حديدية متعددة، وأرصفت متعددة، نظرت إلى التذكرة فعرفت رقم الرصيف ورقم القطار، دون أن أسأل أحداً، نظرت إلى السكك التي تلمع تحت ضباب ميونيخ، قطارات تقف وقطارات تسير، وعمرنا يسير مثل هذا القطار أو ذاك، يتجه إلى المحطة النهائية، ثم يعود مرة أخرى، لكننا نحن لا نعود،

نذهب دون عودة، إنها الغربية، غربة الروح، وغربة المكان، تنام في مكان وتصحو في مكان آخر، ترى أنك هنا ثم ترى نفسك هناك.

شدت رندة على يدي وابتسمت قائلة:

- فيم تفكر؟

- انظري إلى السكك، تتجه إلى المجهول، لكنها توصلك في النهاية إلى هدفك.

- ونحن، هل سنصل إلى هدفنا؟

- حياتنا سكة بلا قطار، ليس هناك محطة في البداية ولا محطة في النهاية.

نظرت رندة عبر نافذة القطار، كان في عينيها دمعتان تلمعان كلؤلؤتين امتنعتا عن السقوط، كان قرب مقاعدنا شاب قادم من سوريا، أعطيته تفاحة ألمانية ففتح لي قلبه.

- كنت أحمل السلاح في حمص، ثم جاء أبي وكان في السبعين من عمره، وهو لا يزال يحمل معوله، وقال لي، خذ هذا المعول واترك السلاح، وإلا سينزل غضب الله عليك، نحن لم نحمل السلاح إلا في وجه الفرنسي، أنتم تقتلون بعضكم، وهذا هو الجنون بعينه، إذا لم تترك السلاح فوراً، فسأتبرأ منك، الأرض تنتظر معولك لا سلاحك. دمعت عينا الشاب وأضاف:

- رميت سلاحي في النهر وهربت إلى تركيا، لأنجو من العقاب، ومن هناك وصلت ألمانيا.

- وتركت معول والدك وحيداً.

- هل سمعت هناك صوت المعاول؟! صوت السلاح صار هو الأقوى.

ثم صمت قليلاً وأضاف:

- أبي مازال يحمل معوله، وإذا مات سأعود لأحمل معوله.

- لن تعود.

- لماذا؟

- من يترك معوله لا يعود.

- سأعود حين يخرس السلاح.

- كلكم أخطأتم وهذه هي النتيجة.

ودمعت عينا الشاب، كان يفكر في معول والده الذي توقف عن حب الأرض لصالح السلاح والدم، تذكرت مدن سوريا واحدة واحدة، حلب، دير الزور، الرقة، اللاذقية، حمص، درعا، وتوقفت عند حمص لأن نوال فتاة الجامعة كانت منها، أحببتها لشيئين: لهدوئها ورزانتها، ولأنها تشبه فيروز؛ حيث كنت أستمع إليها كل صباح من إذاعة دمشق عبر برنامج مرحبا يا صباح قبل الذهاب إلى الجامعة، حين كنت ألقى محاضراتي أمام الطلاب وكانت منهم، أشعر أن القاعة كانت فارغة إلا منها، وحين لم أستطع التقدم لها لضيق الحال، أحسست بسكاكين تغرز في صدري، وخيم اليأس على روحي، لماذا نحن أولاد الهزائم، في الحب والحرب؟!

كان الشاب ينظر إليّ حين توقفت عن الكلام طويلا، فسألني:

- ما بك يا أستاذ؟

- أفكر في حياتنا التي ملأها الهزائم، حين يترك الإنسان بيته تنهزم روحه، حين يترك الشارع الذي سار فيه سنوات طويلة تنهزم روحه، حين يترك ألبوم عمره يخترقه الرصاص أو يدفن تحت ركام البيوت، تنهزم روحه، حين يتخلى عن حبيبته تنهزم روحه، حين لا يرى وجوه أصحابه تنهزم روحه، حين لا يغتسل بمطر بلاده تنهزم روحه، حين لا يقرأ كتبه تنهزم روحه، حين لا يرى نجوم بلاده أو قمرها تنهزم روحه، حين لا ينام في فراشه تنهزم روحه، ماذا أقول لك؟ لقد انهمت أرواحنا جميعا منذ انطلقت الرصاصة الأولى في درعا.

صمتنا طويلا ونحن ننظر من خلال نوافذ القطار، كانت الأراضي الواسعة، والغابات الكثيفة، والسهول الخضراء، والبيوت ذات السقوف القرميدية، والقطارات تمر من جانبنا كهبوب الريح، كل ذلك شغلنا عن الحديث.

فجأة عاد الشاب يقول:

- في بيتنا، كانت غرفتي واسعة، وتطل نافذتي على شجرة سفرجل، وعريشة عنب قريبها، وتينة تلتصق أوراقها بزجاج نافذتي، كنت أنهض صباحا في الصيف، أقطف حبات التين الندية، طعمها المميز مازال في فمي.

- معول والدك هو الذي صنع تلك الأشجار.

- في كل يوم أحسّ نفسي أمام نافذتي، أمام أشجارتي، أقطف التين وأكل السفرجل وأتذوق حلاوة العنب، لازلت كل يوم أفعل ذلك وكأنني مازلت أعيش هناك.

- نحن عبيد أمكتتنا الحقيقية، إنها تسكن في أرواحنا.

- صدقت يا أستاذ، لم أقل ذلك لأحد إلا لك، شعرت أنّ فيك جزءاً من أبي.

ابتسمت وقلت:

- وشعرت أنّ فيك جزءاً من ابني عدنان الذي مازال في أوكرانيا.

وصمتنا، كانت رنّة تستمع إلى حديثنا تارة، وتنظر من النافذة تارة أخرى، وأخيراً قلت له:

- أنت تركت معول والدك، وأنا تركت قلمي، نحن الاثنان خاسران.

ركبت سيارة أجرة من محطة قطار كارلسروه إلى مركز إيواء اللاجئين، وفي الطريق رأيت فتيات الهوى يتشرن في شارع جانبي، كانت الشوارع نظيفة وهادئة في غسق جميل، لكنني كنت مشوش التفكير لجهلي بالمكان الذي أنا ذاهب إليه.

كانت هنالك أعداد من المهاجرين تتمشى خارج المركز أو في ساحته الداخلية، وفي غرفة جانبية، قرب الباب الحديدي، أعطانا الموظف ورقة دخول إلى المبنى رقم (١)، وقادنا موظف آخر يبدو من أصول سيريلانكية أو باكستانية إلى الطابق الثالث، وفتح لنا غرفة متسخة فيها ستة أسرة، وبراد صغير، ساعتها، أحسست بالكآبة، كنت أريد البكاء بصوت عال، لكنه

نقر على كتفي، لأتبعه، فتبعته إلى غرفة المستودع حيث أعطاني بطانيات ووسائد، كان المطعم مغلقا في ذلك المساء، شعرت بالجوع، قلت لرندة:

- أليس لدينا طعام؟

- أكلنا ما لدينا في القطار.

وجدنا بعض الخبز والزبدة في البرّاد، بقايا الناس الذين سكنوا الغرفة، أكلت بعض لقيحات وكأني ألوك لحم أموات.

وفجأة، طرق الباب الموظف الباكستاني، كانت تقف خلفه عائلتان أو أكثر، وجيش من الأطفال المهاجرين دخلوا الغرفة دون استئذان، أخذت الغرفة تغلي بالأطفال، والغضب يغلي في داخلي قلت له بالإنجليزية:

- كيف تنام عائلات غريبة مع بعضها في غرفة واحدة؟

ابتسم وربت على كتفي وغادر الغرفة.

جلست على طرف السرير تائها، وقبل أن أضع كفيّ على وجهي رأيت رندة وقد احمر وجهها من الغضب والخبيل، ودمعت عينها، بعد وقت لا أدري ما هو أخذ أحد الرجال الذين دخلوا الغرفة مرتبة للنوم، وأشار للباقيين بالخروج، كأنهم وجدوا غرفة فارغة، كانوا ثلاث عائلات من البوسنة أو صربيا، مرت أمامي امرأة وقد كشفت عن ثديها لترضع ابنها، فرغت الغرفة إلا منا، نظرت إلى رندة التي مسحت دموعها بباطن كفيها، وإلى إمام الصامت، أما علي ومحمد فقد ناما إلى جانب بعضهما كحملين وديعين، كنا متعبين من رحلة القطار، لكن النوم ابتعد عنا، جلسنا صامتين، في انتظار أن تأتي عائلات أخرى وتقتحم الغرفة.

نظرت من النافذة، كانت ساحة الإيواء تحتي، والحركة قلّت بعد منتصف الليل، وهناك أضواء بعيدة شاحبة، مثل شحوب أرواحنا في تلك الساعة، كنت أسمع تنفس رندة خلف رقبتني، كان إمام قد نام، طوقتني بيديها وهمست:

- بعنا أنفسنا وعلينا أن نصبر.

قلت دون أن ألتفت:

- تجار السلاح باعونا، نفط العرب باعنا، شيوخ السياسة باعونا، كراسي الحكام باعتنا، كلهم دفعونا لتبيع أنفسنا بثمن بخس، لم يكن لنا طريق آخر، أغلقوا كل الطرق أمامنا، إما أن تبيع نفسك أو تموت أنت وعائلتك.

شدّت يديها حولي، أحسست أنفاسها ازدادت حرارة، وحين نظرت إليها، كانت دموعها تتساقط على خديها بصمت.

لا أعرف كيف نمنا، من التعب أم الحزن، كان نومنا لحظة اقتراب الموت، ولم نصح إلا ورجال السكرتارية في المركز يفتحون علينا الباب، ويأمروننا بالنزول إلى الباحة وإخلاء الغرفة والوقوف في الصف، لإعطاء المعلومات الشخصية إلى إدارة المركز.

كم مرة يأخذون معلوماتنا الشخصية، كم مرة نخضع لضوء فلاش التصوير، كم مرة نضع بصمتنا على الأجهزة، كم مرة وكم مرة!

وقفنا في صف طويل، قبل أن نغسل وجوهنا، قبل أن نشرب الماء، قبل أن نتخلص من آثار النوم، كان من هم أماننا أو خلفنا مثلنا، عيونهم ملأى بالنوم، وقلوبهم ملأى باليأس، وقفوا في الصف بملابس النوم، من الصرب والشيخان وباكستان ونيجيريا وجورجيا ومقدونيا وسوريا والجزائر، لم يتحدثوا في ذلك الصباح البارد، ملّوا الأحاديث جميعا، استفاقوا من ذهول مكان الوطن إلى ذهول مكان اللامكان، دخلنا بعد أن وصل دورنا إلى قاعة كبيرة، جلسنا على مقاعدها صامتين، الكل صامت إلا من صراخ الأطفال، كان علي ومحمد نصف نائمين، ورندة يائسة، وإمام يدخن خارجا، صعدنا درجا بأشيانا القليلة التي معنا، إلى قاعة صغيرة عجبت بالبشر، من كل لون، أحسست أنهم يريدون خنقنا أو إذلالنا، قلت لرندة:

- حين نخرج سأرمي ما نحمله في الزبالة.

- هل أنت جاد؟

- نعم.

- أعتبر نفسي لم أسمع شيئاً.

كانت وجوه الناس قريبة من بعضا بسبب ضيق المكان، خمنت أن هذا صربي وهذه زوجته، وهذا نيجيري أو صومالي أتى وحيدا، وهذا مقدوني، هذا وهذا.

أخذ العرق يتصبب على جبينني، أردت الخروج لكن جسدي كان محشوراً بين الأجساد، الجالسة والواقفة، اليائسة يأس الأنبياء من هداية الكفار.

أعطتني رندة منديلا لأمسح عرقي، همست لها:

- أنا أختنق.

أنا لم أختنق بسبب انعدام الهواء فقط، بل بسبب عجزني عن فعل شيء، أختنقت بسبب هروبي، أختنقت بسبب الجثث في تلك الحرب الملعونة، أختنقت بسبب هدم البيوت فوق رؤوس أصحابها، أختنقت لأنني تركت بيتي وشارعي وكتبي، أختنقت لأنني بعث نفسي بنفسي، انتظرنا طويلا قبل أن ندخل غرفة التصوير، ضوء الفلاش سيعمي عيني مرة أخرى، لا بد أنهم جاءوا بنا لأصاب بعمى الألوان.

أشار إليّ المصور، وكان عصبي المزاج، أن أخلع نظارتي أثناء التصوير، حاولت الرفض، لكنه أشار إشارة حازمة.

إذا خلعت نظارتي سأكون إنسانا آخر، فيها رأيت بيتي بوضوح، فيها قرأت كتبي، فيها علّمت تلاميذي، فيها استمتعت برؤية دمشق نهارا وليلا، فيها رأيت زوجتي وأولادي وفيها قرأت قصصي أمام الجمهور، أحسست أنني لست أنا في الصورة، وزوجتي وأولادي ليسوا هم أيضا، انتظرنا في هـو آخر، هذا الانتظار أمقته، لأنني أعرفه، كنت أكره الذهاب إلى دائرة حكومية في سوريا بسبب هذا الانتظار، أحس أن أياما طويلة تنقضي قبل أن ينقضي الانتظار، أو أن صخرة تربض على صدري.

خرج إلينا رجل كبير في السن يتكلم العربية، سألنا عن أسمائنا وجنسياتنا والبلد الذي جئنا منه، قلت له:

- لقد أخطأتم في كتابة اسمي، اسمي صبحي وليس صبيح.
أجاب بجفاء:

- هذا ليس من اختصاصي، حين يستدعونك إلى المحكمة صحح اسمك.

واختفى لبرهة في غرفته، ثم استدعانا واحدا واحدا، لنوقع على أوراق كثيرة، عشرة، عشرين، لا أدري.
قلت:

- نحن نوقع على أوراق لا نعرف محتواها.
ابتسم ولم يجب.

وأخيرا أعطانا ورقتين الأولى عليها صورتي وصورة رندة وعلي ومحمد، والثانية عليها صورة إمام، نظرت إلى صورتي، أردت أن أقول له، هذا شخص آخر ولست أنا، لكنني تراجعت خشية أن يتسم ابتسامة ساخرة مرة أخرى.
قال:

- هاتان الورقتان بمثابة هوية، أوزفايز، لن تستطيعوا دخول المركز بدونهما.

ثم أعطانا أوراقا أخرى، فيها تعليمات باللغتين العربية والألمانية، ينبغي أن نقرأها ونعمل بها بدقة، ثم قال قبل أن يأمرنا بالخروج:

- اتجهوا إلى المبنى m، وهناك سيعطيكم الموظف ما تحتاجونه من ملاعق وسكاكين للمطعم، وأغطية، ومفتاح غرفتكم في المبنى -L- للعائلات.

سرنا من حرف إلى آخر؛ وكأننا نتعلم الحروف الهجائية من جديد، حملنا ما أخذناه من الموظف واتجهنا إلى الغرفة رقم (١٩) في الطابق الثاني

في مبنى L- للعائلات، كان هناك أربعة أسرة بطابقين، وبرّاد صغير، وخزانان حديديتان، ونافذة تطل على مزارع صغيرة، يأتي إليها أصحابها في يومي العطلة السبت والأحد، صرنا حروفا وأرقاما، صرنا تلاميذ في ساحة الحروف والأرقام.

قرأت التعليمات بدقة، صرت كآلة تسير على قدمين، يجب أخذ بطاقات المطعم لأسبوع كامل يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحا، ويجب أن نكون في المركز الطبي في البناية المجاورة بعد أسبوع لتحديد موعد الذهاب إلى مشفى لتصوير رثينا.

أريد أن أقول لهم إن رثينا مليّتان بدخان القذائف والرصاص، مليئة بالهموم والأحزان، مليئة بملوحة البحر، مليئة برمال صحراء الهروب، مليئة بالأشواق إلى البيت والأصحاب، لكن كل ذلك لا يعينهم.

وقفت في صف طويل، في المطعم ذي القاعة الكبيرة، كأنهم ألوف، بل ملايين قبلي، وكأنني فرد واحد بعدهم، لماذا كثر المتسولون في هذا العالم المتحضر، لماذا تزداد هذه الصفوف وتزداد، هنالك سببان؛ الفقر والحرب.

ذلك الصف أمامي لن ينتهي إلا إذا قفزت فوقه، أو نبت لي جناحا صقر، لكن رجال السكرتارية يقفون بالمرصاد لكل من يخالف النظام.

كل طعامك وأنت صامت، أعط بطاقتك ذات اللون المناسب للفطور أو الغداء أو العشاء وأنت صامت، ضع اللقمة في فمك وأنت صامت، وبعد أن تنتهي، احمل أطباقك إلى عامل غسل الصحون، إذا فعلت ذلك فأنت إنسان متحضر، نظرت إلى أولئك الذين يجلسون على الطاولات يأكلون، بدون شهية يأكلون، وأولئك الذين يضعون طعامهم في أكياس معهم ويخرجون وهم منخفضي الرؤوس.

يبدو أن الصف لن ينتهي، خرجت من الصف لأعلن العصيان، خرجت لأعلن أنني إنسان أهين حين وقف في هذا الصف

اللامتناهي، خرجت لأتنفس بعض الهواء، لأقول لهم أن رثائي سليمة وليس مريضة، هؤلاء الذين يقفون في الصف يتنفسون هواء فاسداً، فالصفوف للمسؤولين، للمقعدين، لبيدي الإحساس، لكنني عدت إلى الصف سريعاً حين اقترب مني رجل طويل من السكرتارية، يلوح بعصاه، مرّت الفصول الأربعة وأنا أقف في الصف، مرت السنوات وأنا أقف في الصف، مرّت أيام عمري وأنا أقف في الصف، بلغت من العمر عتياً وأنا أقف في الصف، تزوجت وأنا أقف في الصف، قرأت كتبي وأنا أقف في الصف، صار الصف قِدي، الصفوف تصنع النظام، تصنع الرجال الأقوياء، والنساء الولادات، والأطفال الأصحاء، تصنع الحضارة، كيف لا، وأنا أقف في الصفوف طوال حياتي، أمام المخبز، أمام الجمعية الاستهلاكية، في سوق الهال، في المقبرة، في الدوائر الرسمية، أمام مكتب العمل، نقف في الصفوف نتحاور ونتناقش على صفحات الجرائد، في الإذاعة والتلفزيون، عن ماهية النظام، عن الشعب المتحضر، عن الشعب الفقير.

يجب أن تقفوا في الصفوف، في مناطق السكن العشوائي، حيث الأطفال يلعبون بكرات مصنوعة من الخرق البالية، والعجائز يجلسون في الشمس ينتظرون موتهم، والنسوة يتحادثن من خلال النوافذ، والرجال يعملون ليل نهار ليأكلوا طعاماً رديئاً.

هذا كله من صنع الصفوف، من صنع النظام والرتابة، من صنع الأحلام الوردية على شاشات التلفاز، ومسابقات الأغاني والبذخ في استوديوهات القنوات.

قفوا في الصف، أيها الرجال، لتروا من هي المغنية الأجمل، لتحلموا بها أثناء مضاجعة نسائكم، قفوا في الصف، لتروا العالم أجمل، من خلال الزواريب الترابية، والأطفال العراة، ومياه الصرف الصحي تسير سواقي في الحارات، قفوا في الصف، لتأكدوا أن الإنسان هو ابن العصر، ابن التكنولوجيا، وليس قرداً جاء من الغابة واحتل المدن، وبنى العشوائيات، قفوا في الصف، لتعرفوا أن الإنسان لم يعد حشرة، بل هو في غاية الحضارة والامتثال، من أمامه أو خلفه من المهمشين،

وضعتها في كيس أحمله معي ثم ملأت كوبا من القهوة، وانطلقت نحو باب قاعة المطعم، تلوّى الصف الطويل أمام الباب، أردت استشاق الهواء في الخارج، اخترقت الصف بصعوبة بالغة، وخرجت على آخر نفس.

انطلقت بطعام الافطار نحو مبنى -L-، حيث غرفتي، صعدت الدرج، وكأنني قادم من رحلة الألف ميل،

كانوا جميعهم نياما، وضعت الكيس، وتمددت في سريري وفتحت الإنترنت على تعلم اللغة الألمانية، كررت هذه العملية حوالي خمسين يوما، أقف في صف المطعم صباحا وظهرا ومساء، ثم أعود وأقوم بالأعمال نفسها في اليوم السابق، جسدي تحول إلى آلة صماء لا يحس ولا يشعر.

قلت لرندة ذات يوم وأنا أضع كيس الطعام:

- أنا لست صبحي.

ضحكت وقالت:

- من أنت إذن؟

- أنا آلة تقف في الصف في الساعة السابعة والحادية عشرة والخامسة، وتعود لتأكل، تذهب إلى غرفة الاستعلامات في الثامنة صباحا، الثامنة ودقيقه لا يجوز، تأخذ بطاقة الغسيل ثم تذهب إلى مبنى آخر أعطي الغسيل لعامل غرفة الغسيل، الذي يضع نصف البطاقة في الكيس ويعطيني نصفها الآخر.

أسير خطواتي المائية، لا تزيد ولا تنقص، أصعد ثلاثين درجة، لأصل إلى غرفتي، أجلس معك في الحديقة كصنم، ويمر حولنا أصنام كثر، أجساد تركت أرواحها في بلادها وجاءت تبحث عن الأمان، فتحولت إلى آلات، تسير بنظام موحد.

أيها الغد كيف سيكون شكلك حين أعيش حياة الآلات، أتصورك شبحا، أو صخرة فوق صدري.

جلست في حديقة المركز، كان المهاجرون يمرون من أمامي كأشباح، يتحدثون بلغات شتى، سمعت رجلاً يتحدث العربية، اقتربت منه وسلمت عليه، ردَّ التحية بأحسن منها، مما شجعني على الجلوس قربته، ودون أن أسأله، بدأ بسرد حكاية هروبه، كان يريد إخراج الألم من أعماقه:

- ثمانية أيام يا رجل عشنا بين صناديق الكرتون، ثمانية أيام كأنها ثمانية قرون، نشرب الماء ونأكل التمر، كدنا نختنق عدة مرَّات، ماذا فعلنا ليحدث لنا ما حدث، قتلوا ابني الشاب، وسرقوا سيارتي مصدر رزقي، ودمروا بيتي، جئت أنا وأولاد ابني، وزوجته وامراتي، كان يتنفس وكأنه يبكي، وأكمل:

- لم يعد لدي أمل بالحياة، أحس أنني ميت، لم يعد للحياة طعم، تصوّر أننا ننام في الحديقة هنا منذ عدة أيام لأنه لم يتبق غرف فارغة في المركز.

كان قلبي يبكي قبل أن تبكي عينا، كنت صامتاً مذهولاً، وكأنَّ الكلام قد هرب مني، كان الرجل يرتجف وهو يتكلم، كانت يدها تبيكان، وجهه يبكي، رجلاه تبيكان، شعره يبكي، كيانه يبكي، شعرت أن دموعه ملأت البحر الذي حملنا إلى إيطاليا، أحسست أن دموعه هي التي حملت تلك البارجة إلى بر الأمان، صمت قليلاً ثم أضاف:

- ابن عمي لم يأت معنا، هرب عبر سهول بلغاريا بعد أن قتلت زوجته وابنه، وفي طرف الغابة مات من البرد، وبقيت ابنته تبكيه طوال الليل، قل لي بربك ماذا فعلنا ليحدث لنا ما حدث، انظر إلى رأسي هذه الحرب بيضت شعري.

ثم انتبه إلى صمتي فقال:

- لماذا لا تتكلم يا رجل، قل شيئاً، لم يعد عندنا إلا المآسي والدموع، والحسرات والجثث والبكاء على فراق الأحبة، لم يعد لدينا بيوت ولا زوجات ولا أطفال ولا عمل، نذهب إليه صباحاً ونعود مساءً محملين بالأمل في المستقبل، قل لي بربك، هل بقي هنالك مستقبل؟!

لم يكن يريد الاستماع إلى إجاباتي، كانت كلماته قاطعة جازمة مثل
حزنه القاطع، مثل حياتنا المشتتة، مثل مآسينا.
قلت له:

- عبرنا البحر، التقطتنا بارجة إيطالية، التقطنا من فم الموت،
نمنا في أكياس القمامة، في الليل البارد، وشوت الشمس وجوهنا، كنا
في غاية الابتهاج، سارت بنا البارجة ثلاثة أيام، انتقلنا من البهجة إلى
الذهول، ومن الدهول إلى الحزن، ومن الحزن إلى الموت البطيء، أنا
الآن جثة تتحرك، أرى أنك تحس مثلي هذا الإحساس.
بكى، ثم قال:

- لم نكن نعرف البكاء قبل الحرب.
ونفض، نظر إليّ مودعا، كنت أريد أن أعانقه، أعانق حزنه، أعانق
دموعه، قال قبل أن يذهب:
- قد نلتقي وقد...

- نحن هنا جميعا مرة لشخص واحد، لمصائب تصب في نهر
الأحزان.
هزّ رأسه واختفى خلف أشجار الحديقة.

صعدت إلى غرفتي في المبنى -I- متعبًا، وكأنني قطعت الصحراء مشيا على الأقدام، كانت الغرفة مفتوحة، وأناس لا أعرفهم فيها، وكانت رندة جالسة على طرف السرير وقد ظهر عليها الاكتئاب، وفي المقابل شاب وامرأتان.

قلت بعصبية:

- من أنتم؟

ابتسموا.

- نحن من سوريا مثلك، أكراد من الحسكة.

وأضافت المرأة:

- سنتشارك الغرفة.

كأنَّ صخرة وقعت فوق صدري.

قال الشاب وكان في عمر ابني إمام:

- يبدو أنك غير مرتاح لنا يا عم، نظام المركز هنا يضعون عائلتان أو أكثر في غرفة واحدة، المهاجرون من سوريا يأتون بالآلاف يوميا، المراكز لم تعد تتسع، قلت:

- بصراحة، لسنا معتادين على ذلك.

قالت المرأة:

- ونحن أيضا، ولكن للضرورة أحكام.

لم أتصور أن تنام زوجتي في غرفة ينام فيها رجل غريب.
تبادلنا النظرات الحيرة أنا ورندة، ثم نهضت قائلاً بقوة:
- سأعترض، جميعنا لم نعتد على ذلك.

ابتسم الشاب الكردي شيخو وقال:
- ياعم، إذا ذهبنا سيأتي غيرنا، نحن نسير على نظامهم وليس على
نظامنا.

ورغم قناعتني بكلامه، خرجت، نزلت الدرجات القليلة وكأني
أنزل إلى باطن الأرض، كانت هناك امرأة ألمانية تمسح الدرج، كنت في
حاجة لهواء نقي لأستطيع التفكير، اجتزت الحديقة، واتجهت إلى إدارة
المركز، اعترضني رجل من السكرتارية، كان وجهه متجهماً وبارداً.

عبرت بلغة إنجليزية وبالإشارات أنني أريد مقابلة موظف في
الإدارة، ابتسم ببرود، وأمرني بإشارة من يده بالعودة، حسبت نفسي
أنني أقف في صف المطعم، لأحصل على وجبة تسد الرمق، هنا
صف من نوع آخر، صف ليس فيه أمامي ولا خلفي أشخاص،
لكن أمامي وخلفي قوانين لم أرها، كنت أريد أن تبتلعني الأرض،
كنت أريد الموت، تذكرت ضحكة الشاب شيخو، نحن نسير على
نظامهم، فكرت بالاعتراض السلبي، بترك الغرفة والنوم في الحديقة،
ولكن من يهتم، لم أتصور في حياتي أن أقع في حيرة كهذه، لا أستطيع
العودة إلى الغرفة لإعلان فشلي ولا التجوال في باحة المركز إلى ما لا نهاية.
كان الوقت ظهراً، أمام المطعم الذي لم يفتح بعد كتلة بشرية،
أسرعت إلى الغرفة لأخذ البطاقات، بل لأخذ عائلتي، كان الجميع
صامتا.

قال شيخو:

- ماذا حدث يا عم؟

- لم يحدث شيء، ولكنه سيحدث.

قلت لرندة:

- أنا في الحديقة، انزلي مع الأولاد سننام هناك.
- نهضت خالة شيخو، وكانت امرأة لطيفة وقالت:
- لا يمكن أن تفعل هذا، علينا أن تحمل بعضنا، هي فترة قصيرة
وتمر، قد لا نرى بعضنا بعدها أبدا.
- كانت كلماتها بلسا لحيرتي وغضبي وانهامي وحزني.
- جلست على طرف السرير وقلت:
- لو جئتم إلى بيتي لرحبت بكم، ولكننا نخضع لقوانين ليست
من عاداتنا وتقاليدنا.
- قالت خالة شيخو الودود:
- نحن على أراضهم وعلينا أن نخضع لقوانينهم.
- تهيات رندة وعلي ومحمد للخروج أمام إمام؛ فقد كان في الخارج،
حين خطونا ناحية الباب وقفت أم شيخو وخالته أمامنا، قالت أمه
بتصميم:
- نحن سنخرج لا أنتم.
- وقالت خالته:
- الحديقة ليست أسوأ من غابات بلغاريا التي نمنا فيها عشرين
يوما مع الوحوش.
- همست رندة:
- سنخرج لاحقا.
- جلست على طرف السرير، كنت خجلا، ورغم خجلي لم أطق
تلك الحالة، هي حالة أشبه بشفرة في بؤبؤ العين.
- قالت خالة شيخو وقد بدا عليها السرور:
- هكذا يا أستاذ، نحن السوريين طيبو القلب.
- وقالت أم شيخو:

- سأصنع لكم شايا سوريا.

ووضعت سلك الإبريق في المأخذ الكهربائي، وهي تتمم دموعها على خديها.

- تركت زوجي وابني الأكبر وابنتي في الحسكة، أرى وجوههم أمامي في كل لحظة.

قالت لها رندة تواسيها:

- سترينهم، الله كريم.

- لن أراهم، أنا أعرف ذلك، زوجي قال سيموت في أرضه ولن يرحل، وابني الأكبر متزوج وعنده أطفال وفقير الحال، وابنتي زوجها متطوع في الدفاع الوطني، لن أراهم، سأموت هنا ولن أراهم.

صبت الشاي السوري الأحمر كالدم، في تلك الأرض تسيل دماء كثيرة بحمرة ذلك الشاي، ذلك القلق النابض في قسامات أم شيخو وهي تحرك السكر، يبدو قلقا أبديا لا ينتهي بنهاية السنين، ورغم ذلك ابتسمت وهي تقدم لنا الشاي، كان الخجل يلبسني من رأسي إلى أخمص قدمي وأنا اشرب الشاي، قلت لأم شيخو:

- مأساتنا واحدة.

- كنا نعيش بسلام واستيقظنا على حلم فظيع.

- إنَّه ليس حلما، إنَّه كابوس، كنت أشرب الشاي السوري وكأنني أشرب دماء الناس التي مازالت تسيل، كأنني أنام في حفرة ضيقة كالقبر، كان الشاي حلو المذاق لكنه بفمي مرا كالعلقم.

نظرت إلى رندة، كانت مثلي تبحث عن كلمات الاعتذار.

وضعت الكأس وكأنني أضع اعتذاري أمام أم شيخو وخالته، ثم نهضت :

- سنخرج إلى الحديقة ثم نعود.

قالت خالة شيخو وفي عينيها دمعتان:

- ابق في غرفتك، سنخرج نحن.

- لا يا خالة، سنعود، لكم صدر الغرفة ولنا العتبة.

كان هذا أبلغ اعتذار، وخرجنا، إنها لحظات أحد من نصل
السكين، أقسى من رصاصة في القلب، تقبل بتقاليد ليست تقاليدك،
تلبس وجهها ليس وجهك، وتكون لا أنت مع كامل الرضا.

خرجنا من الباب الحديدي الذي يشبه سجن درعا، الشوارع
نظيفة، والناس يقطعون إشارات المرور بنظام، لم يكن هنالك شرطة
مرور، هنا رقابة الكاميرات المخفية، هنا النظام الأوتوماتيكي، وكأنه
عقارب بغ بن.

- أين سنذهب؟

سألتني رندة.

- لا أدري.

أمسكت بيدي علي ومحمد، وقطعت الشارع من ممر المشاة، قلت
لرندة:

- هنالك دكان تركي عنده أطعمة سورية، ما رأيك؟

- لنجرب.

ركبنا محطتين في الباص الأنيق، في السوبرماركت التركي أحسست
أنني في دمشق، دمت عينايا لا لفرحة الطعام بل لتلك الروائح التي
ذكرتني بدمشق، اشترينا أشياء بسيطة بسبب غلاء الأسعار، وخرجنا:

- أين سنأكل؟

ضحكت رندة:

- في الشارع، هنالك مقعد يتسع لأربعة أشخاص تحت تلك
الشجرة الوارفة، جلسنا وأكلنا طعاما دمشقيا كالمسولين، فكرت في
الذين يموتون جوعا، يموتون قهرا، يموتون قتلا، توقفت للقيمة
في حنجرتي، حاولت بلعها فلم أستطع، كيف أبلعها وآلاف الناس

هناك يأكلون ألواح الصَّبَّار، ويعجنون العدس خبزاً، جيوبهم فارغة،
وبطونهم جائعة، وبيوتهم فارغة.

بصقت اللقمة.

- ما بك؟

- تذكرت الذين ماتوا جوعاً.

- أنسيت أنك كنت ستموت غرقاً، وتصبح طعاماً للأسماك.

- لم أنس، ولكنهم يموتون جوعاً.

- ونحن هنا ستموت غربة وحنينا، كل يموت بأسبابه ولأسبابه.

تعلق علي برقبتي قائلاً:

- بابا، أريد كولا، سوداء، سوداء كليل الجائعين، كنهارهم المليء
بالقطران.

خرجت من أفكاري ونهضت لأشتري الكولا السوداء، وانتقلت
من سواد إلى سواد، حيث أخبرتني ابنتي منار أنها قررت ترك زوجها
عبر مهاجرة وأنا عائد إلى الغرفة، امتقع وجه رنده وقالت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! فكرت كيف سيعيش أولادها الصغار
بلا أب، واستدركت، كأننا أصبحنا أيتاماً، من يترك بيته يتيماً، من
يترك وطنه يتيماً، قالت رنده ودموعها على خديها:

- لماذا الآن؟

- منذ زمن طويل وهو يضربها، لم يكن بيدها حيلة، وفي مصر قبل
أن يركبوا البحر ضربها هو وأبوه، وكانت تلك القشة التي قصمت
ظهر البعير.

قلت وقلبي يبكي:

- ستزورنا هنا، اشتاقت إلينا.

- لماذا قررت تركه في ألمانيا؟

- هنا الحقوق للمرأة، وهناك للرجل .
- حياتنا الذكورية لعنة أبدية، إنها الموت البطيء للجنس الآخر،
تموت المرأة ذلاً وغيظاً وقهراً ولا تتكلم، وإن تكلمت تبدأ الأقاويل .
كنت أغلي غضباً وأنا أقول:
- لو قالت لي هناك لجعلته ينسى حليب أمه، أما هنا فلا أستطيع .
وضعت رندة يدها على كتفي وقالت:
- حين تأتي سنفهم أكثر .
- صباحاً، كتبت في الرواية ثلاث ساعات كاملة لأفرغ شحنة القهر
التي أحملها، وبعد أن أغلقت دفترتي سألتني خالة شيخو إن كنت
أكتب رسالة لأحد، ابتسمت قائلاً:
- عهد الرسائل ولّى يا خالة، الواتس أب والفيبر موكلان بالمهمة الآن .
- ولكن . ماذا تكتب في دفترك السميكة ساعات وساعات، لا تؤاخذني
أنا فضولية .
- لا مشكلة، أنا اكتب رواية عما حدث لنا، ولماذا حدث لنا،
وكيف حدث لنا .
- قالت:
- لم أفهم .
- أكتب رواية عن الحرب في سوريا، عن الهجرة والعذاب والموت
والدموع والفرار والأسى والبيوت المدمرة والتوازنات الدولية
والعشق الأبدي لدمشق .
- كأنك تكتب قصتنا جميعاً .
- تماماً يا خالة .
- ماذا أسميتها؟

- أسميتها، دمشق على صهوة جواد، دمشق الحرب بعد أن كانت دمشق الياسمين.

- كلامك يفتح جروحنا.

- إنها آلامنا جميعاً.

- هل أطلب شيئاً؟

- قولي يا خالة.

- هل تسمعنا شيئاً مما كتبت كل مساء؟

- على الرحب والسعة.

ابتسمت وقالت:

- ونحن سنصنع لك شايا دمشقيا بنكهة كردية.

كانت رندة تطل برأسها مبتسمة من خلال الستارة التي وضعتها حول سريرها، ثم قالت:

- زوجي يحب استعادة أحزانه.

- ما حدث لنا ليس حزنًا، إنه موت.

قالت خالة شيخو:

- هذا صحيح.

كيف يصفو الذهن وأنا أقف في صف المطعم، أنتظر رغيغ الخبز أو حبة الفاكهة أو كأس حليب.

تشئت ذهني وأنا أحاول استعادة تلك الصور التي مرّت بي، من أجل صوغها كلمات على الورق، وضعت القلم، وضعت سلاح، ليس عندي سلاح آخر أحارب فيه من أجل الذين ماتوا دون ذنب، أو هربوا دون ذنب، أو بكوا دون ذنب، أو تقطعت أوصالهم دون ذنب، لم أكن أدري أن تلك الكلمات التي أخطأها قد أعادت حزني، وأعادت الثقة لتجاوز الحزن، إنه تناقض عسير، استعادة الحزن والثقة في آن معاً، كنت أريد استعادة كل دمة حزن، كل شهقة روح خرجت، كل انهدام بيت، كل حزن أرملة،

كل رصاصة عبثت بالأرواح، وكل قذيفة قطعَت الأوصال، أو أزهدت الأرواح، كنت أريد بكلماتي أن أصرخ في وجوه الذين باعوا الحياة بالموت، آثروا الحزن على الفرح، اشتروا الكآبة بالسعادة، احتكموا للرصاص لا للعقل، حملوا الأحقاد، من غابات العالم، ليذيقوا الناس الأمنين العذاب تلو العذاب، كنت أريد أن أوثق للذين هربوا والذين لم يهربوا، للذين غرقوا في البحار، للذين ماتوا بردا في الغابات، وهم يبحثون عن الأمان، كنت أريد أن أصرخ في وجوه أولئك الذين كانوا أدوات رخيصة في أيدي دول كبرى لها مصالح في الشرق الأوسط، هذا يصلي ناحية الشرق وهذا يصلي ناحية الغرب، أما الذين قتلوا فلم تكن وجهتهم إلا الكعبة أو المسيح المظلوم، كنت أريد أن أقول إنني إنسان جبان، لأنني تركت هوائي ورصيفي وكتبي وأصدقائي يموتون، الأشياء تموت كما يموت البشر، انتقلت من لبنان صيدا إلى الجزائر إلى إيطاليا إلى ألمانيا، أحببت الأماكن التي جلست فيها فترة قصيرة، فكيف بذلك المكان الذي قضيت فيه حياتي كلها، كنت أريد أن يحب الناس الشمس والورد والماء العذب والابتسامة والضحكة من القلب، لا الرصاصة والقذيفة والحزن والعطش والجوع والتشرد والموت، كنت أريد أن أقول إنني إنسان لا أدعي الحكمة، بل أريد أن أصوغ من كلماتي منبرا للمعذبين، للعائلات التي تشردت، للأطفال الذين ماتوا أو تيتموا، للأرامل، للفتيات المخطوفات.

وفي المقابل، كنت أريد فضح صنّاع الحرب والخطف، وعبيد المال والنفط، أولئك الذين استساغوا القتل والذبح وقطع الرؤوس، والموت جوعا، وهم يتفرجون على المعاناة في قصورهم عبر شاشات كبيرة وكؤوس الخمر أمامهم، وإلى جانبهم حورية جميلة عارية، ترنو إليهم بعينين ناعستين، أمام سرير يتسع لغرفة كبيرة، وكانوا يمارسون الجنس ويأكلون الطعام الفاخر والناس تموت قتلا وجوعا وبردا وتشردا، كنت أريد أن أعلن محاكمة المجرمين، ورثاء القتلى، ومواساة الجرحى والأيتام، كنت أريد أن أكون شاهدا على عصر القتل والدمار لا عصر البناء والحكمة، عصر عاد الإنسان إلى قسوة الوحوش.

انتبهوا...

كنت أريد القول إنَّ هذا العصر هو عصر الموت، عصر نهاية الحياة السعيدة، عصر الكراهية والحقد، عصر الجنون لا عصر العقل، فهنيئاً لكم بهذا العصر، أقول لكم، لا تلتفتوا إليّ، التفتوا إلى أنهار الدم، إلى الرؤوس المقطوعة، إلى المباني المهدمة، إلى الجثث المغطاة بالردم، إلى الأطفال القتلى، إلى سرقة البيوت والمصانع، إلى الذين انتحروا خوفاً من القتل، كنت أريد أن أجعل مما كتبت عنواناً للمأساة العصر، إلياذة الحرب، وسفر الخلود، للموتى والمصابين، والجوعى والمتألمين، والقانتين واليائسين.

يا إله السماوات أدركنا، نحن عجزنا عن وقف الدم والرصاص، أدركنا قبل أن تصبح قيامة الدنيا قبل قيامة الآخرة.

احكم يا رب بين هؤلاء وهؤلاء، ارحم المساكين وارحم المستضعفين، وكن الشافي للجرحى والراحم للأموات.

هكذا كنت أريد القول، كي يصبح ضميري نقياً مثل ضوء النهار، كنت أريد أن أقول أشياء لم تخطر على قلب بشر، ولم تحفظ في بطون الكتب.

منذ الأمسية الأولى التي قرأت من الرواية، كانت دموع أم شيخو وخالته تنهمر مدراراً، بكين بصمت، كأنهن يبكين الذين قتلوا في الحرب، الذين جرحوا، الذين تيتموا وتشردوا، يبكين الشكالى والأرامل.

توقفت عن القراءة ونظرت إليهما بعينين دامعتين:

– لماذا البكاء؟

قالت خالة شيخو.

– كلماتك فتحت جروحنا، كأنك كنت معنا، إنها قصتنا جميعاً.

لم تعد رندة تقوى على الصمود، بكت بصوت عال، وبكيت أنا بصمت، وتهدج صوتي وأنا أتابع القراءة، كان طعم الشاي الدمشقي بنكهة كردية مرا في فمي.

أعادت تلك الكلمات مرارة الحياة، كانت أعماقي تبكي قبل أن تبكي عيناى، وحين توقفت قليلا عن القراءة سألت خالة شيخو:

- كيف رسمت كلماتك عذابنا؟

- عذابى هو عذاب الآخرين.

- كأنَّ كلماتك أحجار صوّان دخلت فمنا جميعا.

فى الليلة التالية، كان لى موعد آخر مع عذاب آخر: ابنتى منار، جاءت إلى كارلسروه، تائهة، حزينة، لم تقو على الكلام، ضاعت فى طرق السكك الحديدية التى تذهب إلى آخر الدنيا، جاءت وفى يديها طعام لبؤسنا، طعام لجوعنا.

بكى وجهها قبل أن تبكى عيناها، قلبى يذرف دموعًا على حظها العاثر.

قالت وهى ترتجف:

- كان يضربنى كعبدة اشتراها.

- لماذا فتحت جرحك هنا؟

- هنا أستطيع أن أحصل على حقوقى، أما هناك فالكلمة للرجال.

- كنت أستطيع هناك أن أنسيه حليب أمه، أما هنا...

- الأولاد لى هنا، سأخذهم وأطرده كالكلب.

صمتت قليلا ثم قالت:

- المرأة هنا ليست المرأة هناك.

أمسكت يديها المرتجفتين، كانت خالة شيخو وأمه ذاهلتين، اقتربتا منها، بكتا لعذابها، قدمت لها خالة شيخو شايا دمشقىا ساخنا بنكهة كردية ليتوقف رجفانها.

فى اليوم التالى، خرجنا معًا، كانت شمس كارلسروه دافئة حنونة، سرت إلى جانب ابنتى، جلسنا على مقعد على الرصيف، تناولنا البوظة، تحدثنا عن أشياء كثيرة إلا عذابنا.

ضحكنا، وكأننا نضحك من أنفسنا؛ كان ما حولنا سعداء بالشمس،
سعادتهم تختلف عن سعادتنا، وحديثهم يختلف عن حديثنا.

نظرت إلى وجه ابنتي، كان يشرق رغم الحزن، قلت لها:

- دعي الحزن وراءك.

- انظر إلى الناس هنا، ضحكاتهم تملأ الأرضفة وتغطي وجه الشمس.

- هناك بشر يضحكون، لكن أعماقهم تبكي، حتى في سوريا ما زال
هناك أناس يضحكون وهم تحت القصف والدمار، يغنون ويرقصون،
هم أكبر من الوجد، وأكبر من الموت، وأكبر من الدمار، يغنون وهم
يكونون، يرقصون وهم يكونون، تلك هي عظمة الإنسان.

- أي أنت إنسان عظيم، هونت عليّ مصيبيتي.

مشينا على أرضفة كارلسروه الحجرية، خطواتنا كانت رقصا، وكان
الحمام يطير ويحط من حولنا.

- انظري إلى الحمام، إنه سعيد بجناحيه.

- لأنه حر فهو سعيد.

ثم أضافت بعد صمت:

- لو كان لي جناحين لطرت، أخذت أولادي و طرت.

يمكن أن يفعل الإنسان ذلك دون جناحين،

لم يطل فرحنا، حين أوقفنا السكرتارية أمام الباب الحديدي، ومنع
ابنتي من الدخول، لأنها ليست من نزلاء المركز، ولا يحق لها النوم
فيه، أعطته الهوية أو ما يسمونها الأوز فايز، وعندئذ أخبرها أن إقامتها
يجب ألا تتجاوز الثامنة مساء، وإلا سترتب عليها غرامة مالية، دخلنا
الغرفة لنفكر فيما سنفعل، قالت رنده:

- سأنام معك في الشارع.

قلت:

- سننام جميعا في الشارع.

أعدت رندة طعاما خفيفا وبراد شاي، أخذت ابنتي هويتها من السكرتارية قبل الثامنة وخرجنا جميعا، تناولنا طعامنا على كرسي حديقة نائية، أخذ الطقس يبرد مع تقدم الليل.

قالت منار:

- أرأيت يا أبي، الحزن يلاحقنا أينما ذهبنا.

استمرت سهرتنا في الجو البارد حتى ما قبل منتصف الليل، ثم نهضت قائلا بحزم:

- سندخل جميعا المركز.

- كيف يا أبي؟

كان كل من علي ومحمد يرتجفان، وقفنا خارج الباب الحديدي، قلت لابنتي:

- انتظري قليلا.

دخلت، ثم خرجت وأنا أحمل الورقة التي عليها صورة رندة، وأدخلت ابنتي على اسم أمها.

حين صرنا في الداخل، قلت لهم:

- أسرعوا، لا تنظروا خلفكم.

كنا سعداء بدفء الفراش في تلك الليلة.

بعد معاناة الفطور الصباحي قالت رندة ونحن نجلس على أحد مقاعد الحديقة:

- ألا تصالح ابنتك مع زوجها، أولادها يجب ألا يبقوا بدون أب.

قلت:

- هل فكّر وهو يضربها بهذا، أن تضرب إنسانا وتهينه وأنت تعيش معه فهذا معناه أنك ارتضيت ألا تكون إنسانا، وهذا من أسباب ما

حدث لنا، ابتك يا رندة هي التي ضربت وهي التي أهينت وعليها الآن أن تصحح حياتها بما يتناسب مع كرامتها، أعتقد أنها تسير على الطريق الصحيح.

في المنام، جاءت أمي، وهي تمسك بيد طفلة صغيرة، وجهها يضيء نورا، وتلبس ثيابا فاخرة، وحذاؤها يلمع كعين الشمس.

سألتها:

- من هذه الفتاة الصغيرة يا أمي؟

- هذه أختك بدرية.

أردت أن أبكي فلم أستطع، أردت أن أحضنها فلم أستطع، أردت أن أنظر في عينيها فلم أستطع.

سمعت صوتها كعصفور يشدو بلحن:

- هذا أخى صبحى.

- مازلت تذکرینی.

- لم أنسكم أبدا.

- لكن الحياة الصاخبة أبعدتنا عنك قليلا، لكنك مازلت في قلوبنا.

- أمی، کیف التقیتم بها؟

- في عالمنا إذا ذكرت شخصا تراه أمامك.

- عالمكم أجمل من عالمنا.

- عانيت كثيرًا في مشفى الأمراض العقلية.

- عاد عقلی صافیا کشمس النهار.

- اقتربي مني لأقبلك.

- لا أستطيع، جسدي مصنوع من الضوء، أخاف أن تحترق.

كانت كنسمة صيف باردة، أحسست بنعومتها دون أن ألمسها.

في اليوم التالي لم أستطع النوم، كانت بدريّة ماثلة أمامي، بوجهها
الوضّاء، وبراءتها، ورقتها، وصوتها الرخيم، وأناقتها، وإجاباتها الذكية.
كيف يجبئ الجنون ذلك كله؟! أهى كذلك حقاً، أم أنّ خيالي
أصبح مريضاً؟!

لكنني رأيتها وسمعتها ولمست ضوءها، لمست إحساسها، فهل
تلتقي الأرواح؟!

قارنت حلمي بما يجري في سوريا من جنون، كثير من المجانين
يقتلون، فهل يصبحون مثلها، أم أنهم يزدادون جنونا، يزدادون
بشاعة، هي ماتت بريئة نقيّة، وهم يموتون أشراراً.

نظرت إلى شجرة عالية في مركز الإيواء، كان هناك شحور اسود،
بمنقاره البرتقالي يصدر أصواتاً شجية، كأنني أسمع صوت بدريّة
وهو يشدو، كأنني أسمع أعظم موسيقا في حياتي، موسيقا خالدة
خلود موسيقا بيتهوفن وعبد الوهاب وبلغ حمدي، توقفت أستمع،
ساعة أو أكثر، أحسستها لحظة، كأن صوتها البريء يردد مقاطع من
خلال هذا الشحور.

لو استمر الشحور في شدوه يوماً أو أكثر لما شعرت بالتعب
والوقت، لكنه طار واختفى، طارت روعي معه، مع صوته الذي
هو صوتها، مع إحساسه الذي هو إحساسها، شعرت بالضيق
حين اختفى، لو كان لي جناحان للحقت به، لكنني إنسان عاجز
عن الطيران، عاجز عن إمساك اللحظات السعيدة، كنت كحمار تاه
في صحراء العرب، دفنته الرمال حتى منتصفه، وهو يبحث عن
مخرج، ثم أكلته وحوش الصحراء، وبقي هيكله العظمي شاهداً على
الضياع، إلى أن طمرته الرمال ونسي كما غيره.

إنني أختنق؛ أنا لست ابن هذا المكان، ولست ابن هذا الزمان،
صحيح أنّ أصوات الرصاص والقذائف اختفت، لكنها مازالت تدوي
في داخلي، أسمع أنين الجرحى، أسمع الشهقات الأخيرة للقتلى،
أسمع بكاء الحزانى.

مرّت امرأة من أمامي تجر رجلا مشلولاً على عربة، جلست قبالي، لم أنظر إليها ولم تنظر إليّ، كانت تلبس نظارة سوداء، سمعت صوتها، ذلك الصوت أعرفه، لم أصدّق ما أرى، نظرت إليها وكأنني أكاد أطير فرحاً، إنها حنين ابنة أخي، أصابني الشلل، وانعقد لساني، رفعت يدي أشير لها، كانت عضلاتي قد ارتخت من هول المفاجأة، تحسّرج صوتي:

- حنين، حنين.

التفتت إليّ، ونهضت، سقطت عدة مرّات قبل أن تحضنني.

- الدنيا صغيرة.

قالت وقد خلعت نظارتها الشمسية.

نظرت إلى الرجل فبدت عليها كآبة أخفتها قسّات وجهها.

- زوجي، كان يعمل طياناً في بيروت، سقط عن الطابق الرابع وأصيب بالشلل، التقيت به في إيطاليا وتزوجنا.

ثم أمسكتني من يدي ووقفت أمام زوجها:

- هذا عمي صبحي.

قالتها بفرحة عارمة.

ابتسم من قلبه، ومدّ يداً مرتجفة، وقال:

- لو كنت أستطيع الوقوف لوقفت احتراماً لك.

كانت يده باردة، وصوته مرتجف، كان على وشك البكاء، لكنه تماسك.

- حدثتني حنين كثيراً عنك، اشتقت لرؤيتك قبل أن أراك.

ثم أضاف:

- ماتت زوجتي السابقة وأولادي جميعاً تحت الردم.

دفنت حنين رأسها في صدري وأجهشت بالبكاء.

لماذا حين نفترق نحزن، وحين نلتقي نحزن، هل نحن أولاد الحزن.

حين سافرت بكى أمي، وحين عدت بكى أمي، حين نجحت بكى أمي وحين مرضت بكى أمي، ذات يوم، جلست وحيدا وبكيت دون أن يراني أحد، كنت أبكي دون سبب، تذكرت أمي وهي تقوم بتحضير الطعام، وأبي وهو عائد في الليالي الباردة، يحمل حبات البطاطا الباردة، والفحم الحجري، تذكرت بدريّة وهي تلفظ اسمي حين كانت تحتضر، تذكرت نظيرة وهي تموت وحيدة في إحدى مستشفيات الكويت، تذكرت صبحية وهي تغني لفيروز، تذكرت أخي فتاح وهو في المشفى، تذكرت ضحكته قبل وفاته بيوم، تذكرت أمي وأنا أودعها قبل أن يلفوها بالكفن، تذكرت نجاحي في الماجستير، وليالي ولادة أولادي، وليلة عرسى.

بين الفرح والحزن، شعيرة صغيرة، نقف عليها، نحسها سكينا في قلوبنا، أو حلوقنا، نشعر أن الزمن قد انتهى، تتوارد على خاطرنا أحاسيس مختلفة، هي تتجاوز العقل والخيال، نسبح في ملكوت كبير، لا حدود له من الحزن، ولا حدود له من الفرح، تلك طبيعتنا، أم طبيعة الأشياء، أم أننا تربينا على هذا النمط؟!

كنت أفكر في هذا وما زالت حنين تدفن رأسها في صدري، نظرت إلى عينيها وقلت:

- هذا وقت الفرح لا الحزن.

ورغم مأساته الشخصية قال زوجها:

- حين يلتقي الأحباب تبدو الدنيا مبهجة.

- متى جئت؟

- منذ يومين.

- أين غرفتك؟

- في مبنى -L- .

- ونحن أيضا.

– أنا مشتاقة لرؤية رندة والأولاد.

ودفعت عربية زوجها بيد، وأمسكت يدي بالأخرى، كأننا نسير في عرس، على رصيف اليرموك، نحو بيتنا الذي هدم، نحو رصيفنا الذي سرقته أقدام من جاؤوا من غابات الحروب، كأنها على موعد مع أبيها وقد عاد إلى الحياة، تركت العربدة في الطابق الأرضي وأمسكت زوجها وصعدا بسطة.

بدأت رندة حين رأت حنين كوردة أقحوان تفتحت للتو، احتضنتها عدة مرات وهي تردد الجملة نفسها:

- لا أصدق أنني أراك.

فتح إمام الباب، سلمت عليه حنين بحرارة، قالت لزوجها:

- هذا ابن عمي إمام الصامت.

قال إمام:

- الصمت أبلغ من الكلام.

قال زوجها:

- صدقت، من يتكلم بخطيء.

جاءت خالة شيخو وأمه، بدت المفاجأة عليهما، قالت خالة شيخو:

- عائلة ثالثة.

- هذه ابنة أخي وزوجها يقيمان في الطابق الأرضي.

- أليس عنكم عائلة أخرى في الغرفة؟

- عندنا عائلتان لا عائلة واحدة، رجل مع زوجته فقد أولاده الثلاثة، وامرأة فقدت زوجها ومعها ولداها الصغيران.

قال زوج حنين:

- هذه الحرب أكلت أحيانا.

قالت خالة شيخو بلهجة متفائلة:

- أحرزنا كثيرة، اتركونا منها الآن، سأعمل لكم شايًا دمشقيًا
بنكهة كردية، وبعدها سأدعوكم على الغداء، بهذه المناسبة السعيدة.

ثم قالت بعد قليل:

- عمك كتب عنك كلاما يبكي الروح قبل العين.

طوقتني حين يديها الرقيقتين، وسقطت دمعتان على خديها، وقالت:

- عمى حنون القلب والقلم.

صباحًا، ركبنا حافلة مع عشرين شخصًا واتجهنا إلى مشفى لتصوير رثائنا، نظرت إلى الأشجار الخضراء والشوارع النظيفة، قلت لرندة:

- لماذا لا يكون عندنا مثل هذا؟

- عندنا أفضل من هذا، لكن الإنسان عندنا لا يحب الجمال.

دخلنا المشفى وكأننا دخلنا مقبرة، الصمت سيد الموقف، أعطونا كمامات وجلسنا ننتظر، كان السكرتارية الذي رافقنا دمث الأخلاق، يتسم مع هذا ويتحدث مع ذاك.

تعلّمنَا التحدّث بصوت منخفض؛ لأن طبيعة المكان تجعلك تفعل ذلك دون إرادة منك.

بعد التصوير، جلسنا ننتظر النتائج، كنت أنظر إلى الوجوه الصامتة والمتعبة، أرى قصة مأساة في تعابير كل وجه، استدعوا امرأة ورجلاً، وحين خرجا قال لنا السكرتارية إن نستعد للعودة إلى المركز، وفي الطريق عادت الأشجار الخضراء، والشوارع النظيفة والمباني القرميدية الحميلة.

بعد الظهر، جلست مع حنين وحنينا في الحديقة، كان الحزن يلبس كلماتها، بحبة صوته، تقاسيم وجهها، حرركاتها، ضحكتها، سألته:

- لم الحزن؟

- عمار زوجی يسألنی السؤال نفسه، ليس عندي جواب.



وصمتت قليلا ثم قالت:

- قتل أولاده الخمسة، يقول لي إنهم يعيشون داخله، يكبرون في أعماقه، ومن أجل هذا تزوجني لأنني لا أنجب.

- من أجل هذا الحزن.

- من أجله ومن أجل ما حولنا الذي يشبه يوم القيامة، الجميع تفرق عن أحبابه، هذه أيام يوم القيامة، هل كتبت عن ذلك في روايتك يا عمي؟

- كتبت ما هو أفضع، مازلت أعبر البحر الذي عبرته، والذي ابتلع عشرات ألوف الهاربين من الموت، سمعت أن شعب تونس لم يعد يحب السمك لأنه أكل أجساد الغرقى.

- أنت تغيرت يا عمي.

- نار الحرب تصهر الحديد فكيف بالنفوس.

كان هناك غراب يزعق في أعلى شجرة سرو، نظرت إليه حنين وقالت:

- كلنا أصبحنا غربان، لم يعد هناك مساحة للفرح، حين حرق التونسي نفسه أحرقنا معه.

- أحيانا تقولين أشياء أبلغ مما كتبت.

ثم قلت:

- أين عمار؟

- أحيانا، يجب أن يجلس وحيدا، ينظر إلى صور أولاده الخمسة ويبكي بصمت.

- كأننا نأكل حجارة الصوّان.

في المقعد المقابل، كان هناك رجلان يتحدثان بلهجة سورية، في البداية كان صوتهما منخفضاً ثم علا فجأة حين قال أحدهما للآخر:

- النظام أشرف من رأسك العفن.

ورد الآخر:

- المعارضة ستقود سوريا إلى الطريق الصحيحة.

- هه، ماذا حدث هناك؛ انهدمت البيوت فوق رؤوس أصحابها، وهرب الملايين متشردين، وعم الغلاء والبلاء البلاد، أكانت البلاد هكذا حين كان النظام يحكم البلاد.

- أتدافع عن فساد النظام؟

- الفساد أرحم مما حدث، دخلتم المدن والقرى كالجرذان، اختبأتم بين الناس لأنكم جبناء، مقرات النظام معروفة، لم ألمّ تواجهوه وجهها لوجهه، النظام لم يهتز، الذي تشرّد وعانى هو الشعب، أنتم حثالة البشرية.

نهض الاثنان متحفزين كديكين شرسين، وماهي إلا لحظات حتى اشتبكا بالأيدي والأرجل، ركضت نحوهما ووقفت بينهما، وقلت موبخا الاثنين:

- لماذا لم تبقيا في سوريا لتقتلا بعضكما، هنا أنتما مهاجران غير شرعيين.

ابتعدا عن بعضهما، كدت اسمع دقات قلبيهما المتصارعين، دقات فيها من الحقد والشور ما يمكن أن تكون هناك شروور وأحقاد منذ بدء الخليقة.

بدا الخجل على القسّمات الحاقدّة ثم لمحت الندم، خففت لهجتي
قائلاً:

- أنتما غريبان هنا، والغريب أخو الغريب.

ثم نظرت إلى الذي دافع عن النظام:

- إذا كنت تحب النظام لماذا لم تبق هناك لتدافع عنه؟!

وقلت للذي دافع عن المعارضة:

- وأنت، إذا كانت ثورتك شرعية لماذا لم تبق هناك لتدافع عنها؟!

ثم قلت:

- أنا من سوريا مثلكم، نحن جميعاً هربنا من أتون الحرب
والموت، إذا أردتم أن تنقلوا الحرب هنا لن تحصّدوا سوى الخيبة
والندم، تعرفون في قرارة نفوسكم أنتم وغيركم أن الجميع قد أخطأ،
نظاماً ومعارضة، نحن أصبحنا أدوات في يد الغير.

ثم التفت إلى الرجل المعارض وقلت:

- هذه ليست ثورة، إنها مجزرة بحق الناس، النظام مازال قائماً
والناس هم الذين تشردوا وقتلوا، ثم قلت لرجل النظام:

- النظام تعامل مع الجميع كأنهم أعداء، قصف البيوت والمزارع،
قتل الناس، ذهب دم العاصي مع دم الطائع.

ثم نظرت إلى كليهما:

- كلنا أخطأنا، والشعب دفع ثمن هذه الأخطاء، تركنا حياتنا
وذكرياتنا هناك، اقتلعنا مثل شجرة نخرها السوس، من يعوّض لي
ذكريات ستين سنة من حياتي، من يعوّض لي ألبوم صور أولادي
وهم صغار، من يعوّض لي كتبي التي سرقت أو أحرقت، من يعوض
لي بيتي، من يعوض لي حياتي التي ضاعت في لحظة جنون.

صمتا من الخجل، ثم أضفت وأنا أنظر إلى حنين التي ابتسمت
ابتسامة تشجيع:

- أنا لست خطيباً في مسجد أو كنيسة، أنا عانيت مثلكم، ركبت البحر وعبرت الصحراء، كدت اختنق من رائحة محرك السفينة المتهاالك، غطى القيء والبول ملابسي، لو لم تحدث الحرب المجنونة، فهل كان يمكن أن يحدث ذلك؟!

أسرعت حين نحوي وشدّت على يدي، أضفت وأنا أجلس بينهما:

- ما حدث كان يجب ألا يحدث، حين دخل الشيشاني والأفغاني والباكستاني وحشاشو العالم وزعرانهم إلى سوريا حدث الشرخ بينكم، لو بقيت المسألة علينا لما كان ما كان، نحن شعب يحب الحياة، أنا فلسطيني وأحسّ أنني سوري أكثر من كوني فلسطينياً؛ لأنني عشت هناك، شربت ماء بردى، شممت ياسمين دمشق، مشيت في سوق الحميدية، ومدحت باشا والصالحية، صارت تلك الأماكن جزءاً من حياتي، سبحت في بحر اللاذقية، وقفت على جبل قاسيون، كانت الحياة جميلة رغم بعض الفاسدين والمتنفعين، لكن هذه الحرب ذبحت الشريف قبل الحقير، وحينئذ، خبت بهجة الحياة، الربيع العربي أصبح عاصفة ثلجية مدمرة، دمرت الجميل والقيح، الثورات لا تفعل ذلك، الثورات تقطع رؤوس الفاسدين، لكن هذه الثورة قطعت رؤوس الأطفال والنساء والشيوخ، الثورات تبني، وهذه الثورة هدمت البيوت على رؤوس أصحابها، نادينا بالحرية فأصبحنا ننادي بالموت، وكان هناك ظلم فصار ظلمات، وكانت هناك رشوة فأصبحت رشوات، وكانت هناك محسوبة فأصبحت محاسيب .

دمعت عينا كل منهما وأنا أضيف:

- انظروا إلينا جميعاً، صرنا نأكل على موائد الآخرين، بعد أن كنا نطعمهم، صرنا نلبس من ملابسهم بعد أن كنا نصدر إليهم الملابس الراقية، انظروا إلى آثارنا التي هدمت، ماضينا هدم، حاضرنّا هدم، إذا لم نللم جراحنا فلن نكون أبداً، قد تقولان هذا يبيعنا كلاماً، ولكن هذا وقت العمل لا وقت الدم، الدم لا يجزى سوى الدم والكراهية لا تجزى سوى الكراهية.

التقيت بها في بيت أهلها، فتاة شقراء خجولة، شعرها الذهبي يطاول خاصرتها، أعجبنى فيها آنذاك خجلها وجمالها.

قلت لأمي:

- لن أتزوج غيرها.

وبدورها قالت أمي:

- هذه الفتاة دخلت قلبي.

خطبتها بسرعة، وبعد يومين، كانت تجلس مع الجمهور تحضر
أسسية قصصية لي في اتحاد الكتاب، لم أكن أنظر إلا إليها حين كنت
أقرأ، وحين انتهت صفقت لي طويلاً.

مشينا تلك الأمسية في شوارع دمشق، كان الجو باردا، لكن دفء
كلماتنا أنستنا برودة الجو.

قالت:

- كنت أرى صورتك وأقرأ قصصك في مجلة صوت فلسطين.

- وهل تغيرت صورتى عندك؟

- لا، كنت معجبة بك ككاتب، والآن معجبة بك ككاتب وحبیب.

كنت أريد اختلاس قبلة منها في ظلام الليل، لكنني خشيت مضايقتها.

قالت:

- حين جئت لخطتي، عدت وتصفحـت صورك وقصصك، شعرت
أنني أفهمك من جديد.

- واليوم، بعد هذه السنين.

- أشعر أننا شخص واحد.

- لكن الأمكنة التي التقيت بك بها تركناها، هنا غربة للجسد والروح معا.

دخلت المرأة الحلبية التي تقاسم حنين غرفتها وهي تحمل طفلها الرضيع، حدثتنا عن مصيبتها؛ سقط البيت فوق رأس زوجها وأولادها الثلاثة وهي أمام الفرن تنتظر ربة خبز، وأضافت وهي تبكي:

- ماتوا جائعين، لم يدخل الخبز بيتنا منذ أسبوع، وكان زوجي مصابا بشظية وهو ذاهب إلى عمله،
وتنهدت وأضافت:

- لم يبق لي في الدنيا سوى هذا الطفل.

لم يعد في مقدوري الاستماع أكثر، اختلطت مأساتي مع الآخرين، تتوالد المصائب في أيام الحرب المجنونة، وكأنها لا تنتهي، نهضت، أحسست بالاختناق. قالت حنين:

- عمي، لم تشرب قهوتك.

- مصيبة المرأة قهوة مرّة.

قالت المرأة:

- أنا آسفة.

- حزنا واحدا.

أخذت زخات المطر تسقط فوق حديقة المركز، جلست على الكرسي تحت المطر، اغتسلت بالمطر، اغتسلت معي رندة، قلت لها:

- اذهبي، سألحق بك.

- سنذهب معاً.

- سيملك المطر.

- سنبتل معاً.

فرغت الحديقة سريعاً، لم يبق إلا أنا ورندة، أخذ شيء غريب في داخلي يحدثني بأن حياتي ستتوقف حين يتوقف المطر.

قلت لرندة:

- سأموت في أرض غريبة.
- بعد عمر طويل.
- بعد أن يتوقف المطر.
وضعت يدها على جبهتي وصرخت:
- أنت مصاب بالحمى.
وأمسكت يدي:
- انهض.
- لن انهض قبل أن ينتهي المطر ويأتي الموت.
قالت وهي تبكي:
- صبحي، يكفي ما بي.
وضعت رأسي على الوسادة وكان آخر ما سمعت قول رندة لعلي
ومحمد:

- اصمتا، أبوكما سينام.
انتقلت إلى عالم آخر، رأيت فيه جدي الذي كان يصلي الأوقات
كلها في المسجد، كان حكيماً وهادئاً وعطوفاً، يروي لنا في كل ليلة
حكاية، فيها الكثير من العبر، وفي غير أوقات الصلاة يقرأ كثيراً،
ولم أر أجمل من خطه حين يكتب، جلس أمامي في تلك الليلة بوجهه
المبتسم المتفائل وسألني:

- صبحي، أتريد أن تصبح غنياً؟

- لا أعرف.

- قل، نعم أو لا.

- نعم.

- من أجل من؟

- من أجلي.

ثم غنّى لى أغنية شعبية بصوت مايزال يرن فى أذنى:

تعمل للنذل مقدار.

بعد ما كنت بكيكره.

صرت اليوم الحاج بكار.

وتردد صوته مرات عديدة بهذه الأغنية الشعبية، وكأنني أسمعها الآن رغم مضي نصف قرن على موته، كنت أتقلب في فراشي وأنا اسمع جدي يغادرنى وهو يطرق بعصاه مبيتعداً، ناديت عليه قائلاً:

- ما رأيك يا جدى أن أقول؟

هاللہ ہا اللہ یالیو رو

بتعمل للنذل دوره

بعد ما كنت...

وأُكملت الأغنية وأنا أبكي:

- جدی، آین أنت؟

وفتحت عيني على رنة تقول:

- کنت تری کاہو سا۔

- بل رأیت جدی.

جلس محمد علی یمنی، و علی علی یساری، قال علی:

- أريد رؤية صورة جدك.

- جدی لا یحب التصویر.

وسأل محمد:

- ماذا يجب؟

- يجب القراءة.

قال محمد:

- صف لنا جدك.

تذكرت ملامح جدي وقلت:

- كان رجلاً طويلاً، أبيض البشرة مثل شعره، عيناه في سواد الليل، ووجهه في بياض الثلج، خطواته واسعة، صوته حين يغضب كطرق الحجارة، وحين يهدأ كخير الماء، حين يحدثك ينظر إليك باستحياء، وحين تحدثه يستمع إليك وهو مبتسم، إذا تحدثت أسر من حوله بكلامه، وإذا استمع يستمع إليك بكل جوارحه، ينام في وقت مبكر ويصحو فجراً، وحين يقرأ القرآن تحس أن دقات قلبك ترف مع صوته.

وأنا أتحدث كان كل من علي ومحمد يرسمان جدي على ورقتين مختلفتين، وحين انتهيت فردا الورقتين أمامي وقال كل منهما:

- هذه صورة جدك.

كنت أمام قبره ذات مرة أقرأ الفاتحة، رأيته يجلس فوق القبر، ويتسمم، كان يلبس ثوبه الأبيض وشعره كالليل، بعد أن انتهيت من الفاتحة، أردت أن أخاطبه، لكنه اختفى، جلست القرفصاء لأقرأ الفاتحة من جديد علني أراه، لكنني هذه المرة شممت رائحة عطر، آتية من داخل القبر.

قلت:

- جدي، أريد أن أراك مرة أخرى.

عندئذ، توقفت رائحة العطر.

ذهبت إلى البيت، وأنا أرتب أغراضي عثرت على صورة جدي في شبابه، كما رأيته على قبره، أخذت أرتجف، فجدي لم يتصور في حياته أبداً، فمن أين جاءت هذه الصورة، سألت أمي فاستغربت أيضاً، وسألت أبي فاستغرب هو الآخر.

- قالت حنين بحماسة:
- أليس عندك صورة له؟
- ضحكت رغم تعبي.
- هل قلت ما يضحك؟
- ما يشغلني هو صورة جدي، كأنك وضعت يدك على الجرح.
- لم أفهم.
- ونحن نشرب القهوة حدثتها عن قصة الصورة، فقالت:
- شيء لا يصدق.
- وأضافت:
- ولكن من هي تلك العجوز قرب المقبرة؟
- لا أعرفها رغم أنها تعرفني.
- هنالك عجائب لا تصدق.
- لو حدثني أحد بتلك القصة لن أصدقه، لكنها حدثت معي.
- ألم تجلب معك بعض الصور.
- معي صور أولادي، كانوا في محفظتي حين خرجنا من اليرموك، لكن صور أمي وأبي وأخوتي ضاعوا في البحر حين هبت الريح على ظهر البارجة وأنا انظر إليهم.
- أريد أن أرى صور أولاد عمي وهم صغار.
- فتحت محفظتي، سقطت مني صورة، وحين التقطتها، كانت هي صورة جدي التي فقدتها.
- صرخت:
- هذه صورة جدي التي حفظتني من الغرق في البحر.
- ذهلوا جميعاً، نظروا إليّ، فهمت نظراتهم، قلت:

- أقسم أنني لم أر الصورة منذ فقدت.

تداولت الأيدي صورة جدي وكأنها كنز، قالت حينئذ:

- إنه يشبه أبي.

دخلت خالة شيخو، تأملت الصورة وقالت بعينين دامعتين:

- إنه جدي.

ثم قالت بتوسل:

- أرجو أن تعطيني نسخة منها.

وضعت الصورة في محفظتي، وقلت:

- غدا سأنسخ منها عشر نسخ، بل عشرين، بل أكثر.

صباحاً، وقفنا أمام باب إدارة المركز، لأنه موعد المحكمة، لسؤالنا عن الطريقة التي جئنا بها، كان الجو بارداً جداً، جلست رندة مع علي ومحمد إلى جانب أحد الأبواب على مصطبة رخامية، ووقف إمام يدخن، طال انتظارنا في هذا الجو البارد، وعند الظهر، وزع علينا أحد الموظفين ورقة دخولنا وقد كتب خلفها أن المحكمة تأجلت إلى الأسبوع المقبل.

جلست في الغرفة، أمام النافذة المطلة على المزارع الصغيرة، كان هناك رجل وزوجته يقتلعان الأعشاب الضارة من حول الأشجار، قلت لنفسي، أصبحت عشبة ضارة يا صبحي، تعيش على موائد الآخرين، وتلبس لباسهم، وتتكلم لغتهم.

ما الذي دفعك إلى هذا، من شجرة مثمرة إلى عشبة ضارة؟! أهو الخوف من الموت، أم الاشمئزاز مما يجري من جنون، قرأت على النت لأحد الكتّاب، أن ما يجري في الشرق الأوسط هو حفلة من حفلات الجنون.

تغلغل الاشمئزاز من نفسي في داخلي، صرت أبصق على نفسي، أتقيأ على نفسي، المحكمة ليست لي، لأولئك القتلة، لتجار الأعضاء البشرية، لبائعي نפט بلادهم في سوق النخاسة، للذين يشردون الناس.

أنا الآن عشبة ضارة، ترمى إلى جانب الطريق، أعيش بلا هدف، بلا أمل، ثم أموت في أرض لم يعرفها أبي ولا أُمِّي ولا أجدادي.

كأنني تحولت من كائن إلى آخر، يمشي بقدمين ليست له، يتكلم بلسان ليس لسانه، يضحك بفم ليس فمه، ويمارس الحب بجسد ليس جسده.

وقفت في صف آخر، أمام مبنى إدارة المركز، دفعتني الأجساد من هنا إلى هنا، حتى استقرَّ مكاني في الصف.

هذا هو صف اليورو، أخذت ما يقرب من مئتي يورو، كانت جديدة وكأنها خرجت للتو من المطبعة، تأملتُها مثلما يتأمل غريباً شيئاً غريباً.

أول ما يجب فعله اليوم هو أن أنسخ صوراً عديدة لجدي، وضعت يدي في جيبي الخلفي لأخرج المحفظة التي تحوي صورة جدي فلم أجدُها، بحثت في جيوبي فلم أعثِر عليها، صعدت الغرفة، كانت رنّدة تجلس على السرير تداعب علي ومحمد، بحثت في سريري، في سراويلي، في حقائبنا القليلة، لكنني لم أعثِر على المحفظة، جلست على طرف السرير، أردت البكاء، جلست رنّدة إلى جانبي، وقالت:

- يظهر أنك أضعت صورة جدك من جديد.

- بل أضعت المحفظة كلها.

رأيت جدي وهو ينظر إليّ قائلاً:

- لا تبحث عن الصورة.

واختفى الوجه من أمامي.

صرخت:

- لم أعد أطيع هذه الحياة.

ردت رنّدة بدورها:

- والحياة لم تعد تطيقك.

نظرت إليها وكأنني أصحو من حلم، أضافت وكانت ماتزال في حالة هياج:

- صور من نحب هنا في قلوبنا لافي الورق.

خرجت من الغرفة دون أن أقول شيئاً، سمعت صوت رندة يناديني.

جلست في الحديقة، كان الجو ممطرا وباردا، لم أشعر بالبرد ولم أبال بالمطر، كنت كالمخدر، كان هناك فراغ في رأسي؛ كأن الأشياء تبدلت، أو كأنني لست أنا.

وفجأة، بكيت، اختلطت دموعي بالمطر الذي غسل وجهي، لمت نفسي؛ لأنني أصبحت ضعيفا، ألجأ إلى البكاء حين لا أقدر على فعل شيء.

الحرب الملعونة بدلت كيانات الناس، أشعرتهم بالخواء، حفرت في أذهانهم الحزن لقرون، بنت الحواجز بين المرء وقرينه.

وضعت يدي في جيبي، قبضت على النقود التي أخذتها صباحا، ضغطت عليها بقبضتي، أصبحت كتلة صغيرة، كأنني اضغط على رقبتني، لم يعد لدي صبر على الحياة، فلا شيء الآن أجمل من الموت. في تلك اللحظة شممت رائحة رندة تجلس بقربي، مبللة بالمطر وتقول لي:

- صبحي، أنا أحبك.

ارتخت قبضتي عن النقود، نظرت إليها، اقتربت شفتاها مني، وقبلتني وهي تهمس:

- أريدك أن تظل صبحي الذي أعرفه.

ضممتها قائلا:

- أشعر أنني لست أنا.

- أنت أقوى من كل حروب العالم، أنت أقوى من صواريخهم وقذائفهم، أنت أقوى من قهدهم.

- لم أعد أحقد عليهم، أنا أشفق عليهم.
- شفقتك لا تهمهم، مازالوا يقتلون بعضهم، مازال الحقد يأكلهم.
- ورغم ذلك أشفق عليهم.
- واقتربت مني أكثر، أحسست بأنفاسها الحارة رغم الجو البارد، وهمست:
- وأنا، ألا تشفق عليّ.
- أنت شيء آخر.
- كيف؟
- ألم تفهمي؟
- لا، أريد شرحاً آخر يا أستاذ.
- أنا قريب منك، لكنني بعيد.
- أعرف.
- حياتنا السابقة ماتت.
- ستعود.
- وطوقت خصري بيديها، ووضعت رأسها على صدري.
- نحن في الشارع.
- مالي ولهم، أنت زوجي.
- أنت تعذيني.
- أنا أتعذب أكثر منك.
- كانت أنفاسنا هي التي تتلاقى، لم نعد نعبأ بالبرد ولا بالمطر، كنت كأنتي في فراش وثير، أنظر إليها وتنظر إليّ، تنام على يديّ وعيناها مفتوحتين، تهمس:
- أحسّ بالأمان معك.
- وأنا أيضاً.

نتقارب أكثر وإذا حنين أمامي باكية حزينة، خرج السؤال نفسه مني ومن رنـدة:

- ما بك؟

ومن خلال شهقاتها قالت:

- فرزونا إلى فرانكفورت، وسنسافر غدا.

ثم أضافت:

- سنفترق مرة أخرى بعد أن التقينا.

مسحت على شعرها وقلت مخففا عنها:

- لا يهم، سنأتي إليك، وحين نأخذ الإقامة سنجتمع من جديد.

تقدم عمار بكرسيه مهموما وقال:

- لن ننساكم أبدا.

قلت له:

- حنين أمانة عندك.

- أنا الأمانة عندها.

نهضت وقلت:

- مازلنا في بلد واحد، لن يكون افتراقنا هذه المرة حزينا، سنحتفل هذه الليلة لنضحك لا لنبكي.

ابتسموا جميعاً رغم الحزن، قلت:

- هكذا ابتسموا!،

كانت ليلة حافلة بالمشاعر، مرة نضحك، ومرة يداهمنا الحزن، مرة نصمت، ومرة نتحدث جميعا دون أن نفهم بعضنا، لكنها كانت ليلة مميزة، شاركتنا خالة شيخو ووالدته مشاعرنا، وعند الفجر ودعتنا حنين وعمار ليناما ساعتين قبل الرحيل.

لم أنم تلك الساعتين، كانت حنين تركض أمامي كطفلة، ثم كصبيبة، ثم كامرأة لكنها بقيت حنين التي أحبها.

حين صعدت الحافلة التي ستقلها إلى فرانكفورت، صعدت روحي معها، من خلال الزجاج لوحت بيديها مودّعة، لم أحتمل اللحظة، سقطت دموعي دون أن أدري، وشاركتني رندة الدموع.

لماذا حين نلتقي نفترق، ولماذا يجب علينا ان نصادق الحزن، لماذا ولماذا، أسئلة كثيرة تزاхت في راسي، والحافلة تتحرك نحو الباب الحديدي، وبدون وعي لحقت بالحافلة، وحين اختفت عن ناظري في منعطف الشارع، توقفت لاهثا، يائسا، تذكرت عطا والد حنين قبل ان يذهب إلى الموت، قال لي:

- حنين ابتتك حين أموت.

كنت كمن يريد تمزيق نفسه حين اختفت الحافلة، أمسكت رندة يدي وقالت:

- سترها.

- متى؟

- الزمن يمضي.

- هذا الزمن ملعون، يفرق الأرواح كما يفرق الموت الأجساد.

عدت إلى الغرفة ضائعا منكسرا، لم يكن بي رغبة بالكلام، وإذا بجوالي يرن، تناولته رندة وقالت بلهفة:

- إنه عدنان.

دبت الحياة فيّ، كأنّ صوته يكسير الحياة.

- أبي، كيف أنت؟

حين سمعت صوته، عادت حنين إلى جانبي، وسامر يجلس أمامي، وإمام يتسم لي، ومنار وبدور تحضران العشاء، ورندة تحضن كفي، وعلي ومحمد يجلسان في حجري.

- أمنيّتي قبل أن أموت أن تجتمع عائلتنا مرة ثانية على طاولة واحدة.

- سيكون ذلك يا أبي.

لم أستطع الاستمرار، أعطيت الجوال لرندة، لكنها لم تستطع منع دموعها، وسمعتها تقول:

- أنا لا أبكي حزناً بل أبكي فرحاً.

نهضت أنظر إلى المزارع من خلال النافذة، خرجت الشمس من بين السحب، وكأن صوت عدنان جعل الشمس تشرق من جديد، من بين غيوم ممحلة بالمطر.

انهارت رندة على السرير حين انتهت المكالمة، تركتها تفرغ حزنها، نظرت إلى الشمس وإلى حبات البرتقال المتساقطة تحت الشجرة، وإلى حبات السفرجل المتساقطة تحت شجرة أخرى.

وانتابني إحساس بجمال الحياة.

صوت عدنان كان قد منحني هذا الإحساس وكذلك بزوغ الشمس.

قلت لرندة:

- ما رأيك أن نجلس في الحديقة.

ابتسمت كبزوغ الشمس، أحسست أن الجو دافئ رغم برودته.

قلت لرندة ونحن نجلس على إحدى كراسي الحديقة:

- شعور الإنسان يشبه انفجاراً نووياً، يقلب التوازن وينقلك من حالة إلى أخرى.

- كيف؟

- حين ذهببت حنين أحسست بالفراغ المحيط بي، وحين سمعت صوت عدنان امتلأ هذا الفراغ بالفرح.

- تصف الأشياء بدقة لأنك كاتب.

- أحياناً أقف عاجزاً عن التعبير، أعجز عن اختيار الكلمات فأقابل شخصاً عادياً يمنحني ماكنت أبحث عنه.

- ألا تشعر بالبرد؟

- الآن، لا، البرد حالة مادية خارجية، كلمات عدنان منحني الدفء لمقاومة البرودة الخارجية.

كانت تستمع بكل اهتمام.

- حين تبرد أرواحنا تبرد الحياة من حولنا والعكس صحيح.

وبعد صمت قصير أضفت:

- كنت ذات صيف أسير في شوارع دمشق العتيقة، كانت هناك ساحة مليئة بالشمس في تموز، كدت أختنق بسب الحرارة، وفي زاوية الشارع رأيت حنفية ماء يشرب منها رجل عجوز، في تلك اللحظة شعرت ببرودة جميلة، دخلت كياني ونقلتني من حالة إلى أخرى، ماء الشام هو أكسير الحياة، من لم يشربه لا يحس بطعم الحياة.

- لكنه تلوث بالدم.

- هنالك مصالح وقوى عالمية تلعب بأرواح الناس، تدفعهم إلى الجنون والموت.

وفجأة ظهر رجلا النظام والمعارضة يسيران جنب إلى جنب، وحين سلما عليّ قلت لهما ممازحا:

- لو كنتما هناك هكذا، لما كنا نحن هنا.

ابتسما وابتعدا.

- من هما؟

سألت رندة.

قصص عليها ما حدث فعلقت:

- لو كنت هناك لكنت من رجال المصالحة الوطنية.

- حين يتعب الطرفان ليس لهما طريق سوى المصالحة.

كنت أتحدث وكانت حنين ماثلة أمامي، تنتظر مكالمة مني فتبكي، تتذكر أيامها في غرفة المركز في فرانكفورت، في مخيم الزعتري، ومع العجوز، واختفاءها في إيطاليا، ولقاءنا، ذكرياتها هي حصيلتها التي بقيت لها.

رنَّ هاتفي الجوال، كان صوت حنين:

- طنت أذني فقلت أن عمي يذكرني.

- صحيح.

- لماذا كلما اجتمعنا نفرق.

غصَّ حلقي، أحسست أنها الجملة الحقيقية، أخذت رنـدة الهاتف وابتعدت عني لتحادثها، رأيت شخصاً يتحدث بالهاتف بلهجة سورية، ثم أغلق الخط وانخرط بالبكاء.

تقدمت منه، وضعت يدي على ظهره لأواسيه، قال:

- كنت أتحدث إلى أخي الذي سرحوه من الخدمة بسبب إصابته.

جلست رنـدة إلى جانبي تستمع إلى قصة الرجل السوري.

- أخي يامن كان عنصرًا في الجيش، أصيب في أطراف حمص بطلق ناري في رأسه، ومات، ولكنه لم يمـت.

- كيف؟

- أخذوا المصابين إلى المشفى لإسعافهم، أخذوا الأموات ومنهم أخي إلى براد المشفى، وللصدفة لم يعد براد المشفى يتسع للجثث، فبقي خارج البراد، وللصدفة أيضًا مرَّ أحد الأطباء به فوجده يتحرك، فأسعفه بعد أن كان في عداد الأموات.

- حادثة أغرب من الخيال.

- ما يحدث هناك فوق كل خيال، حين عاد أخي يامن إلى قريتنا استقبله الأهالي وكأنه عائد من القبر، لكنه لم يعد يامن الذي كان، فلم

يعد يعرف أحدا في القرية حتى أمه لم يعد يعرفها، لقد فقد ذاكرته.

مسح الرجل دمعتين وأضاف:

- عاد شخصا آخر غير يامن، طوال الوقت وهو ينظر إلى الجدار صامتا.

شهقت رندة:

- يا الله.

قلت له:

- نحن الآن مثله فقدنا ذاكرتنا حين تركنا سوريا.

أحسست بالاختناق، خرجت من المركز، مشيت رندة إلى جانبي صامئة وكأنها شعرت أن الكلام لم يعد يفيد، فكرت، كم من المصابين ماتوا في البرادات وهم أحياء، هؤلاء ماتوا ميتتين لا ميتة واحدة.

كيف شعروا وهم يتجمدون، ماذا فكروا، وماهي الصور التي راودتهم، لم يستطيعوا أن يدقوا جدران البراد، لأن أيديهم تجمدت.

أين هم الأطباء الذين لم يعرفوا الحي من الميت؟!

يامن حالة شاذة من بين مئات بل من بين آلاف، حالة لا تتكرر إلا نادرا، وقد لا تتكرر، إنه عصر الجنون، ويبدو أن هنالك قصصا أكثر إيلا ما لم نسمع بها.

فكرت في توثيق تلك القصص في هذه الرواية، لكنني خشيت ألا يصدقني القراء.

فجأة، أمسكتني رندة من يدي وشدتني إلى الخلف، فمر الأوبان من أمامي سريعا ساقا.

قالت بخوف:

- كاد يدهسك.

- كنت أفكر في الأحياء الذين تجمدوا في برادات المستشفيات.

عدنا إلى الغرفة، لم أستطع النوم، قلبت صفحات روايتي، كدت أمزقها، لولا دخول خالة شيخو التي قالت:

- ستقرأ لنا هذا المساء.

- كدت أمزقها، الناس يتعذبون أكثر مما كتبت.

- إذا مزقتها لن يعرف الناس كم تعذبوا.

لبست حذائي وقلت لرندة:

- سأرى إن كان لنا اسم في الفرز الجديد.

خرجت، هبت رياح باردة فأنعشتني، كانت أوراق الأشجار قد بدأت تتساقط في بداية الخريف، رأيت الناس يتجمعون أمام لوحة الفرز، وبصعوبة بدأت أقرأ الأسماء من بين الأجساد، لمحت اسمي واسم رندة وإمام وعلي ومحمد، أخرجت هاتفي النقال وصورت ورقة فرزنا.

نبض قلبي، سأتخلص من الغرفة المباحة لكل العائلات، سأتخلص من الحمامات المشتركة، سأتخلص من الوقوف أمام المطعم، سأتخلص من ذلي دفعة واحدة.

من الصورة عرفت أن فرزي جاء في مدينة شتوتغارت، مدينة الحدايق الجميلة، والسيارات الفخمة، مرسيدس وبورشه، مدينة الأغنياء، أما أنا فلن املك في تلك المدينة سوى كلماتي التي كتبتها عن العذاب.

فرحت ولم أفرح.

هل هو مركز جديد أم قديم، وهل الغرفة هناك ستكون مشتركة مع عائلة أخرى، أسئلة خطرت على ذهني وأنا أصدق إلى غرفتنا لأخبر رندة، فرحت قليلاً ثم بدا عليها التأثير.

- ما بك؟

- سنترك أم شيخو وخالته.

- العائلات تفرقت في هذه الحرب فكيف بالأصحاب.

في تلك الأمسية المليئة بالمشاعر، بكت أم شيخو وخالته، ورندة، ودمعت عينا إمام، أما أنا فخرجت إلى الممر لأمسح دموعي، وحين عدت كان الشاي الدمشقي بالنكهة الكردية حاضرا لأقرأ لهم مقاطع من الرواية للمرة الأخيرة.

قالت خالة شيخو وهي تقدم لنا الشاي:

- أمانة عليك إذا طبعت الرواية أن ترسل لنا نسخة منها.

- سأفعل يا خالة، تلك أحزاننا جميعا.

- وعد؟

- وعد.

بكوا جميعا حين قرأت، لم أستطع إكمال القراءة، فأغلقت أوراقني وصمت.

قالت خالة شيخو:

- كلماتك أعادتنا إلى هناك، كلماتك أعادت ذاكرتنا التي كدنا نفقدها، كلماتك شاهد حي على ما حدث، اقرأ يا أستاذ، أنت قلت ما لم نقله.

عدت إلى القراءة وحين وصلت إلى جهاد النكاح وقفت خجلا، فقالت خالة شيخو:

- لا تخجل يا أستاذ، نحن نعرف كل شيء.

سردت قصتين حقيقتين في هذا الموضوع، الأولى عن امرأة اسمها سعاد، اختطفوا زوجها، ومات أولادها تحت القصف، ثم جاؤوا ليخبروها أن زوجها يريد رؤيتها، وحين ذهبت معهم لم تجد زوجها وأجبروها على النكاح الجماعي، فرضخت للأمر ثم انتحرت في نهاية المطاف.

أما القصة الثانية فهي قصة بسمه، الفتاة التي هربت من جحيم الحرب اختطفوها وتداولوا عليها واحدا إثر الآخر، كان زعيمهم هو

الذي افتض بكارتها ثم تركها لرجالها، وذات ليلة ألبسوها حزاما ناسفا
لتنفذ عملية قرب مدرسة أطفال، فما كان منها إلا أن فجرت نفسها بينهم
لتنقم لشرفها.

قالت خالة شيخو بحماسة:

- أخت رجال.

ثم أضافت:

- هذه ليست أخلاق الثوار، إنها أخلاق الخنازير.

وسردت لنا قصصا ينجل القلم من كتابتها ثم قالت:

- اكتب ذلك يا أستاذ.

فقلت مجاملا:

- سأفعل، كان الشاي الدمشقي بالنكهة الكردية قد برد، رغم
سخونة أعصابنا ومشاعرنا.

في الصباح البارد، نقلنا أغراضنا إلى جانب الحافلة التي ستقلنا إلى شتوتغارت، ودعنا شيخو وأمه وخالته، وبكت رندة وكأنها تودع أهلها، قالت لي خالة شيخو قبل أن أخرج:

- أنت وعدتني بنسخة مطبوعة.

أجبتها مبتسماً:

- وعد الحر دين.

تحركت الحافلة باتجاه شتوتغارت، مكان آخر نودعه لنستقبل مكاناً جديداً.

حين تهاجر، تتبدل الأمكنة، تشعر أنك لا تنتمي إليها ولا تنتمي هي إليك؛ في العصر الجاهلي، كان للمكان قدسية رغم بداوة السكان الذين يرحلون من مكان إلى آخر، يشعرون أنهم ينتمون إلى أرضهم، رغم تبديلها حسب المطر والعشب.

ورغم كل شيء، كنت أنظر إلى المدن التي مررت فيها من إيطاليا إلى ألمانيا إلى لبنان إلى الجزائر إلى ليبيا فأشعر أنها أصبحت جزءاً من ذاكرتي، التي لن تنمحي، أنا ابن تلك الأمكنة العديدة، أحن إلى تورنتو حيث أنزلتنا البارجة الإيطالية، أحن إلى ميلانو التي قضيت فيها ليلتين، أشعر أنها أصبحت جزءاً مني، ولذلك شعرت بغصة حين تركتها، كم مكان سأبدل بعد هروبي قبل أن يستقر مكاني تحت التراب، نظرت إلى كارلسروه والحافة تغادرها، مسحت دمعتي، لاحظت رندة تأثري فسألت:

- كيف يحن الغريب إلى مكان غريب؟

- الإجابة صعبة.

- الصعوبة في الأمر أن المكان الذي لا تنتمي إليه يحتل جزءاً من روحك ومن ذاكرتك.

- الإنسان ابن الأمكنة. كارلسروه مدينة جميلة لكنني لا أنتمي إليها وهذا ما يؤلمني، ويبدو أن الألم يلاحقني حتى في الأمكنة، هل هي لعنة الأماكن؟!

لم أفكر يوماً وأنا في دمشق أنني سأترك مكاني إلا إلى فلسطين أو القبر، لكن هذه الحرب جعلتني أنتمي إلى أماكن عدة، تورنتو، ميلانو، أولم، ميونيخ، كارلسروه، وقبلها، بيروت وصيدا والجزائر، ودراع بن خده، وهاهي شتوتغارت على الطريق.

كنت أسمع اسمها حين كانوا يتحدثون عن السيارات الفخمة، مرسيدس، بورشه، ولم أفكر يوماً أن القدر سيحط رحالي بها.

إنه عالم أشبه بالخيال، الحروب تصنع المعجزات، فهل هي لعنة الحرب أم لعنة الأماكن؟!

أماكن تمر كمر السحاب، نعيش فيها لفترة قصيرة ثم نتركها إلى غيرها، تصبح جزءاً من ذاكرتنا، لكن هذه الذاكرة مشروخة، متشظية كما شظايا القذائف، نحلم بالعودة إلى مكاننا الأصلي، لكن الحلم يبقى حلماً، حتى لو عدنا نحس أننا فقدنا جزءاً من ذاكرتنا في تلك الأماكن التي تركناها.

قالت رنده وكأنها أحست بما يدور في ذهني:

- أنت حزين لأنك تركت كارلسروه.

- أنا حزين لأن تلك الأمكنة أخذت الشكل المزيف لمكاني الأصلي.

- ستعود يوماً إلى مكانك الأصلي دمشق.

- لكن ذاكرة الأماكن تشوهت، انتميت إلى أمكنة لا أعرفها ومع ذلك أحبها.

- الإنسان ابن المكان.

ابتعدت كارلسروه، ابتعد المكان الذي عشت فيه شهرا ونيف بكل مصاعبه وأفراحه.

كان علي ومحمد ينظران من النافذة مبتسمين، أما إمام فلم تبتد على ملامحه مشاعر الرضا أو السخط.

هناك، حين كنا نركب الحافلة إلى اللاذقية نشعر بالاطمئنان، لأننا سنرتاح أسبوعا من عبء العمل، ترى البحر أمامك صفحة صافية، وتدخل النارجيله وتأكّل السمك.

هنا، الأمر مختلف، شعرت بالتوتر لأنني لا أعرف المكان الذي أتجه إليه.

قلت:

- متى سنستقر في بيت؟

- لن يحدث هذا إلا بعد الإقامة.

- يا الله، هنالك إجراءات كثيرة، أوراق وأوراق، ستعملين لحافا وأريكة من الأوراق، ستصبح جدرانك أوراقا، مطبخك مليء بالأوراق، حمامك كله أوراق، أحلامك أوراق، ملابسك أوراق، وجهك أوراق، زوجك أوراق، سماءك أوراق، أرضك أوراق، أكلك أوراق، حياتك أوراق.

ضحكت رندة حتى دمعت عيناها وقالت:

- قل نحن صرنا أوراقا.

- نعم، سنتحول في المستقبل إلى أوراق فيها تعليمات الهجرة والجنسية والاندماج ودراسة اللغة وتعديل الاسم والكنية، والراتب، وكرت الأوكا وكرت البنك، وجواز السفر والهوية وغيرها وغيرها.

ثم أضفت:

- سوف تحملين جواز سفر ليس لك لكن صورتك عليه، وحين نموت لا نحتاج إلى ذلك كله لأن الأموات لا يحملون أوراقا ثبوتية.

صمتت رندة وصمتت أيضا، كنت أنظر من خلال نافذة الحافلة إلى البيوت القرميدية والأشجار التي بدأت أوراقها تتساقط في الخريف.

فكرت في شكل مدينة شتوتغارت، هل هي مثلثة مثل كارلسروه، أم دائرية كما قرأت عنه؟! هنالك سكك حديدية فوق الأرض وتحتها، هنالك أسماء شوارع ليست بلغتك، الكهرباء لا تنقطع ولا المياه، كأن الجن هم الذين بنوا هذه المدن، سوف تدور في دوائر شتوتغارت حتى تنوه وتدوخ.

كان الصباح رماديا كئيبا كحالتني النفسية، أردت أن أسلي نفسي بعد القرى التي نمر عليها، لكن ذلك لم يمنع كأبتي الداخلية.

كيف لي أن أجد نفسي في مكان لا أعرفه، مع أناس لا أفهم عليهم، طباعهم مختلفة، أشكالهم مختلفة، يرافقون الكلاب ويقرأون الكتب، يتحدثون بصوت منخفض، قد يصادفك شخص نائم في القطار شرب حتى الثمالة؟! شعرت أنني أريد أن أنام أنا أيضا، لأن الأفكار المتلاحقة أتعبتني، ولم تبهجني تلك المناظر الجميلة في الخارج لأنني أحسست أنها بلا حياة.

دخلت الحافلة أطراف مدينة كبيرة، قلت لرندة:

- يبدو أننا وصلنا شتوتغارت.

وتنهدت وهي تنظر من النافذة، خففت الحافلة من اندفاعها، ثم انعطفت لتقف أمام مبنيين، الأول برتقالي اللون، والثاني أصفر اللون، مازال العمال يعملون فيه.

كانت السماء تطر رذاذا، نزل الجميع من الحافلة، حملنا أغراضنا البسيطة، استقبلنا رجال ونساء خارج الحافلة بوجوه ضاحكة، وكأنهم يعرفوننا منذ زمن بعيد، وقادونا إلى قاعة كبيرة، وضعت على الطاولات أصناف الكاتو والعصير والماء والقهوة والشاي.

كان بعضهم يتكلم العربية بركاكة، سلموا علينا واحدا واحدا، شربنا وأكلنا، كانت ابتساماتهم لا تفارقهم، وكان بينهم بعض العرب الذين أقاموا في ألمانيا منذ مدة طويلة، بعد اللقاء الحافل أخبرونا أننا سندخل إحدى الغرف في الممر حين يقرأون أسماءنا، حين قرأوا اسمي، دخلت إلى غرفة، خلف المكتب تجلس عجوز لم تفارقها الابتسامة، أعطتني ظرفا فيه شيك مالي، وظرفا آخر فيه مفاتيح غرفتي، وأشارت من نافذة المكتب إلى المبنى الأصفر الثاني، حيث ستكون غرفتنا ورقمها ٨-ب-.

كانت الغرفة مستطيلة، فيها خزانة وبرد صغير، وثلاثة أسرّة، حين أقفلت باب الغرفة قلت لرندة:

- لن يشاركنا أحد في هذه الغرفة.

- لكن المطبخ والحمامات مشتركة.

- إنهم هنا يتبعون خطوات، من السيء إلى الأحسن.

خرجت لأستحم من عبء السفر، وحين عدت كانت عينا رندة هراوين من البكاء، وكان إمام صامتا شاردا، في سريرته العلوي.

- ماذا بك؟

- تذكرت بيتنا.

- ستعودين أنت إليه، أما أنا فأوصيك ان تنقلي رفاقي إلى هناك.

قالت بحدة:

- يبدو أنك تريد مأتما آخر.

- هذه حقيقة.

كان الجو قائما كحالتنا النفسية، بعد بهجة الغرفة الجديدة.

قلبت الشيك بين يدي وقلت:

- صرت ألتقى معونات كالفقراء، حين كنت أقبض راتبتي أحس بكساني، أما الآن فالنقود لا تعني لي شيئا.

تركت رندة ترتيب الغرفة الجديدة، وجلست أمامي، نظرت إليّ:
- أنت تزيد همي، يكفي أنني تركت أهلي في نار الحرب وجئت
معك، صبحي كفي.

أحسست أنني حزين، كبر حزني فجأة، واسودت الدنيا، خرجت
من مركز الإيواء، وسرت في شارع طويل بلا هدى، وإذا بي أمام مقبرة،
دخلتها وقرأت الفاتحة، كما تعودت، كان هناك عجوزان يقفان أمام
قبر، عليه صورة شاب في العشرين من العمر، أحسست بحزن أمني
وأبي على فتاح وبدرية ونظيرة وعطا، وقفت إلى جانب العجوزين،
نظرا إليّ بصمت، كان بودي مواساتها بلغتهما، لكن نظراتي كانت
كافية، سرت بين المقابر أنظر إلى الشواهد الرخامية الغالية الثمن،
وتساءلت في نفسي:

- المنعمون يموتون، كما نموت نحن الفقراء.

خرجت من المقبرة الهادئة إلى الشوارع التي تضج بالحياة والناس
والسيارات الفارهة، سرت بلا هدى ووقفت فوق جسر أنظر إلى مياه
النهر، كانت دوائر حمزة تتسع أمامي، كأنها اندمجت بدوائر مدينة
شتوتغارت، سقط مطر خفيف، ضاعت الدوائر، اختلطت أفكار،
شعرت بالتوهان وبعدم معرفة نفسي، ماهي تلك المدينة، وما هو
هذا النهر، ومن هما العجوزان في المقبرة، ومن ذلك الشاب الذي
داخل القبر، شعرت أن ذلك لا يعنيني للحظات، ثم في لحظات
أخرى أحسست أنهم أصبحوا جزءا من كياني.

تلك ضريبة الهروب، لا تدرك الأشياء على حقيقتها، تختلط الحقيقة
بالوهم، شعرت أنني أمام مسار جديد في حياتي، نسيت فيه وجودي
القديم، وأعيش وجودا جديدا.

غسلني المطر، وأنا أفكر بكل هذا، ضاعت الدوائر تماما، وحلّت
محلها نقاط المطر التي تضرب الماء، ابتعدت عن النهر، ابتعدت عن
الدوائر التي اخفت وعن نقاط المطر التي تطرز صفحة الماء، اشتد المطر،
اشتدت أفكار، قتامة، أحسست بيد تضغط على عنقي، تحاول إخراج

روحي، فتحت زر القميص، دخل إلى صدري هواء بارد رطب، انتعشت
للحظات ثم أحسست بالبرودة، قلت لنفسي، هل هي برودة الموت.
أسرعت الخطى لأهرب من تلك الأفكار، اشتقت إلى أولادي جميعا،
كنت أسرع الخطى نحو مركز الإيواء الجديد، لا أدري سببا لهذا الاشتياق
الفجائي.

كانت رندة ماتزال ترتب الغرفة، جلست على طرف السرير،
وكان جسدي ينقط ماء، اقتربت رندة مني ويدها منشفة جففت
الماء عن شعري ووجهي، نظرت إليها، كانت أجمل امرأة في العالم،
خرجت من اليرموك لكي لا أموت وأتركها وحيدة.

- لست مضطرا للسير تحت المطر، ستمرض.

- مادمت معي لن يصيبني مكروه.

ضحكت باستحياء، وعادت تفرك شعري بالمنشفة، اقتربت مني،
أحسست بأنفاسها، أردت أن أسرق منها قبلة، لكن عليا ومحمدا دخلا
فجأة وهما في غاية السعادة.

قال علي:

- صار عندنا رفاق من سوريا.

سأله:

- بهذه السرعة؟!!

قال محمد:

- تكلموا بلغتنا فصرنا أصدقاء.

قال علي:

- محمود وزكريا أكبر منا قليلا لكننا أحبينا صداقتهما.

وقبل أن يخرجوا قال علي:

- أبي، نحن في ساحة المركز.

نظرت إلى رندة وقلت:

- هم وجدوا أصدقاء جددا، وأنا عندي صديقة قديمة، كلما طال الزمن أحببتها أكثر.

- قد يدخل إمام ويسمع ما قلت.

- ليسمع، ليس ما أفعله عيباً أو حراماً، العيب أن أكتُم مشاعري.

وقبل أن تنهض سرقت منها قبلة.

قالت خجلة:

- أنت تتصرف كالمرهقين.

- السنوات لم تجعل حبي يفتر لحظة واحدة.

دخل إمام، ابتعدنا عن بعضنا، قلت لرندة:

- أنا ذاهب لصرف الشيك.

سمعتها وأنا أخرج:

- أحضر لنا شيئاً نأكله، البراد فارغ.

نظرت إليّ موظفة بنك - ب ف - بريئة شديدة، طلبت الهوية، أعطيتها ورقة المركز، فهمت منها أنها يجب أن توضع عليها صورتي، وبعد جهد وضعت الشيك في آلة وأعطتني النقود.

اشتريت طعاماً من سوبر ماركت الـ -rewe-، وبعد الظهر نمت قليلاً، كان اليرموك أمامي مساحة كبيرة، مليئة بالضوء، الناس تسوق في شارعي لوييه واليرموك، مبتسمة مطمئنة، والشوارع تعج بالسيارات، وفجأة توقفت الحياة، وهجر الناس الشوارع، وامتلاً اليرموك بالحفر، رأيت نفسي أقف وحيداً في شارع واسع وأصرخ:

- أين أنتم يا أهل المخيم؟

أحاط بي مسلحون ملثمون، صاروا يضحكون، كانت لغاتهم غريبة، سمعت أحدهم يقول:

- إنه مجنون، اتركوه.

أردت أن أقول:

- إن ما تفعلونه هو الجنون بعينه.

لكنني صمت، حتى في الحلم كنت أخاف، هذه الحرب علمتنا الخوف.

حملوا سلاحهم وذقونهم وذهبوا، بقيت وحيداً أصرخ، لا ناس، لا سيارات، لا مطاعم، لا مقاهي، لا أولاد يلعبون، أين ذهب كل ذلك في لحظة عين؟! أهو الخوف على الحياة أم هو شيء آخر؟

كانت أصوات القذائف تصم أذني، تطغى على نداءاتي المتكررة.

لكزنتي رندة وهي تقول:

- انهض، الطعام جاهز.

كنت أكل الطعام، وكأنني أكل لحم أطفال اليرموك، أكل شعور الخوف في عيونهم، هم يموتون من الجوع وأنا أكل لحومهم، يأكلون ألواح الصَّبَّار وأنا أكل أكبادهم، يأكلون لحم القطط والكلاب وأنا أكل لحومهم.

لحم اليرموك مستباح، كلنا أكلنا لحمه؛ الذين خرجوا أكلوا اللحم من بقي، ومن بقي عاد إلى العصر الحجري، ليبق اليرموك حياً، ولكن هيهات، بقيت فيه زبالة من روح، والأرواح الشريرة انفلشت في سمائه وأرضه.

أخرجوا الأموات لتأكلوا لحومهم، أخرجوا القطط والكلاب والذباب لتأكلوه، أخرجوا أوساخ أمعائكم لتأكلوه.

لم يتبق شيء لم نأكله، لم يتبق شيء لم نأكله، هنا بدأ الشر وهنا ينتشر الشر.

أحملوا السلاح، اقتلوا بعضكم، كلوا من لحم جثثكم المتعفنة بالكره والخداع والمؤامرات، اقتلوا أطفالكم وكلوهم، فحومهم طرية، لم يتبق غراب لم ينشق فوق سماء اليرموك، لم يتبق حقير لم يطأ أرض اليرموك، اليرموك امرأة تزوجها مئات الرجال، وولدت آلاف المعاقين، أكلت

لحوم الأموات ولم تحجل من الرجال الذين توالوا عليها واحدا اثر الآخر، نعيم اليرموك امرأة مستباحة، مقهورة، لكنها راضية، تركها أهلها لرجال الشر، لنكاح الشر، بيوتها أصبحت قبورا، ومساجدها خلت من المصلين، وأطفالها أصبحوا جنودا يقتلون بعضهم في الزوارب الضيقة.

ألم تشبعوا من لحم الأموات والقطط والكلاب، وألواح الصبّار والأعشاب، من لم يشبع من أكل الحلال لن يشبع من الحرام، أتخمت من لحم الأموات، أتخمت من لحم الأطفال، أتخمت من الأعشاب والقطط والكلاب والحمير والحمير والبغال، أتخمت من الأعشاب وألواح الصبّار، أتخمت من الوجع، أتخمت من الدموع، أتخمت من القذائف والرصاص، أتخمت من أولئك الذين يموتون من أجل كراتين الإغاثة، أتخمت من أيادي النساء اللواتي يبحثن في الأرض المليئة بالرصاص وشظايا القذائف عن الخبازي والعلت، لم يعد إلا أن تطبخوا لأولادكم الحجارة في عهد عمر بن الخطاب، اطبخوا الحجارة، ستلين الحجارة، كما لانت أرواحنا، كما تعبت أرواحنا، حجارتنا لم تتعب، حجارتنا لم تعد قاسية، صارت كالإسفنج.

لم يعد لديّ صبر على التخمة، أنا أصاب بالتخمة، وهم يموتون هناك؛ كيف لروحي أن تستقر، كيف لجسدي أن يرتاح، كيف لحياي أن تستمر، لم أعد أسمع رنّة وهي تقول:

- صبحي، ما بك؟

أتخم سمعي، حسبتني ميتا وأنا جالس فصرخت:

- صبحي، لم لا ترد عليّ؟

انتبهت لها، نظرت إليها بعيون متخمة بالدموع، بروح متعبة، وبجسد متهالك.

- أنا متعب.

ووضعت اللقمة في فمي وكأنها سكير، لم يعد هناك بطون جائعة، ولم يعد هناك أطفال جائعون، لم يعد هناك معونات، ولا خبازي ولا

علت، ولا لحم الكلاب والقطط والبغال والحمير، ولا ألواح صَبَّار،
فالجميع قد أتخم.

حين يأتي الموت، لا تسل عن التخمة، لا تسل عن المعونات،
ولا عن لحم القطط والكلاب والبغال والحمير، اشبع موتاً، فأنت
في زمن الحرب المجنونة، هنا حيث الحياة يبدأ الموت، وهناك حيث
الموت تبدأ الحياة، هنا شربت الماء لكنني مازلت ظامئاً، هنا أتخمت
لكنني مازلت جائعاً، هنا، لم أعد اسمع أصوات القذائف، لكن
جسدي ينفجر في كل لحظة.

حين تركت اليرموك وعبرت البحر صرت إنساناً آخر، حين دخلت
مراكز الإيواء تغير شكلي، حين لمست امرأة أحسست أنها امرأة أخرى،
أولادي لم أعد أعرفهم، ونفسي لم أعد أعرفها، ذكرياتي تركتها هناك،
صوري، قبر أمي وأبي وأخوتي، لا بدَّ أن أصوات الرصاص والقذائف
أزعجت الموتى.

لا يهم؛ فهذا زمن إزعاج الأحياء والأموات.

التقيت بامرأة في الإيواء، تجلس في الشمس، تنظر إلى لاشيء، نظرت
إليَّ وقالت:

- أنت من سوريا.

- كيف عرفت؟

- شكلك يوحي بذلك.

- لكن شكلي تغير، الحرب غيرت الأشياء.

- داخلك هو الذي تغيَّر لا شكلك.

- من أنت؟

- أنا محاضرة علم نفس في جامعة حمص.

- كيف جئت؟

- مشيت عشرة بلدان كي أصل إلى هنا، وأنت؟

- عبرت البحر لأصل إلى هنا، لكنني ضيعت نفسي.

- كلنا تغيرنا، الحرب تأخذ الأرواح وتغيّر النفوس.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- بيتي في الجسر، عند أول اليرموك، كان كل شيء واضحاً لي، المسلحون يصلون ويجولون في اليرموك والنظام يحاصرهم، والناس تجوع، الأطفال والشيوخ يموتون جوعاً، والنساء تقطف الخبازي والعلت تحت وقع القذائف.

- الأرض تهتز، المسلحون يأكلون والناس جوعاً، كيف يحدث هذا، من يدخل لهم الطعام والشراب، الناس هم الذين حوصروا فقط، أولئك الذين لم يحملوا سلاحاً، ولم يقتلوا، أما الذين يقتلون فمتخمون، خرجت من بيتي حين خرج أهل اليرموك، أرى جموعهم وهي تزحف فأبكي، استأجرت بيتاً في الزاهرة، في كل يوم، كنت أنظر إلى بيتي، أراه يتآكل بفعل القذائف والرصاص، حتى صار على الهيكل، كتبي هناك، محاضراتي هناك، شعرت أنني صرت على الهيكل مثل بيتي، أمشي كهيكل عظمي، لم أعد أشعر بشيء، زوجي مات قهراً في تركيا، لم أعد أطيق الحياة، اتفقت مع سائق شاحنة، أعطيته معظم ما معي من نقود، جلست أنا وأولادي الثلاثة بين الصناديق، لا هواء، لا ضوء، والطعام تمر وماء، حين تهتز الشاحنة، نهتز معها؛ كجثث جوفاء بلا روح، وأخيراً أوصلتنا السيارة إلى مهرّب آخر، أخذ ما بقي معي من نقود وأوصلني إلى ميونيخ، وهأنا هنا، أجلس يومياً على هذا المقعد يومياً، حين ينام أطفال، لم أعد أفكر بشيء، حتى أنني لم أعد أقرأ، ماذا أقرأ وما حدث معي حكايات من الأساطير، بعد قولها هذا لم أستطع قول شيء، ماذا أقول بعد أوجاع الأرواح، لم تعد هناك مساحة كافية للكلام، كما لم تعد هناك مساحة كافية للقراءة.

نهضت المرأة، كان وجهها كالشمع، مشت قليلاً ثم التفت إليّ
قائلة:

- كنت أقرأ لك، رأيت فيلمك عن الجولان، وقرأت قصصك عن فلسطين، نحن الآن لا نريد فلسطين ولا الجولان، نريد استعادة اليرموك، نريد استعادة سوريا، تلك آمالنا تصغر في زمن الحرب المجنونة، تلك الحروب علمتنا الجبن والهروب، تلك الحروب لم تكن حروبنا، لم يكن جنوننا، إنها فخ الحروب.

اختفت المرأة وأنا لم أعد أقوى على النهوض، كيف أنهض وقواي استنزفت بسبب ما سمعت، ما سمعت هو شيء لا يحيط به عقل. أردت أن أبكي لكن البكاء خذلني، أردت أن أنظر إلى السماء الكالحة، لكنني لم أستطع، كنت صامتا، يائسا، هادئا.

كنت كأني لا شيء، ما كتبه في حياتي ليس شيئا أمام تلك اللحظة، ما سمعته من المرأة أعاد لي تلك المشاهد حين خرج معظم أهل اليرموك، يجرون الخذلان، تركوا كل شيء وهربوا، تركوا ذواتهم داخل اليرموك وخرجوا بلا ذوات.

إنها النهاية، بل هي نهاية النهايات، أن تترك شخصك وتسير بلا شخص، أن تترك ذاكرتك وتسير بلا ذاكرة، أن تترك أحلامك وتسير بلا أحلام، أن تشعر أنك نقطة ماء سقطت في مجرى وتلاشت.

نظرت إلى السماء وقلت لنفسي، ماذا أفعل بهذا التراكم الحزين، وجاءني صوت من أعماقي، الآن ليس بيدك فعل شيء، أنت الآن عاجز، عاجز.

نهضت وكأني أهرب من ذلك الصوت، ولكن أين المفر، البحر من ورائكم والعدو أمامكم.

في ساحة مركز الإيواء، رأيت مجموعة من الرجال يحيطون برجل يتحدث بلهجة سورية عن الراتب الشهري للكبير وللصغير، نسي آلامه وبيته وشارعه وأهله واهتم بالمعونة الشهرية، كانوا يستمعون إليه باهتمام بالغ، كدت أصرخ فيهم، ألهذا جئتم إلى هنا، لكنني تجاوزتهم، ومازال صوته يطرق سمعي، مثلما طرق سمعي صوت

من أعماقي حين وصفني بالعجز، وقبل أن أغادرهم سمعت أحدهم يصف الآخر بالعقيد، وآخر بالمختار.

هنا تبدأ حكاية باب الحارة في مركز إيواء شتوتغارت، عادات الزواج والطلاق ومشاكل نساء ورجال باب الحارة، ومقاومة الاحتلال الفرنسي كانت تسلينا في أشهر رمضان، لكنها الآن تدفع إلى الجنون حين بدأ الواقع.

هنا تبدأ لعبة الأسماء المستعارة من مسلسل باب الحارة، تعرفنا على العقيد المزيّف والزعيم المزيّف، والنساء المزيّفات، والرجال المزيّفون، والمكائد المزيّفة.

تبدو حياتنا كلها هي لعبة التزييف، فباب الحارة لم يعد ذلك الباب الذي يضم الناس البسطاء، ولم تعد مشاكلهم بسيطة في عصر الزيف. تجمعوا كلهم في الطابق العلوي من الإيواء، وأخذوا يؤسسون لباب حارة جديد في ألمانيا، ولكن بدون باب، وبدون حارس يتدفأ على تنكة عتيقة صدئة، وكأس من الشاي.

هنا تبدو حكاية الزيف، يستعIRON الأسماء بلا مضمون، لكنهم ليسوا هم، والمكان ليس لهم وكذلك الزمان، ذلك مكان وهذا مكان آخر، وذلك زمان وهذا زمان آخر.

لم تعد الحارة لهم، سرقتها الحرب، هدمتها الحرب، مات من مات، وعاش من عاش، الأبطال يتحدثون بلغة أخرى، سيناريو المسلسل تغير، دمشق تغيرت، كانت شيئاً قبل الحرب، وصارت شيئاً آخر بعد الحرب.

خلت الحارة من ساكنيها، لم يعد أبطالها إليها، لم تعد تسمع أحاديثهم، ولم تعد ترى مكائدهم، ولم تعد ترى لمتهم حول مائدة الطعام، لم تعد تسمع إلا أصوات الرصاص والقذائف، وأزيز الطائرات الحربية.

العدو الخارجي أصبح عدواً داخلياً، باب الحارة تبخّر، والناس الطيبون تبخروا، الجسد يأكل بعضه، والحق يدأكل الأخضر واليابس.

هنالك بدأت حكايات التسلية، والآن بدأت حكايات الواقع المر.
لم طاردتنا باب الحارة إلى هنا؟! هنالك ابواب كثيرة أوصدت في
وجوهنا إلا باب الحارة، انفتح في عقولنا وانغلق ملايين المرات.

هل هؤلاء الناس نتاج الحرب أم نتاج باب الحارة؟!
وقفت حائرًا، لم أتحذّث مع أحد منهم وتركتهم يصفون أنفسهم
بصفات باب الحارة، ويحسبون الربح والخسارة، تركتهم يقولون
نكات بذيئة، ابتعدت قليلا، ولكنني سمعت أحدهم يقول لي:

- أنت من سوريا، أليس كذلك؟

التفت إليه وابتسمت.

- نعم، كيف عرفت؟

- وقفت تستمع إلينا.

ثم أضاف:

- أنا من القنيطرة، وهذا من غوطة دمشق، وذاك من دوما،
والآخر من حمص، والأخير من درعا.

- تشرفنا، وأنا من مخيم اليرموك.

- يجب أن تزورنا، جئنا البارحة، هل تلعب الورق؟

إنهم يلعبون بمصائرنا هناك، ونحن نلعب الورق هنا.

قلت له بصراحة:

- في حياتي كلها لم ألعب الورق.

- يا خسارة، على كل مازال عرضي قائما.

- إن شاء الله.

وابتعدت.

كان باب الحارة قد فرّخ في عقولهم آلاف الأبواب الموصدة، هنالك
ليل طويل ينتظرنا في لعبة الورق، وأمام باب الحارة الذي اختفى مع

الحارس، لم أعرف إلى أين اتجه، كأنَّ أبواب دمشق أوصدت في وجهي، كان مركز الإيواء الأصفر كصفرة الموت، الشارع الطويل إلى جانبه يأخذك حيث المقبرة، وقفت أمام باب المقبرة، هنالك أناس بملابس أنيقة، يقفون من أجل دفن شخص؛ كأنهم ذاهبون إلى عرس. وقفت أرقبهم.

التابوت من خشب فاخر، لابدَّ أن صاحبه الغني لم يأخذ معه سوى هذا التابوت، رسموا شارة الصليب، دون أن تسقط دمعة من عيونهم، كانوا في غاية الأناقة والهدوء.

غاب التابوت داخل القبر، كانت أبواب دمشق تغلق بابا إثر آخر، طرقت الأبواب كلها، لم يفتح لي أحد، كيف لي دخول دمشق مرة أخرى، وضعوا بلاطة رخامية فوق التابوت الفاخر، وهالوا التراب فوق الرخام، رسم الجميع مرة أخرى شارة الصليب، ثم اتجهوا إلى سياراتهم الفاخرة، ركبوها وغابوا، وبقي القبر وحيدا، بقيت دمشق وحيدة، مع أبوابها الموصدة.

صرخت أعماقي:

- افتحي لي يا دمشق ولو بابا واحدا.

الأبواب لا آذان لها، دمشق وحيدة، تركتها وحيدة، وأنا هنا وحيد، كأنني في قبر، بلا تابوت، ولا مشيعين، لا شيء إطلاقا، سوى الصمت.

نهضت صباحا على خبر جديد، داعش في اليرموك، لم أعد افهم شيئا، من كان من المسلحين قبل داعش، اختلطت أوراق اللعب، فوزي فوق فوزي، سلاح فوق سلاح، صارت لعبة الموت كمتاهة، هنالك تبدو اللعبة غامضة، أياد سوداء لعبت بمصائرنا، فتهنا في الصحاري والبحار، يقتلون باسم الإسلام، يذبحون باسم الإسلام، الخلافة الإسلامية حلم القتلة ومجاهدي النكاح، من هم، من أين أتوا؟!!

هنا الخلافة الإسلامية، هنا الموت بكل أشكاله، قطع رؤوس، سرقة بيوت، سرقة نساء، جهاد نكاح، عفن باسم الدين، ألبومات صوري صارت بأيديهم، كتبتي، مذكراتي الشخصية، ثيابي، ثياب زوجتي الداخلية، استباحوا كل شيء، دين الفجور والقبور، هنالك شياطين تتراقص على أياديهم، على ذقونهم، على أسلحتهم، دخلوا من خلال فساد النظام، جاؤوا من الخارج، ناصرهم دعاة الدين، ناصرهم شياطين الجن والإنس، من لم يعرف الموت بكل أشكاله، سيعرفه هنا، خلافة الجنس والدين والقتل، خلافة الموت، وقبل إغلاق النت، رأيت خبرا وصورة رجل كنت أعرفه، أبو عايد مات في الإيواء في سوريا، لم يمت بشظية ولا برصاصة، مات قهرا، لو قتلوه لكان أهون عليه من الموت البطيء، قال لي: - لن أترك سوريا، سأموت هنا.

الآن حسدته وملت نفسي، قد أموت قهرا هنا أيضا، ولكن الفرق كبير، هنالك سيضمه تراب يعرفه لأنه مشى عليه، وهنا سيضمني تراب غريب عني، تلك الحرب صارت تقتل الناس قهرا.

تصورت أبو عايد وهو يأتي إليّ بفنجان القهوة الصباحي في الإيواء، ويجلس قبالي، ينظر بعيدا وكأنه غائب عن الوعي، وكنت أسأله:

- بم تفكر؟

- أفكر أن أعود إلى بيتي في المخيم، حين أعود إليه كأنني عدت إلى فلسطين.

- لكن فلسطين بعيدة.

- في بيوت نخيم اليرموك عرفنا فلسطين أكثر.

- هذا صحيح.

ثم يقول:

- حين أخرجونا من اليرموك كأنهم أخرجونا من فلسطين.

عرفت الآن سبب موته لأن فلسطين صارت أبعد.

كانت الدكتورة مدرّسة علم النفس تجلس بعيداً، وأنا أتحدّث مع نفسي، رأيتهما يتبسم، أشارت إليّ، ذهبت نحوها، كانت هادئة رزينة، لكن نظرة الحزن لم تفارق عينيها، سألتني بدهشة:

- أتتحدث مع نفسك؟

- من بقي لم يتحدث مع نفسه بعد الذي حدث.

- عفواً، ولكنّ هذا بداية الجنون.

ابتسمت قائلاً:

- كلنا يا أستاذة أصبحنا مجانين، الحرب المجنونة تصنع أناساً مجانين.

بدت دمعان في عينيها:

- صدقت!، هنالك أطفال تحت سن العاشرة أصبحوا يشربون السجائر، ويحملون السلاح مع داعش، هذا هو الجنون بعينه، حين رأيت ذلك عرفت أنّ عصر السورالية صار واقعاً وليس خيالاً، يطبقون الإسلام ويقتلون، يكبرون ويسرقون البيوت، يسرقون الأعضاء البشرية ويكبرون، يجلدون الناس ويصلون، من أين أتى هؤلاء، من كهوف الظلام، أم من الإنسان البدائي، أرادوا الإسلام دماً لا سماحة وخير، كلما قتلوا ازدادوا عدداً، كأنهم قوم يأجوج ومأجوج، ترى أشكالهم وكأنّ الواحد منهم لم يرتبط بالماء في حياته، كيف يصلون والأوساخ تأكل وجوههم ولحاهم.

- هذا عالم سوريلي كما قلت تماماً.

وأضفت:

- قبلها كان لنا حياة والآن صار لنا حياة أخرى.

هزت الدكتورة رأسها، بدا عنقها أبيض ناصعاً، إلا من ندبة عميقة غطتها بشال وردي، لاحظت أنني رأيت الندبة، عندها ابتسمت وقالت:

- لم تعرفني على زوجتك.

- زوجتي في الغرفة تعد الطعام، تفضلي.

- سأشرب القهوة فقط.
- بعد أن خرجت، نظرت إليّ رنّدة نظرات ملتّهبة، لم أسألها لأنّها ستتكلّم حتّى، جلست أمامي وعقدت ساعديها وقالت بلهجة حادة:
- من هي؟
- كانت أستاذة في الجامعة، والآن هي مثلنا تماما.
- لم أسألك عن عملها، أتعرفها من قبل حين كنت في الجامعة.
- ماذا تقصدين؟
- صبحي، أنا أعرفك تماما، أنت تحب نساء الأرض جميعا.
- لكنني اخترت واحدة من بين نساء الأرض.
- اقتربت منها، وجلست إلى جانبها:
- أما زلت تغارين عليّ؟
- لأنني أعرفك.
- هنا عالم آخر، ما نفعله نحن البشر الذين جئنا عبر البحر والصحراء وسهول الثلج تبدل تماما، صدقيني أشعر أنني انتقلت من عالم إلى عالم، من حال إلى حال، وما تفكرين به صار من الماضي السحيق.
- دائماً تخلص نفسك.
- ودائما تتهميني.
- في تلك اللحظة رن الهاتف وسمعت صوت حنين، كان دافئاً وحزينا:
- عمار زوجي دخل في غيبوبة فجأة.
- كان صوتها يرتجف:
- قالوا لي إنه لن يعيش طويلا.

- أريد أن آتي إليك، ولكن لا يحق لي السفر خارج شتوتغارت فليس معي هوية بعد.

- أنا لا ألوئك، فقط أخبرك بما حدث.

أخذت رندة الهاتف مني وقالت لحين قبل أن تغلق الخط:

- سنأتي إليك.

ثم قالت لي:

- إذا رأنا البوليس في القطار سنريهم أوراق المركز.

قلت بقهر:

- ولكنهم سيجردوننا من ثيابنا قطعة قطعة، ألا تسمعين ما يحدث في أوروبا.

- إذا لم تذهب سأذهب وحدي، يجب أن نكون إلى جانب حين في هذه المحنة.

- حين قطعة من قلبي، سنسافر إلى فرانكفورت غدا، وعلي ومحمد.

- سنتركهما عند إمام.

قلت مازحا:

- وأستاذة الجامعة، هل نسيتهما؟

- لم أنس شيئا.

وخرجت من الغرفة.

وقفت أمام السكك الحديدية مرة أخرى، كانت تتجه إلى المجهول، وكأنني أيضا أتجه إلى المجهول.

جلست رندة في القطار صامتة، أخذت السكك من خلال النافذة تسرع عن يميني، كأنها تسابق الزمن، دخل القطار في نفق وخرج من آخر، وركض في سهول جرد الخريف ورق أشجارها، قطارات تمرق يمينا وشمالا، مسرعة كهدير الموج، ثم تختفي وكأنها لم تكن.

كنت أركض وراء قطارات متعددة وسكك متعددة، كانت القطارات لها رأس إنسان، وجسم حصان، تسابقني وأسابقها، تسبقني مرة، وأسبقها مرة، كانت السكك تتجه إلى صحراء فيها وحوش أسطورية، عملاقة، تضحك منا حين نسابق بعضنا، لم أتعب، وهي أيضا لم تتعب.

صحوت على رندة وهي تقول لي:

- يجب أن نبذل القطار.

قلت لها:

- قطار آخر وسكك أخرى؟!

ضحكت وقالت:

- يبدو أنك غفوت، أنت تتكلم كالنائم.

نزلنا أدراجا، وصعدنا أدراجا أخرى، كان من حولنا يسIRON بصمت، إلى أن جلسنا في قطار آخر.

سألت رندة:

- لماذا نبذل القطار؟

ضحكت مرة أخرى وقالت:

- لكي نصل إلى وجهتنا.

قلت:

- القطارات كحياتنا، التي تبدلت.

- دوما تفلسف الأمور.

رمت حنين رأسها على كتفي وقالت بصوت حزين:

- كلما أردت أن أعيش، يأتيني الموت.

كان عمّار هادئاً في غيوبته، كما كان هادئاً في شلله.

قالت حنين باكية:

- تذكر زوجته وأولاده الذين قتلوا وبكى ثم نام ولم يصحّ بعدها أبداً.

وصمتت، ثم قالت باكية:

- ماذا أفعل يا عمي؟

احتضنتها رندة، بكت الاثنتان، وعمار متمدّد دون حراك.

لم أعد أعني تلك الأحزان التي تحيط بي من كل جانب، كلما بزغ في حياتي ضوء، تأتي العتمة من كل جانب.

قالت حنين:

- قد يعيش في الغيبة أياماً، وقد يعيش سنوات، قد يصحو، وقد يموت دون أن يصحو، كانت غيوبتنا واحدة، هو لا يشعر بما حوله، ونحن لا نشعر بالحياة من حولنا، الغيبة لا تعني ألا تتحرك، الغيبة داخل الروح.

خرجت إلى المشفى في المشفى، وبكيت وحدي، كان الجو كثيباً رمادياً، بعد تلك الحرب المجنونة، لم يعد لدينا ما نفعله سوى البكاء، ملأتنا الأحزان، والقهر أكل أرواحنا، تركنا مثل قطع البلاستيك المهشمة.

تمسكت بي حنين بعد خروجنا من المشفى، وكأنها تخاف أن تقع من الحزن، توقفت ونظرت إليها قائلاً:

- انظري حولك، السيارات، الناس، الأشجار، الغيوم، الحياة جميلة، لا تحزني.

قالت وفي عينيها حزن:

- الحياة جميلة لكنها قاسية يا عمي.

كانت غرفتها في المركز مرتبة نظيفة، وضعت الطعام وقالت لي:

- كل يا عمي فأنت متعب وجائع.

كان الحزن قد جعلني أنسى الجوع.

بعد الطعام هيأت لي سرير النوم.

- نم قليلاً، وسأجلس مع امرأة عمي في الخارج.

تمددت على الفراش، جاء إليّ أبي وأمي وفتح وعطا وبدرية ونظيرة وصباحية، أحاطوا بي، كانوا سعيدين بعودتي.

قالوا لي:

- لن تشعر بالراحة إلا إذا جئت إلينا.

فتحت عينيّ على حنين وهي تقدم لي فنجاناً من القهوة، وسألني:

- من الذين تحدثت معهم وأنت نائم؟

- الأموات، أبي وأمي وأخوتي.

جلست صامتة، ووقفت رنّة عند الباب تستمع.

تساءلت حنين:

- ماذا يريد الأموات حين يأتون إلينا في المنام؟

- يريدون الاطمئنان علينا، هم مرتاحون ونحن متعبون.

رنّ هاتف حنين وقطع علينا الحديث، قالت قبل أن ترد:

- وأنت الآن تفعلين ما تشائين.
- نظرت إلى وجهي، كان في عينيها لمعان غريب.
- نعم أفعَل ما أشاء.
- لو رأته رندة لظنت أنك...
- أنني ماذا؟!!
- أنك لست ابنة أخي بل امرأة أخرى.
- وهذا هو الواقع.
- ماذا تقصدين؟
- أحلم بك دائما كرجل يقترب مني ثم يبتعد.
- نهضت منفعلا.
- ما هذا الكلام؟
- اهدأ قليلا يا عمي، واسمع ما سأقوله لك.
- جلست وأنا في غاية الإثارة.
- قالت حين يهدوء:
- أنا لست ابنة أخيك عطا، أنا ابنة سفاح وجدني أخوك وهو عائد من إحدى عملياته الفدائية في فلسطين قرب إحدى المساجد، قد يكون أبي يهوديا أو مسيحيا أو مسلما، وقد تكون أُمي كذلك.
- نهضت مرة أخرى مزجرا.
- هذا غير صحيح، أنت تقولين ذلك لتغطي على أعمالك القذرة.
- سالت دموع حنين على خديها، كانت عيناها تتوسلان إليّ وهي تنظر في وجهي.
- قالت:
- كنت أتعذب، قلت لنفسي لن أقول الحقيقة ولكنني لم أستطع.

جلست، أحسست صدق مشاعرها، لمست يدي، سحبت يدي.

- لن تضاجعني إذا لمست يدي.

- ولكن يدك الآن يد امرأة أخرى لا يد ابنة أخي.

اقتربت مني، أنفاسها حارة.

- هل أنت مريضة؟

- قلبی المریض.

ثم أضافت:

- هل ستقول لرندة؟ يجب ألا تعرف.

- هذا هو الصواب.

حين أمسكت يدي ونحن نعود إلى المركز قلت لها:

- لن يغير كلامك شيئاً، ستبقين ابنة أخي.

- كلامك ليس من قلبك.

لم نتحدث بعدها بشيء إلى أن وصلنا المركز.

قلت لرندة قبل ان أجلس:

- سنعود اليوم إلى شتوتغارت.

- وعما؟

- بخیر.

- وحنين؟

- ہاھی اُمامک بخیر.

اقتربت ردة من حنين التي لم تتفوه بكلمة وقالت لها:

- ما بك، نظراتك تغیرت، بوجہ ثم عدت بوجہ آخر.

- ہی حزینہ فقط علی عمار.

- حنین تکلمی.

- قالت حنين وهي تبكي:
- عمي لا يحبني، سيتركني وحيدة.
- قالت رنده وهي تحتضنها:
- إذا تركك هو لن أتركك أنا.
- كانت حنين تنظر إليّ وتبتسم، دون أن تراها رنده، هذه الفتاة البريئة انقلبت في لحظات إلى امرأة لعوب.
- قلت بحسم:
- إذن سأسافر لوحدي، علي ومحمد بحاجة إليّ.
- اقتربت مني حنين واحتضنتني قائلة:
- وتترك ابنة أخيك وحيدة مع مصيبتها.
- اقتشعرت بدني حين لفحت أنفاسها وجهي، حاولت أن أبدو طبيعياً، لكن نظرات رنده دخلت أعماقي ونبشت ما يجول في خاطري، اتصلت بإمام مطمئناً عليه وعلى علي ومحمد، وحين تقطع الصوت خرجت رنده لتتحدث مع إمام، عندئذ، اقتربت مني حنين ولفحت أنفاسها وجهي من جديد وقالت:
- أنا أحبك لأنك مثلي الأعلى.
- وأنا أكرهك لأنك امرأة ساقطة.
- هذا ما يقوله لسانك لا قلبك.
- من أنت؟
- امرأة تحبك.
- أنت شيطانة.
- وأنت تحب الشياطين، قرأت لك قصة عن الشياطين، كان قلمك يتغزل بهم.
- اسمعي، رنده لاحظت شيئاً، أنا أعرفها تقرأ أعماق الإنسان من نظراته.

- نظراتك أم نظراتي.
- نحن الاثنان.
- إذن دع لي تدبير الأمر.
- أيّ أمر؟
- قلتها بعصبية.
- أمرنا نحن، أنا وإياك.
- كانت تتحدث وتقترب، وأنفاسها تلفح وجهي كنار جهنم.
- سمعنا صوت خطوات رنّدة، ابتعدت حين وجلست تلعب بأصابعها.
- سألّنتني رنّدة:
- ما بها حين؟
- لاشيء، حزينّة على زوجها.
- ولهذا سنقيم عندها أسبوعاً علّ عمّار يصحو من غيبوبته.
- قفزت حين وقبلت رنّدة وهي تغمز لي بعينها وقالت:
- امرأة عمي تحبني أكثر من عمي.
- قلت:
- حين تتفق المرأة على الرجل يصبح الرجل خاسراً.
- نهضت حين وجلست إلى جانب رنّدة وقالت:
- سنخرج الليلة معاً بهذه المناسبة السعيدة.
- قلت رنّدة:
- اخرجي أنت وعمك، أنا لا أحب الخروج كثيراً.
- صرخت:
- لا.
- بهتت رنّدة، ونظرت إلّي نظرات مريبة، فاستدركت قائلاً:

- أقصد إذا لم تخرجني لن أخرج.

قالت حنين:

- وجدتہا، ساخرج مع عمي هذه الليلة ومع امرأة عمي غدا نهارا،
ما رأيك يا امرأة عمي؟

- موافقة.

كدت أصرخ بأنني غير موافق، لكن خشيت أن تعرف رنده أن هناك شيئاً أخفيه فصمت.

في تلك الليلة، التي لا أنساها قبضت على عنق حنين في طريق خال
من الناس، وقلت لها مهددا:

- اسمعي أيتها الشيطانة الصغيرة، لم أعد أطيق سماع أكاذيبك، ابتعدي عني وإلا قتلتك.

قالت بلا مبالاة:

- عندئذ، أموت شهيدة من أحب.

فارت أعصابي وصفعتها صفة ألقها أرضاً، قالت وهي تنهض:

- إذا قتلتنى لن أكرهك.

فكرت قليلا، يبدو أن حنين قد جنت، وجنونها سيؤديها وبى إلى
مالا محمد عقباه.

قلت لها بهدوء:

– ماذا تريد مني؟

ردت بهدوء أيضا:

- لا أريد سوى أن تحبني كما أحبك.

- أحبك كابنة أخ.

- لست أدري من أين جاءوا بمستويات الحب تلك، الحب حب مهما كان.

- أنت مريضة.

- اهزأ بي كما تشاء، أنا الآن حنين أخرى وأنت الآن صبحي آخر.
- هكذا إذن.
- إذا قتلت الحرب الجسد فالمشاعر تبقى، الحب يبقى، لأن الحب هو استمرار الوجود.
- وإذا كان هذا الحب حراما.
- الحرب شوهتنا، أخذتنا إلى أعالي السماء ثم رمت بنا إلى أعماق الأرض.
- ثم أضافت:
- أنت تحبني الآن كما أحبك، لكنك لا تستطيع الإفصاح.
- ظننت أنني أحلم، الناس حولي يسرون كالدمى، تصورت نفسي دون رفقة حنين، كنت أريد أن أكون وحدي دونها، كنت أحب رفقتها، ولكن الآن أكره وجودها، أخي عطا كان يقول حين ينظر إليها:
- هذه من رائحة فلسطين، إذا شممتها فإنك تشم فلسطين.
- ولم يدر أن فلسطين هذه أصبحت فتاة مشوهة، كنت أسأله:
- أنت تتعلق بها كثيرا.
- ليس لي غيرها.
- وأنا أتذكر ذلك كانت يدا حنين تتعلق بذراعي، ولم أشعر بذلك.
- خلصت ذراعي من بين يديها قائلاً:
- اتركيني.
- نظرت إليّ:
- أنت تفكر فيّ.
- لا شأن لك بما أفكر فيه.
- رأيت أمامي وجه أخي يقول لي:
- لا تقسُ عليها.

تذكرت مكالمة وأنا على وشك النوم، قلت لها، نحن في الطريق إلى ألمانيا، الحرب لم تبقى لي بيتا أو فراشا دافئا.

لم أجب، وكان صمتي إقرارا بصحة كلامها.

حاولت امتصاص الحافز الشيطاني داخلها فقلت:

- كنت أحملك وأنت صغيرة كابنتي بدور ومنار، فكيف أنظر إليك الآن بشكل مختلف.

- أنا تخلصت من هذه النظرة منذ زمن، وأنت ستتخلص منها مع الزمن.

- لا أستطيع.

- لاشيء مستحيل.

- سأفعل.

قلت ذلك دون أن أدري، فبدا وجهها كوردة تفتحت تواء، اقتربت مني وسرقت قبلة سرت في بدني كسكين حادة قطعت شراييني.

لم أفل شيئا، فقد توصلت إلى قناعة أن الكلام لا يفيد معها.

كانت رندة قد نامت حين وصلنا إلى المركز، بقي عمّار على حاله طوال أسبوع إقامتنا، فقررنا العودة إلى شتوتغارت، بدت حين حزينه جدا حين ركبنا القطار، انخلع قلبي عليها وهي تلوح بيدها مودعة؛ فقد نسيت ما فعلته، عادت أمامي ابنة أخي، سقطت دموعي وبكت رندة، حين غابت حنين على رصيف القطار.

قالت رندة:

- ماذا ستفعل وحدها؟

- سيعينها الله.

عادت السكك المتجهة إلى اللانهاية تنغرز في روحي، أحيانا تلمع متعرجة، أو مستقيمة، وأحيانا يغطيها نفق.

حين دخلنا أحد الأنفاق سألتني رنده:
- أشعر أنك تقسو على حنين، ألا يكفيها مصيبتها في زوجها.
- أفعل ذلك لتعتمد على نفسها.
- ليس لها أحد غبرك في هذه الغربة، ألم ترها على رصيف المحطة
كانت تبكي بحرقة.
لم أجب.
- وزوجها بين الحياة والموت.
ولم أجب.
- هل تخفي عني شيئاً؟
قلت على الفور:
- لا، لا.
نظرت إليّ نظرة فهمت منها أنني لا أعني النفي بل الإيجاب.
لم نكد نصل إلى شتوتغارت إلا وكانت حنين تتحدث في الهاتف قائلة:
- مات عمّار.
أحسستها تقولها بفرح لا بحزن، بانتصار لا بانزлам.
قلت لها أنا أيضاً جملة:
- العمر لك.
وأخذت رنده الهاتف لتواسيها.
في تلك الليلة وصل سامر إلى المركز قادماً من (فالسوت) ليقم عندنا
علّه يجد عملاً في شتوتغارت المدينة التي يسميها الألمان مدينة العمل.
انحشرنا في غرفة واحدة، ضيقة كأننا في سجن عائلي، حين ننام ننام
قريباً من بعضنا، وحين نتحرك نتحرك بدقة، وحين نغلق الباب بسبب
برودة الطقس تصبح الغرفة لا تطاق.

بدا سامر هزيلا، هادئا أحيانا، متوترا في أحيان أخرى، وقبل أن ينام
ابتلع حبتين فسألته:

- ما هذا الدواء؟

- للاكتئاب.

- اكتئاب، جئت إلى ألمانيا وما زلت مكتئبا.

- بل ازداد اكتئابي.

ثم صمت قليلا وأردف:

- أدخلوني ذات يوم إلى مشفى المجانين لكنني هربت.

لم أعد أقوى على الوقوف، جلست وقلت:

- كل هذا يحدث معك وأنا لا أدري.

- وما الفرق إن علمت أم لا، هل سيخف اكتئابي.

بدت رندة زاهلة في البداية ثم انفجرت في البكاء.

لم أنم في تلك الليلة؛ تصورت سامر وقد هام على وجهه مجنونا.

سمعت رندة تهمس:

- نم، سيكون عندنا في أمان.

صباحا، لم أعد أفهم ما يجري، حنين التي تبدلت من ابنة أخ إلى امرأة
شيطانة، وسامر التي تشظى شخصيته إلى آلاف الشخصيات، وأنا الذي
ترك كل شيء وعاش في بلاد بعيدة، ورندة التي لا تتوانى عن انتقاد
شخصيتي في كل كبيرة وصغيرة، كلهم تغيروا، وأنا أيضا.

مع الأيام أكثر إمام من شرب الخمر لرخصه هنا، ولأنه صار يقبض
راتبه من الجيوب سنتر، عن طريق البطاقة البنكية، وحين يشرب كثيرا،
يتحدث بلهجة استفزازية عن أحداث مضت في حياته، سواء مني أو من
أمه أو من غيرنا.

فكرت أن أخرج من المركز ولا أعود إليه لأتخلص من هذا العبء،
كنت أصمت وأحياناً اصرخ، لكنه صراخ مضبوط، وكانت رندة تلقي
اللوم عليّ سواء بصراخي أم بصمتي.

قلت لرندة ذات مرة:

- لم أعد أطيق الحياة.

أجابت على الفور:

- أنت هكذا، لا تعجبك حال.

- وهل أنت سعيدة بما يجري حولك، هنا لا تستطيعين ضرب ابنك
أو حتى تعنيفه، سيطلب الشرطة، هنا لا احترام للأباء ولا للأمهات،
جعلونا رقماً في كل شيء لا كشخص من لحم ودم، ألا ترين الكلاب
تركب في السيارات الفارهة، وتتنزه مع أصحابها، إنهم يضمون الكلاب
في أحضانهم في القطارات، والناس عندنا يموتون جوعاً وعطشاً، وطعام
الكلاب والقطط تأخذ حيزاً كبيراً في جميع السوبرماركات، إنهم هنا شيء
آخر، ونحن يا رندة شيء آخر تماماً، افهمي ذلك قبل أن تحاولي انتقادي.
صرخت في وجهي:

- لماذا جئت إلى هنا إذن؟

- لم يكن لي طريق سوى البحر.

- إذن عليك أن تستسلم.

- صبحي لا يستسلم يا رندة.

- إذن اصمت، كلامك لا يقدم ولا يؤخر.

- أنا أصمت، لم أصمت في حياتي ولن أصمت الآن.

- ماذا بيدك أن تفعل؟

- أشياء كثيرة، كثيرة جداً.

أنهيت النقاش، لست وخرجت، ولم أكد امشي في الشارع البارد المليء
بالثلج، حتى رن هاتفي الجوّال، كانت حينئذٍ على الخط الآخر تقول:

- أنت وحدك، أسمع أصوات السيارات حولك، حين آتي لن تسير لوحده، سأكون معك في كل مكان.

أغلقت الهاتف دون أن أرد، اتصلت مرة أخرى فقلت:

- ماذا تريد مني؟

- أحب التحدث معك.

- أأست حزينة على زوجك؟

- الحزن لا يمنع الكلام.

- لا حديث بيننا.

- دعنا نتفاهم.

- على ماذا؟

- على أن أكون زوجتك بالسر، لا تخف لن أنجب لك أطفالا، أنا ليس لديّ رحم.

- أنت مجنونة.

- فكرّ بما قلته، نحن نعيش في بلد المفاجآت.

أغلقت الخط في وجهها، لكن صورتها عادت أمامي، ثم تبدلت الصورة إلى صورة سامر المريض، ثم صورة رندة التي لا تكف عن انتقادي إلى صورة إمام الذي انغمس في شرب الخمر.

المشاكل كثيرة حولي وأنا آخر من يعلم؛ هل هي نتيجة الحرب هناك، أم هي ذيلها العفنة؟!

ودون وعي وجدت نفسي داخل المقبرة من جديد، كانت امرأة عجوز تقف أمام قبر، أنيقة، هادئة، كانت المقبرة حديقة زهور، والمقابر عندنا صحراء، كانت العجوز حزينة بصدق، كانوا يقولون إننا نمتلك كما كبيرا من المشاعر لا يملكها الغرب، لكن الحرب فتحت مشاعر الكره والحقد، أين كانت تلك المشاعر الدفينة، هل هي بقايا التاريخ، بقايا داحس والغبراء والزير سالم، هل هي نتيجة الفساد في كل مكان، أم هي نتيجة

انفلات البيت والكبت الجنسي، أم نتيجة الفقر والقهر لعقود وقرون؟! حين رأيتني العجوز ابتسمت، بادلتها الابتسامة، ثم عاد وجهها حزينا، خرجت من المقبرة، وقفت مفكرا إلى أين أذهب، ذات مرة سمعت أن الشاعر شيلر كان يسكن هذه المدينة، وصار بيته متحفا، فكرت في زيارة متحف شيلر لأرى الأشياء التي كان يستعملها. أريد أن أعيش الماضي الجميل لأهرب من واقعي.

كلمت بعض المارة بكلمات دالة، شيلر، البيت، المتحف، ولكن لم يفهم أحد عليّ بسبب عدم معرفتي لغتهم، وقبل أن يسيروا كانوا يمتطرونني بكلمات الشكر، هنا لا تجد أحدا دون أن تسمع منه كلمات الشكر، بيتي، دانكي، وقبل أن يتركوك يرددون كلمة وداعا، تشوس، عرفت أن والد شيلر كارل أوجين كان ضابطا في شتوتغارت، ووالدته امرأة متدينة، وهذا ما زرع فيه حب الدين والأخلاق.

في مسرحيته بعنوان اللصوص، والتي نشرها على نفقته الخاصة كان البطل كارل مور يلعب دور روبن هود، المحب للفقراء، وقد وصفه أحد أفراد عصابته بأنه لا يقتل من أجل التسلية، وأنه لا يعبأ بالمال مثقال ذرة، فثلث الغنيمة التي تكون حق خالص له يعطيه للفقراء واليتامى، أو يعين الشباب المبشرين بمستقبل مرموق، أما إذا وقع بين يديه عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحهم سوء العذاب كأنهم الأنعام، أو وغد يرفل في فاخر الثياب، ممن يستغلون القضاء لخدمة مآربهم، أو أي رجل من هذا النوع، عندها يتجلى على فطرته، ثائرا، هادرا، كأنه شيطان رجيـم.

كارل هذا يندد برجال الدين الذين يتملقون السلطان، ويعبدون صنم المال، وخيرهم لا يتردد في خيانة الثالث الأقدس، في سبيل عشرة شواقل (عملة قديمة)، وقد رأيت أنه في هذه المسرحية يتحدث عنا، كلنا في سوريا نحارب كارل مور، لا نريد شخصا نظيفا بل شخصا ملوثا.

ولم أنس قصيدته إلى السعادة التي لحنها له بيتهوفن، وهي الآن النشيد الوطني للاتحاد الأوربي، وقد دعا فيها إلى المحبة، يقول فيها:

كل الأحياء ترضع السعادة
من أنداء الطبيعة.

جميع الأخيار، جميع الأشرار
يقتفون أثرها الوردي.
ويقول فيها أيضا:

السعادة تعني الريشة القوية.
في الطبيعة الأبدية

السعادة تدير الدوايب

في ساعة العالم الكبيرة

هي التي تخرج الورود من البراعم

الشموس من قبة السماء

هي التي تلف كرة السماء في الأماكن

التي لا يعرفها منظار الرائي

فكرت في كلماته وأنا أجلس في إحدى حدائق شتوتغارت الجميلة،
نحن نعساء إلى حد الموت، انتهت سعادتنا حين صار الرصاص والموت
الحكم بيننا، انهارت سعادتنا فجأة، تلك السعادة التي تبني العالم؛ فالعالم
يتكئ على السعادة لا على الكره والحق، الكره والحق لا ينتجان سوى
الألم، والألم ضد السعادة، ونحن نتألم كثيرا، أرواحنا تتألم، حياتنا كتلة ألم،
تعال يا شيلر انظر إلينا، وقل لنا من نحن، اكتب لنا قصيدة عن الألم
لاعن السعادة، عن البكاء، عن الوجدع عن هدم البيوت وقطع الرؤوس،
وأكل الأكباد، عن الهروب، اكتب لنا عن وجعنا، عن موتنا.

ابتسمت وأنا أتذكر الموت، لقد متنا آلاف المرات وسنموت آلافا
أخرى قبل موتنا الحقيقي.

لم تعش يا شيلر عصر الحروب المجنونة، عصر الموت العبيثي، عشت
في عصر السعادة، لم تر الانفجارات وبراميل الموت وقطع الرؤوس وأكل

الأكباد، لم تر البيوت تسقط فوق رؤوس أصحابها، عشت في عصر الفرح،
عصر السعادة.

حاولت التكلم مع المارة لأصل إلى بيت شيلر علّه يمنحني بعض
السعادة لكنهم لم يفهموا لغتي فانكفأت عائداً إلى المركز.

سألتنى رنّدة لتخفف ما حدث بيننا:

- أين كنت؟

- عند شيلر، أبحث عن السعادة.

- أتمزح؟

- أنا لا أتمزح، كلنا بحاجة في الوقت الحالي إلى السعادة.

بعد قليل أخبرتها أن حنين تحاول الانتقال إلى شتوتغارت بعد وفاة
زوجها، فأجابت على الفور:

- أفضل لها، قرب عمها.

أردت أن أصرخ:

- أنا لست بعمها، هي ابنة سفاح.

كان سامر ساهما شاردا، وعلي ومحمد يلعبان في ساحة المركز.

سألت سامر:

- ماذا فعلت اليوم؟

- لم أفعل شيئاً، أنا أكره هذه البلاد، أريد العودة إلى سوريا.

- أتعود إلى الموت؟

وعاد إلى شروده ولم يعد يتكلم.

قلبي يدمى عليه، روحي تبكي عليه، أبكي على نفسي أم على آلام
الآخرين، يا الله! كم هائل هذا الألم!!

صحوت من شرودي على صراخ السوريين الذين يسكنون الطابق
العلوي من المركز؛ هذا درزي، وهذا حمصي، وهذا سني، وهذا شيعي،

وهذا حموي وهذا شامي، كأنهم أحزاب متفرقة، جاءت الشرطة وفضت خلافاتهم الصببانية، نظرت إلى الساعة، لابد أن المترجم العراقي أبو مصطفى ينتظرنا الآن في قاعة الدرس في المركز، أخذت دفترى على عجل وقلت لرندة أن تلحق بي.

كان أبو مصطفى ينظر إلى ساعته الذهبية وأنا أدخل.

بادرني مبتسماً:

- أهلاً بأعدنان.

كان بعض من يحضر درسه في القاعة، وبعضهم لما يحضر بعد.

سألني أبو مصطفى:

- كيف تسير روايتك؟

- إنها مليئة بالآلام.

- هذا ما توقعته.

- نحن شعوب خلقت للحزن لا للفرح.

- هذا صحيح، انظر إلينا أمريكا من أجل كذبة صغيرة عن الدمار الشامل قتلت مليوناً ونصف من العراقيين، وما زال الموت سيد الموقف في العراق.

- لكن ما حدث في سوريا اشد فظاعة، كأنها حرب عالمية ثالثة.

اكتمل العدد وبدأ أبو مصطفى درسه في اللغة الألمانية.

انتقلت إلى عالم آخر، كلمات أمة جديدة، أفكار أمة جديدة، لغتي بعيدة عنهم، أفكاري، مشاعري، عاداتي، تقاليدى، مخارج الحروف، لكنني يجب أن أتقن هذه اللغة، جهاز النطق عندي حددته لغتي العربية، والآن، عليّ تغيير جهاز نطقي.

كان أبو مصطفى دمث الأخلاق حين نظر إليّ مبتسماً:

- هل أعجبتك اللغة الألمانية يا أبا عدنان؟



- سوف أتعلمها لأن أهلها استضافوني وقت الشدة.
- على العشاء سألتني رنده:
- متى ستأتي حنين؟
- لا أدري، الألمان إجرأاتهم بطيئة، لكنها مدروسة.
- كأنك لست متحمسا لمجيئها.
- صدقت، غير متحمس، نحن ستة محشورون في غرفة، تريدين شخصا سابعاً، أترين هذه الغرفة وكأنها قصر مكون من عشرين غرفة، إنها أحلام الحكايات.
- صمتت رنده؛ لأنها عرفت أنني أقول الحقيقة، ثم قالت:
- ستكون مع نساء أخريات في غرفة أخرى، المهم أن تكون إلى جانبنا.
- لم أعلق:
- صبحي، أتخفي عني شيئاً؟
- قلت على الفور:
- لا، لا.
- في تلك الليلة، نزل الثلج كثيفاً على شتوتغارت، نهضت صباحاً، والأرض بيضاء، والأشجار بيضاء، والشوارع بيضاء، والسماء بيضاء، كان الجميع نائماً، ليست ثيابي واتجهت إلى موعد الباص، كل شيء هنا بمواعيد؛ الباصات، القطارات، الناس، الدوائر، الأطباء، حتى الأشياء التي لا تحس أشعر أنها بمواعيد مسبقة.
- سرت الهوينى حتى لا أترحلق، لم يكن هنالك إلا بضعة أشخاص في الباص، وقفت أمام كنيسة دق جرسها العاشرة صباحاً.
- لم أشعر بالبرد، كنت تائها.
- وجدت نفسي في أحد السوبر ماركات؛ لا شيء هنا غير الطعام والحزن والمواعيد المسبقة.

رندة قريبة مني، لكنها بعيدة عني، لا أستطيع النوم إلى جانبها، لا أستطيع تقبيلها أو لمس يدها، في غرفة واحدة، ننام ونأكل ونتجادل، والحمامات مشتركة والمطبخ مشترك.

أريد أن انفجر، صرخت:

- متى نأخذ الإقامة ويصبح لنا بيت.

ضحك سامر ساخرا وقال:

- عندئذ، سيلاحقك الجوب سنتر للعمل.

- أنا أحب العمل، سأعمل ليل نهار.

إنهم يقدسون العمل وهذا سر تفوقهم، خمسة ايام يعملون كالساعة، ينامون باكرا، وينهضون باكرا، يذهبون إلى أعمالهم كرجال آليين، ويعودون مساء، أما يوما السبت والأحد فينطلقون إلى المطاعم أو الكافيتريات، أو إلى البيوت الزراعية المخصصة لهم ليعملوا بالأرض.

قوانينهم تنفذ إلى أدق التفاصيل مثل شبكة عنكبوت لا تستطيع الخروج منها، إنها مدينة أوربا، هذه المدينة ملأى بالمباهج، وبما لذ وطاب من الطعام والشراب، لكنها بهجة باهتة، تجد الصبايا في الصيف وقد تركن سيقانهم مشرعة مكشوفة، لكنك لا تحس برغبة للنظر رغم جمال الفتاة الباهر، تشعر أنها تمثال من شمع لا روح فيه، أو لأن الأشياء المخفية إن انكشفت تصبح بلا معنى.

حاولت معرفة إحساسي في هذا الجو؛ أهو إحساس الرضا أو الرغبة أو الحزن أو الضياع؟! وأدركت أخيرا أنه خليط من هذا وذاك.

حين تترك وحيدا تفكر كثيرا، وحين تتكالب عليك الأحزان يصبح إحساسك رهينا لإدراكات مشوهة، الكثير من الوعي أحيانا ومن اللاوعي أحيانا أخرى.

كل ما حولي مبهر، لكنني حزين.

حاولت الدخول إلى سعادة شيلر فلم أستطع، وحاولت تحطيم نسبية الأشياء في الحزن والفرح فلم أستطع أيضا.

قبل ثمانين عاما كان هنا دمار شامل في الحرب العالمية الثانية، وفقدوا سبعة ملايين من البشر، وعانوا الأمرين، وتابعوا الحياة وانتصروا عليها، فهل نحن بعد تلك الحرب المجنونة نتصر على الحياة، أم نبكي على مافات، هؤلاء نسوا، لكننا نحن لا ننسى لأننا أبناء داحس والغبراء، أحاسيسنا غير أحاسيسهم، أحلامنا غير أحلامهم، عقولنا غير عقولهم، لكنكم بشر مثلنا، حتى الحروف اللاتينية المشتركة مع غيرهم يلفظونها بشكل مختلف عن الإنكليز أو الفرنسيين.

إنهم شيء خاص، عقولهم خاصة، لغتهم خاصة، حياتهم خاصة. هذووهم يدفع الإنسان إلى كرههم أحيانا، لكن كلماتهم الرقيقة، في الترحاب والوداع، تغير وجهة نظرك فورا. كيف لي أن أكون أنا بعد كل هذا، وكيف لي أن أعيش تناقض الحياة.

فكرت في كلام رنده:

- أنت لا يعجبك شيء.

أجبتها وقد علا صوتي:

- أنا لست أنا، أنا هنا لاشيء، مجرد رقم أو مهاجر من الدرجة الثانية، مجرد شخص لا هدف له سوى الطعام والشراب وممارسة الجنس، أعترف انه لم يعد لي هدف في هذه الحياة، وأعترف أيضًا أن الحياة جميلة هنا؛ لكنها كتفاحة حمراء جميلة، يعجبك شكلها لكنها بلا طعم.

وقفت على مفترق طرق وتساءلت:

- أين أجد نفسي الآن؟! في هذه الطريق أم تلك أم الثالثة أم الرابعة.

لم أجد نفسي في أيّ منها، تعبت من التفكير فجلست على أحد المقاعد بجانب الطريق، وإذا برجل يجلس إلى جانبي ويده زجاجة بيرة وقد احمر وجهه من كثرة ما شرب، نظر إليّ بعينين تائهتين وتحدث بالألمانية، قلت له:

- أنا لا أفهم عليك.



بالألمانية؛ لأنني تعلمت هذه العبارة، وفي تلك اللحظة عرفت أنني لا أفهم نفسي فكيف أفهم الآخرين؟
نهضت ومشيت مبتعدا.

يشربون الخمر لكنهم لا يسيئون إلى أحد، تقبل الفتاة صديقها في القطارات والشوارع والحدائق ولا أحد ينتبه إليهم، يلبسون ما شاء لهم ولا أحد ينتقدهم، نحن نختلف عنهم بكل شيء؛ أطفالنا في اليرموك يلعبون في الشوارع إلى ما بعد انتصاف الليل، يصرخون ويزعجون الآخرين، يطردهم الشيخ أحمد مقابل بيتي، يسبونه ويسبهم، وتتحول حفلة السباب إلى شتائم قذرة.

هنا ينام الجميع كبارا وصغارا قبل التاسعة؛ فالعمل في انتظار الكبار صباحا، والمدرسة في انتظار الصغار.

لصق مركز الإيواء كانت هناك روضة، كأنها بلا أطفال، بلا معلمات،
هذه التربية الخلاقة هي التي منحت الحضارة.

نساءٌنا يجتمعن عند إحدى الجارات، يتحدثن ساعات طويلة بلا فائدة، وهنا النساء من كوكب آخر؛ يعملن في كل المجالات، سائقات حافلات، قطارات، سيارات أجره، في المطاعم والمصانع والحانات، في الشرطة.

مسلسل باب الحارة رصد لنا واقعنا، النسوة إما يكدن لبعضهن، أو يصنعن المشاكل، أو يتفنن بالطبخ، أو يفكرن بالزواج.

لاشيء آخر أيها الوطن، كنت جميلاً فزرعوا فيك الفراغ، كنت شامخاً فأذلوك، والآن جاء دور الموت، صرنا نتلهى بإزهاق الأرواح، وأعداؤنا يضحكون علينا، تخلفنا فرّخ حربنا المجنونة، نحن أمة لا تدرك إلا موتها، لم ندرك جمال أرضنا، نحن لا نعرف الحب، نحن أبناء داحس والغبراء، نحن نقتل بعضنا، نحن لا نستحق الحياة يا محمود درويش، كلنا مشر وخون حتى العظم، كلنا مدانون حتى العظم، البريء والمجرم، بيوتنا جميلة لكن نفوسنا عفنة، نحن لا نحلم سوى بالنساء، بيوتنا عامرة بالكتب غير المقروءة، لا نحب سوى شيئين الجنس والمال، السارق

الأكبر نحترمه والفاضل نسخر منه، نحب أن نلوك الناس بألستنا،
نتباهى بأشياننا المادية، ونهمل أرواحنا، أكثرنا يلهث وراء الرغيف وأقلنا
متخم، عيوننا لا تبصر سوى عيوب الآخرين، ونفوسنا لا تشتاق إلا
لمضاجعة النساء، طلابنا يحفظون وينسون، كتّابنا يتباهون، فتياتنا يحلمن
بعريس على حصان أبيض، وزراؤنا يوظفون أقرباءهم، ونساؤنا لا يتقن
إلا الكلام الفارغ، جامعاتنا لا تخرّج إلا العاطلين عن العمل، أحلامنا دائما
وردية، نعيش في عالم ليس لنا، نقول أشياء لا نصدقها ونفعل أشياء لا
نحبها، في أحلامنا طفولة العصر الحجري، نعيش يومنا وننسى غدنا.



رَنَّ هَاتِفِي وَأَنَا فِي وَسْطِ الشَّارِعِ، انْتَحَيْتُ رُكْنًا هَادِئًا، كَانَتْ حَنِينٌ وَقَدْ
بَدَتْ السَّعَادَةُ فِي نَوَاتِ صَوْتِهَا:

- وافقوا على انتقال إلى شتوتغارت.

- أنا غر سعيد.

– لماذا يا عمی؟

- أنت تحبني، لكنك لا تملك الشجاعة لتقوها.

- أنت مجنونة.

- أنا مجنونة بك.

وفجأة بکت وہی تقول:

- العجوز ضحك عليّ، لم يكن له قدرة على النساء، فاستأصل رحمي خشية أن يشاركه أولادي في ثروته، أنا ابنة سفاح، فلسطين هكذا يا عمي كأنها أنا، لم يتبق لي إلا مشاعري المشوهة.

- ستظلين ابنة اخي، مهما حاولت.

- كلنا تغيرنا، الحرب الملعونة غيرتنا، لولا تلك الحرب لما قلت لك سرّي الدفين، لقد شوهتنا الحرب، أعطتنا أسماء مستعارة، أحلامنا تغيرت، لغتنا تغيرت، حياتنا تغيرت، لم يتبق منا شيء.

كانت دموعها عبر الهاتف كأنها دموعي، سمعتها تقول:

- أنا ليس لي غيرك، إذا فقدتك سوف أرمي نفسي أما سكة قطار.

زاد ضياعي وزاد ألمي وزاد حزني.

توقف عقلي عن التفكير، انقطع الاتصال، سقط هاتفي الجوال أرضاً،
التقطه ولم أجد نفسي إلا وأنا أهاث حنين:

- أنا موافق.

فرحها خرج من سماعة الهاتف فصرخت:

- أنا أحبك.

لم تقل عمي، خرجت الجملة منها مثلما تقول فتاة لعريسها قبل يوم
من الزواج، أغلقت الهاتف، كانت يدي ترتجف، وقفت أمام إحدى
محطات القطار، نظرت إلى السكك التي تلتصق كسيوف مسنونة، لو
تدخل هذه السكك في شراييني، لو تقطعني إلى ذرات تتبخر في الهواء، لو
أتلاشى دون أن أدري.

في القطار كان هناك رجل نائم ورائحة الخمر منتشرة، هو لا يعرف أين
يتجه، وأنا أيضاً، هو يتجه إلى المجهول وأنا أيضاً، هو ضيع عقله وأنا
ضيعت مشاعري، جلست أتأمله وكأنني أتأمل نفسي، أريده أن ينهض،
ينظر إليّ وانظر إليه، علني أجد ضياعي في عينيه.

كانت المحطات تتألى دون معرفة وجهتها، أحسست أنني لن أصل
أبداً وهذا ما أردته.

كان الرجل نائماً وكنت غارقاً في التفكير.

تعبت من التفكير، تعبت من كل شيء، أريد أن أنام، ونمت.

كانت غرفة واسعة، فيها سرير عريض ومرتب، ومضاء من جميع
الجهات، كنت عاري الصدر، كأنني أنتظر أحداً، لا بد أن تأتي رنـدة
لنمارس الحب بعيداً عن صخب الأحران.

سمعت خطوات خفيفة آتية من خلفي، وضعت كفيها على عيني:

- من أنا؟

- رنـدة.

التفت إليها فإذا حنين، نصف عارية، وفي عينيها رغبة جامحة، صرخت:

- لماذا أنت هنا؟

- إنها ليلة عرسنا، أنسيت؟

- ورندة.

- رنده أصبحت عجوزا.

- لكنك ابنة أخى.

- هذا وهم، أنا ابنة سفاح، وأنت ابن الأحران!، والحزين ليس له إلا ابنة السفاح.

نہضت قائلہ:

- لن يحدث هذا.

أردت الهروب، لكن الغرفة ليس فيها أبواب ولا نوافذ، كنت كالغأر المحاصر أركض من جدار إلى جدار، بينما حنين ممتددة على السرير عارية مبتسمة، وأخيرا تعبت وجلست على طرف السرير، لفت ذراعيها حولي كثعبان، وسحبتني نحو السرير.

نهضت مذعورا، لم أجد الرجل المخمور النائم، وجدت نفسي في المحطة التي صعدت منها، كادت رائحة الخمر المنسكبة على أرض القطار تصيبنني بالغثيان، نزلت قبل أن تغلق سائقة القطار الأبواب، كان الهواء باردا جدا، لكنه أزال غثيان رائحة الخمر، كانت رندة تجلس أمام طاولة الطعام، تنتظرني، سألت:

- أين كنت؟

- لا أعرف.

—

- الأماكن هنا لا أعرفها وهي لا تعرفني.

- لماذا ذهبت إذن؟

- نمت في القطار.
- ضحكت رنـدة حتـى بدت أسنانها البيضاء اللؤلؤية.
- أين الأولاد؟
- علي ومحمد ناما وهما ينتظرانك، وسامر وإمام خرجا.
- اقتربت من رنـدة، أنفاسها اصطدمت بوجهي، همست:
- ماذا بك؟
- اشتقت إليك، الضائع يشـتاق إلى من يعرفه.
- ضحكت مرة أخرى:
- منذ متى عرفتني؟
- منذ الأبد وإلى الأزل.
- أتقول شعرا؟
- بل هي الحقيقة، أنت مكاني وزماني، أنت الوجه الذي لا أعرف غيره، أنت كل شيء لي.
- صبحي، لا بدَّ أنَّ شيئاً حدث معك لتقول لي هذا الكلام.
- لم يحدث شيء، كنت نائما في القطار.
- ماذا رأيت في المنام؟
- أردت أن أتلعثم لكنني استدركت:
- لم أر شيئاً، كان نومي بلا أحلام.
- عاد الحلم بكل تفاصيله، بعد الطعام، استكملت صورته، حين عارية على السرير، وما زالت تدعوني بكفيها، نفضت من رأسي هذه التفاصيل الكابوسية، أردت أن تبتلعني الأرض أو تسحبني السماء، فتحت الباب لأخرج، سمعت رنـدة من ورائي تسألني:
- ألم تأت قبل قليل؟

- أحس المركز مثل سجن .

- وأنا أحس أن هذا ليس سبب خروجك، أنت تهرب من شيء ما،
صبيحي أنا زوجتك منذ ثلاثين عاما أعرفك تماما، هناك شيء لا أعرفه،
لم لا تقوله لي وترتاح .

توقفت قليلا حائرا، ثم خرجت هروبا من قول الحقيقة .

أردت أن أبكي، أن أصرخ، وأنا أركض في شارع مليء بالثلج، أردت
الهروب من نفسي قبل أن أهرب من أي إنسان آخر .
ولكن، أين المفر؟

جئت إلى ألمانيا لأرتاح من أصوات القصف والرصاص وأزيز
الطائرات، جئت لأنجو من الموت، فلحقت بي هموم من نوع آخر، أشد
وطأة وأفسى إيلا ما .

توقفت، نظرت إلى المركز البرتقالي اللون، أردت العودة لأقول لها
الحقيقة، لكنني تسمرت في مكاني، لم أشعر بالبرد القارس، كان جسدي
يغلي كفرن، توقفت أمام موقف الحافلة أفكر، لا، لم أعد أفكر، ضاعت
الأشياء من رأسي، تمنيت ألا أكون، لاني أرض ولا في سماء، عدت إلى
المركز، جلست على أحد مقاعد الحديقة، تبللت ثيابي بندف الثلج،
وبالثلج المتراكم على الكرسي .

دخلت مديرة المركز جيسيكا قالت لي من بعيد:

- هالو .

أجبتها بالتحية نفسها، رمقتني بنظرة استغراب قبل أن تدخل، نهضت،
خجلت من نفسي، كان جسدي يرتجف، دخلت غرفتي، وجدت رندة
مستلقية على سريرها، خلعت ملابسني المبللة ولبست بيجامتي، سألتني
رندة بحنان أم لا زوجة:

- ماذا بك؟

قلت بعصبية:

- لا شيء.

صمتت، أردت أن أصرخ لأعبر عن داخلي المتمزق فسمعت أصوات السوريين فوقى، فتصورت أنني أشاهد حلقة من مسلسل باب الحارة. أين أنت يا دمشق؟! لم يتبق منك سوى الذكرى، لم يتبق منك سوى الصور، في رأسي المهموم حتى نخاع العظام.

شوارعك ذكرى، ناسك ذكرى، سماءك ذكرى، أرضك ذكرى، أردت الصعود إليهم، أستمع إليهم، أعيد لحظات الماضي الحلوة، التي صار حلما.

لكنني توقفت عند سبابهم وشتائمهم وصراخهم، سمعت الأبواب تغلق بعنف، وهدير ركض أقدامهم.

جاءوا بحروبهم هنا، هذا مع وهذا ضد، إنها حروب لا تنتهي، أتوا هنا ولم يتطهروا من داحس والغبراء، أتوا حاملين رصاصهم وقذائفهم وصواريخهم في نفوسهم، وبعد قليل، تراهم يجلسون مع بعضهم، يلعبون الورق، لكن صواريخهم وقذائفهم مازالت مستعدة وهم يضحكون، وهم يغنون، وهم يدخنون النارجيلة، وهم يذهبون إلى حدائق شتوتغارت.

قال لي أحدهم وأنا اجلس في حديقة المركز، في يوم مشمس:

- يصورون ولائهم على هواتفهم النقالة، ويرسلونها إلى أهلهم وأقاربهم في سوريا، أولئك الذين يموتون جوعا وعطشا، ويتباهون بهذه الصور؛ كأنك تبسم لشخص تجلده، نسوا الجوع وشبعوا، نسوا المعاناة وارتاحوا، نسوا الضياع في البحر، نسوا الدمار والقتل، وجاءوا إلى هنا بلا ملامح. قلت له:

- نحن جميعا بلا ملامح، الحرب جعلتنا أشخاصا لا نعرف أنفسنا.

- إنها لعنة.

- نحن الملعونون، من يقتل جاره ملعون، من يحقد ملعون، كلنا ملعونون بشكل أو بآخر.

ابتعدت عنهم كي لا أسمع لغتهم الغريبة عني، إنهم في واد ولغتهم في واد آخر.

ابتعدت عن المركز حتى لا أسمع أصواتهم، عندئذ، سمعت زقزقة العصافير ونعمت بالهدوء رغم برودة الجو.

رنَّ هاتفي، كانت حنين، قطعت الاتصال، عاودت الاتصال قائلة:

- هكذا تستقبل ضيوفك، أنا عندكم في المركز يا، عمي.

قالت الكلمة الأخيرة بنغمة أخرى، لا بد أن رنّدت تقف إلى جانبها، ثم أضافت:

- أين أنت؟

- لا أعرف.

- قالت امرأة عمي إنك خرجت للتو، لا بد أن تكون قريباً، سأبحث عنك.

تسمرت في مكاني، لم يعد الهدوء الذي نعمت به هدوءاً، لم أعد أستمتع بزقزقة العصافير، ولا بالطبيعة الجميلة، كأن في داخلي إنساناً يدفعني إلى الالتقاء بها، كنت أسمع خطواتها قبل أن تأتي، كنت أسمع صوتها قبل أن تتكلم، كنت أسمع أنفاسها قبل أن تقترب، كانت كحلْم جميل، أو كشيطان رجيْم، سمعتها تهمس في أذني من خلف ظهري:

- أتفكر فيّ؟

التفت إليها كالمسوس.

- لن أصرخ أو أغضب، سأناقشك بهدوء.

- تفضل، ولكن قبلاً، سأحتضنك بعد فراق.

ضمتني إليها، كانت أنفاسها حارة، اختلطت بأنفاسي، وكان عطر جسدها أخاذاً.

همست وفمها قريب من أذني:

- أنا أحبك.

لم أنبس ببنت شفة، كنت كالمخدر، اقتنعت للحظة أنها قدرتي، تلك لحظة ليست كاللحظات، فيها الخيانة واللذة، والغضب والحزن، تختلط كلها لتكون شيئاً لا يمكن وصفه.

تكاد الأرض تبتلعني، وتكاد السماء ترميني من عل، أنظر إلى عينيها كأنها عيون الموت، في البؤبؤ يترصدني الموت، شفتاها مليتان بالرغبة والموت، وأنفاسها حارة كنار جهنم، صرخ داخلي، اقتربي أكثر، تعالي إلى الأرض الحرام، تلك الأرض ليست لنا ولن تلعننا، اقتربي، تحت شجرة بعيدة عن الأنظار، كانت قبلاتها مجنونة، استسلمت لها، اللذة أعمتني، نهشت روحي، اقتربت من المناطق الحرام، استسلمت، مارست الحب معي وأنا غائب عن الوعي، استمتعت كثيراً وتأملت كثيراً، كانت كحية رقطاء تلتف حولي، تشل حركتي، هي ليست حنين التي أعرفها، إنها امرأة أخرى، شيطان آخر.

في نظرتها لذة وسعادة، أخذت تذوب حين وصلت قمة الذروة، عضتني من خدي فأحسست بالدم الساخن يسيل، صحوت وهي تنهض من تحتي منتصرة، جلست على الأرض، وضمت ركبتيها، ونظرت إليّ بابتسامة انتصار.

صرخت:

- أنت شيطانة.

- أنا امرأة.

- كيف فعلت هذا؟

- أنت تريد هذا أيضاً.

- أنت ساحرة.

- قل ما تشاء، لكنك لن تتركني بعد الآن.

- كيف أنظر إليك بعد الآن؟

- امرأة تعشقك.

- لولا الحرب لما كنت معي الآن.

- الحرب تفعل الأعاجيب.

- ورندة.

- لن تصدق ما تقول.

— لماذا أنا؟

- أنت قدری.

- كيف لي أن أعيش بعد الآن، ألا تكفي الحرب الملعونة التي جعلتنا بلا ملامح، بلا جذور؟!

- الحرب ليست مليئة بالسلبيات.

- وماذا بعد؟؟

- حين نكون معا ستنسى الواجه المؤلم، ستنسى تعاستك، ستكون شخصا آخر.

- بل قولي سترداد تعاستی.

- في المرة القادمة ستطلب أنت مني ذلك، أتراهن.

كنت عاجزا عن الرد، نهضت ونظرت إلى الشجرة وقالت بفرح عارم:

- هذه الشجرة مباركة.

قلت بعصية:

- بل ملعونة.

وقبل أن تبعد التفتت إلى وقالت:

- سأقول لردة إنني لم أعتز عليك.

وذهبت تقفز فوق الأرض لشدة سعادتها أم تعاستها لا أدري، أما أنا فلم استطع النهوض، حاولت عدة مرات حتى نهضت، أحسست أنني كبرت عشرات السنوات في تلك اللحظة، عدت وجلست تحت الشجرة، وحلمت بما يمكن أن يكون، كانت حنين تحتى تماما، كنا عاريين، فمها

أمامي يتجرَّع اللذة، عنقها يتقلص ويمتد، وييدي سكين ذات نصل حاد طويل، عيناها حمراوان كالدّم، وشعرها الأسود يتأرجح تحتها، كانت تطلب مني مزيدا من الحركة، لتصل إلى نشوتها، بعد أن وصلت ذروتي بلحظات، وضعت النصل على رقبتها وفصلت رأسها عن جسدها، تدحرج بعيدا، كانت العينان تنظر إليّ بتضرع، والجسد يهتز من اللذة والموت معا، حتى همد تماما.

نهضت من حلمي، ركضت هاربا بعيدا عن الشجرة الملعونة، فكرت في الموت، سرت بلا هدف، ابتعدت عن مركز الإيواء أشواطاً، حتى لم أستطع السير من جديد.

توقفت، كانت هنالك حافلة قادمة، صعدت إليها وعدت إلى المركز، كان قلبي يدق بعنف، وفي رأسي آلاف الأفكار حول الخيانة، استقبلتني وجوه الشعوب المغلوبة على أمرها، الأفريقي والباكستاني والصربي والمقدوني، والجورجي والسوري، اختلطت وجوههم أمام نظري الزائغ، كان نبضي يتسارع كلما اقتربت من غرفتي، سامر مكتئب، وإمام مدمن، وأنا بلا أخلاق، تلك الحرباء حنين زادت همومي، كان جسدها دافئاً وطرياً، وكانت ممارسة الجنس معها متعة لا تدانيها متعة، ولكن الخيانة كانت أكبر من كل هذا، كيف سأنظر إلى عيني رندة بعد الآن، ليت الأرض تنشق وتبتلعني.

ليت السماء تهبط فوق رأسي.

جلس إلى جانبي صومالي كان يتكلم العربية بركاكة، وقال:

- تبدو منز عجا أو غاضبا.

- صحيح.

- كثير من الناس ماتوا دون الوصول إلى هنا، لكنك وصلت وهم لم يصلوا.

- ليتني لم أصل.

وسرد لي قصة ستة صوماليين تاهوا في البحر ثلاثين يوما ثم عادوا إلى النقطة التي خرجوا منها، جلسوا على الشاطئ وماتوا قهرا وعطشا.

كان يسرد لي حكايته بهدوء عجيب وبمرارة عجيبة وبحب كبير.
صمت قليلا وكأنه يقرأ سورة على أرواحهم، ثم نظر إليَّ بعينين
دامعتين.

نسيت حنين ولذتي الحرام معها، وسمعت أصوات أناس على وشك
الغرق، سمعت أمواج البحر العاتية، سمعت صراخ الأطفال، كانت
القذائف تسير في الماء، وكانت الوجوه تتطاير كالشرار، والأجساد تنتفخ،
ثم يسود صمت البحر، لم يعد هناك أحد سوى أسماك القرش والحيتان،
تأكل أجساد الصغار والكبار، ينتشر الدم فوق مساحة البحر، يغلي الدم
حين تلامسه أشعة الشمس، ينفجر البحر من غضب الأرواح، تعلو مياهه
نحو السماء، الأرواح ترفرف مع النوارس، يئن البحر، تبكي السماء، يلفظ
البحر الأجساد الباقية على الشاطئ، يغسل أجسادهم، يغسل أرواحهم،
البحر يبكي حين يداعب تلك الأجساد، تريد الأجساد أن تنهض، هكذا
قال البحر، لكنها باقية هنا، شاهدة على هروب لم يتم، شاهدة على وجع
مقيم، شاهدة على حرب مجنونة، تتوق الأجساد إلى قبور الأرض، لكنها
تعانق البحر والأسماك والنوارس، تعانق الحرية.

حين أعطتني رندة ظرفا كبيرا، لونه مثل لون الطين جاء عن طريق
بريد المركز، لم أستطع النظر في عينيها، فتحت الظرف فإذا هي أوراق قبول
لجوثنا الإنساني لمدة ثلاث سنوات، يتبعها اندماج بتعلم اللغة الألمانية ثم
إقامة مفتوحة جنسية.

فرحت رندة، وفرح علي ومحمد، ولم يظهر الفرح على إمام، أما أنا
فلم أعرف فرحت أم حزنت!

سوف أقيم هنا، وأنسى كل ما كان لي من حياة مضت، سوف أدفن
نفسي في رمال الوهم الحضاري، سوف أحلم أحلاما غير أحلامي، سوف
أنام في فراش غير فراشي، سوف أستقل حافلة غير حافلتي، سوف أشرب
مياها غير مياهي، سوف أكل طعاما غير طعامي، سوف أعاني ألما غير
آلامي، سوف أفرح فرحا غير فرحي، سوف أحزن حزنا غير حزني،
سوف أتحدث لغة غير لغتي، سوف أقيم في بيت غير بيتي، سوف أعاشر

جيرانا غير جيراني، سوف أسير على رصيف غير رصيفي، سوف يكون لي عادات غير عاداتي، سوف يضمني تراب غير ترابي، سوف أربي أولادي بغير تربيتي، سوف أرى وجوها غير ناسي، سوف أغضب غير غضبي، سوف أقمص شخصية غير شخصيتي، وسوف أصارع موتا غير موتي.

لم أر حنين في ذلك اليوم، في اليوم التالي، ذهبنا إلى أقرب بلدية للتسجيل في الجوب سنتر لنفصل نهائيا عن السوسيال أمت، أخذت رقما من آلة في الجدار وجلست أنتظر مع المنتظرين، لم أكن قد نظرت إلى وجه رنده منذ البارحة، تلك الشجرة الملعونة مازالت جذورها في أعماقي.

أخذت رنده راحة يدي وقالت:

- ما بك، لم تنظر إلى وجهي منذ البارحة؟!

قلت على الفور:

- لا شيء، لا شيء.

قالت بصوت هامس وقوي حتى لا يسمعها أحد:

- بل هناك شيء وأشياء.

الآن، نظرت إلى وجهها، كانت عيناها تنضح بنظرة اتهام.

- قلت لك لا شيء.

- هناك شيء تخفيه عني، أنا أعرفك.

- ماذا يدور في رأسك؟

- أريد الحقيقة لا ما يدور في رأسي.

- ليس لي حقيقة هنا، حقيقتي تركتها هناك.

- أعرف أنك صرت شخصا آخر، كلنا تغيرنا، لكنك تزداد غموضا.

منذ لحقت بك حنين في اليوم الأول لمجيئها وأنت غير متوازن.

- لم أرها.

- بل رأيتها، هي قالت لي.

- هي كاذبة.

نظرت إلي رنده، عرتني من الداخل، خلعت حجبي النفسية، جعلتني أبدو صغيرا وخجولا.

خرجت الموظفة وقالت بالألمانية: التالي... فدخلنا، تحدثت كثيرا، لم أفهم عليها، طلبنا منها التحدث بالإنجليزية لكنها قالت بلهجة حازمة: دويتش، أعطتنا أوراقا كثيرة طبعتها للتو، وأوراقا جاهزة، ثم خرجنا.

نظرت إلى رنده وأنا مبتسم:

- هل فهمت منها؟

- وهل تحسبني ألمانية لأفهم منها؟! كانت تتحدث بسرعة عجيبة.

حملنا الأوراق وجلسنا على كرسي موقف الحافلة.

مرت حنين في خاطري، كانت تقف في منتصف الشارع عارية بجسمها البلوري، وثدييها الصغيرين المكورين، وشعرها الأسود الطويل، وعينيها الواسعتين، تفتح يديها للريح أو الموت، تنظر نحوي تارة وإلى السماء تارة أخرى، جاءت سيارة بسرعة وصدمتها، اختفى جسدها، لم أر الحافلة وهي تقف أمامي، سمعت فقط صوت رنده تستعجلني للصعود.

ظهرت حنين من جديد خلف زجاج الحافلة المسرعة، كانت ترافقني عارية الصدر، دخلت عقلي وقالت:

- أتفكر في؟

- لا.

- كاذب.

- اخرسي.

- حين تفكر فيّ سأكون معك.

أدرت وجهي، سمعت رنده تقول لي:

- حنين تقيم في غرفة مع امرأة عجوز من صربيا في البناء الثاني من المركز، بعد الغداء سنذهب لزيارتها.

خرجت وسرت تحت المطر، تبللت دون أن أشعر، أحسست بخطوات
تلحق بي، النفث، كانت حينئذ.

- أقبل يدك، اتركني.

- أنا قدرك.

- أنت موقى البطيء.

اقتربت أكثر، وكنا قد اقتربنا من الشجرة اللعينة، أنفاسها الحارة
دغدغت كياني، استسلمت لقبلائها، استسلمت لهمسها، استسلمت
لجنونها، أصبحت لعبة بين يديها، التصقت بي أكثر، جرتني نحو الشجرة
الملعونة، افترشنا الطين، كان جسدها ندياً بضاً، كنت أسحق آلامي
لأصل إلى اللذة، كانت تدخل في عظامي وفي روحي، كنت كالمغيّب،
وكانت تقودني إلى هاوية سحيقة، لكنها لذيدة.

في الأيام التالية، لم أستطع النهوض، لم أستطع النوم، ولم أستطع الاستيقاظ،
كأنني تلقيت آلاف الكدمات، اتصل سامر بالإسعاف في الرابعة صباحاً،
جاءت سيارة الإسعاف بعد ربع ساعة، امرأة ورجل، المرأة هي حينئذ
والرجل هو أخي فتاح، كتبالي دواء لم آلف طعمه، وقالوا لسامر بلغتهم:
- صحة والدك جيدة لكنه متعب نفسياً.

ازدادت روحي ضيقاً، صحوت على نظرات حينئذ اليائسة، جلست
دون أن تتكلم، كأنها كانت تحتضر، خفت من نظراتها، فابتسمت لها، لم
تبسم، نهضت، نظرت إليّ وكأنها تودعني، وخرجت دون كلام، كانت
تسير نحو الباب وكأنها تسير وراء نعش، صحوت تماماً، ودعتها بنظراتي،
حاولت النهوض لأرجعها، فلم أستطع، كانت قد غابت، بقيت نظراتها،
بقيت خطواتها الجنائزية، وبقيت روحي المعذبة، تلك اللحظات لن
أنساها، سألت رندة رغم معرفتي الجواب:

- هل ذهبت حينئذ؟

- خرجت وكأنها ليست هي، في نظرتها يأس، كان وجهها يشبه وجوه
الأموات.

قلت:

- أشم رائحة موت.

لم يستيقظ علي ومحمد، اقتربت رنده مني وسألتني:

- موت من؟!!

- لا أدري، لكنني شممت هذه الرائحة حين ماتت أختي بدرية، وماتزال تلك الرائحة تبعق في أنفي رغم العقود الطويلة التي مرّت.

بعد قليل جاءت سيارة الإسعاف، وبعدها طرق عنيف على باب غرفتنا، كانت الصربية التي تقاسم حنين غرفتها، منكوشة الشعر، نصف عارية، والهلع يطل من عينيها، تحدثت بلغة لم نفهمها، وهي تبكي.

خرجنا جميعاً نحو البناء الثاني، تحدّث سامر بالألمانية مع المسعف، عرفنا بعدها أنّ حنين شربت سم الفئران.

عادت رائحة الموت تزخم أنفي، كانت حنين نائمة نومتها الأخيرة، وزبد خفيف يخرج من جانب فمها، هزتها رنده وهي تصرخ:

- حنين، لماذا فعلت هذا، لماذا؟

كان الجواب عندي وعند حنين، وقد دفن معها، لكنه بقي معي، حنين لم تحتل ألمي، لم تحتل عذاباتي فأثرت الانسحاب، كان على أحد منا أن ينسحب من هذه الخطيئة.

كانت أشجع مني، وكنت أجبن منها.

حنين، أما زلت تذكرين تلك الشجرة الملعونة، أما زلت تذكرين اللذة المحرمة؟! كأنني آدم وكأنك حواء، تلك الخطيئة حولنا، تعلمنا منها، هنا في القطارات وفي الساحات، وعلى الأرصفة، يحتضنون بعضهم، يقبلون بعضهم، في داخل القطارات يتبادلون القبل، كأن هذه الحرية أتاحت لنا هذه الخطيئة، ابنة السفاح من فلسطين ذهبت ولن تعود، غطى المسعف وجه حنين وبان عليه الحزن، صرخت رنده:

- ماتت.

هز المسعف رأسه.

قلت إنني أشم رائحة الموت، وها هو الموت قد أتى، معجوننا بالخطيئة، دفنت معها سرها، وبقي معي السرّ يعذبني، رأيتها صغيرة على كتف أخي عطا، لماذا جاء بهذه الخطيئة، لأنه لم يستطع إنجاب طفل، رأيتها بدون خطيئة، بكيت أمام الناس، لم أستطع ضبط نفسي، أردت قول كل شيء قبل أن يخرجوها من الغرفة، أردت أن أرتاح فبكيت، لم تدر رندة ما أفكر به، هل هو حزن أم فرح، لم أقل لها إنها ابنة سفاح، لم أقل لها قصة الشجرة الملعونة، لكنني أحسست أنها أحست، لكنها لم تقل شيئاً.

حين يأتي الموت تتوقف كل الأسئلة، نبحت عن مسار جديد لحياتنا، لكن الذكريات تقرع في رؤوسنا كالطبول، نريد أن نبعدنا فندق أكثر، نريد أن ننسى فتذكر أكثر، تحفر تلك الذكريات مع الزمن أخاديد عديدة، نتذكرها في لحظات معينة، لحظات الفرح أو الحزن.

أخذت سيارة الإسعاف حنين، لم يتبق أحد في فراشه، انفضوا كما اجتمعوا، بقيت وحيدا مع رندة، لم أشعر بالرضا الثلجي يلفح وجهي، أمسكتني رندة وقالت:

- أنت مريض، عد إلى فراشك.

- ونترك حنين.

- سندهب غدا إلى المشفى لدفنها.

- لم أعد أشعر بالآمي، كأن آلام حنين قد غسلت آلامي، قلت باكيا:

- ذهبت حنين ولن نراها.

- حين جاءت من فرانكفورت قبل يومين كانت تمتلئ بالحياة، وبعد يومين كان في نظرتها هموم البشر جميعا، ما الذي حدث.

- لا أحد يدري إلهي.

- ولم أستطع أن أقول، وأنا أيضا.

أحيانا تمر لحظات في حياة الإنسان كحد السكين، ينفصل رأسك، تقطع أعضائك، تستلب إرادتك، وتحولك إلى كائن آخر، تلك هي اللحظات التي أحسست بها بعد موت حنين، كنت أنا القاتل وهي الضحية، بعد أن كانت هي القاتلة وأنا الضحية، قبل يوم واحد فقط. حين تتبادل الأدوار ننسى دورنا الحقيقي، نريد أن نكون شيئاً نظمح إليه دون حماس.

كانت حنين شيئاً متوهجاً، ضوءاً، حين لم أكن أعرف أنها ابنة سفاح، لكنها أصبحت ظلمة وشيطانا ووحشاً بعد أن عرفت.

كيف لأخي عطا أن يخطئ تلك الخطيئة؟ لماذا لم يخبئ سره عنها من أجل أن تعيش حياتها بنقاء، أراد أن تكون في الوحل كما وجدها في الوحل، هل أبوها الذي لا نعرفه عدو أم صديق، صحيح أن عطا منحها الحياة لكنه لم يمنحها الطريق السوي.

ابتسمت هازئاً للكلمة الأخيرة، وأنا أعود إلى غرفتي مهدود القوى، هي لم تكن سوية، وأنا كذلك، هي ابنة سفاح، أما أنا فقد صرت أشك بنفسي، لماذا عليّ أن أحمل هذا العبء، ماذا لو كانت حنين كاذبة ولم تكن ابنة سفاح، لماذا لم يخبرني أخي بذلك، ما الذي دفعها إلى أن تهبل نفسها. أسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا أراها نائمة في رحلة الموت، كنت متمدداً في فراشي، مثلها تماماً، جثة هامدة.

لم أنم.

- أنا أكبر منك، سأموت قبلك.

- الموت لا يعرف كبيرا ولا صغيرا.

كانت حنين نائمة بهدوء، وكأنها تعذبني بهدوئها وصمتها، انهدم جدار كبير بداخلي بموت حنين، والجدران الباقية في طريقها للهدم. كان وداعا قصيرا، بكت رندة، ثم خرجنا، فبدت حنين وكأنها شخص من الماضي السحيق.

توقفت في الصف لأقبض راتبي من السوسيال في المركز، كنت مع وجوه المتعبين بيضا وسودا، عربا وعجماء، عيونهم مطفأة لكنها تلمع حين يرون اليورو، بعدها يبدأ موسم التسوق لديهم في السوبر ماركات المنتشرة بكثرة، ريفي، تريف، ألدی، ليدل...

قالت لي الموظفة التي تسلم الشيكات:

- لا مال لك عندي، اذهب إلى الجوب سنتر، أنت أخذت إقامة.

لم يكن في جيبي سنت واحد، انهدم جدار آخر، ومازالت هناك جدران أخرى ستتهدم.

خرجت من المركز صامتا تائها، وجدت نفسي عند الشجرة الملعونة، كانت حينئذ تنتظرني هناك، جلست إلى جانبها.

- لماذا قتلت نفسك؟

- من أجل أن تعيش أنت.

- أنا ميت قبل الموت.

وقفت لتغادر، أمسكتها من يدها فقالت:

- لم أبق لك.

وبقيت مع الشجرة الملعونة.

مشيت سريعا، كي تتساقط عني تلك الأحلام، صار تنفسي سريعا، وزادت نبضات قلبي، ودخل الهواء البارد رثتي.

- لا أريد أن أزيد دموعك، فدموعك غالية، السواد في عينيك يزيد البكاء.
صمتت، نظرت إليّ ثم انفجرت بالبكاء، لم أدر ما أفعل، نهضت
وضربت الكرسي الخشبي بيدي الاثنتين.
- قلت لك لا تبك.

هدأت رنده، تلك هي الفتاة الجميلة التي جاءت لي أمي بصورتها،
فعشقتها منذ ذلك التاريخ.
قلت بلهفة:

- متى نذهب لخطبتها؟
سنذهب غدا حين تأتي أختك جلييلة وفاطمة.
- سنذهب اليوم أنا وأنت وصديقي دكتور الجامعة محمود.
- قلت لك لا يجوز، هذه هي العادات.
- أخشى أن تخطب.
- لن نخطب بين يوم وليلة.

كان ذلك الغد هو رأس السنة، تحدثت مع أبيها وأمها عن عملي في
المدرسة وكتاباتي، جاءت رنده بصينية القهوة، كان شعرها الأشقر شلال
من ذهب، نظرت إليها، كانت أجمل من الصورة، ونظرت إليّ بوجه خجول،
أخذت أختي جلييلة تغلي كيدا، تجاهلتها كي لا أعكر صفو جلستي.
كان والد رنده جنديا متطوعا في جيش التحرير الفلسطيني، وأمها
امرأة صالحة متدينة، وعرفت أن عائلتهم تنتمي جذورها إلى قبائل
الأمازيغ في الجزائر، في مرحلة استعمار فرنسا للجزائر، جاء جدهم
واستوطن فلسطين قرب بحيرة طبرية، من أجل أن يكون قريبا من
القدس، هربوا من الحرب فجاءت إليهم الحرب، وفي الهجرة الكبرى
عام ٤٨ هاجروا إلى سوريا مع الفلسطينيين، وسجلوا في الأونروا على
أنهم فلسطينيون.

تلك هي الحروب تغير المكان وتغير الانتماء.

— الإنسان لا يدرك تغيره.

– أنت متخلف.

شعرت بإساءتها فصمت.

ذهبت إلى الجوب سنتر، لم أستطع التفاهم مع الموظفة، لأول مرة أشعر بعجزتي، أعطيتها بعض الكلمات والإشارات، كادت تنفجر ضحكا وأحيانا غضبا، اتصلت بأبي مصطفى العراقي تحدث معها ثم أخبرني ما تريد. خرجت من غرفة الموظفة والعرق يتصبب في أنحاء جسمي رغم برودة الجو، ترددت جملة قالها لي أبو مصطفى في نهاية حديثنا:

– سيأتيك المطلوب بالبريد.

في ألمانيا، التخاطب الكلامي ليس مهماً، بل الأهم التخاطب الورقي عبر البريد، لتكون حجة عليك، ولتفهم لغتهم، شئت أم أبيت، حين يوزع الموظف ميخائيل البريد على غرف المركز، تعلو فمه الابتسامة، مع كثير من كلمات الشكر والوداع.

إنها لعبة التعارف التي تبني الحدود والسدود رغم الابتسامة، لا أدري كيف يكون هذا التناقض ما بين الود وضده، ولهذا لا بد أن تقابل الضحكة بأحسن منها، وكلمات الشكر بشكر أفضل، والود بود أكبر، والرقعة برقة أكثر، لكن كل ذلك مصطنع ومزيف، زيف الحضارة المادية التي لا ترحم.

دوما نحن نتوقع ضد الأشياء، من أين اقتبسنا هذه العادة، أم هي في جينات أرواحنا.

نحن نعيش على الشك من كل شيء وبلا شيء.

فجأة، وقفت حنين فوق رأسي، ثم دخلته، بدأت غرائزي تعمل، وقفت في منتصف الرصيف، بدا الرصيف سريرا دافئا، وحنين عارية في منتصفه، لم نقو على وقف غرائزنا، كما لم نقو على وقف شكننا.

لماذا لا نصدق ما يقال إذا كان الشك يأكل نفوسنا، نحن ضد أنفسنا،
أما هم فواضحون.

- الحياة هنا سهلة ماديا لكنها مريّة نفسيا.

الحياة لا تعطيك كل شيء، لكن النقص ليس في الحياة، بل في آدميتنا، نحن الذين نتغير، والحياة ثابتة، الشمس تطلع وتغيب، والنجوم تلمع في الليل، والأزهار تتفتح، والأشجار تثمر، والقمر يصير بدراً ثم يختفي، كل شيء يسير كما هو، أما نحن فنسير حسب أهوائنا، حسب أفكارنا، حسب مصالحنا، نحب شيئاً ثم نكرهه، نشعر أننا لم نتغير، ولكننا نتغير.

الأخوان السوريون في المركز فوقي، يحدوهم الأمل بإعادة باب الحارة في ألمانيا، باب الحارة ليس إلامشادات ووطنيات زائفة، وزواج وطلاق، وطعام ومكائد، يتغيرون حسب أهوائهم، لكنهم مثل أبي عصام وصاحب المقهى والعقيد وصاحب الفرن وشيخ الحارة، إنهم هم لكنهم ليسوا هم، لقد تعبت من هذه المقارنة.

في الحرب، تغيرت مصالحنا المادية فتغيرنا كلنا، دون أن ندري.

جلست أمام التلفاز أرى حربنا على الشاشة، أرى كرهنا، أرى حقدا، كانت القذائف تملأ الشاشة، كان الدمار يملأ الشاشة، وكان الحقد يملأ الشاشة، الأشخاص الذين يتقاتلون عادوا إلى العصور الحجرية، إلى بداية الحروب، إلى بشاعة الحروب، لم يكن يموت في هذه الحرب إلا نحن، لم تكن تموت إلا بيوتنا، ولم تكن تموت إلا ذكرياتنا.

أوقفوا هذه الحرب أيها المجانين، لم يعد هناك بيت لم يهدم، أو امرأة لم تسب، أو عائلة لم تهرب، أو طفل لم يشرّد، أوقفوا هذه الحرب أيها المجانين.

إنكم تدمرون ما دمر، تقتلون الجثث، تغضبون ما اغتصب، لم تعد
هناك دموع ودماء، لم يعد للهروب طعم، كما لم تعد للحرب طعم، لقد
مِلَّ الموت موتنا، ومِلَّت الدموع دموعنا، ومِلَّت الدماء دماءنا، وصلنا إلى
ما هو أبعد من الموت.

الشاشة أمامي تشظى، تنفجر، أنفجر معها، قطعاً صغيرة في سماء غرفة الإيواء، ثم تعود إلى وضعها الأول لتشظى من جديد، فالحرب لم تنته ولن تنتهى.

تحركت قليلا وكأنها صحت من كابوس، الآن سقطت دموعها على
الوسادة، سقطت دموعي أيضا بصمت.

قالت بحزن:

- جننا بعد رحلة عذاب، قطعنا الصحراء والبحر، تعرضنا للموت،
وأنت كما أنت.

- أفضل من أن تغيرني الحرب؛ كما غيرت كثيرين.

ذات شتاء، في بيتي القديم، حيث شجرات الأزد رخت، تغتسل
بالمطر، وقفت تحت المطر، تبللت ثيابي دون أن أشعر بالبرد، الآن أحس
بالبرد دون مطر، وأنا في هذه الغرفة الدافئة أحس أسناني تصطك.

بعدها لم أعد اشعر بشيء، لا برد ولا حر، لا شيء إطلاقا، فقدت
وعيي وأنا أجلس مكاني، سمعت رندة تصرخ:

- صبحي، لم وجهك أزرق؟

ولم أع بعدها شيئا.

كان أبي يمر أمامي وكذلك أمي وأخي فتاح وعطا وأختي بدرية
فنظيرة فصباحية، كل الأموات مروا من أمامي، كانوا ينظرون إلي صامتين،
ثم يذهبون، ثم يعودون من جديد، ويتكرر هذا المشهد مئات المرات.

لم أدر أن سيارة إسعاف نقلتني إلى المشفى، ولم أدر أن سكان المركز
تجمعوا حول السيارة وهم يحملونني على نقالة، لكنني لم أسمع صوت
سيارة الإسعاف، لأن الأموات كانوا يمرون من أمامي بصمت، وأنا
أنظر، أحاول أن أتكلم فلا أستطيع، أحاول الإشارة بيدي لا أستطيع،
كنت مقيدا وكانوا يمرون بصمت.



فتحت عينيَّ وأنا في سرير المشفى، وممرضات شقراوات كممثلات
السينما يحطن بي، واحدة تقيس نبضي، وأخرى تنظر إلى الأجهزة، والثالثة
ترتب الملاءة فوقى، كانوا ملائكة الرحمة وكنت الشيطان المريض، حين
فتحت عينيَّ ابتسمن جميعا، وتمتمن كلمات رقيقة بلغة ألمانية لم أفهمها.
بعد قليل، دخلت رنده، والابتسامة تسبقها، انحنت على السرير
وهمست:

- كنت سأموت وراءك.

- لکنی مازلت حیا۔

- ماذا حدث لتفقد وعبك؟

- لأنك كنت تبكين، أنت الوحيدة في العالم التي لا أحبها أن تبكى.

ساعتها أردت أن أقول كل شيء، لكن الكلام توقف في حنجرتي.

- رنده، أريد أن أقول لك شيئاً.

- لا تقل شيئاً، عليك الآن أن ترتاح.

كيف أرتاح وعندي أسرار لا تحملها الجبال، عندي خيانة وحزن وبكاء.

ليس لدي الشجاعة لأقول لها الحقيقة، أردت موارد الحقيقة، ولكن هل يمكن أن تتوارب الحقيقة، كيف أعيش بقية حياتي، وسر حنين يأكل داخلي، يؤرقني، يرميني في عمق الأرض، ويرتفع بي إلى عنان السماء؟!!

جاء أولادي وزاروني في المشفى، بكى علي ومحمد، وصمت بحزن كل من سامر وإمام، كنت أنظر إليهم مع رنده، وكأنهم في صف واحد ضد العفن المخبوء في داخلي.

كانت عيونهم تتهمني، دموع علي ومحمد تتهمني، نظرات سامر وإمام تتهمني، صمت رندة وحزنها يتتهمني.

أَغْمَضْتُ عَيْنِي كِي لَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ، سَمِعْتُ رَنْدَةً تَقُولُ لَهُمْ:

- أبوكم بخير، يريد أن ينام، هيا نخرج.

حين خرجوا، فاضت دموعي على الوسادة، عصرت قبضتي، على
فكي فسال الدم من أسناني، تركوني مع أوجاعي وخرجوا.

كيف لي أن ارتاح مع هذا السر الذي يؤرقني، تعبت من التفكير فنمت، حلمت بأبي وهو يأكل صامتا، حادثه فلم يرد عليّ، جاء أخي فتاح وجلس قربي، سألته:

- ما به أی؟

- أبوك لا يحبك.

– لکنہ کان یجینی۔

- أنت تعرف ماذا فعلت.

- هل عرف شيئا؟

- عرف كل شيء.

وجاءت أمي وأدارت لي ظهرها، ولم تلتفت إليّ.

- أرايت، لن يغفروا لك حتى تقول لرندة ما فعلته مع حنين.

قال فتاح.

صرخت:

- حنين، حنين، لماذا تلاحقني حتى في أحلامي؟

- أصبحت جزءاً منك.

- آه.

وبدت حنين في البعيد عارية ضمن ضباب كثيف، كانت تقترب.

قال فتاح:

- ها هي جاءت إليك.

- لا أريدها.

- هي تريدك.

صحوت ورندة تنظر إليّ وأنا أقول، لا أريدها، لا أريدها.

- من هي؟

- كنت أحلم.

- قد تكون أحلامنا جزءاً من الحقيقة.

- نسيت الحلم.

- يبدو أنك تحسنت لأنك نمت.

أحياناً نهرب إلى أحلامنا، وأحياناً أحلامنا تأتي إلينا لتثقل علينا.

جاءت ممرضة شقراء؛ وجهها كحكاية أسطورية عن امرأة تقاوم شر الساحرات. كانت مبتسمة، فهمت من صوتها الدافئ المنخفض أنني سوف أغادر المشفى، تحدثت معها رندة باللغة الإنجليزية، ثم ذهبت.

نهضت، دارت بي الغرفة قليلاً ثم استقرت.

لبست ثيابي وخرجت للشمس الدافئة، أمسكتني رندة من ساعدي، نظرت إليها، كانت عيناها تضحك تحت أشعة الشمس الدافئة، الخجولة.

قلت لها:

- تأجلّ موتي قليلاً.

اعتكرت نظراتها.

- لماذا لا تحب الفرح، انظر للشمس.

- آسف لأنني أغضبتك.
 عادت عيناها تضحك.
 مشينا حتى محطة القطار وجلسنا ننتظر.
 كانت لحظات انتظار، كيف لي أن أحدثها وهي لا تريد، وكيف لها أن
 تحدثني وأنا لا أريد.
 صمتنا حتى منتصف رحلة القطار نحو المأوى ثم بادرت بالقول:
 - كيف تشعر الآن؟
 - أفضل بكثير.
 كان في وجهها جمود وشرود،
 - رندة ما بك.
 - لا شيء، أنا فرحة بعودتك إلينا.
 - وأنا فرح بوجودك معي.
 كيف لي أن أخرج حنين من داخلي، اشتقت للحزن على بيتي، على
 شارعي، على كل شيء تركته هناك، وجاءت حنين فمسحت كل شيء
 بوجودها، أنستني كل ذلك، هزئت بحزني، مسختني، وبقيت هي
 الوحيدة العالقة في ذهني.
 قالت رندة:
 - حين تفكر تصمت.
 - أفكر بكل شيء تركناه.
 - بيوت كثيرة هجرت وبيوت كثيرة دمرت والحبلى على الجرار.
 - ماذا فعل الناس لهم؟
 - لم يستطيعوا تربية أولادهم، لأن كثيرًا من الكبار بحاجة إلى تربية من
 جديد، ولهذا فشل الشباب...
 ثم أضافت:



- كانوا يذهبون إلى المساجد وكأنهم دُمى متحركة، لو كان لديهم مشاعر دينية حقيقية ما حدث ما حدث.

فتح كلام رنده جروحي.

قلت:

- يخطر ببالي أن أمزق أوراق روايتي وأرمي قصاصاتها في ماء النهر قرب الإيواء.

- هل جف قلمك؟

- لا، ولكنها تعذبني كلما قرأت سطورها يصيبني حزن وهم، فأقول لنفسي لم أقل فيها كل ما حدث.

- هذه الأحزان ليست ملكك، إنها ملك الآخرين، لأنها أحزانهم، دع الذين لم يكتسبوا بنار الحزن أن يقرأها عليهم يتجنبون تلك الأحزان.

- لكنني مثل تلك الحرب وصلت إلى طريق مسدود.

- ما يحدث فوق الواقع والخيال، أنت أمام ملحمة كبيرة، متنوعة الأبعاد.

- ليتها لم تحدث تلك الملعمة، إنها ملعمة الموت والدمار والدموع والأحزان التي لا تنتهى.

وضعت يدها على الجرح حين قالت:

- وَلَمْ تَلَمْ تَقُلْ فِيهَا كُلْ شَيْءٌ، أَمْ أَنْتَ تَرِيدُ إِخْفَاءَ شَيْءٍ.

رددت على الفور:

- لا، لا، الكاتب حين يريد إخفاء شيء يتجه نحو الفن.

- وهل فعلت ذلك؟

- روایۃ بلا فن کجسم بلا روح.

- لم تجب على تساؤلي.

- بل، أجبت.

- لا شيء في هذا الكون ليس له علاقة، حرائق الحرب تشبه هذا اللون البرتقالي، والفن قد يَمَلُّ الحرب وقد يجعلها بشعة.

- نحن نعيش المتناقضات.

- هذا صحيح.

تمددت على السرير، أحسست أنني قد فارقت الحياة وحيدا، لا أصدقاء حولي ولا أحباب، لا بكاء ولا عويل، بل صمت مطبق كصمت القبور. فكرت في طريقة دفني هنا، هنالك ولايات ألمانية تمنع دفن الميت في كفنه القماشى الأبيض، وتجبر أهله على دفنه بتابوت خشبي.

في ولاية بادن فونبرغ التي أعيش فيها، أصدر حاكم الولاية قانونا بالسماح بالدفن كما ندفن أمواتنا.

فكرت لهذا دون أن أحس بما حولي، وتوقفت حركتي، وسكن جسدي.

صرخت رندة:

- صبحي ما بك، قبل قليل كنت تتحدث بالقطار وكأنك ابن عشرين.

لم أستطع أن أرد، فروحي لم تعد ملكا لجسدي، سأموت في أرض ليست أرضي، وأدفن في تراب ليس ترابي، لن يسير خلفي أصدقائي، ستأخذني السيارة وحيدا، إلى قبر بارد وتضعني فيه وتعود.

سأكون غريبا في الموت، كما عشت غريبا في الحياة.

أخذ صراخ رندة يعلو، وصارت تضرب وجهها بيديها أمام باب الغرفة، تجمع الصرب والسوريون والصوماليون والمقدونيون وصاروا يتهايمسون بلغاتهم المختلفة.

عادت روحي إلى جسدي، فتحت عيني، ونهضت، وخرجت وجددني رندة أمامها فانهارت رندة على الأرض، وتفرق الموجودون يتهايمسون مبتسمين .

- رندة، ما بك؟!
- أنت كنت ميتا، أكنت تمزح؟
- الروح ليست بأمرى لأمزح.
- نظرت إليّ طويلا، كأنها تراني للمرة الأولى.
- قلت:
- لو متنا هناك لكان أفضل.
- لكننا لم نمت.
- أهكذا ترين؟
- لم يعد لديّ أعصاب، لم أعد أدرك ما أنت، يبدو أن في عقلك الباطن أفكارا سوداوية مما يجعلك تفكر في أشياء تدمرنا، ألا يكفي أن الحرب دمرتنا.
- لم أفكر في شيء، هذا ما حدث ببساطة.
- أكنت تكتب عن رجل مات في روايتك؟
- لا أذكر.
- صرخت في وجهي:
- كيف لا تذكر، أحيانا تذكر لي تفاصيل مملة لما كتبتة.
- وأحيانا لا أذكر.
- كأنني أجادل جدارا.
- أنت لم تصدقي ما حدث، قلت لك غادرت روحي جسدي ثم عادت إليه من جديد.
- علينا أن ننهي هذا النقاش العبيث.
- أنت بدأته.
- دارت حول نفسها ثم قالت:

- سأحضر بعض الطعام، سيأتي علي ومحمد جائعين من المدرسة، هل أنت جائع.

- نعم، جائع لكل شيء جائع للطعام والحرية وممارسة الجنس.

- حرية ماذا؟!!

- حرية كل شيء.

- لن أعود للنقاش.

وخرجت من الغرفة.

جاء علي ومحمد وبرفقتهم صديقتان ألمانيتان من المدرسة، جلس كل واحد إلى جانب صديقه دون أن يكثر ثأبي.

قلت بلهجة غاضبة:

- من ہاتین؟

قال علی:

- هذه صديقتي وهذه صديقة محمد.

- ولماذا صديقة وليس صديق؟

قال محمد بلهجة وكأنني من عصور ما قبل التاريخ:

- بابا، هنا هكذا، الصديقة أولاً ثم يأتي الصديق.

نظرت إلى رنده، كانت محرجة، أخذت تصفُ الصحون فوق الطاولة لتتشغل عن نظرائي، لم أكن أدرك إلا في تلك اللحظة أن تغييرات جذرية سوف تحدث لعائلتي، اقتربت مني رنده وهمست:

- إنهما يتحدثان الألمانية مع علي ومحمد مما يجعلهما يجيدان اللغة بشكل أسرع.

قلت هازئا:

- الألمانىة وشىء آخر.

وَحِينَ لَمْ تَرْدِ أَضِفْتُ:

- كلكم تغيرتم، حتى أولادي الصغار تغيروا.
- أجابت بلهجة حازمة:
- وأنت تغيرت قبلنا.
- إذن لنبحث عن حياة أخرى.
- ماذا تقصد؟
- أرى أن عائلتنا سوف تتشظى كما جعلتنا الحرب نتشظى.
- بدت مشيتها وهي تتبعد عني حزينة، فأحسست بالندم.
- حين خرجت صديقتا علي ومحمد أمسكتهما وضربتهما، بعد أن أغلقت الباب.
- أنتما صغيران على هذه الصداقة.
- قال علي وهو ينظر إليّ بتحدٍّ ودموعه على خديه:
- لكن الآباء هنا لا يضربون أبناءهم.
- وزاد على ذلك محمد:
- قالوا لنا في المدرسة إذا ضربك أحد أبويك فأخبر الشرطة.
- صرخت فيهما:
- هيا أخبرا الشرطة، هيا.
- صمتا، دخلت رندة ونظرت إليّ نظرة لوم وعتب، ولم تتكلم.
- بعد قليل قال علي:
- سنخرج إلى الحديقة لنلعب.
- قلت:
- لا تتبعدا كثيرا.
- حين خرجا بدا وجه رندة قاسيا، وهي تصب لي كلماتها وكأنها من رصاص:

- أيام الضرب مضت، نحن هنا نعيش في مجتمع جديد يجب أن نحترمه.

- أنسيت أننا لسنا من هذا المجتمع.

- أصبحنا جزءاً منه شيئاً أم أبينا.

- تريد أن أمتنع عن تربية أبنائي.

- هذا إمام أمامك ربيته هناك كما تريد، ماذا حدث، صار مدمن خمر، يشرب أمامك وأنت تنظر إليه، ويعلم الله ماذا يفعل أيضاً.

- تريد القول أن تربيته فاشلة.

- نعم فاشلة، فاشلة.

احتقن وجهي، فخففت من لهجتها حين قالت:

- الحقيقة مرّة، لكننا يجب الاعتراف بها.

قلت لها بانكسار:

- أنا أهزم أمام عائلتي كما هزمت في الحرب.

- لم تهزم وحدك، كلنا هزمنا، الحرب بدلت نفوسنا كما بدلت أمكتتنا.

- أحيانا أشعر أنك معي وأحيانا ضدي.

- تصرفاتك تجعلني أقف ضدك.

بدت لي رندة واضحة كما لم تكن من قبل، نظرت إليها نظرة طويلة، ونسيت إساءتها، وكنت أسمع في الخارج ضحكات علي ومحمد وصوت أقدامهما وهما يركضان.

أحسست أنني أجلس في بيتي في اليرموك، نتبادل الأحاديث والضحكات وحتى النكات البذيئة، كنت شيئاً آخر في تلك اللحظة، عاد بي الوقت إلى ذلك العهد، عهد لم أكن أحبه في حينها، لكنني أحبته الآن لأنني فقدته.

سألني رندة بنعومة:

- ما بك؟
- أتذكرين جلساتنا في بيتنا؟
- ومن ينساها.
- عدت إلى تلك الجلسات.
- أفكارك ومشاعرك هي التي عادت، ولكنك...
- وصمتت.
- لكنني ماذا؟!
- لا أريد أن أفسد عليك روح تلك الجلسات.
- أحيانا أحبك كثيرًا وأحيانا أكرهك كثيرا.
- لم تقل لي ذلك من قبل.
- أقوله الآن لأنني أحبك.
- وفي لحظات الكره تصمت.
- أسأت التعبير، ليس كرها بل شيء آخر.
- مثل ماذا؟!
- مثل أن ينام الإنسان بلا غطاء في مكان بارد، ثم يصحو وقد حلم أحلاما مزعجة، يبدو عليه القلق للحظات ثم ينتهي.
- وهل أنا حلم مزعج؟
- لا أقصدك أنت، بل أقصد الحالة.
- أحسست برغبة شديدة بعد هذا الحوار بممارسة الحب مع رنده، نظرت إليها مليا، فهمت قصدي، قالت:
- اللعنة على هذه الغرفة للطعام أم للشراب أم لاستقبال الناس.
- في بيتنا كان هناك متسع للحب، أما هنا، فلا تفعل سوى أن تصبح ضجرا وتتحسر ثم تنام.

- اقتربت من رندة وهمست في أذنها:
- سنذهب إلى غرفة في فندق، وسنكون وحدنا.
 - لا أوافق.
 - لم؟
 - سينظرون إلي على أنني عشيقة لا زوجة.
 - ليفكروا ما يشاؤون.
 - لا أقبل.
 - قلت بعصبية:
 - هذا يعني أننا معا ولسنا معا، هل هذه حاله.
 - ليس لنا إلا الصبر.
 - أريد أن أشعر أنني إنسان له حقوقه الأساسية.
 - وهل العلاقة تعطيك إنسانيتك؟
 - نعم وألف نعم، أنت زوجتي.
 - إذن علاقتنا تعطيك إنسانيتك، لم كنت منذ فترة خارج هذه الإنسانية؟
 - ماذا تقصدين؟
 - أنت تفهم قصدي.
 - تقصدين حنين؟!
 - لا يجوز على الميت غير الرحمة.
 - صمتنا طيلة ذلك الوقت، مما جعل أعصابنا تهدأ.

في اليوم التالي، ذهبنا إلى دائرة الأجانب من أجل معاملة جواز السفر والهوية الألمانيين، شعرت حينها أنني خرجت من جلدي، ودخلت جلد رجل آخر، حاولت أن أرى ملامحه، طوله، وزنه، أحلامه، مشيته وصوته، كانت بصمتي هي بصمته، وكان وجهي هو وجهه، وكانت جلستي هي جلسته، حاولت أن أتكلم معه، أن أعرفه كما عرفت نفسي، حاولت أن أصرخ في وجهه:

- من أنت؟

و حاولت أن أكون هادئاً، أناقشه مهدوء:

- صہ نا اثنین لا واحدًا.

لم يجنبي، كان ينظر إليّ وكأنني إنسان غريب عنه، أخذت أعصابي
تفلت مني، أمسكته من رقبته، وقلت له بغضب:

- من أنت؟! قل وإلا...

امتتع وجهه، لكنه لم يحب، كان ينظر إليَّ بعينين زجاجيتين، تركته يدخل في داخلي، يرتاد نفسي المسبية، يحول في خواطري، كانت عيناه الزجاجيتان تشعان كضوء بعيد في غابة، لم يتبق مني شيء، صار هو كل شيء.

بصمتي، ضحكتي، حزني وفرحي، صار سروالي الذي ألبسه، ولد للتو وكبر للتو، نظرت إلى إبهامي وقلت:

- هذه ليست بصمتي، بل ليس إيهامي.

- إنك أنا، هل نسيت؟
- ثم أضاف:
- هل أحدثك عن أسرار بينك وبينها في الساعات الحميمة.
- اخرس.
- لم أعد أطيع وجوده، بل لم أعد أطيع وجودي معه.
- قلت له متحديا:
- إما أنت أو أنا.
- إذا قتلتنني فستقتل نفسك.
- لحقت بي رندة وهي تلهث، نظرت إليها بعينين زجاجيتين، سألتني:
- ماذا بك؟
- انظري إليّ، هل أنا صبحي؟
- اسم الله عليك، ماذا حدث لعقلك.
- لم يحدث شيء، هل تغير بي شيء: وجهي، حركاتي، أي شيء؟!
- أنا خائفة عليك.
- أخرجته من تحت ثيابي، رميته بعيدا، وأمسكت يد رندة وركضت بها، أمسكني من سترتي حتى كدت أقع.
- ولم أسمع إلا صوت رندة وهي توقظني.
- الطعام جاهز.
- بحثت عن الرجل، وسألت دون وعي:
- أين هو؟
- من؟
- لا أحد، كنت أحلم.
- كثرت أحلامك هذه الأيام.

- بل قولي كثر كوايسي .

كنت أراه في عيني خيالي، رجل من لحم ودم، عيناه الزجاجيتان تضيئان
كعيني هرة في الليل، كنت أراه يأكل معي، يضحك معي، يغضب معي،
يسير معي، يتحدث معي، وينام معي .
كيف لي أن أتخلص منه؟!

وجاءت الفكرة، عليّ أن أتخلص من نفسي كما فعلت حنين، لم أقتل في
صحراء ليبيا، ولم أغرق في البحر المتوسط، لكنني غرقت في أحوال نفسي،
غرقت في كابتي، غرقت في حزني المتراكم .
لم أعرف أنني سأصل إلى هذه النتيجة، نظرت إليّ رنده وكأنها قرأت
ما بداخلي .

- فيم تفكر؟

- أفكر في الموت .

انفجرت باكية ولم تعلق بشيء .

كان بكاءؤها يدمي قلبي، بينما هو يتسم أمامي .
مسحت دموعها بكفي، قالت لي بانكسار:

- ألا يكفي موتا وحزنا .

- أنا لم أصنع الموت، هم الذين صنعوه، ولم أصنع الحزن، هم الذين
صنعوه، لقد تعبت، تعب، ورميت رأسي على كتفها، مسحت على شعري
الأشيب، سمعت دقات قلبها، سمعت صوت تنفسها، الرجل الذي في
داخلي كان ينظر إليّ بعينه الزجاجيتين، ذاب في داخلي، لم يعد له وجود،
صار وجوده هو وجودي .

قلت لرنده:

- أحس أنني رجل آخر .

ضحكت، لكن قلبها دق سريعاً، وتنفسها تسارع .

- من أنت إذن؟
- هنالك رجل حلّ مكاني.
- أخشى على عقلك.
- أنا أدرك الأشياء، ولهذا أقول ما أقول.
- لا بدّ أنك تمزح.
- ما أحسه قلته، ألا تحسّين أنت أنك تغيرت، أصبحت امرأة أخرى.
- تغير الزمان والمكان والوجوه، لكنني لم أغير.
- الذي يتغير لا يحس بتغيره.
- كيف أحسست أنت بهذا التغير؟
- لا أدري، الأرواح تختلف.
- لأنك لم تقبل الحياة هنا تحس بهذا التغير.
- عشت عمري في مكان وزمان مختلف، وفجأة وجدت نفسي في مكان وزمان مختلف، فكيف لا أشعر بالتغير.
- وأنا، أأست مثلك؟
- لا أدري، أريد فقط أن أنام على صدرك لأسمع دقات قلبك وصوت تنفّسك.
- ونمت.

في اليرموك، مشيت ليلاً في شارع لوبيه وصفد وحيفاً وفلسطين، كانت هنالك أشباح، تظهر وتختفي، تقترب وتبتعد، تتحدث وتصمت، كنت مذهولاً، اختفت الأضواء من الشوارع، الخاوية الحزينة، وسقوف الأبنية على الأرض، والغربان تطير من مكان إلى مكان.

بحثت عن بيتي، فلم أجده، صرت أسأل الأشباح والغربان، كانت ذقون الأشباح تطاول أرجلهم، وكانت عيونهم زجاجية مثل ذلك الرجل، كانوا ينظرون إليّ ويمشون، وحين يتسمون تظهر أنيابهم، بحثت

وحدي في الظلمة، لم يكن هنالك بشر ولا شجر ولا سيارات ولا أطفال يلعبون كما كانوا. كانت الشوارع غارقة بالصمت والحزن، صمت ليس كالصمت وحزن ليس كالحزن، سمعت أنين الشوارع وبكاء الحجارة، سمعت نحيب النساء وبكاء الشيوخ، وصراخ الأطفال، وقفت في الظلام وحيدا، حاولت أن اصرخ، لكنني أحسست بالعجز، حاولت أن أتجه إلى أي مكان لكنني كنت تائها، حين تكاثرت الأشباح ظهر ضوء مشيت إليه، مشيت طويلا ولم أصل، حين كنت أتوقف للاستراحة تعاود الأشباح الإحاطة بي وعيونها الزجاجية تضيء كالهرة.

كبر الضوء فجأة، أحسست أنني أقرب منه، أو يقترب مني، صممت الوصول نحو الضوء، لم يكن لي أمل غيره، حين وصلت إليه، كان كتلة نار مشتعلة، بجانب شواهد مقبرة، كان هناك شيخ لحيته تصل الأرض، يتدفأ على عظام الأموات، قال دون أن ينظر إليّ:

- من أنت؟

- أنا من سكان اليرموك.

- لم يعد هنا إلا الذين لا أمل لهم في الحياة، فهل أنت منهم؟

- من أنت أيها الشيخ، ولماذا تتدفأ بعظام الضحايا؟!

- لا دخل لك بي، أجب عن سؤالي.

- لن أجيب قبل أن تقول لي من أنت.

بان الغضب على وجه الشيخ، اهتزت لحيته، حمل كومة من عظام الأموات ورمها داخل النار فشبت إلى أعلى وصرت أسمع لهيها.

نظر إليّ بعينين محمرتين وقال:

- عد من حيث جئت.

- بيتي في هذا المكان.

- الأشباح والجثث هي التي تسكن البيوت.

ومدَّ الشيخ يديه نحوي، كانتا عظمتين مديبتني الأطراف، أصابني الخوف، دخل الشيخ في أتون النار، كانت النار تأكله وهو يقول لي:

- عد من حيث جئت، لا مكان لك هنا بين الأموات.

- من أعلمك أنني لست ميتاً؟

- لم أجد أحدا يتكلم هنا إلا أنت.

- وأنت.

- أنت لا تدخل لك بي، ومع ذلك سأقول لك، أنا شيخ الأموات، أتدفأ بعظامهم.

ثم قال بلهجة آمرة:

- اذهب قبل أن أتدفأ بعظامك.

جاءت زوبعة وأطفأت النار، قفز شيخ الأموات بعيداً واختفى.

حلَّ الظلام، والنهار ما زال بعيداً، تهمت مرة أخرى، تلمست الجدران المهدامة، الصمت سيد المكان، تذكرت الأضواء والسيارات ووجوه الناس الضاحكة ليلة الأعياد، تذكرت رائحة الدجاج المشوي والشاورمة والأيدي التي تصافح بعضها بود، تذكرت الناس الذين لا ينامون من الفرح، الآن، لا شيء، سوى البيوت المهدامة والعتمة والصمت، فالمكان لم يعد إلا للأموات.

صحوت على دقات العجوز الألماني (غيرت) على الباب الزجاجي، ابتسم في وجهي وسألني عن حالي، فكذبت عليه حين أعلمته أنني على ما يرام.

كان يحمل ورقة لتسجيل أسماء الذين سيتعرفون على مدينة فوتسبرغ، سجلت أسماء عائلتي ودفعت له ثمانية يوروهات، ودعوته لشرب كأس من الشاي فلم يقبل، قالت رندة فرحة:

- سنتعرف على مكان جديد.

وصفق علي ومحمد من الفرح.

كنت لأزال تحت كابوس ذلك المكان، أستعيده، مرة تلو أخرى، أدقق في وجه شيخ الأموات فإذا هو شبيه ذلك الإنسان الذي احتل داخلي.
قالت رنده بعد أن وضعت يدها على كتفي بعد أن خرج كل من علي ومحمد:

- لا أراك سعيدا.

سألتها:

- أسمعت بشيخ الأموات؟

جفلت قائلة:

- كش برة وبعيد.

- حلمت به.

- إنه مجرد حلم.

قالت ذلك بدلال وغنج.

أحسست أنها تريد أن نمارس الحب ولو بالكلام دون اللمس.

قالت وقد اقتربت أنفاسها مني:

- دعنا من الأموات، نحن أحياء، قل لي كلاما في الحب لا الموت.

- كيف؟

لفحتني أنفاسها المثيرة، قالت:

- أنت كاتب وتستطيع أن تثير الحجر بكلماتك.

- لم أعد أجد الكلمات التي أعبر بها عن نفسي فكيف أجد تلك الكلمات عن الحب.

- الحياة لا تتوقف.

أخذت أنفاسها الحارة تغزو روحي، كانت كأنها حنين، عصرت كفي على كأس الماء فانكسر، سال دمي على الأرض الخشبية، لفت رنده جرحي، قلت:

- هذا الجرح بسيط إلى جانب جرح نفسي .

- يجب أن تذهب إلى المشفى .

- والحب .

- يؤجل .

- والموت .

- يؤجل .

- الاثنان لا يؤجلان .

- إذن سأغلق الباب .

أغلقته، وأرخت ستارة الباب الزجاجي، ووقفت أمامي تنضح أنوثة
كما كنت أراها من قبل، أمسكتني من يدي وجرتني إلى السرير، مازال
الدم ينزف على الأرض، تمددت، مارسنا الحب والدم على الأرض، بعدها
نظرت إليّ بخجل وقبلت يدي المجروحة، كان شيخ الأموات يتسم
أمامي، كنت ذاهلاً أمام الحب والموت.

ظهر الرجل الآخر من داخلي وسألني:

- من أنت؟

أشحت بوجهي عنه، ومازالت رندة متمددة أمامي بجسدها الأبيض
البض، الذي لم تؤثر به السنون.

قالت لي:

- في كل مرة أحسّ أننا عريسان من جديد.

كان دمي على الأرض قد تجمد، حدقت فيه ملياً، قالت:

- لماذا لا تتكلم؟

- انظري إلى دمي، دماء كثيرة نذفت ومازالت تنزف، حيوانات منوية
ماتت دون أن ترى النور، الأرحام تمزقت تحت الردم والرصاص، لم يتبق
شيء إلا الموت.

- وهل نسيت الحب؟

- الحب والحرب وجهها عملة واحدة، تحدثوا كثيرًا عن الحب والحرب، لكنهم لم يعرفوا هذه الحرب، إنها ليست حربًا، إنها جنون الحرب، هلام الحروب، الوجه الضائع من الحروب، لا مكان فيها للحب، في هذه الحرب فقد الإنسان إنسانيته، وأصبح أفسى من الوحوش.

قلت ذلك وأنا أرتجف، اقتربت مني رندة، كانت رائحة غنجها مازالت في المكان، أدارت وجهي نحوها وقالت:

- لا تنظر إلى الدم، انظر إليّ.

- قبل قليل كنت مع الحب والآن وقت الدم.

- عش معي.

- لا يمكن أن أنسى.

- ماذا تريد؟

- أريد لهذا الجنون أن يتوقف.

- حين يحين الوقت سيتوقف.

- متى؟

- هذا شيء لا نعرفه.

- بل يعرفه الجميع، كما بدأوه يجب أن ينهوه، يجب أن ينهوه.

كنت أصرخ وأنا المس دمي على الأرض وأمسح به وجهي.

نظرت إليّ بتعجب:

- صبحي، هل جننت؟

- كلهم هكذا هناك، الدم يملأ وجوههم، فقط تجار الحروب يجلسون في الفنادق الفخمة، ويتسمون للعاهرات، تمتلئ جيوبهم دما ومالا، وأعضاء بشرية، وأشياء أخرى.

جلست على الأرض والدم على وجهي وأكملت:

- هذه الحرب ليست رصاصا وقنابل، إنها حرب من نوع آخر، دخل فيها الحشاشون والعاطلون عن العمل وتجار الحروب ومصانع الموت أبوابا واسعة، دخلوها وهم يغنون فوق الجثث، والبيوت المهدمة، دخلوها وهم يضحكون على الهاربين من الموت، وبين شفاههم سجائر غالية الثمن، وعلى أجسادهم ملابس الماركات العالمية، كانوا ينتظرون تلك اللحظات، وكانت اللحظات تنتظرهم، إنهم يعيشون على رائحة الدم، وغبار البيوت المهدمة، ودموع الأطفال، وخوف الهاربين، تحصنوا في أماكن لا تطلهم فيها حرب، ولا يسمعون إلا صوت الموسيقى لا صوت الرصاص والقذائف، يضحكون وهم يأكلون أفخر الطعام، ويتبادلون النكات البذيئة وهم يغمزون العاهرات في الحانات.

كنت أصرخ دون وعي ورندة ذاهلة ودموعها على خديها، أكملت:

- لم أجن بعد، هم الذين جنوا قبلي، وسأتبعهم حتى أعرف نهاية هذه الحرب.

دخل إمام وعيناه محمرتان، كأنه لطمني فصحوت، نظر إليّ والدماء على وجهي ويديّ، وبدأ يضحك، ثم تحول ضحكك إلى هستيريا، حاولت أن أصرخ أو أبكي فلم أستطع، ازداد ذهول رندة وكآبتها، كيف لي أن أصف تلك اللحظة، إنها لحظة لا تنسى، الدم والخمر والكآبة والحزن والقهر والضحك الهستيري، لم أعد أشعر بأحاسيسي، لم أعد أشعر بما يجري، خرجت من الغرفة والدم يملأ وجهي ويديّ، كنت لا أزال أسمع ضحكات إمام التي أخذت تخف ثم اختفت.

دخلت الحمام، فتحت الماء البارد فوقي، غسلني الدم، غسلني الماء، أخذت أرتجف من الحمى، أخذت أرتجف من ذهولي، توقف الزمن، كانت ضحكات إمام قد دخلت كياني، خرجت مبلى الثياب، كانت الشمس دافئة، جلست مثل حمامة مبتلة، أخذت أسناني تصطك، ذهبت إلى عوالم لم أعرفها.

هنا قبر أمي وهنا قبر أبي، وهناك قبر جدي، وقبر جدتي، دخلت إليه دون ثياب كما خلقني ربي، جاء الجميع لاستقبالي، أبي، أمي، جدتي، جدي،

وانضم إليهم فتاح ونظيرة وبدرية وعطا وصباحية، كانوا يضحكون دون ضحك، وكانوا يتحدثون دون حديث، وكانوا يغنون دون غناء، وكانوا يرقصون دون رقص، كانت وجوههم قد تغيرت، أيادهم استطالت، وجوههم كبرت، وأجيادهم نحلت، كانوا يلبسون شيئاً كالضباب، أرجلهم تطير حين يقفزون، وأسنانهم تصطك حين يضحكون.

- أنتم سعيذون لأنني مت مثلكم.

جاءني جوابهم واحدا:

- كل السعادة.

لغتهم كانت إشارات قوية حيناً ضعيفة حيناً آخر، داروا حولي، درت حول نفسي، كانوا يتدخلون مع جسدي الذي تحول إلى هلام، كانت القاعة التي تضمنا بلا سقف ولا جدران ولا أرضية، كانت قطعة كالدخان.

صحوت فإذا أنا تحت الشجرة الحرام التي ضمتني أنا وحنين.

كان الضباب حولي؛ كأنه دخان ذلك الكابوس، بحثت عن نهر لأغسل الدم عن وجهي ويديّ، كنت أتجنب النظر إلى المارين، تذكرت أنني غسلت دمي، اتجهت إلى موقف الحافلة، ركبتها إلى مكان غير محدد، استرجعت ما حدث، وخلصت إلى نتيجة أنني اشتريت الأمان بالحرب، شعرت بتغيري الآن، انقلبت مفاهيمي التي عشت عليها، ضعت ما بين الماضي السعيد والحاضر الذي لا لون ولا طعم له.

كان الهاربون فوق يقيمون الولايم ويسمون أنفسهم بالقباب باب الحارة، نسوا الرصاص والخوف نسوا الهروب في الصحراء والبحر، أخذوا ينسجون واقعاً جديداً على أنقاض واقع مضى، فتشوه الماضي في أذهانهم حتى نسوا أنفسهم.

وجدت نفسي أمام متحف شتوتغارت، كان بناء حجريا هادئا دون نفور، له أبواب متعددة، حاولت دخوله، لكن أبوابه كانت موصدة، وعندها تذكرت أن اليوم هو الأحد، وقفت أمام المبنى أتأمله، حاولت أن أتصور ما بداخله، وكأنني حاولت تصور ما بداخلي: صفحات من الماضي، وجوه من الماضي، ذكريات من الماضي، في داخلي متحف كبير، يضم ذكرياتي المفقودة، وأشياء المفقودة، وصوري المفقودة، وحياتي المفقودة.

كان المبنى متعدد الطبقات، مثل أعماقي تماما، ولكن ليس من حجر بل من لحم ودم، حاولت نبش الماضي، الماضي السحيق من حياتي، أرتبه حسب تسلسله الزمني، لكنني لم أستطع، كان هناك صور لصفي المدرسي، وأنا في الرابع الابتدائي، كنت متجهم الوجه، حليق الرأس، وكأنني أنظر إلى مستقبلي بتشائؤم، تحركت الصورة، أخذت أركض وألعب، وأتسلق شجرة الأزد رخت في بيتنا القديم، أخذت أكبر في اللحظات، وأمام باب بيتنا الحديدي، صفّ أخي فتاح مجلاته، سمير، سوبرمان، ميكى، لبيعتها بعد أن قرأها.

لم أكن أدرك أن تلك الأيام هي أجمل أيام حياتي، فهذا المتحف نبش داخلي وأنا أجلس على مقعد أمام بنائه الحجري المهيّب، رأيت أبي وهو يتحدث ويضع السيجارة في فمه دون أن تسقط، كان يضحك أحيانا ويتألم أحيانا أخرى وهو يتحدث عن حياته في يافا. حين كان يعمل عند اليوناني بتريدس، وكان ذلك قبل أن يذهب إلى قلقيلية في الضفة الغربية ويتزوج أمي.

- زرنا بلادا لم نزرها، وتعرفنا على شعوب لم نكن نعرفها، هربنا في الصحراء والبحر، وصلنا بلادا هادئة، هنية، لكننا لم نعد نحن، لم نعد نحن...

غابت أمي وغاب أبي وسمعت صوت فتاح يبكي، سمعت صوتي يناديهم وأنا أجلس أمام متحف شتوتغارت أنبش حياة الأموات قبل الأحياء، وانساب إلى سمعي عزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن أمام المتحف، نظرت خلفي فإذا صبية جميلة تعزف السيمفونية على الكمان، وعلى الأرض قطعة قماش ليضع فيها المارة النقود.

لو كان هناك جمهور لنهض وصفق لها مليا، كما صفق لبيتهوفن حين عزفها، في ذلك الزمان نهض الجميع من أجل أن يراهم لا من أجل أن يسمع تصفيقهم، فلم يعد لبيتهوفن يسمع إلا لغته الداخلية، لغة أحاسيسه، لغة اضطراباتة وفرحه وحزنه وآلامه.

كنت أشعر بتلك الآلام، كانت موسيقا السيمفونية تطوف فوق المتحف، تلقه بكلمات شيلر عن السعادة، حين بنى لبيتهوفن سيمفونيته عليها.

كنت أرى شعر الصبية الذهبي كأشعة الشمس يتطاير مع كل دفقة موسيقا من كمانها الحنون، وصلت إلى أعماق اضطراب السيمفونية، ارتجفت، نسيت نفسها وهي تغمض عينيها الزرقاوين وتتوه في عالم السيمفونية الرخي، لم تعد تقف في الشارع، ولم أعد اسمع تلك الموسيقا الرخية، كنا واحدا، كأنني دخلت عالمها ودخلت هي عالمي، بدأت السيمفونية، بدأت أحزاني، لم تعد هناك فواصل تفصلني عن عالم الموسيقا الرخية، لم أعد أتحرك، صرت أذانا مصغية، وعوالم تفرح وتحزن، تغضب وتتحسر.

كان العالم قد اتحد من حولي، حول هذه الأحاسيس اهتزت الصبية، اهتزازات عدة، وهي تمنح من روحها، في موسيقا الكمان، ما يعيد تلك السيمفونية إلى ألقها.

تجمع عدة أشخاص حولها، أعادت مقطع اضطراب السيمفونية، وغضب النفس وحزنها.

كنت في عالم آخر، نسيت حزني، نسيت الصحراء والبحر، عشت مع بيتهوفن والصبية أحلى لحظات تلك السيمفونية، لحظتُذ، بكيت من الفرح لا من الحزن.

كان الناس يمرون يقفون قليلاً ثم يسرون غير مبالين، كنت أصغي بكل جوارحي، غضب بيتهوفن هو غضبي، حزنه هو حزني، فرحه ونشوته هو فرحي ونشوتي، هدوؤه هو هدوئي، رقصه هو رقصي.

بدا بيتهوفن يستمع إليّ باهتمام، لم يكن أصماً، كنت أحادثه ويستمع إليّ، يتسم لا بتسامتي ويحزن لحزني، كنت أنا وإياه نعيش ذلك الزمن الجميل، زمن الحب لازمن الحرب، زمن الموسيقى والسيمفونيات والحفلات والتصفيق والذوق الرفيع لازمن الرصاص والقذائف.

كان كمان الصبية الجميلة يقفز بين يديها فرحاً حيناً وحزناً حيناً آخر، كانت تفرح لفرح الموسيقى وتحزن لحزنها، لم يبد عليها التعب، كنت أنظر في عينيها الزرقاوين، كأنهما بحر صاف أو سماء بلا غيوم.

لمحت الصبية اهتمامي فلمحت ابتسامتها، عرفت أن موسيقاها دخلت أعماقي، أصبحنا نحن الثلاثة، أنا وبيتهوفن وهي شخصاً واحداً، هذه الرقة منحني الهدوء، والموسيقا منحني الصفاء، السيمفونية تتوتر وتهدأ، تعلو وتهبط، أتوتر معها وأهدأ، أعلو معها وأهبط، أتوه في عالم غريب وجميل، أرى حياتي الجميلة الماضية. أرى شبابي، أرى عمري الذي مضى، بيتهوفن.

أعادني إلى الماضي الجميل، وصفاء زرقة عيني الصبية أعادني إلى صفاء الحياة، صفاء دمشق... صفاء الحارات القديمة، خلف المسجد الأموي، حيث طعم الشاي الدمشقي في مقهى النوفرة.

يا ليت تلك اللحظات لا تنتهي، يا ليت تلك الموسيقا تظل تشنف سمعي، أعيش الماضي الهادئ بلا أصوات الرصاص والقذائف وأزيز الطائرات الحربية، ليت تلك اللحظات تبقى إلى الأبد.

أحسست بالحياة بعد بأس، كنت أفكر في الموت والآن فكرت بالحياة، بيتهوفن أعاد لي حياتي، أعاد لي بصري وسمعي وإحساسي وجنوني وحناني، أعاد لي كل شيء.

ماذا أقول لك يا بيتهوفن؟! هل أصفق لك؟! هل أذهب إلى بون لأزور بيتك حيث ولدت؟! هل أقف أمام تمثالك لأشكرك؟! ماذا أقول لك؟! أعدت ميتا إلى الحياة، أعدت يائسا إلى حضن الأمل، وأنت أيتها الصبية الشقراء الجميلة، موسيقا كمانك أجمل من ألف عازف في الكونشرتو، كنت فرقة موسيقية وحدك، بعثت سيمفونية بيتهوفن الإلهام فيك، أنا لم أعد أنا، قبل جلوسي أمام متحف شتوتغارت وبعده، تغيرت في لحظات، الموسيقى التي دخلت أعماقي أخذت تتراقص، تفجر ينابيع الأمل، تجعلك تعيش في بستان جميل الزهرات فيه طيور تردد ألحان بيتهوفن، كأن ينبوع بردى ينساب مع الموسيقى، كأن مياه نهر بردى الملونة بالأضواء تتراقص أمام عيني في أيام معرض دمشق الدولي، حين كنا نعيش حياتنا الجميلة، تنساب السيمفونية في دمي، أرى أضواء دمشق ليلا من فوق جبل قاسيون، أرى بيتي يربض هناك ضمن جواهر من الألوان في ليل دمشق الحالم، حين تضحك الموسيقى نضحك، وحين تحزن نحزن، وحين ترقص نرقص، كنا نعود إلى البيت وقد امتلأنا من هواء دمشق، وشربنا من مياهها، نحس بالسكينة، كأن موسيقا بيتهوفن تؤرّخ لهذه اللحظات، حين تهدأ السيمفونية وحين تبسم الصبية، وحين تحضن الكمان كأنه رجلها العاشق، تبدأ الصبية بالاضطراب مع موسيقا السيمفونية التاسعة، أرى بيتهوفن وهو يرتجف، أرى شوارع درعا وقد امتلأت بالمظاهرين لإسقاط النظام، يختلط الحابل بالنابل، تصبح المظاهرات ساحات للدم، تعلق موسيقا السيمفونية إلى أوج اضطرابها، تتساقط الجثث، تعلق وتعلق الموسيقى، تبدأ حمص ودير الزور وحلب والرقعة تعيش الحالة، يبدأ حصاد الأرواح، أرواح الأبرياء وأرواح الشياطين، في كل جملة موسيقية، تصعد الأرواح، وتهدم البيوت، تنفجر السيارات، تنفجر المشاعر والأحاسيس، يهرب الناس عبر البراري والصحاري والبحار، يهربون من الموت الأسود، ترتجف الموسيقى، ترتجف الصبية، يعرق جبينها، وتضطرب عينها الزرقاوان كأنها بحر هائج.

أغمض عيني، أرى الجثث والبيوت المهدامة، أرى هروبي المتواصل من لبنان إلى الجزائر إلى إيطاليا فألمانيا.

فجأة، تهدأ الموسيقى، تختفي المشاهد العنيفة، تبدأ حياة رخية لا طعم فيها ولا لون، تشدني إلى تلك السنين الخوالي، تصفو العينان الزرقاوان، ويصفو الوجه.

أبدو سعيدا ولكن بلا روح السعادة الحقيقية، كان فرحي ناقصا، وكانت رقصات نفسي مع السيمفونية ناقصة، لو كنت في دمشق لملاً الفرح نفسي، لكن دمشق مازالت تحارب على حصان أبلق، دمشق مازالت تنزف، لو أنني في دمشق واستمعت إلى السيمفونية التاسعة لملاً الفرح قلبي، ولألهمني تلك النغمات قصة جديدة أو رواية جديدة، لو أنني في دمشق لكنت عشقت الماء والهواء وأصوات الباعة الجوالين وصوت فيروز.

لكن كل شيء ناقص هنا، تبدأ السيمفونية التاسعة وتبدأ معها حياتي الماضية بفرحها وترحها، تبدأ وتنتهي وأنا أبدأ ولا أنتهي، أشعر أنني أريد أن أنتهي معها، أن أكون هناك، في بيتي، بين كتبي، على سفح قاسيون، في مقهى الكمال الصيفي، في شارع الحمرا، في شارع لويبة حيث الناس المتسوقون والفرح يملأ عيونهم.

حين كنت هناك كان للفرح طعم، أما هنا فلا طعم لأي شيء، رغم الحياة الهائلة ورغم الموسيقى، ورغم كلمات الشكر التي تسمعها في كل لحظة، ورغم الهدوء المحيط بك، ورغم الراحة في وسائل المواصلات، ورغم ورغم.

اقتربت السيمفونية من نهايتها، اقتربت من كآبتي، عشت لحظات جميلة ضمن كآبة الفراق، عينا الصبية الزرقاوان تمثلان بالحزن، نفسي تمتلئ بالحزن، أيتها الصبية عشت معك ومع سيمفونية بيتهوفن لحظات لا أنساها، وكأنها زهور خلاصة ضمن بحر مصطخب.

صفق لها الجمهور ومشى، وبدأ آخرون غير مبالين، نهضت من مقعدي، صفقت كثيرا، لم يعد أحد غيري يصفق، نظرت إلى الصبية نظرة تقدير وإعجاب، ثم تحول تقديرها وإعجابها إلى دهشة، حين بقيت أصفق وحدي.

توقفت عن التصفيق، واقتربت من الصبية، شكرتها، ابتسمت، نظرت إلى عينيها الزرقاوين، كان فيهما حزن دفين.

أينما ذهبت أرى الحزن؛ قد يكون هذا الحزن هو الذي دفعها إلى إتقان عزف السيمفونية، لو سمعها يتهوفن نفسه لصفق لها، صحيح أنه فقد السمع لكنه يسمع بمشاعره أكثر مما يسمع الآخرون بأذانهم.

عدت أنظر إلى الصبية وعادت تنظر إليّ، بدوت محرجا، ابتسمت ثانية وهي تضع الكمان في حقيبته الجلدية، وتضم قطعة القماش وفيها النقود التي رماها بعض المارة، كانت تنظر إليّ بين حين وآخر، تسمرت في مكاني لا أعرف ما أفعل، هل أقبل يديها اللتين أخذتني إلى آفاق من السعادة، لم أكن أتصورها، كنت حزينا حتى عمق الحزن، وكنت كئيبا حتى عمق الكآبة، انتشلتني بأنغامها إلى أفق لم أرته من قبل، أفق فسيح، يحس فيه المرء أنه ولد من جديد.

حملت الصبية حقيبة الكمان، نظرت إليّ نظرة أخيرة، وكأنها تودعني، ابتسمت من قلبي، بادلتني الابتسامة، ومشت مبتعدة، مشى قلبي مع أنغامها، مع موسيقاها، مع فرحها، مع حزنها، مع اضطرابها وسكونها، في كل خطوة تخطوها بعيدا عني، يعود الحزن من جديد، أردت اللحاق بها ليزول حزني، مشيت بضع خطوات ثم توقفت، قلت في نفسي:
- اللحظات الحلوة لن تعود، لن تعود أبدا.

وتوقفت على الرصيف تائها، عدت إلى غرفتي في الهايم، تمنيت أن أبقى بقية حياتي وأنا أستمع إلى تلك السيمفونية من تلك الصبية، تمنيت عودة أفراحي، تمنيت أن أصحو لأجد نفسي أغتسل بمياه دمشق، وأتنفس هواء دمشق، تلك السيمفونية التي في داخلي، تقابل سيمفونية يتهوفن، بل قد تفوقها حزنا وفرحا.

نظرت إليّ رنده وقالت:

- كأنك تحلم.

- كيف عرفت؟

- أفهم نظراتك حين تكون حالما.
- حياتنا مثل سيمفونية، فيها الفرح وفيها الحزن.
- ماذا تريد أن تقول؟
- ما أردت قوله قلته.
- لم تقل كل شيء.
- اليوم، سمعت سيمفونية بيتهوفن التاسعة أمام متحف شتوتغارت، عشت في عالم حالم، نسيت أحزاني، نسيت نفسي.
- ابتسمت وهي تقول:
- ونسيتني أيضا.
- لم أنسك، كنت ضمن أحزاني وأفراحي، كنت شيئا كالخيال، أو كالسحر.
- الموسيقى تجعل من تعرفينهم مخلوقات سحرية شفافة.
- دخل علي ومحمد وهما يضحكان، كان ضحكهما سيمفونية توزع فرحا، أحاطا بي، قبلاني.
- قالت رنده:
- هذه هي السيمفونية الحقيقية.
- صحيح.
- قلت هذا وأنا أضمهما.
- لم أتوقع في تلك الليلة سيمفونية من نوع آخر.
- جلست أنا ورنده وسامر ونحن نشرب الشاي، في ذلك المساء البارد، كانت الأرض البيضاء كأنها في عرس، غطتها الثلوج، فبدا المنظر ساحرا، رغم قسوة البرد، أخذ سامر يسرد بشيء من التفصيل، معاناته بعد قدومه إلى ألمانيا.
- عشت سنتين ونصف في « الهايم » مع أشخاص من جنسيات مختلفة، جزائريون، صوماليون، أفارقة، باكستانيون، الذباب والصراصير

كانت تشاركنا غرفتنا، في تلك المدينة فالتسوت أتقنت اللغة الألمانية، رغم صعوبة حياتي، أحيانا أنام جائعا، وأحيانا لا أجد في جيبي سنتا واحدا لشراء تبغ، أبكي أحيانا من القهر، وحين، وأحيانا لا أجد في جيبي سنتا واحدا لشراء تبغ، أبكي أحيانا من القهر، وحين انتهيت من دراسة اللغة، أخذت دائرة الجوب سنتر التابعة للبلدية بملاحقتي من أجل إيجاد عمل، عملت في المطاعم وفي ورشات البناء وفي برك السباحة، وسكنت عند امرأة مسنة، تريدني أن أكون صديقا لها، حاولت التملص فبدأت تضايقتني، عن طريق معارفها في البلدية، وطلبت من مغادرة البيت، وغيّرت القفل، نقلني نائب رئيس البلدية إلى بيت يقطنه مهاجرون يتعاطون المخدرات فرفضت، وعقابا لي أسكنوني في بيت كبير فارغ، لم يكن فيه سوى ضوء واحد، وليس فيه فراش للنوم، بيت كسجن كبير ومخيف، جلبت مرتبة بعد منتصف الليل من الشارع.

كان سامر يتحدث وعينه تلمعان حزنا، ووجهه يزداد احتقاناً، رغم برودة الجو في الخارج وازدياد كثافة الثلج.
كان قلبي يعتصر حزنا وأنا أسمع ما يقول.
أضاف قائلاً:

- تضايقت نفسياً، ذهبت إلى طبيب نفسي، فأحالني إلى مشفى للمجانين، ذهبت هناك، رأيت مجانين من الدرجة الأولى، قلت لنفسي، لو بقيت هنا لأصابني الجنون فعلاً، قلت للممرضة التي تمسكت بي كمجرم يريد الهروب، إنني سأجلب أغراض الشخصية، وسأعود، خرجت ولم أرجع، لكنني بدأت أتناول الجوب التي كتبها لي الطبيب، ومنذ ذلك الوقت، أخذت أعاني معاناة من نوع آخر، كنت أنام دون أن أنام، أنام لوقت طويل من النهار، وكأنني لم أنم لحظة واحدة، أوقفت الدواء، فكنت أحس بضجيج وصراخ داخل رأسي، فعدت إليه وكان دواء المجانين استعبدني، أه ما أصعبها، لجأت إلى المشروب لأنسى، فأخذت إدارة الجوب سنتر تضيق الخناق عليّ، إلى أن أعطيتها تقريراً عن حالتي فهدأت.

كان يتكلم وكانت روجي تتعذب.
سمعت شهقات رندة تحت الغطاء، كانت تبكي ولا تريد أن تصدر
صوتها، تلك هي سيمفونية العذاب.
قلت لسامر:

- وأنا بعيد عنك كانت أحاسيسي قريبة منك، الخوف عليك كاد
يدفعني أحيانا إلى الجنون، كنت أشعر أنك إما أن تجن فعلا أو تموت
انتحارا. كان قلبي يبكي حين أتذكرك، لكنني حين كنت أسمع صوتك
عبر الهاتف أجد نفسي، وحين يغيب صوتك تعود معاناتي في التفكير بك.
احتضني سامر وبكى كطفل صغير.
بكينا جميعا.

قال سامر:

- أي، كنت أكرهك، لكنني الآن أحبك.
قبلته وبكيت، اختلطت دموعنا، اختلطت أحزاننا، سيمفونيتنا هي
سيمفونية بيتهوفن؛ فرح قليل وكثير من الأحزان، كانت ليلة بيضاء في
الخارج، لكنها سوداء في الداخل بذكرياتنا المرة.
طوال الليل لم أنم، أرى ندف الثلج يتراكم على الأرض دون صوت،
تعاد في ذهني سيمفونية مشروخة، لا أسمع إلا أحزانها، أحاول سماع
أفراحها فلا أستطيع.
لماذا كل هذا الحزن؟

خلقنا الله للفرح لا للحزن، فجاءت الحرب وقلبت الآية، قرأنا عن
الحروب عبر التاريخ، كانت تلك الحروب بالنسبة إلينا مصائر أناس لا
نعرفهم، لا نعرف معاناتهم، كانت تلك الحروب مجرد أرقام وتواريخ.
الآن، عرفنا أن هذه الأرقام والتواريخ هي المعاناة بحد ذاتها، أناس
عانوا، وأناس كتبوا أرقام الموتى وتاريخ الحروب بدم بارد، وآخرون
قرأوها بدم أبرد، الآن جاءت حربنا، لم نقرأها بل عشناها، عشناها بكل

تفاصيلها المرّة، كانت سيمفونية حزينة، سيمفونية الدموع والوجع، سيمفونية بقايا الروح.

الذين يموتون يذهبون، لكن الذين يعيشون في الحرب يموتون بأشكال مختلفة، يموتون من الفقر والخوف والمرض، يموتون من استغلال تجار الحروب، يموتون من فساد المجتمع، يموتون من قلة الموت، أما الهاربون من الحرب، فهم فئة أخرى، فئة هربت من المكان إلى كل الأمكنة، إلى اللامكان، فئة استغلها تجار البشر أشنع استغلال، لاحق الموت فئة منهم، غرقا أو بردا، وفئة أخرى نجت فنفاقت معاناتها.

تفرقت العائلات، تشظى البشر كشظايا صاروخ، لم تعد ترى الفرح، لا شيء غير الدموع، حلموا بغد أفضل، حلموا بالفرح فلاحقتهم الأحزان، حلموا بالعودة إلى المكان فكان اللامكان، بدت أحلامهم كوابيس، تلاشت آمالهم.

عدت إلى الحب، نظرت إلى رنّدة، حلمت ب حنين كأنها شيطان أسود بعد أن كانت ملاكا أبيض، كنت أتقل بين الواقع والحلم، توازن الاثنان، فلا الواقع غلب الحلم، ولا الحلم غلب الواقع، أولادي صاروا أولاد الأزيمة، أولاد الأمكنة الحديدية، صرت أبا بلا أولاد.

قالت رندة:

- لماذا تنظر إلىَّ؟

- كأننى أراك لأول مرة، امرأة من نوع مختلف.

– کف؟

- لا أدري.

نام سامر علی ظہرہ، نظرت إلى وجهه، كانت عيناه تتحركان، كأنه يرى الكواكب الحقيقية التي مرَّ بها.

اقتربت رنדה، أنفاسها لامست وجهي.

- هل تراني حقا امرأة من نوع مختلف؟

- نعم.

- حياة سامر لها دخل بالموضوع.

- لا أدري.

- أنا أقول لك.

استمعت إليها، كان في صوتها بحة حزن.

- نحن نعاني مثلما عانى سامر، معاناتنا واحدة رغم اختلافها، الصحراء، البحر علاقتنا مع المهرين، إيواء كلسروه، إيواء شتوتغارت، والناس الذين عرفناهم من بلاد مختلفة، كأننا نعيش في عالم مختلف، هذه الأمور تتراكم في نفوسنا، مثل أشياء قديمة في غرفة محكمة الإغلاق، إذا فتحت بابها هبت في وجهك عفن الأشياء.

صباحي تراكمت الأحزان والمعاناة في نفوسنا مثل تلك الغرفة المغلقة، حين نسمع ما يحزننا تفتح الغرفة فتهب الرائحة العفنة فتنمو أحزاننا كطحلب إلى جانب مياه أسنة.

ما هذه الحرب التي طالت، وكلما طالت نكأت الجراح، أورثتنا أمراضا نفسية، وحياة تعيسة لم تكن في الحسبان، وفتحت باب تلك الغرفة برائحتها العفنة.

عدت أفكر في عدنان الذي لم يستطع تجاوز حدود أوكرانيا، خمس سنوات لم أره، اشتقت إليه، نسيت صفحة وجهه، وقد يكون هونسي صفحة وجهي ووجه أمه وأخوته، كيف لنا أن نلتقي مرة أخرى؟!

من أجل أن يعيش في تلك البلاد الباردة يعمل منذ السادسة صباحا حتى ما بعد منتصف الليل.

قلت لرندة قبل أن أنام:

- أريد أن أراه قبل أن أموت.

- قلبي يحدثني أنك تقصد عدنان.

- ومن غيره؟

نفرت دمعتان من عينيها، نفرت الأحزان داخل نفسي، شعرت أن
سيمفونيتي بائسة إلى أبعد الحدود، كانت روحي تبكي.

قالت تبث في الأمل رغم ألمها:

- قلبي يحدثني أنه سيأتي أخيراً.

- المهربون لا أمان لهم.

صمتنا، كان خيال عدنان يدور في أذهاننا، يدور أمام عيوننا، نراه
يبتسم ثم يغيب.

- منذ زمن لم يحدثنا.

- أتذكرين حين أوصلته صباحاً يوم دخل المدرسة وهو صغير،
بكي، لا أدري.

اقتربت مني رندة وقالت بتصميم:

- ستراه، ستراه.

وصمت.

صباحاً، جاءت الشرطة لتفرض خلافات باب الحارة في الطابق العلوي
من الهايم، العقيد صار أرنباً، والمختار أكل القط لسانه، ومعتز اختبأ في
غرفته، والزعيم غاب عن الحارة.

هنا، قانون آخر، لا قانون باب الحارة، هنا الخلافات لا تفرض بالعصي
والصراخ، هنا، شيء مختلف، كأنك في كوكب آخر، الأصوات هادئة
واللغة مختلفة، الشرطة لا تضرب أحداً، لا تصرخ في وجهك، لا تدفعك
إلى الخلف أو إلى الأمام، تتحدث إليك بهدوء، لكن هذا الهدوء هو أقسى
من كل هدوء، ومن كل صراخ، هنا، قانون الهدوء، لكنه قانون مختلف
لا يعترف بالعصلات، يعترف بالعقل، لا يعترف بالعصا لكنه يعترف
بالمنطق، حتى المنطق يتشكل بمنطق آخر، منطق القوة الخفية، قوة لا تقف
أمامها عصي باب الحارة ولا عصي الحارات الأخرى، ولا صراخ باب
الحارة، ولا صراخ الحارات الأخرى.

إنهم يفعلون ما يريدون دون صراخ، يحلون مشاكلهم دون صراخ،
يسيطرون على المشاكل دون صراخ.

حاولت معرفة مكمّن قوتهم الخفية، وأدركت أخيراً أن الحضارة
المغلّفة بالسيلوفان تبدأ من العقل لا من العضلات، تبدأ من القانون لا
من الفوضى.

هنا، كثيرون يشربون الخمر، لكنهم لا يعتدون على أحد، لا ينامون
في الطرقات، لا تنبح كلابهم أحداً، وحين تنبح يأمرهم بالصمت
فيصمتون، حياتهم هادئة، رغم قوة حضارتهم، وصوتهم هادئ رغم
ضجيج قطاراتهم.

تلك قوتهم الخفية القادرة على ضبط الأشياء دون كلل ولا ملل، هل
هو قانون الحضارة بينما نحن مازلنا نخضع لقانون التخلف، رغم عماراتنا
الحديثة، وسياراتنا الفارهة، وطعامنا اللذيذ، ومحلاتنا التجارية البرّاقة،
وجامعاتنا العديدة، لكن نفوسنا مازالت تعيش العصر الحجري، هم
دفعوا ثمن حضارتهم ملايين الأرواح في الحربين العالميتين الأولى والثانية،
ونحن ندفع الآن الثمن لنصل إلى ما وصلوا إليه.

كم باهظ ثمن الحضارة!

بتلك الأرواح التي ذهبت تعلموا الدقة في المواعيد، تعلموا النوم
باكراً، تعلموا النهوض باكراً للعمل، تعلموا الأصوات الهادئة، وتعلموا
التخطيط لحياتهم لمائة عام قادمة إن لم يكن أكثر، تعلموا وتعلموا وتعلموا.

هل الموت طريق الحياة، أم الحياة طريق الموت؟!

أرى أن الموت هو طريق الحياة؛ فالأرواح التي تذهب في حربنا
المجنونة تدفع ثمن أخطائنا، تجعلنا نشعر بقيمة الحياة والوقت والعمل
والتفكير الهادئ، الأرواح لا تذهب عبثاً، إنها سيمفونية الحياة، من الألم
يخرج الفرح، ومن الموت تخرج الحياة.

كنت أفكر في هذا بعد أن هدأ الهائم بمجيء الشرطة، صمتت أصوات
باب الحارة، لم يعد هناك باب للحارة أصلاً، أهل الحارة دخلوا غرفهم،

هدأت أصواتهم، أعلنوا التوبة، اجتروا آلامهم وأحقادهم وهدأوا،
الحضارة جعلتهم يهدأون، وقفت خارجا أنظر إلى غرفهم المغلقة، وبدأت
أضحك، علا ضحكي في فراغ الهايم لا أعرف لماذا ضحكت، لكنني
كنت أضحك، ضحكت في الداخل أيضا طوال الليل.

كانت رندة ذاهلة في البداية ثم بدأت تضحك معي.

- لماذا تضحكين؟

- شرّ البلية ما يضحك.

- اذن هذا ليس ضحكا.

- انه بكاء في صورة ضحك.

لم نتوقف عن الضحك حتى سقطت دموعنا.

- رأيت نحن نبكي لا نضحك.

لم نكن وحدنا نضحك من الألم، كان الجميع هنا يضحكون من الألم،
في البناءين، الأصفر والبرتقالي.

كان البرد شديدا تلك الليلة، والأرض تلبس رداء ثلجيا أبيض، لكن
الغرفة دافئة وخائقة.

قلت لرندة:

- هل تشربين الشاي معي؟

- في هذا الوقت المتأخر من الليل.

- ليس للشاي وقت.

- كما ليس للضحك وقت.

وإزداد ضحكنا مرة أخرى ونحن نشرب الشاي الذي اشتريته من
سوبر ماركت تركي.

سألتني:

- ما الذي جعلك تضحك؟

- لأن باب الحارة أغلق نهائيا وساد سكون.
- هناك سبب آخر.
- ما هو؟!
- لا أدري، قل أنت.
- أحسست أنني سأنفجر فضحكت.
- تبادلنا القبل ونحن نشرب الشاي، بزغ الفجر ونحن نشرب الشاي ونضحك.
- صباحا، هاتفتنا منار وقالت لأمها إنها عادت إلى زوجها لأنها تعبت مع أولادها بمفردها، ضحكت أيضا، ولكنني لم أعلق، سألتني ردة:
- هل ضحكك هذا يشبه ضحكك في الليلة الماضية؟
- طبعا، لا.
- ماذا تريد أن تقول؟
- أقول إن ابتك مجنونه، أقصد ابتنا.
- مزاجية وليست مجنونة.
- المزاج جزء من الجنون.
- الرجل الذي يضرب زوجته هو مجنون أيضا.
- هذا ما أوصلنا إلى تلك الحرب المجنونة، لم رضخت حين ضربها لأول مرة؟!
- أليس لديها أهل، أليس هناك قانون، أم أن أهلها والقانون ليسوا أهلا لتحمل المسؤولية، الإنسان حين يرضخ مرة سيرضخ مرات عديدة، هنا لبّ المشكلة.
- أتريد لأولادها أن يعيشوا بدون أب.
- كان يجب أن تعرفه قبل أن تنجب، أنا أعرف الإنسان حين ألمحه لأول مرة.

- ابنتك ليست مثلك بل غيبة مثلى.

- ومن تحدث عن الغباء؟

- كلامك يدل على هذا.

- أتريدون نقل مشاكل ابنتك إلينا، لم أعد أحمّل.

هدأت رنّدة، لبست وخرجت من الهام حتى يبرد النقاش بيننا.

كانت هناك طفلة صغيرة شقراء ترافق أمها على دراجتها الصغيرة، كانت تشبه ابنتي منار وهي صغيرة، وقفت أأملها، ابتسمت لها، ابتسمت أمها، قلت لها بلغة أمانسة ركيكة:

- إنها تشبه ابنتي وهي صغيرة.

ابتسمت مرة أخرى ومشيت في طريقها...

ركبت الأوبان دون تحديد اتجاهه، فأنا هنا لا أحدد اتجاهاتي، ولكن الاتجاهات هي التي تحدد طريقي، صعدت مفتشة ويدها آلة مستطيلة لكتابة المخالفات، وقفت أمامي مبتسمة في عبوس وطلبت بطاقة النقل، بحثت عن بطاقتي الشهرية فلم أجدها، قلت لها مبتسماً وبلغة ألمانية ركيكة: - نسيته في البيت.

خجلت أن أقول لها في الهائم، طلبت هويتي بلطف، دون أن تقبل
اعتذاري، وبدأت بكتابة المخالفة المالية بأربعين يورو، وأعطتني الهوية
وورقة المخالفة.

حدث كل ذلك في لحظات، قلبت ورقة المخالفة بين يديّ وكأنني أقلّب حياتي، أحسست بالذنب والغضب، فأنا بحاجة إلى المبلغ لأسدد ما تراكم عليّ من دين حتى وصلت إلى هنا.

نزلت من الأوبان، لم أشعر إلا وأنا أمام قبر حنين، هنا جسد طري
يقبع داخل القبر، هنا شيطان جعلني أندم ندما لم أندمه في حياتي.

كانت ملاكا فانقلب شيطانا حين صارحتني بالحقيقة، حين لم تعد ابنة أختي، فهل معرفة الحقيقة تؤدي إلى الهلاك؟!

لو علم أخي بما حدث لبصق في وجهي .
بكيت أمام القبر ندما، لم أعرف كم جلست أمامه، أحسست أنني
يجب أن أبقى إلى الأبد، أن أدفن نفسي حيا .
وقفت ثم جلست، لم أعد أعني ما أفعل، هل أمزق الصمت حولي،
هل أهرب؟!!

ولكن إلى أين أهرب من نفسي؟!
لفتني التعاسة تماما، حملتني إلى آفاق سوداء، لا ضوء فيها ولا أمل،
تذكرت ضحكي ليلة البارحة، إنه ضحك أسود، هل عبرت الصحراء
والبحر لكي أجتز تعاستي هنا .
وأخيرا اقتنعت أنني مقدم على نهايتي، نهاية بلا أمل ولا وطن لا
ذكريات، نهاية ليست كالنهايات .

شعرت أن حنين تجلس فوق القبر، تفتح ذراعيها وتدعوني، وقفت
وابتعدت عن القبر، كانت تبسم وكنت خائفا .

امتدت ذراعاها أمتارا والتفت حولي كأفعى، ركضت هاربا، كنت
أركض دون وعي، نظر إليّ المارة مستغربين، هم لا ينظرون عادة إليك،
ولكن طريقة ركضي لفتت أنظارهم، توقفت لاهثا، حاولت أن أكون
هادئا، كانت المقبرة بعيدة عني، لا أريد أن أركب الأوبان أو الباص حتى
لا أخالف مرة أخرى، مشيت، أحسست بتعب في قدمي، يجب أن أسير
حتى أصل، سرت وأنا متعب، جلست لأستريح على أحد الكراسي،
جلست قربي عجوز تقارب المائة عام، نظرت إليّ وابتسمت، كانت
ابتسامتها غريبة جدا، ظننت أنها عزرائيل جاء في صورة عجوز، نهضت
وهربت راكضا، وكأنني أهرب من مصيري، سمعت صوت كلبها يعوي
خلفي، وسمعتها وهي تزجره .

وصلت الهايم متعبا أجز نفسي .

سألني رندة:

- ما بك؟

- متعب، مشيت كثيرا.
- معك بطاقة شهرية.
- نسيته فحولفت.
- تمددت على السرير الحديدي، كانت حنين تجلس على الوسادة فوق رأسي، صرخت فيها:
- اخرجني من حياتي.
- صبحي، أتحدث نفسك؟
- سهوت.
- لا، من هي التي تريد أن تخرج من حياتك؟
- كنت أهلوس.
- لا أعتقد.
- رندة، أنا متعب.
- أنت تتهرب من الإجابة.

نمت، أمسكت بحنين، قطعته إلى أربع قطع، ونشرت كل قطعة في منطقة بعيدة، الأولى في غابة، والثانية في صحراء، والثالثة في بحر، والرابعة التقطتها نسر وطار بها، حينها ضحكت من قلبي، وجلست إلى جانب نهر، وضعت قدمي في الماء البارد، كأن هذا النهر يشبه النهر في الهامة قرب دمشق، حيث كنا في أوقات الصيف نستأجر مصطبة إلى جانب النهر، ونستمتع بالهواء والماء والطعام، فرحت لأنني عدت إلى هناك، لكنني وحدي، ليست رندة إلى جانبي وكذلك الأولاد، جاءت صبية من البعيد وجلست قربي، لم أنظر إليها إلا حين مدت يدها ومسحت على شعر صدري، نظرت إليها فإذا هي حنين، رميت نفسي في النهر، وعندئذ نهضت من الحلم.

كانت رندة تجلس قربي وتنظر إليّ، في نظرتها اتهام غريب، قاس، قلت بعصبية، وكأنني أخرج من ماء غرقت فيه:

- حنين ليست ابنة أخي، إنها ابنة سفاح، وجدها أخي وهو عائد من إحدى عملياته في فلسطين.

- ولماذا لم يقل لك؟

- كان يريد إقناع نفسه أنها ابنته، أخي كان عاقرا، وحين وجد حنين أقنع نفسه أنه أبوها وأنها ابنته.

- هي قالت لك؟

- هو قال لها قبل أن يخرج في آخر عملية في فلسطين، شعر أنه سيموت، وأن ضميره لن يرتاح فقال الحقيقة لابنته المزيفة، وذهب، ولم يعد .

- ولماذا انتحرت؟

- لا أدري، حياتها معذبة.

صرخت في وجهي وهي تبكي:

- أنا التي أدري، لأنك وطئتها يا صبحي، ختنتي مع التي بقيت ابنة أخيك سنوات طويلة، كأنك ختنتي مع ابنتك، كيف تفعل هذا، كيف؟ كانت تصرخ بهستيرية لم أعهد لها فيها من قبل.

وأمسكتني من قميصي وشدتني إليها بعنف.

- ألم تفعل ذلك، قل.

طفرت الدموع من عيني غزيرة، أحسست بقرب نهايتي، كان بكائي الدليل القاطع على اعترافي.

- كانت ملاكا فانقلبت شيطانا رجيا، حين اعترفت لي بحقيقتها.

- انتحرت لأنها لم تتحمل تلك العلاقة.

- هي سعت إليها، وأنا سقطت.

- كيف سأنظر إليك من الآن فصاعدا؟! كيف سينظر إليك أولادك؟!

كيف ستنظر أنت إلى نفسك؟!

لم أعد أحتمل، سقطت على الأرض فاقدًا الوعي.
كانت رنّدة إلى جانبي في المستشفى حين صحت، قلت بانكسار:
- ساحيني.
صمتت طويلا، لكنها قالت أخيرا:
- الزمن كفيل بذلك.
كنت متعبا ولهذا لم أطل الكلام، ولم تطل هي الكلام.
حين جاءت الطبيبة قاست ضغطي ونبضي وخرجت، تهيأت رنّدة
للخروج قائلة:
- سأعود إلى الهايم من أجل الأولاد ثم أعود إليك.
نفرت من عينيّ دمعتان وهي تخرج.
فكرت في حياتي كلها وأنا على سرير المستشفى، كأنني كنت أسير في
صحراء لانهاية لها، كلما لاح لي أمل في الوصول إلى واحدة، أرى سرايا.

جئت إلى هنا هرباً من الموت، فلم أهنأ في حياتي، كانت الخيبة بعد الخيبة، وكان الحزن بعد الحزن، أنا خائن، وابني إمام مدمن، وسامر نصف مجنون، ومنار تريد ترك زوجها، وعدنان في أوكرانيا يعمل ليل نهار ليعيل نفسه، وبدور لم أرها منذ خمس سنين. أشعر بالضيق.

لم ينقصني هنا طعام أو شراب أو كساء أو إحساس بالأمن، لكنني بقايا إنسان، فرّ من الحرب.

حين أستمع إلى أخبار الحرب، أشعر أنني مازلت هناك، أموت مع الأموات، أجرح مع الجرحى، أبكي مع الباكين، وأهرب مع الهاربين. كانت روحي هناك.

وهنا لا أستطيع الانفراد بزوجتي، أشعر برغبتى في ممارسة الحب لأخفف حزني، لكن الغرفة الواحدة تمنعني من تحقيق ما أريد.

أطلت شمس دافئة ذات صباح بعد برد قاس، جلست على العشب أمام غرفتي، تأملت أصناف المهاجرين، من البلاد المقهورة جاؤوا، هرباً من الموت أو هرباً من الجوع، مقدوني، صومالي، صربي، باكستاني، أوكراني، سوري وسوري وسوري.

أخذت ألمانيا تعج بالسوريين، يموتون في البحر ليأتوا ويجوعون ليأتوا، يعطشون ليأتوا، وتبدأ الحكايات الخيالية حولهم، ينسجها واقع سريالي، فلم يعد للخيال معنى أمام مأساتهم، يدفعون لمهرب من أجل

أن بوصلهم إلى أوربا، فيدفع بهم إلى تاجر أعضاء بشرية، يأكلون أوراق الشجر ليبقوا أحياء، تضع السفن في عرض البحر، فيعطشون وحولهم الماء، تتقرح أرجلهم وهم يمشون في الجبال، عندهم أمل واحد هو الوصول إلى جنة عدن، خيالهم خصبة، وأحلامهم وردية، أما واقعهم فلا يتحملة عقل.

أرى أسماك البحر المتوسط تأكل الأحياء، وتأكل الأموات، وتطفو الجثث الباقية، يلفظها البحر بعد أن تشبع أسماكها.

يبحثون عن أمل فقدوه، عن فرصة حياة، فيرمون أنفسهم من موت إلى موت، أما الذين يصلون فيشعرون أنهم خرجوا أحياء من القبور، ولو سألت أحدهم لقال لك:

- لو خيروني مرة أخرى لما فعلت.

كأن الجنون يعصف بعقولهم، حين يهربون، وحين تعود عقولهم، يذهلون مما رأوا وكأنهم ليسوا هم الذين عانوا، وليسوا هم الذين ماتوا، وهم الذين عادوا إلى الحياة من جديد.

أحضرت رندة كأسين من الشاي وجلست قربي.

- كيف أنت الآن؟

- يبدو أنك سامحتني.

- سؤالك عنك شيء ومساحتي لك شيء آخر.

لم أكن أريد الخوض في هذه القصة، فتحت الموبايل وأريتها صوراً مفاجئة.

- هذه جثث أطفال ونساء ورجال هربوا عبر البحر وغرقوا.

بكت رندة وقالت:

- لم يعد للجنون حد.

كنت أشرب الشاي وكأنه دم أحد تلك الجثث، تصورت علياً أو محمداً معهم، تابعت أخبار الموت عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وعبر الأخبار، ومن الناس، سمعت حكايات لا تصدق:

امرأة عجوز تقبل يد شرطية مقدونية على الحدود لتتركها تعبر، وآلاف من الناس يطبخون تحت الأشجار وينامون في العراء وعلى الثلج، جثث في شاحنة على حدود النمسا، اختنقوا داخل الشاحنة، هربا من الموت إلى الموت، وكأن رواية غسان كنفاني رجال في الشمس عادت حية.

هل الموت يختلف من مكان لآخر؟! لكن عذاب الموت يختلف، فالرجل الذي يجلس في دير الزور أمام بسطته المتواضعة، وتأتي قذيفة تفصل رأسه عن جسده، وبقي على جلسته، لحظات عذابه قصيرة، أما الذين غرقوا في البحر فقد رأوا الموت ألوانا قبل أن يفارقوا الحياة.

وقصص أخرى يشيب من هولها شعر الولدان.

كنت أسرد تلك القصص ورنيدة تبكي، أريدها أن تبكي لكي تسامحني، حين تدرك أن ما فعلته أقل بكثير مما يجري، كنت أبكي من الداخل ورنيدة تبكي بدموعها.

لم أشعر بحلاوة كأس الشاي، كان مرا علقما، لكنني كنت أشربه؛ لأنني أريد الانتقام من نفسي، أنتقم من حياتي، لأنني عشت في زمن هذه الحرب التي لا تشبه الحروب.

كما يختلف عذاب الذين يموتون في هذه الحرب، تختلف هذه الحرب عن الحروب السابقة، الأعداء الحقيقيون مختفون عن الأنظار، لأنها حرب من نوع آخر، لا تشبه حرب داحس والغبراء، ولا الحربان العالميتان، الأولى والثانية، لا هدف لهذه الحرب سوى القتل والتشريد والخوف.

دخلت رنيدة الغرفة ومازال كأس شايبا مليئا، تجرعي هذه الكأس المرة، فما يحدث لا يصدق، فتلك أيام لا وجه بها، ولا ملامح، أريد وصفها فلا أستطيع، أريد معرفة سببها فلا أستطيع، أريد أن أكتب عنها فلا أستطيع، كنت عاجزا أمام تلك الحرب، أسماء منظمات ورجال من كل لون، وأعلام سوداء وخضراء وصفراء وحمراء، تشعر أن يوم القيامة قد جاء، أو هو يوم القيامة فعلا.

نهضت وخرجت من مركز اللجوء هائما على وجهي، الناس يجرون كلابهم بصمت، يتحدثون إلى الكلاب، يعاملون الكلاب باحترام،

والناس عندنا تموت من أجل لاشيء، طعام الكلاب في أرقى السوبر
ماركات، وعندنا يقتاتون بورق الشجر ويفتي شيوخنا بأكل الحمير
والبغال والكلاب خوفا من الموت جوعا، الكلاب هناك تذبح مع البشر،
والكلاب هنا مدللة، يتزهون مع كلابهم صباح مساء، إذا وقف الكلب
وقفوا، وإذا تغوط حملوا برازه في كيس خاص، الناس هناك يموتون
جوعا، والكلاب هنا متخمة، كأننا نعيش في عالم سوريالي، لا وجه له ولا
طعم ولا ملامح، عالم المتناقضات، عالم الموت والدمار، وعالم الرفاهية،
عانوا من قبل ففهموا معنى الحياة، ونحن الآن نعاني من أجل فهم معنى
الحياة، لا حياة بدون تضحية.

أجلس على كرسي أمام المركز، أراقب أولاد المهاجرين وهم يمتطون
الدراجات الهوائية، يسقطون ويضحكون، نسوا معاناة الهروب، ذكرتهم
قصيرة، أهلهم يصورون مواعدهم العامة ويبعثون بها إلى الجوعى هناك،
الجوعى لا يأكلون الصور، هناك معاناة البشرية، هناك الجحيم وهنا
الجنة، لكن شيئا ما ينقصني هنا، هواء دمشق يختلف، ماء دمشق يختلف،
ياسمين دمشق يختلف، كيف كبر الوحش في هذا الهواء والماء والياسمين،
أشباح دمرت الهواء والماء والياسمين.

كنا مجموعة من الكتاب والصحفيين والمدرسين، نسهر أسبوعيا،
نتبادل أحاديث الثقافة والسياسة والنكات البذيئة، نشرب القهوة والشاي
وأحيانا البيرة، في داخل كل منا فيلسوف كامن، يعطيك نظريات لها أول
وليس لها آخر، في مجال الإبداع والنقد والحياة، والسياسة، كنا نحارب
بالكلام طواحين الهواء، وحين جاء السفلة والقوادون وبائعو المازوت
والحشاشون هربنا كالأرانب.

الثقافة حديقة الجبان.

لم يعرفوا مبادئ القراءة والكتابة، كانوا أولاد الشوارع والأرقة، وكنا
أصحاب الصالونات الثقافية والمراكز الثقافية، تذوق الأدب، نصفق،
نبني عالما من الكلمات، تتردد أسماءنا في وسائل الإعلام، وهم لا يعرفهم
أحد، لم نكن نراهم حين نلتقي بهم، كنا نترفع عن مخاطبتهم، كأنهم حثالة

الأرض، لكنهم الآن أسياة الحرب، هربنا منهم كالجردان، لم نحترم كلمتنا، لم نحترم أدبنا، أمام المواجهة نسينا شجاعة كلماتنا، نسينا شخصياتنا، نسينا لغتنا، وكبرياءنا وهربنا، كان رصاصهم هو قولهم وفعلهم، وكانت كلماتنا هي خوفنا وجبننا، يجب أن نبصق على أنفسنا، نحن أولاد الثقافة المزيفة، لم نحترم كلمتنا، لقد تساقطت الكلمات القوية الصلبة في أدبنا أثناء هروبنا، لم نعد نملك الوسيلة لقول شيء أو فعل شيء، فما كان يقال بدا مزيفا، بل نحن المزيفون، مزيفو الثقافة والفكر والأدب، نحن ننعي أدبنا كله، ننعي ثقافتنا كلها، ننعي أقالمنا التي كتبنا فيها، ننعي حبرنا وأوراقنا. أوراقنا أصبحت أكفانا لنا، تتسع لمئات الأجساد الميتة، بدون ذنب، تتسع لجميع مثقفينا، تتسع لكلماتنا المزيفة، تتسع لثقافتنا كلها. لقد تبخر الأدب إما في عمق الصحراء، أو في عرض الموج، أو بين أرجل الهاربين من الموت.

تبخري وذوبي أيتها الكلمات، فلم نعد أسياة الكلام، صار الكلام للرصاص، انصهر الورق، احترقت الكلمات الرنانة، اكتبوا على الحجارة التي مرَّ عليها الهاربون أخبار الدمار، اكتبوا على الحجارة هروب الناس، اكتبوا على الحجارة غرق الأطفال، فالطفل الكردي إيلان أصبح حديث الصحافة العالمية، اختصر بموته موت جميع الأطفال، اختصر بموته وجع الهاربين، كان أكبر من رواية ومن قصة، ومن أمهات الكتب العربية، كان موته الحلقة التي كسرت كل الحلقات، نام على الشاطئ قير العين، عمره ثلاث سنوات، بل ثلاثة قرون، عمره الحضارة الحديثة التي ماتت تحت ضربات الحرب المجنونة، هرب من الموت إلى الموت، هرب من الموت إلى حياة لا وجع فيها ولا بكاء ولا جوع ولا حرب.

في هو المدرسة التي أتعلم فيها اللغة الألمانية، صادفت شيئا غريبا؛ طفل في الثالثة عشرة من عمره، يتحدث بالهاتف إلى أهله في حلب، لم يكن طفلا، كان عمره مائة سنة، بل مئات السنين، يتحدث بلغة واثقة، وحكمة الشيوخ، جاء إلى هنا وحيدا ليلم شمل عائلته، الحرب صهرته فأصبح رجلا قبل أن يصبح رجلا.

يتحدث مع أبيه وأمه وجدته وأخته الصغيرة، صار مركز العائلة، بعد أن كان هناك طفلاً لا حول له ولا قوة.

ما هذه الحرب التي حولت الأطفال إلى رجال، إنها حرب غير كل الحروب.

كنت ألحق به في الممر، لأستمع إلى كل كلمة يقولها، كنت أعلم منه، صار الطفل معلمي في زمن الحرب، بكلامه اختصر ما قرأته سنوات عمري الستين، اختصر أحاديث الثقافة والحب والأمل والرجولة وحكمة الشيوخ، كان رواية عظيمة لم تكتب حروفها بعد، وقفت أتأمله، أبحث عن سبب هذا الانقلاب، لم أكن أعرف أن تلك الحروب المجنونة تنتج هذه الحكمة في الأطفال.

إنه الأعجوبة الثامنة بعد الأعاجيب السبعة في الكرة الأرضية، فهل هو نتاج الحرب أم أن الحرب قد شوهته؟! سيكون له ألف شبيه وشبيه مادامت تلك الحرب.

حین انتہی من حدیثہ اقتربت منه وسلمت علیہ، رد علی تحیتی کر جل:

- من أين أنت؟

- من حلب وأنت؟

- أنا من اليرموك المدمر.

- كلانا أبناء نكبة واحدة.

لم أتحدث مع طفل بل مع رجل.

- كيف جئت وحدك إلى هنا؟

- عبرت إلى تركيا، وذهبت إلى اليونان، وسرت نحو بلغاريا ثم وصلت ألمانيا.

- وحدك.

- كانت ترافقني عائلة من حمص، رجل وامرأة وطفل رضيع.

- هل أخذت الإقامة؟

- الأسبوع الماضي وقدمت لم شمل عائلتي .
- هل استشرت محاميا؟
- قرأت القوانين على النت .
- في أي صف كنت حين تركت حلب؟
- في الصف السابع .
- وفرت دمعتان من عينيه .
- أتذكر رفاقي ومدرستي التي دمرت كلما خلوت إلى نفسي .
- كلنا نتذكر أصدقاءنا وأمكتتنا التي دمرت .
- جزء من رفاقي قتلوا، وآخرون يعملون في الشوارع .
- نتواصل معهم .
- أحيانا، حسب المستطاع .
- أرت احتضانه كأنه ابني، واختلطت فرحتي بنضوج عقله مع حزني وهو يقول:
- حين عبرنا حدود كرواتيا مشيت في السهول والجبال، حذائي تقطع، مشيت حافيا فوق الشوك، اصطبغت الحجارة بدمي، لم أعد أشعر بقدمي .
- آه، ما أبشع الحرب .
- لم تكن الحرب وحدها هي التي شردتنا، بل نفوسنا الضعيفة .
- أنت ابن الصف السابع يتحدث هكذا .
- ما رأيته في الطريق علمني الكثير .
- أريد صداقتك رغم فارق العمر .
- ابتسم بود، ثم صمت وتأمل الشارع من النافذة، كان هنالك كلب يلحق بصبية جميلة بأدب .
- الكلاب هنا محترمون أكثر مما كنا هناك .

دمعت عيناه.

- أبكي أحيانا على رفاقي الذين قتلوا، لكنني أقول أحيانا ما الفرق، هم ماتوا في الحرب ونحن متنا حين هربنا، تركنا مدارسنا، تركنا أهلنا، أبي مصاب وعاجز، وأمي تركض طوال النهار لتؤمن لأخوتي الخبز والماء، صرنا نركض فقط وراء الخبز والماء، حياة لا تطاق.

نظر إلى ساعته، لم يرد أن يعتذر ليدخل صفه، قلت:

- هذا رقمي إن أردت أن نتواصل.

كتب رقمي على جواله وودعني ودخل صفه، في تلك اللحظة عرفت أن الحرب لم تغيرني وحدي، لكنها غيرت الكثيرين، غيرت الكبار والصغار، غيرت الجميع.

نظر إليّ عاصم، صديقي الجديد، وهو يجلس على مقعده وأنا ما زلت في البهو، وابتسم، بادلته الابتسامة، هذه الابتسامة وصلنا إليها بعد مراحل من الحزن.

كانت الأشجار في الخارج تتلاعب بها الرياح، وكانت الأفكار تتلاعب في رأسي، ما زالت طقطقة خشب السفينة، وأنا أجلس في غرفة المازوت، مع كثيرين، أسمعها يوميا، كأنني ما زلت أركب تلك السفينة، كأن الموت ما زال يلاحقني وأنا أبحث عن الحياة.

سفينة الحياة كانت كابوسا.

يختنق الرجال فيخرجون إلى الهواء، إلى الشمس، أصارع بقايا الهواء المتبقي في أسفل السفينة، قريبا من محرك المازوت، أصارع لأعيش، أحلم أحلاما وردية لأبقى على قيد الحياة، وحولي رجال يفقدون الوعي.

لم أفقد الوعي لأن أحلامي كبيرة، لكن خشب السفينة ما زال يئن تحت ثقل المهاجرين في الأعلى، قلت لنفسي سأموت سحقا قبل أن أموت غرقا، لكن أحلامي أخذتني إلى بعيد.

حلقت فوق السفينة، حلقت فوق مياه البحر، كنت نسرا في الأعالي، أغالب الرياح ويغالبنني، أرى السفينة نقطة في بحر، أرى

القوية كقوة الموت القادم، لن تصلوا إلى هدفكم، ولن تنالوا النعيم الذي تريدون، ستدفنون في أعماق هذا البحر، مع أسماكِهِ وحيتانِهِ، لن تكون لكم قبور معروفة، ستنسون سريعاً، وستنمحي ذاكرتكم لحظة الموت، لن تفعلوا شيئاً سوى الصراخ، لن تهربوا هنا مثلما هربتم في الحرب، لن تركضوا، لن تتعبوا، ستنامون بأقصى راحة، وستعمل ذاكرتكم سريعاً إلى أن تتقطع فجأة لحظة الموت، موت ليس كموت الحرب، تتناقل الأخبار ووسائل الإعلام خبر موتكم كأرقام لا كأشخاص، وفي اليوم الثاني ينساكم العالم.

آه، ما أكثر الأحران في هذا الزمن، زمن الحروب المجنونة، زمن الموت المجنون، وزمن الحياة المجنونة، والجنون ليس في العقول بل في القلوب.

تلك السفينة أحلم بها دوماً، أراها في منامي وصحوي، لم تعد تفارقني، وصوت الطقطقة يطغى على صوت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، التي سمعتها من كمان الصبية قرب متحف شتوتغارت، تختلط السيمفونية وطقطقة السفينة، من سيتغلب على من، يتسابقان في رأسي، في مشاعري، في أحلامي وصحوي، تصبح الأصوات كالمطحنة في رأسي، أحاول ألا أسمع، لكنهما هنا، أريد للسيمفونية أن تغلب على تلك الطقطقة الكريهة، لكنني لا أستطيع محوها من رأسي، ومن مشاعري، لماذا لا تفارقني، لماذا دخلت إلى كياني، أريد أن أرتاح، لم أعد أحب البحر ولا السفن، لم أعد أرى في البحر تلك الزرقة الساحرة، لم أعد أرى رومانسية الشمس وهي تغيب خلف البحر، قلت لرندة ذات مرة:

- لا أريد ركوب البحر أبداً.

لا أرى إلا غدره، لا أرى إلا تلك السفينة المتهالكة التي سلمتنا للبارجة الإيطالية، ثم احترقت، النار أكلتها، لكن الطقطقة مازالت هنا في داخلي، أنا والذين غرقوا سواء، هنا لا أعرف أحداً، والغرقى لا يعرفون سوى الموت، موتي صار عبثاً علي، وموتهم راحة لهم، آه أيها البحر، لم أخلصني من آلامي، آه، لا أكاد أنسى حتى تعود تلك الطقطقة وكأنها تقول لي. أنت مازلت في البحر، وستبقى فيه بقية حياتك، لن تتخلص منه، ومن

تلك الطقطقة، وكلما سمعت خبراً عن مركب قد غرق، تزداد تلك الأصوات، كأنني مازلت أركب تلك السفينة اللعينة، كأن البحر مازال يؤرجحني، نحو اليابسة أو نحو أعماقه.

يضحك البحر وهو يؤرجحني، تظهر أسنانه كالخيتان العملاقة، البحر يؤرجح كل شيء، السفن والناس وقطع السحاب الأبيض كالأكفان، يؤرجح الأسماك التي تنتظر اللحم البشري، هناك، في ذلك البحر اللعين، كنت أحلم، كانت أحلامي كأحلام المجانين، لكنها توقفت حين ركب قارب المطاط الذي أوصلني إلى السفينة المتهالكة، دفعني أحدهم إلى داخله كأنني كيس من البطاطا، وسار بنا عشر دقائق، الخوف من البحر ولد في تلك الدقائق، واستمر إلى الآن وسيستمر إلى مالا نهاية.

لم أكن أعلم أنني أصبحت بلا أحلام إلا في تلك اللحظة، لحظة فصلت بين عمري، بين حياتين، حياقي وموتي، هروبي وموتي، أحلامي وموتي، إنها لعبة الحب والموت، لعبة الحياة والموت، لا يلعبها إلا الكبار، لا يلعبها إلا الأقوياء، لا قوة تعلو فوق قوة البحر، فيه ينام الذين حلموا بالحياة، فيه ينام الخيتان، لكنه الحوت الأكبر، مازالت صفحته السوداء كحد الشفرة تراودني، وأنا أنظر إليها من على ظهر البارجة الإيطالية، حين أنظر إليها يرتجف قلبي، أحاول رؤية أعماق البحر، لكنه يحتفظ بالسر وحده، يتلصق كل شيء ويرمي على شاطئه البقايا حين يشبع، ليس له قلب، ولا مشاعر، أحاسيسه هي أحاسيس الأقوياء، وكأن أولئك الذين أشعلوا الحرب المجنونة خرجوا منه، ولدتهم حيتانه، لم أدر أنني كنت فوق صفحته المخيفة، كنت في أسفل السفينة، ورندة في أعلاها؛ تحت الشمس الحارقة، قلت في نفسي:

- لن أراها بعد الآن، سنغرق معاً ولن نرى بعضنا.

تلك الطقطقة تؤرقني حتى الآن، كان الموت قاب قوسين أو أدنى، تذكرت رندة وأولادي، والطقطقة تزيد حين يسرع المركب المحمل بالأجساد المتعبة، الهاربة من الموت والفقر.

لحظات الفراق أتت.

أردت الخروج من الفتحة لأرى رنـدة وأولادي، ألقى عليهم النظرة الأخيرة، لكن أربعة رجال جثموا فوق قدميَّ، ولم يدعوني أتـحرك قيد أنملة، نظرت إلى سماء الفتحة، ظهرت السحب البيضاء كالأكفان من خلال الأرجل التي سدت معظم فضاء الفتحة، أحسست أن الأقدام تدوسني، وأن السحابة كفـن ينتظري، أخذ تنفسي يضيق، وأخذت أصرخ ببقايا صوت غير مسموع.

من خلال الفتحة، نظر إليَّ وجه غطى السحب البيضاء المتناثرة في الأعلى، سمع بـقايـا صوتي، رأى وجهي المحتقن، مدَّ لي يده، أيادي كثيرة مدَّت بعده، انتشلتني من أعماق حفرة المحرك، انتشلتني من الموت، كان جسدي قد بدأ يلفه الموت، والأيدي تسحب جسدي، لم يعد لديَّ صوت لأصرخ، أحسست أنني في عالم آخر، رأيت وجوه أبي وأمي وفتاح وعطا وبدرية ونظيرة وصـبـحية، كانوا ينتظرونني عند نهر جار، يشيرون لي بأياديهم أن أقبل، وكانت السعادة تغمر نفوسهم.

أخرجتني الأيدي إلى سطح المركب، كان هناك هواء وشمس، غابت وجوه أمواتي شيئاً فشيئاً، وأخذت الوجوه المتعبة تحل محلها شيئاً فشيئاً، تبدلت السحب من أكفان إلى وجوه ترصد المتعبين، ترصد الأجساد بين الحياة والموت، مالت السفينة قليلاً، فبدأ الخوف على الوجوه، صـحوت تماماً، نظرت إلى رنـدة في أقصى السفينة، نظرت إليَّ وابتسمت، كأنَّ ابتسامتها هي إكسير الحياة، لوحـت لي بيدها المتعبة، استقرت السفينة، استقرت الحياة، وابتعد الموت، لكننا مازلنا على كف القدر.

النوارس تهزأ بنا، والسحب البيضاء المرتفعة، ووجه البحر المتجدد أحياناً، والأملس أحياناً أخرى.

أريد الوقوف، لا أستطيع؛ كأنَّ الشلل أصابني، أربعة رجال جثموا فوق قدميَّ لساعات طويلة، حتى لم أعد أشعر بهما.

من بعيد لاحظت رنـدة الألم على وجهي، أشارت بيدها تسألني عن حالي لأن الأصوات لاتصل بيني وبينها، ابتسمت رغم ألمي فابتسمت، لم يكن هناك مجال للتحرك، الأجساد المتعبة متلاصقة، لا تستطيع أن

تضع قدمك في مكان ثم تضعها مرة ثانية في مكان آخر، كأنك ولدت في هذه المساحة الضيقة، كأن هذا البحر المتسع لم يعد لك، كأن هذه السماء الفسيحة لم تعد لك، كأن هذا الفراغ الهائل لم يعد لك، تلك المساحة الضيقة هي خشبة خلاصنا، تلك السفينة المهترئة هي حياتنا وقد تكون مما تنأ.

الأمكنة لم تعد لك، محشورون في هذا الفضاء الواسع في جحر صغير، وإذا أردنا الاتساع فهو الموت، انطلق من هذا الجحر، إلى الأعماق، هناك سترى اتساعا، ليس بعده اتساع، هذا الجحر هو حياتك، ارض به أو مت، وكل متعب يحافظ على جحره، وينظرون إلى البحر بعيون متعبة، وأفواه عطشى، يلمحون بالأرض التي كانوا يسرون عليها، وألستهم الجلفة تلهج بالدعاء.

ليس أمامهم سوى البحر والسماء والسفينة المتهالكة، كأنَّ الأرض لم تعد تتسع لهم فذهبوا إلى البحر، هنا، الحكايات تعددت لكن الهم مشترك، المعرفة الوحيدة فيما بينهم هي الوصول، تركوا كل شيء إلا همومهم، انسحبوا من كل شيء إلا هدفهم، قبل الموت يتذكرون كل شيء، أقرباءهم، معارفهم، بيتهم، لغتهم، حزنهم، فرحهم.

لمحت أبو الإريثري الصغير إلى جانب أخته، لو غرق لما اهتمت به وكالات الأنباء، سيضيع في أعماق البحر، وينام هناك كما نام إيلان الكردي على الشاطئ، ويستمر البحر في سلب الأرواح، وتستمر سحب السماء تسير بهدوء، وفجأة، صوت من بعيد حركنا نحوه، قتل الصمت حولنا، إنها طائرة هيلوكوبتر، تقترب وتقترب، والأبصار تشخص نحوها، تراها خشبة الخلاص من الغرق، الأيادي ترتفع، ثم تلوح، والشفاه يابسة كأرض عطشى، هنالك أمل في الحياة، سوف نعيش.

أخذ الناس يتدفقون، إلى ناحية يمين السفينة، لتكون الطائرة على مرمى أبصارهم، مالت السفينة المتهالكة، كادت تنقلب، ظهر خوف على وجوه الجميع، خوف ليس كالخوف، إنه عصارة الخوف، عادوا يزحفون، نسوا الطائرة وتمسكوا بأمل الحياة، وفجأة ظهر قارب مطاطي،

عليه رجال يلبسون سترات بيضاء، وفي الأفق ظهرت البارجة، رموا لنا سترات النجاة، اختطفتها الأيدي، تساءلت في نفسي:

- هل يمكن أن نغرق والبارجة قربنا؟

قد تنقلب السفينة المتهالكة لسبب ما، وحين لبست رندة وحنين وعلي ومحمد وإمام ستر النجاة لبست أنا أيضا، كانت السفينة خلال ذلك تقترب من البارجة العملاقة، أصبحنا شيئا صغيرا أمام عظمتها وجبروتها، كأنها مدينة عائمة، كأنها الحياة الأبدية، العيون شاخصة إليها، والقلوب متعلقة بها.

كان الطليان يشيرون لنا بأيديهم أن نلزم أماكننا بمكبرات الصوت، هداً الناس، الفرحة غمرت عيونهم البائسة، كانت لحظة فارقة مابين الحياة والموت.

لحظات لا تنسى.

نسوا التعب والعطش ومراة الصحراء، نسوا أحبابهم الذين تركوهم، نسوا ذكرياتهم، نسوا أحلامهم، هنا سيولدون من جديد، ربط رجال البارجة الطليان السفينة المتهالكة بالحبال، تعلقت العيون والقلوب بالبارجة العملاقة، تلك الكتلة الحديدية العملاقة ستنقلهم من الموت إلى الحياة، ومن التعب إلى الراحة.

كنت أتذكر كل ذلك وأنا أجلس على كرسي في إحدى حدائق شتوتغارت الجميلة، أرى الناس وقد جرَّ معظمهم كلبه، أو تبعه كلبه بهدوء، هنا الكلاب لا تعوي إلا على الكلاب، لا تهاجم البشر، يفهمون اللغة، ويلتزمون بها، يقف الكلب فيقف صاحبه، يسير فيسير، عندنا الكلاب لا أصحاب لها، لا تفهم إلا لغة الهجوم والعض، تخيفك في الليل وتبتعد عنك في النهار.

جلست عجوز إلى جانبي، وقد أمسكت طرف حبل يطول ويقصر في رقبة كلبها، جلس الكلب على الأرض إلى جانبها، همست له بضع كلمات، فنظر إليها نظرة حنان، نظر إليَّ الكلب نظرة صارمة، خفت منه، وأدرت وجهي، همست العجوز لكلبها بضع كلمات فأشاح الكلب بوجهه عني، شيء لا يصدق، كأنهم بشر في صورة كلاب، ابتسمت للعجوز فبادلتني الابتسامة، رأى كلبا آخر فعوى لكنها لجمته ببضع كلمات فصمت.

الكلاب هنا محترمون ومحبوبون، والكلاب عندنا مطاردون ومكروهون، ما الفرق، وتوصلت إلى نتيجة، أن الاهتمام يفعل العجائب، مما يجعل الكلاب أقرب إلى البشر، سرت في الحديقة، وحين خرجت منها رأيت نفسي أمام مصنع سيارات المرسيدس، ذات يوم حلمت بسيارة من هذا النوع وأنا في سوريا، لكن ذلك الحلم خبا مع أحلام أخرى، أنا اليوم لا أحب شيئاً ولا أكره شيئاً، أعيش على هامش الحياة، فالمكان ليس لي، والزمان ليس لي، أحاول التأقلم فيعود الشريط الحزين، أنا أحس هنا بالضيق، عائلتي كلها هنا ولكنني أفقد الأمان الداخلي، تمنيت أن أحس بآدميتي فلم أستطع، تمر الأيام سريعاً، فأفرح بمرورها.

ركبت الأوبان، تصفحت الوجوه، هي إما مسرورة أو مشغولة بالهاتف النقال أو بكتاب، أو بحديث جانبي، ولا ينظرون إليك بفضول، تقبل الفتاة فتاها دون خجل، لاشيء مغلق أمامك، ليس هنالك أبواب موصدة، وهناك ألف باب وباب موصد في وجه الذين لا ظهر لهم، هنالك حين طفا العفن، انفجرت الحرب، حرب بحجم الخراب الذي كان محتبًا بألف وجه، إنساننا يكذب وهو يحلف بصدقه، يؤمن وهو كافر، يحب وهو يكره، يبكي وهو يضحك، يصمت وهو يتكلم، يطأطي رأسه وهو متعجرف، يعرف وهو جاهل، إنساننا مفرغ من الهواء والضوء، عاطل عن العمل عقلا وجسدا، كنت واحدا من هؤلاء، بل كنت الأسوأ، الصامت شيطان آخرس، والمتحدث ثرثار كبير، لا ينفع صمتي ولا تنفع ثرثرتي، نجلس على سدة الكلام، يملّ الكلام منا، نتحدث ونتحدث، نرفع هذا ونخفض ذاك، نتحدث في العلوم التطبيقية والنظرية، نمتلى هواء بفعل الكلام، نتصر بالكلام، نفعل الأعاجيب بالكلام، نحاور ونداور، نتهم ونبرئ، ندخل آفاقا جديدة، نضحك على الآخرين، ويضحك الآخرون علينا، نتهم بعضنا بالكفر والزندقة، ونحن نمارس البشاعة بأبهى صورها؛ يريد الواحد منا أن يكون مجموعة من الأعاجيب، مجموعة من العلماء، مجموعة من الجهابذة، وهو يجلس في مقهى أو في سهرة للعب الورق.

أبوأنا موصدة في وجوهنا، نشعر أنها مفتوحة، نضحك، لذلك نخدع أنفسنا، ونخدع الآخرين، نعيش في الأوهام، ونبني عوالم من زجاج قابل للكسر.

التفاوت في أحيائنا بين راقية وعشوائية لا يهم، المهم هو تفاوت طبقات النفوس، هناك المهمشون، تتراكم في نفوسهم أحقاد وأحقاد، تتراقص أمامهم الشياطين، في أذهانهم ألف شيطان وشيطان، يحلمون دون أن يحلموا، وجاءت الحرب فوجدوا أحلامهم الضائعة.

قال لي أحدهم في مركز الهجرة:

- من أوصلنا إلى كل ذلك، هم، لا غيرهم.

- لماذا إذن لم تبق تقاتل وتقتل .
- أنا أخذت حصتي وهربت ، فخار يكسر بعضه .
- أنتم أسوأ من خصمكم .
- لم يجبني ، لكنه قال أخيراً :
- كنا نقاتل من أجل أن نعيش ، فصرنا نقاتل من أجل أن نهرب .
- هذا فشل .
- لا أدري .
- قلت في نفسي وستبقى إلى أبد الأبدین لا تدري . كان الندم مرسوماً على وجهه ، صمت وعقد يديه ونظر إلى السماء باكية ، ثم قال :
- فقدت زوجتي وأولادي بسبب الحرب .
- قلت بحدّة :
- بسبب غباؤكم وقلة حيلتكم .
- هز رأسه موافقاً .
- قلت :
- لمَ لمَ نفهم منذ البداية ؟
- قال :
- كنت عاطلاً عن العمل ، أغلقت الأبواب في وجهي ، فحملت السلاح ، وحين قتلت زوجتي وأولادي رميت السلاح وهربت .
- وفجأة جاءته موجة عصبية فأخذ يضرب رأسه ويقول :
- أنا من قتلهم ، أنا من قتلهم .
- أمسكت يديه حتى لا يدمي رأسه ، تفلت مني وبدأ يضرب رأسه وجسمه بكلتا يديه المكورتين ويقول :
- دعني ، أريد أن أموت ، أنا جبان ، تركتهم أموات ونجوت بنفسي ، أنا جبان ، جبان ، بل أحقر مخلوق على هذه الأرض .

احتضنته وبكيت معه فهدأ.

قال:

- أتبكي من أجلي؟

- من أجلك ومن أجل الآخرين الذين اكتووا بنار هذه الحرب اللعينة.

قال بصوت متهدج:

- ماذا سأفعل هنا، أعيش سنة، سنتين، عشرة ثم أموت، أتعذب ثم أموت، يا ليتني لم أهرب.

- كان عليك ألا تحمل السلاح وتقتل أخوتك.

- كنت بحاجة إلى المال.

- والمال أودى بك إلى الهاوية.

هز رأسه موافقا.

قلت له:

- أنا مثلك فقدت كثيرا من أقربائي في هذه الحرب اللعينة، وغيرنا فقد أهلهم جميعا، إذا أصابنا الجنون سنجنّ وحدنا.

قال ودموعه على خديه:

- صبرت كثيرا، كاد الصبر يؤدي بي إلى الجنون.

- انطح الجدران، ارم نفسك من فوق أحد الجسور أو أمام سكة قطار، لن تغير شيئا.

هدأ قليلا، ثم قال:

- من أنت؟ أريد أن أكون صديقك.

- نحن أصدقاء الهم والحزن.

- أرحمتني، لكنني مازلت أتعذب.

- كلنا نتعذب.

- هلا تأتي معي إلى غرفتي، أريد أن أريك شيئاً.
- مشيت مع الرجل نحو غرفته في المبنى الثاني، شعرت أنه كان يرتجف قبل أن يدخل غرفته، كانت صور أولاده وزوجته معلقة فوق سريره.
- لم يبق لي منهم إلا هذه الأوراق.
- جلست على طرف السرير وقلت له:
- أتريد نصيحتي؟
- قال بلهفة:
- أريد أن أرتاح.
- انزع هذه الصور من أمامك، وعش حياتك كما أنت الآن.
- وهل أنساها؟
- الصور ليست في تلك الأوراق، الصور في القلب.
- دمعت عيناى وأنا أتحدث إليه، نهض ونزع الصور عن الجدار، ووضعها في حقيبة تحت السرير، ابتسمت فبادلني الابتسامة، ثم قال:
- كأنك ملاك نزل عليّ من السماء.
- نهضت لأخرج، لكنه حلف أن أشرب الشاي معه، كان سعيداً وهو يحضر الشاي، وحين انتهينا من شرب الشاي فتح حقيبة تحت السرير وقدم لي شيئاً.
- ما هذا؟
- هذه ميدالية تجسم المرجة، كنت أبيع اليانصيب إلى جانبها، صارت جزءاً من حياتي.
- حين أنظر إليها سأذكرك وأتذكر دمشق.
- عانقته وكأنني أودعه، قلت له مبتسماً:
- سنكون أصدقاء الهم والحزن.

دمعت عيناه لكنه ابتسم، خرجت من غرفته مثقلاً بالهموم، هناك آلاف الحكايات التي تدمي الروح قبل العين، حدثت في تلك الحرب الملعونة، وهناك حكايات عن مأسى سورالية حصلت فعلاً.

تمشيت في حديقة المركز لأنسى همومي وهموم الآخرين، مرّ ميخائيل نائب مديرة المركز جيسيكا وحياني، كانت الشمس تسطع حيناً وتختفي خلف الغيوم في أحيان أخرى، كأنها هموم الإنسان تلح عليه، ثم ينساها لفترة ثم تعود.

دخلت غرفتي وتمددت على السرير، كانت رندة في المطبخ، كنت أسمع صوتها، وكان يشدني إليها شيئاً؛ محبة قديمة لا أريد انتزاعها، وصبرها اللامتناهي على المصائب، كان بي شوق للحديث معها عن بائع اليانصيب، وعن آخرين وآخرين، وعننا، وقبل أن تأتي فتحت دفتري الذي أكتب فيه روايتي، قرأت ما كتبته من قبل، من اجل مواصلة الكتابة، وما إن بدأت بكتابة الجملة الأولى حتى دخلت رندة وقالت بدهشة:

- ليس من عادتك الكتابة الآن، أنت تكتب صباحاً.

- كنت أضع بعض الملاحظات لكتابة الغد.

- يبدو أنك تعرفت على صديق جديد في البناء الثاني.

- صداقة الهم والحزن.

وأضفت:

- سأحدثك عن حكاية ذلك الرجل.

- سأعود إليك حين أنتهي من الطبخ.

وخرجت، وبقيت مع قلمي وأوراقي، ولم أكد أكتب كلمة واحدة حتى ضجعت الغرفة بالحركة، بدخول علي ومحمد مع كرتيها الذهبية.

وقف واحد على يميني وآخر على شمالي.

قال علي:

- سأنضم إلى فريق شتوتغارت.

وقال محمد:

- وأنا إلى فريق ميونيخ.
- هل كتبتا العقود؟
- حين نكبر.
- إلى أن تكتبنا العقود اهتما بدراستكما.

فال محمد:

- ولكنك لم تفرح بفكرتنا.
- بالعكس، فرحت كثيرًا وسأفرح أكثر حين تنجحان في المدرسة.
- وضعا الكرة فوق سريرهما وفتحا حقائبهما المدرسية وجلسا يقرآن.
- رجعت إلى قلمي وأوراقي، قرأت ما كتبتة قبل يوم، كان مليئًا بالحزن، مليئًا بالدموع، مليئًا بالوجع.
- أنا أضحك مع أولادي، وهم هناك سيكون أولادهم، زوجتي تطبخ لكي نأكل وهناك لا يطبخون، ولا يأكلون سوى الموت والخوف.
- ما هذه الأوجاع؟!
- ولم أر نفسي إلا وقد أخذت غفوة من تعب الآلام.

نفذت أشعة الشمس من خلال ثقوب سقف سوق الحميدية، كأنها
تداعب وجهي، تسيري إلى آخر العمر، ولا تشعر بالتعب.
رأيت أصدقاء الثقافة يسرون معي، وكانت النساء كلهن حوامل.
قلت لصديق الثقافة:

- سيلدن الرجال الذين سيموتون في الحرب.
قال وهو يفتح فمه عن أسنان صدئة ورائحة فم عفنة:
- ابتعد عني، أنت تتحدث عن الموت، وهن يلدن من أجل الحياة.
وتركني، اقتربت مني فتاة جميلة تحمل كتابا ضخما تنوء بحمله، كانت
تنظر إليّ وتضحك، ثم تنظر إلى كتابها وتبكي.
سألتها:

- ما الذي يضحكك ويبكيك؟
- انظر إلى قدميك.
كنت بلا حذاء، قلت لها:
- خرجت من البيت وأنا ألبس حذائي.
لم تلتفت لكلامي، وعادت إلى كتابها الثقيل، قرأت والنسوة الحوامل
يسرن إلى جانبها.

- في بلاد الشام العتيقة، جرت حكاية عجيبة، فرض على النسوة
الحوامل أن يلدن الرجال فوق الجبل، أما التي ستلد البنات فستكون

ولادتها في الوادي، وهناك ستدفن البنات مع أمهاتهن، وحين يكبر الرجال يحاربون بعضهم، سنوات وسنوات، وحين يموت جميع الرجال، لن يبقى سوى الجبل والريح ومقابر النسوة.

نهضت وأنا أردد:

- وجع في الواقع وفي الحلم.

كانت رندة وحدها، تجلس إلى جانبي وقد فاح عطرها، وكانت تنظر إليّ نظرات فيها شيء من الإيحاء.

- خرجا ناحية النهر والنهر بعيد، وإمام لن يعود قبل المساء، وسامر في عمله.

فهمت قصدها، لكن الوجع يأكلني من الداخل، تمددت رندة أمامي على السرير وقالت:

- هيا قبل أن يأتوا.

تصبب العرق على جبينني وأنا احاول، لكنني لم أستطع، نهضت رندة غاضبة:

- أنت كبرت يا صبحي!

- لم أكبر لكن الآلام تمنعني من.

قاطعتني هازئة:

- الآلام، الآلام، جئت إلى هنا وحملت أوجاعك وأوجاع الآخرين، الآلام شاعة عجزك.

غضبت:

- لا أسمع لك.

- يجب أن تسمح لي، اعترف أنك كبرت ولم تعد قادرا على فعل شيء.

رفعت يدي وصرخت في وجهها:

- اخرسي وإلا.

- هيا اضربي، ستندم إذا فعلتها.

جلست مرهقا ويائسا ثم نهضت بثقل، حملت سترتي وخرجت، وسمعت رنده خلفي تبكي، كان الشجر يبكي وأنا أسير تحته، الهروب أطاح برجولتي، الخوف أحبطني، سرت بلا هدى، ثم توقفت، أردت العودة إلى المركز لأعتذر من رنده، لكن هذا الاعتذار سيطيح بآخر جدار من رجولتي، أصبحت عجوزا على حافة الموت، أصبحت بلا رجولة، ماذا بقي لي، إمام مدمن، وسامر نصف مجنون، وعدنان لم أره منذ سنوات، وكذلك ابنتي بدور، والرواية في نهايتها، أشياء كثيرة هنا تدفعني إلى النهاية، كأنني سأنتهي مع آخر كلمة سأكتبها، لم أعد أقوى علي الوقوف، فجلست على الرصيف، تمنيت أن أتلاشى في تلك اللحظة، كأن بكاء رنده يأتيني عبر روعي، يعصرني، ويدمني، لا أريدها أن تبكي من أجل رجولتي، الحصان العجوز يطلقون عليه الرصاص، وأنا من سيطلق عليّ طلقة الرحمة، توقف تفكيري وتوقفت حواسي كلها، شعرت أنني سأفقد الوعي، وفجأة سقط فوقني جسدان أعرف رائحتهما، إنهما علي ومحمد، قال علي بخوف:

- أبي، لم تجلس على الرصيف؟

وقال محمد:

- أبي، هل أنت مريض؟

- لا هذا ولا ذاك، تعبت فجلست على الرصيف.

أنهضاني، أمسك كل منهما بيد، وسرنا نحو المركز، كان الحزن يبدو على وجه رنده، خرجت إلى المطبخ، ثم وضعت الطعام أمامي وقالت:

- طبخت الطعام الذي تحبه، بندوره بالببيض.

- شكرا.

ضحكت رنده وقالت:

- تحدثني كأنني شخص غريب عنك.

ثم اقتربت وهمست في أذني:

- ستبقى زوجي مهما حدث.

كانت خلال الطعام تنظر إليّ وتبتسم، أحسست أنني مازلت منزعجا،
لامنها بل من نفسي.

كانت حين تقول لي بعد أن كشفت لي أمرها:

- أحبيتك منذ اللحظة الأولى حين كبرت، كنت أريد رؤيتك دوما،
وكانت أحلامي تسعفني، فأراك في منامي وأعوض غيابك.
- كيف؟

- أجلس معك، أقبلك وتقبلني، أحضنك وتحضني.

كنت أنفر من قولها، لكنها حين تغيب أشتاق إليها، وقد عرفت
بحسها الأنثوي ذلك فقالت يوما:

- أعرف أنك تشتاق إليّ، نظراتك تقول ذلك، طريقة تنفسك.

وكنت أتعذب، كانت رندة حاضرة في ذهني، لكنني كنت مسلوب
الإرادة، عذابي ليس في خروجي من بيتي، أضيف إليه عذاب نفسي،
التي تاهت فوق توهاني الكبير، كأن الأشياء السلبية تراكم فوق بعضها،
ونغذيها نحن بلا إرادة وكأنها قدرنا.

صحوت من أفكاري على صوت رندة تقول لي:

- نعد هنا من الفقراء ومعنا بطاقة بونيز كارت، لماذا لا تذهب إلى
التافل، هناك تباع الأشياء بربع قيمتها أو بأقل.

- سمعت أنها منتهى الصلاحية أو على وشك.

- ليست كلها، أم علي السورية التي تقطن فوقنا قالت لي إنها توفر
بعض النقود من وراء التافل، لنجرب.

- لنجرب، نحن لا عمل لنا هنا سوى الطعام.

تنحت حين من ذهني قليلا، ركنت في ركن بعيد، أحسست بالراحة،
نهضت لأبعدها أكثر.

سألت:

- متى يفتح هذا التافل؟
- مرتان يوميا، صباحا وبعد الظهر عدا يومي السبت والأحد.
- سأذهب غدا صباحا.
- هذا يناسبك لأنك تنهض مبكرا.
- قدمت لي رندة كأس شاي ساخن وحلو، لم تجلس أمامي كعادتها، ناديتها فقالت:
- سأضع الغسيل في الغسالة، هؤلاء الصرب يأخذون دورنا في الغسيل أيضا.
- تمت وأنا أشرب الشاي:
- جميعنا يأخذ أدوار الآخرين، والآخرون يأخذون أدوارنا، هذه هي الحياة.

صباحا، أخذت عربة التسوق وركبت الأوبان وذهبت للتافل، الوجوه المختلفة تدل على جنسيات متعددة، كلهم متحفزون لينقضوا على الخضار والفواكه الرخيصة الثمن، كنت في آخر الصف، قلت في نفسي:

- ماذا سيترك لي هؤلاء سوى الفتات؟

فكرت أن آخذ عربة التسوق وأعود من حيث أتيت، لكن وقت الدخول قد اقترب، انتظرنا، هذا الوقوف، وهذا الذل، لا يساويه طعام العالم كله، نقف من أجل أن نأكل، ونأكل من أجل أن نعيش.

بصقت على نفسي، كرهت الوقوف في الصفوف، كرهت الانتظار المقيت، أخذت أسلي نفسي حين قلبت صفحات الفيسبوك في جوالي، لكنني مللت تلك الوجوه المتصنعة، والأخبار الملفقة، والأحاديث الجوفاء، فأغلقت جوالي، أريد أن أغلق حياتي، أريد أن ينتهي هذا الانتظار، فتح الباب وأبرزوا بطاقة البونيز كارت، أبرزوا بطاقة فقرهم وعوزهم، توتر المشهد، أعطى رجل في الداخل لكل واحد سطلا ليضع فيها الأشياء التي سينتقيها.

بدأ حمى الركض نحو الخضار والفواكه، الوجوه محمومة، والأيدي مرتجفة تحاول الوصول إلى أفضل الموجود بأقل وقت.

وقفت أتأمل هؤلاء الزاحفين، المرتجفين، الباحثين بأيديهم وعيونهم التي لا تشبع عن الطعام، وابتسمت ساخرا من نفسي، حملوا بكل ما استطاعوا، امتلأت السطول بالفواكه والخضار والشراب، وما زالت عيونهم تبحث عن المزيد.

قضية الجوع مازالت حاضرة في تاريخهم، مهما أكلوا سيظلون جائعين، في كل يوم، ينتظرون من أجل بطونهم، هذا الانتظار ثمنه بخس في الأموال، لكنه مذل إلى حد بعيد؛ لأنه يقضم من عمري أحداثا مرت بي وكنت أفخر بها، فإذا هي تضيع في هذا الانتظار.

آه من تلك الحرب المجنونة، التي لم تقتل الناس بل أذلّتهم، صاروا عبيد البطون والمال والخوف والهروب.

أخيرا، أدركت تفاهة الأحلام الكبيرة التي كانت تراودني، أدركت كم أنا صغير إلى حد التفاهة، كل شيء يهرب من بين يدي، الأحلام وأولادي وزوجتي وحتى نفسي.

كأننا هربنا من تلك الحرب إلى حرب أشد قسوة، إلى حرب الذل وتغيير النفوس، والوحدة التي تنتظرك في بلاد الغربة.

كأنني أبتعد عن نفسي، كأنني كائن آخر، بلا أحلام، بلا مشاعر، بلا أي شيء.

انتبهت إلى رجل يقول لي بالألمانية:

- املا سطلك، وهيا.

هنا عليك ألا تشرد وإلا فاتك القطار، أخذت ما تيسر لي وجررت عربة السوق إلى المركز مكسور الخاطر، أريد أن أبكي لا أستطيع، أريد أن أصرخ لا أستطيع، أريد التعبير عن رأيي لا أستطيع، جلست صامتا على حافة السرير، سألتني رنده:

- ما بك؟

- صرنا وحوشا بعد الحرب.

- ماذا تقصد؟! أنا، أنت، هم، جميعنا، لم نعد بشرا، صرنا وحوشا كاسرة، لم يعد همها سوى الطعام والشراب.

قالت بسخرية:

- التافل جعلك تفلسف الأمور، أنت تعمل من الحبة قبة، لم تكن هكذا.

- لأنني لم أكن هكذا صرت هكذا.

- أنت لا تناقش.

نثرت طعام التافل على أرض الغرفة وقلت:

- هذا هو التافل، هذا هو الذل.

وقبل خروجي سمعت رندة تقول:

- مجنون.

صدقت، أنا مجنون لأنني تعرضت للذل ولم أنبس بكلمة واحدة، تنهشني العيون وأنا أقف في التافل، أصبح صغيرا، بل حشرة على جدار، أواجه الجدار، لكن العيون تلاحقني، كثيرة هي المرات التي تهت في هذه المدينة، مدينة الأغنياء، مدينة المرسيدس والبورشة، مدينة شيلر.

أحث خطاي نحو الأوبان ثم أتباطأ، أين ستقودني قدماي، لو كانت تلك الصبية أمام المتحف لحثت الخطى نحوها لتخرجني من حزني بسيمفونية يتهوفن.

لم نعد عائلة واحدة، صرنا أفرادا نعيش في غرفة واحدة، لم أعد المسئول الوحيد عن العائلة، صار لكل واحد كرت بنكه الخاص، أصبحت أشعر بالوحدة والاكئاب، إمام يشرب ولا يدفع سنتا واحدا، تقول له أمه:

- لماذا لا تساهم معنا بمصروف البيت.

- هذا ليس ضحكاً يا أبي، هذا بكاء.

- سأدعو لك لتصل سالماً.

وتنهَّد قبل أن ينقطع الخط وقال:

- أرجو أن تستمتع بسيمفونية بيتهوفن.

أحسست أنني اكتب نهاية سطور حياتي، لو حدث لعدنان شيء لن أعيش لحظة واحدة، كان الأوبان يقطع المحطات دون أن أعرف شيئاً، نظرت من خلال الزجاج، لم يكن هذا طريق المتحف، نزلت في أول محطة، أخذت السماء تصبح رمادية، وهطلت زخات خفيفة فوق وجهي، فأحسست بالانتعاش، سرت بلا هدى وإذا أنا وجهها لوجه أمام متحف شتوتغارت.

حين تنوه نصل هدفنا، وحين نخطط للوصول لا نصل أبداً.

جلست على ذات الكرسي حين استمعت إلى سيمفونية بيتهوفن، من تلك الصبية وكأنها آتية من الجنة.

أين أنت أيتها الصبية، جئت لأستمع إلى عزفك الذي يطاول الروح، لم أعبأ بالمطر الذي أصبح ينزل بغزارة، كنت أبحث عن تلك الصبية، بينما الناس يترაკضون تحت المطر، أو يتقون المطر بمظلاتهم المختلفة الألوان.

كان المطر هو تلك السيمفونية في ذلك الوقت، وكانت أبواب المتحف مغلقة تماماً، أحسست الأحاسيس نفسها وأنا أستمع إلى عزف تلك الصبية، المطر والمتحف والصبية والكمان كانت قد فقدت روحها.

بعد أن خلا الشارع من المارة، وبقي المطر، ولم تأت الصبية، ولم تعزف السيمفونية، دخل البرد أعماق روحي فعدت إلى المركز.

لم تكلمني رندة، قلت لها وأنا في غاية التعب:

- سيأتي عدنان عبر الجبال.

تفتح وجهها كزهرة، ثم قالت بقلق:

- أخشى عليه.

- لا حلّ سوى الهروب.

ثم سألت:

- متى؟

- الوقت رهن بإشارة المهرب.

دخل علي ومحمد وهما يتحدثان الألمانية ويضحكان، نسيت أحزاني، في تلك اللحظة عزفت الصبية السيمفونية، وأشرقت الشمس، وتميلت الأشجار بفعل النسيم، وتفتحت الورود.

- علماني اللغة.

- أصحيح يا أبي أنك ستعود طالبا في المدرسة؟

- هذا أكيد، من أجل الاندماج.

- اندماج!

قال علي بدهشة.

- لتندمج في المجتمع الألماني عليك أن تتعلم اللغة الألمانية، وإلا لن تحصل على الجنسية في المستقبل.

ضحك محمد وقال:

- نحن مندماج منذ الآن.

في اليوم التالي، قالت لي الموظفة في البلدية إنني سأقبض راتبي من السوسيال وليس من الجوب سنتر بسبب سني المتقدمة، لقد اعتبروني متقاعدا وسأعيش عائلة عليهم، لكنني قلت للموظفة والغضب يأكل داخلي:

- لا أريد راتبا دون أن أعمل، أنا قادر على العمل.

قالت بلهجة صارمة مع ابتسامة:

- القانون هو القانون، أنت في سن التقاعد.

نهضت منكسر الظهر، ألم أقل إنني حشرة على جدار، الوقائع تؤكد ذلك، تبا لسني عمري التي أذلتنني، تبا لعمري الذي انتهى إلى مذلة.

قالت لي رندة بغضب:

- لو كنت هناك، هل يعطونك راتبا شهريا وأنت في البيت، لاتحلم هناك بقرش واحد.

- صحيح، ولكن يكفي أنني هناك، أشم رائحة ياسمين دمشق، أسير في سوق الحميدية، فأرى الوجوه التي اعتدت على رؤيتها، أشرب من نبع بردى، أصعد جبل قاسيون وأرى دمشق المضيئة.

- ألم أقل لك.

وصمتت.

قلت:

- أكمل، أنا مجنون.

ولم تجب، ولم يكن أمامي سوى الصمت.

نمت تلك الليلة وأنا أحلم بعدنان يصعد جبالا وينزل أخرى، يقترب مني ثم يغيب، وقبل الفجر بقليل صحوت، كانت رندة تغط في نوم عميق، وكنت أسمع بجوار غرفتي سعال الصربية التي تدخن كثيرا، وتذهب في مسار رحلتها الاعتيادية لتلم معلبات منتهية الصلاحية لتأكلها، كان إمام يدخن، وكنت غاضبا من الأعماق، أريد بيتا، أريد حجرة منفردة تضمني مع زوجتي، اشتقت للحديث معها حديثا لا يسمعه غيرنا، اشتقت ملاستها ليلا، اشتقت مداعبة نهديها، اشتقت رشفة ريقها.

دع الأحلام تراودك، فمطلبك مازال بعيدا، ليس لك إلا هذه الغرفة، ليس لك إلا الأحلام المبتورة، والاشتياق الميت،

كن بلا أحلام، كن بلا اشتياق، كن بلا إنسانية، كن بلا حب ولا كره، كن بلا شيء، كن ليس أنت.

دقت ساعة الكنيسة المجاورة دقات سبع، هربت مني أحلامي، ولم أعد قادرا على التفكير، دقت ساعة الكنيسة ثمانية دقات، ومازلت مستلقيا على ظهري، مفتوح العينين، مشوش التفكير، حاولت النهوض لأفتح دفتر روايتي وأخط الصفحة التي أخطها يوميا، لكنني لم أستطع

النهوض، لم أشعر بقدميَّ، كأنه لم يعد لديَّ قدمان، زحف خوف له
مخالِب إلى نفسي، فتحت رنْدة عينيها، استغربت حالتي:

- ليس من عادتك النوم إلى هذا الوقت.

- لم أنم.

- دائماً تكتب صباحاً.

- لا أستطيع النهوض.

قالت بقلق:

- ماذا؟

- لا أشعر بقدميَّ.

كشفت الغطاء عني، كنت بلا قدمين، نهضت رنْدة نحو الباب
لتصرخ فنهضت من كابوسي.

لماذا يحدث لي هذا، ألم أصل إلى بر الأمان، الجموع التي تزحف إلى
أوربا أياماً طويلة دون طعام، من أجل الوصول، واجترار الذكريات،
والحلم بالعودة، أو الحزن لأنهم لن يعودوا؟!

إيلان الكردي الذي نام على الشاطئ، اختصر الوقت والحزن، أنا لم
أختصر الوقت ولا الحزن، بقيت حياً لأعاني، بقيت حياً لأتذكر، بقيت
لأحزن، خطوات عدنان وهو يصعد الجبال كأنها تدوس على روحي،
يقترّب موتي فتقترّب خطواته، أحس أنه يحمل روح إيلان الكردي وأرواح
الذين ماتوا في البر والبحر، أرى في خطواته دموع الهاربين من الموت، أرى
في خطواته خلاص المقيّدين، أرى في خطواته فرحة الواصلين إلى شاطئ
إيطاليا، في خطواته سلب وإيجاب، في خطواته حياة وموت، متى تصلين
أيتها الخطوات، متى أراه يقف أمامي ويقول لي:

- ها أنا يا أبي، لقد وصلت.

استيقظت من أحلامي على دقات الكنيسة السبع، كان الجميع نائماً،
أحسست بمفاصلي بادرة، جلست إلى جانب الشوفاج، ثم ذهبت إلى

المطبخ وصنعت كأس شاي، ثم فتحت دفترتي لأكتب صفحتي اليومية في الرواية.

كانت الكلمات كنمل انتشر فوق يديّ، وأصابني ثم انتشر نحو جسدي كله، فلم أستطع التنفس، لم أخط كلمة واحدة، النمل يأكلني، الكلمات تأكلني، أصبحت هيكلا عظميا، أصبحت كتلة عظام متناثرة في أرجاء الأرض، قطعة في دمشق، وقطعة في البحر، وقطعة في الجزائر، وقطعة في لبنان، وقطعة في ألمانيا.

هكذا أنا تناثرت أشلاء، الأمكنة أصبحت شظايا كسظايا صواريخ الحرب المجنونة، كبرت الكلمات، كبر النمل، رأيت عيونه الكبيرة، رأيت أقدامه الضخمة، كأن النمل أصبح ديناصورات على صفحات الرواية. أغلقت الدفتر وبدأت ألث، كأنني أصعد جبلا، أو أحتضر.

لم تعد الكلمات كلماتي، ولم تعد الأوراق أوراقتي، كل شيء أصبح غريبا عني، تحديت نفسي والنمل، وفتحت دفترتي مرة أخرى، كان صفحة بيضاء، كأنني لم أخط كلمة واحدة، أين ذهبت الكلمات، أين ذهبت الديناصورات، أصابني رهاب، كلماتي ضاعت، حزني ضاع، وأصبح سرايا أبحث عنه.

اتصل بي عدنان وقال:

- أبي، أنا على حدود النمسا.

وانقطع الخط، صرخت رندة:

- أحدث له شيء، لماذا انقطع الخط؟

ليس في مقدوري أن أجيبها.

صمت كل شيء، الشجر صمت والأرض والهواء توقف.

صرخت في وجهي:

- ماذا بك؟! تكلم.

قلت بهدوء:

- لم أعد أستطيع الكلام.

- حين يجب أن تتكلم تصمت، وحين يجب أن تصمت تتكلم.

لم أرد؛ كنت في عالم آخر، عالم الجبال والغابات والأقدام الهاربة، ورجال شرطة الحدود، والكلاب البوليسية والأسلاك الشائكة. كنت في غابة كثيفة الأشجار، مظلمة، والثلج يتساقط، لم يكن هناك اتجاهات، كان هناك فقط خطوات، أنصت، كان البرد شديداً، الخطوات تقترب، ولهاث الكلاب البوليسية يقترب، تكاثرت الخطوات واللهاث، كنت أقبع تحت شجرة كالخلد، ها هو عدنان يقوده رجال يجرون الكلاب البوليسية، نهضت وأواجه الرجال والكلاب، صرخ عدنان:

- اهرب يا أبي.

فتحت عيني، كانت رندة تقف أمامي والحزن يملأ وجهها، قلت قبل أن تبدأ الكلام:

- كابوس، حلمت بعدنان.

بكت بحرقة.

- لم البكاء؟

- إمام يقتل نفسه يومياً، زاد شربه وشروده.

- المشروب رخيص، والدولة تعطيه راتبا شهريا، هذه فرصته.

- ليس عندك إلا السخرية.

- السخرية هي التي تمنع الانفجار، وهي عين الحقيقة.

ثم قلت:

- ما رأيك أن نخرج قليلا، نحتاج إلى هواء نقي.

هزت رأسها موافقة.

- أين علي ومحمد؟

- يلعبان مع أولاد المركز.

ضحكت بسخرية:

- يلعب الإنسان وهو صغير، ويلعبون به وهو كبير.
- ابتسمت رندة من خلال دموعها.
- في هذه أصبت.
- ألم أقل لك، إن السخرية هي عين الحقيقة.
- كان الجو رماديا كثيبا، مشت رندة إلى جانبي صامته، قلت:
- أحن إلى كأس شاي على شرفة منزلي.
- لم يعد هناك شرفات هناك.
- الشرفات هنا ليست كشرفاتنا.
- كيف؟
- إحساس قد يكون خاطئا.
- المكان الذي دخلنا فيه كان مهجورا، بيوت ريفية، حولها أشجار،
وأماكن لشي اللحوم، وصمت مطبق.
- قلت لرندة:
- لو أعيش هنا.
- وحدك؟!
- وحدي.
- وأنا؟!
- يبدو أنك تفكر في شيء.
- ما هو؟
- أنت تعرفه.
- أنا لم أعد أعرف شيئا.
- تريدنا أن ننفصل.

- لم أفكر بهذا.
- بل فكرت، عقلك الباطن هو الذي دفعك إلى هذا القول، وعقلنا الباطن هو الذي يسيّر حياتنا.
- متى قرأت هذه النظرية؟
- لم أقرأها بل أحسها يومياً.
- انظري إلى هذا الجو الصامت، ألا ترين أننا نلوثه بكلامنا.
- سأعود إلى المركز.
- كأنك لست رندة تفكرين بشيء ثم تصدقينه.
- ألا تعتقد أنّ حياتنا انقلبت بموت حنين.
- نحن أموات، ولكننا نسير على الأرض.
- ألا تريد أن نتحدث عن حنين أم أنك نسيته.
- بل لا أريد.
- استدارت من أجل أن تعود.
- صرخت مفجراً ذلك الصمت القاتل.
- حياتنا لم تنقلب بموت حنين، حياتنا انقلبت منذ انطلقت الرصاصة الأولى هناك، منذ مات أول طفل هناك، منذ هدم أول بيت هناك، منذ تركت ذكرياتي، منذ هربت، منذ رحلة الصحراء والبحر، وها أنت تكملين الحدث حتى تكتمل القصة.
- قالت بسخرية:
- لا أريد أن اسمع منك هذه السيمفونية المشروخة.
- إنها سيمفونيتنا جميعاً، سيمفونية الحرب والهروب، اسخري مني، هذا هو واقعنا، هذه هي سيمفونيتنا المشروخة، كما وصفتها، الآن عودي إلى الهايم إن أردت.
- جلست رندة على صخرة تبكي، وقالت:

- أنت تعذبني فوق عذاي، مات أخي ولم أره، وسيموت أبي ولن أراه، وقد يموت أهلي جميعا ولا أراهم.

- وأنا أيضا أختي جلييلة تحت النار ولن أراها، رأيت على الفيسبوك أن ابنها قتل بصاروخ وابنيها الآخرين حملا السلاح والتحقا بالمجانين، كأن النار هنا في صدري.

- الآخرون يعذبوننا، وأنت تساهم معهم في عذابنا.

- أنا لم أحمل سلاحا ولم أقتل أحدا.

- حزنك هو أمضى سلاح.

- لم ينتصر أحد في هذه الحرب، القاتل والمقتول كلهم انهزموا.

نهضت ومسحت دموعها وقالت:

- حتى لو انتهت الحرب أنت لن تنهيها.

- والذين ماتوا هل هم حشرات.

- ماذا بيدك أن تفعل؟

- سأفضحهم، بقلم، بحزني، بقهري، بصمتي.

- لن يهتم بك أحد.

- الذين يفهمون معنى الحياة سيهتمون، الذين هم ضد الحرب سيفهمون، الذين هم ضد الدم سيفهمون.

- اذهب إليهم وأوقف الحرب معهم.

- لن أياس.

- حين هربت يئست.

- أندم ألف مرة على هروبي، لو مت لتوقف عذاي، لكن هروبي لم يكن من أجلي بل من أجل علي ومحمد.

- هربت من أجلهم، وها أنت تعيدهم إلى حربك.

- آه.

وجلسـت على الصخرة وبكيت.

ابتعدت عني رنـدة وهي غاضبة، ثم توقفت، وحين التفتت، كان وجهها جامدا، لكنه حزين، عادت واقتربت مني، لم أنظر إليها، سمعت صوتها :

- انهض وعد معي .

لم أتحرك، عادت وصرخت :

- انهض وعد معي .

نهضت، كنت أمشي كأنني في الهواء، شعرت أنني سأسقط مع كل خطوة، أمسكتني رنـدة من تحت إبطي وقالت :

- الحرب هناك لم تنته، لكن حربنا نحن انتهت بهروبنا، نحن خرجنا من لعبة الحرب وأنت تريد أن تعود إليها .
قلت بضـعف :

- روحي هناك، جسدي هنا فقط، لم أستطع الخروج من كابوس الحرب، حربنا هنا أقسى من حربهم، أقسى من رصاصهم وقذائفهم وأصوات طائراتهم وبراميلهم المتفجرة، قبل الحرب كنا شيئا وبعدها أصبحنا شيئا آخر، تشوهنا من الداخل .
كنت ألـهث وأنا أتحدث .

- الذين أصيبوا في الحرب قطعت أوصالهم، ونحن تقطعت أرواحنا .
كانت تنظر بذهول .

توقف لهاثي، توقفت كلماتي، قالت بغضب :
- أنت في طريق الجنون .

- ياليتني أجن لكي أنسى، لكي لا أشعر، سأذهب إلى طبيب ليستأصل ذاكرتي، ليستأصل حزني، ليستأصل قهري، وعندئذ سأغـدو ككـلابهم المدللة، كالنـسمة، كالهواء العليل، كصفحة الماء في يوم صيفي .
- النقاش معك عقيم .

وتركت يدي واستعجلت خطواتها، اشتيتها في تلك اللحظة، لكن أعصابي مشدودة، وذاكرتي متقدمة، وأحلامي تتقد فوق نار عظيمة.

- رنده، قفي، هاتي يدك.

- الذي يتكلم مثلك لا يحتاج مساعدة.

وتوقفت ونظرت إليّ ملياً وقالت:

- إذا بقيت هكذا لن أعيش معك.

تقدمت منها ببطء، تمسكت بأردافها، رفعتني وقالت:

- ضعفك بسبب جنونك.

- لا أستطيع أن أنسى.

- كتبت كثيراً وألقيت محاضرات كثيرة، ماذا فعلت بك الحرب، رمتك كأنك لا شيء، المجانين هم الذين انتصروا على ثقافتك.

- هذا هو الواقع، لكنني لا أستطيع إلا أن أتكلم، أتكلم حتى لا أجن، وما أكتبه الآن في روايتي الأخيرة هو نهاية حياتي.

- هم كتبوا نهايتك، لأنك استسلمت لهم، هروبك هو استسلام.

- هربت خوفاً عليكم.

- هربت خوفاً على حياتك، أنا لا أكتب مثلك، لكنني أعرف أشياء كثيرة، أنتم المثقفون تنظرون إلينا وكأننا بلا عقول، لأنكم تعيشون في أبراج عاجية.

- كان أدبي ملتزماً بقضايا الشعب والوطن والإنسان.

- حين هربت تخلّيت عن كل ذلك.

- تريدين أن أنسى الماضي.

- لم أقل ذلك، أنت لا تعرف أعماقي، روعي حزينة، أعماقي كئيبة، لكنني لا أنشر كل ذلك على الملأ.

- أنت تعيشين بوجهين إذن.

- أفضل من أن أزعج الآخرين بحزني وكآبتي .
- عشت معك ثلاثين عاما وكأنني لم أعرفك .
- ألم أقل لك، كنت تعيش في برجك العاجي، وكلماتك المثالية،
وسهراتك الثقافية، وأخيرا، لاشيء، الحرب انتصرت علينا جميعا ابداً من
جديد .
- حاولت وفشلت .
- حاول مرة أخرى وسأكون إلى جانبك .
- ألم أقل إنني حشرة على جدار، أريد حذاء قديما ليخلصني من حياتي .
وقبل أن نصل المركز بقليل سألت رنده:
- هل أنا حشرة؟
- يبدو أنك...
- لم أجن، ولكن هذا شعور صادق .
- لن أناقشك، سأدخل وسنرى ماذا سنأكل اليوم .
- وأنا سأجلس هنا .
- بدأ المطر يهطل بغزارة .
- علّه يغسل أحزاني .
ودخلت رنده دون أن تعلّق .

مقابل الكرسي الذي أجلس عليه جلست صبية جميلة تشبه حنين، نظرت إليّ وابتسمت ببلاهة، ثم أدارت وجهها، جاءت امرأة في الخمسين من عمرها، جلست إلى جانبها، ومسحت على شعرها وكأنها طفلة صغيرة، ودون أن أسأل بدأت المرأة تسرد قصتها:

- هذه ابنة ابنتي، ماتت أمها وهي في الطريق إلى ألمانيا، تفرحت قدماها من السير أياما وماتت في بلغاريا، أما هذه فلها قصة أخرى، كانت تدرس في الجامعة، وذات يوم انفجرت أمامها قذيفة هاوون، مات خطيبها، ودخلت شظية في رأسها، ومنذ ذلك الوقت لم تعد تذكر اسمها، تضحك للاشيء، وتبكي للاشيء، تنهض ليلا وتضرب رأسها في الجدار إلى أن تنام، ولم تعد تعرف أنني جدتها.

قلت:

- ليتنا كنا جميعا مثلها، على الأقل هي نسيت ما حدث، لكننا نحن لم ننس، وعدم النسيان يعذبنا.

- هذا صحيح يا أخي.

نظراتها، جلستها، حركة عينيها، التفاتتها، تشبه حنين، كأنها حضرت في شخصها من أجل تعذيبي، أدت وجهي، قامت الصبية وجلست قربي، وقربت وجهها مني، ابتسمت وقالت لجدتها:

- هذا أبي.

لكنها عادت وقالت:

- لا، هذا خطيبي.

وأمسكتني من قميصي وشدتني إليها، كانت أنفاسها كأنفاس حنين،
قالت لها جدتها:

- حنان، عيب.

حتى اسمها كان شبيها بها، كان داخلي يغلي ذهولا، قربت حنان
وجهها من وجهي، وبانت أسنانها اللؤلؤية وهي تهمس لي:

- متى ستتزوج؟

- غدا، إن شئت.

أجبتها دون أن أعي ما أقول، عندئذ، نهضت وأمسكت يدي وقالت:

- خذني إلى الكوافير إذن.

- الآن.

- الآن، ما المانع؟

امتنع وجه الجدة، نهضت وقالت لحنان بغضب:

- هيا، حان موعد طعامك.

تمسكت الفتاة بي، وبدأ ثدياها اللينان كعجين لم يختمر يلتصقان
بصدري، ثم كشفت عن رأسها فتهدل شعرها الأسود الطويل، وقالت
لجدتها:

- أنا لست جائعة، أريد أن أتزوج الآن.

تحول وجه الجدة إلى وحش كاسر، وهي تقترب منها وتجربها، لكنها لم
تستطع، كنت مأخوذاً بالموقف، انتبهت الجدة إلى موقعي السلبي فقالت لي:

- قل شيئا يا أخي.

كأنني صحوت من حلم جميل، ابتسمت في وجه الفتاة، التي كانت
تتمسك بي بشدة، وصدرها على صدري، وأنفاسها على وجهي، وقلت
أخيرا:

- سأذهب لأحضر لك ثوب الزفاف الأبيض.
- بانت أسنانها اللؤلؤية قبل أن تقبلني.
- سأذهب معك.
- لا، يجب أن تغتسلي أولاً، قبل أن تلبسي الثوب.
- فكرت قليلاً:
- نعم، يجب أن أغتسل لعربي.
- ثم سألت:
- متى ستعود؟
- مسافة الطريق.
- عصرت ثدييها على صدري أكثر، وهي تقبلني للمرة الثانية.
- ستزوج اليوم.
- نعم، اليوم.
- كان الخجل يجلل وجه الجدة، ممزوجاً بالغضب، تركتني الفتاة حنان
وكأنها أخذت روحي.
- قالت الجدة قبل أن تبتعد:
- لا تؤاخذنا يا أخي.
- أرجوها السلامة.
- كانت نفسي تشتاق إلى احتضانها مرة أخرى، فبدوت في هذا الموقف
مثل الحشرة في أبهى صورها، ابتعدت عنها في الاتجاه المعاكس، تركت
يد جدتها وركضت بلهفة وجنون، احتضنتني، عاد ثدياها يضغطان
على صدري، ركضت جدتها خلفها، نسيت جدتها، وهي أيضاً نسيتها،
قبلتني، شفتاها كجبن طري، جرتها جدتها وقالت بغضب:
- أنت لا تستحين.

ونظرت إليّ نظرة عتب، تلك النظرة جعلتني أشتري مع جنون حنان،
لكن أعماقي كانت تحب هذا الجنون.

جرتها بعنف، وكانت تصرخ:

- أريد الذهاب مع زوجي.

ابتعد الصراخ، ابتعدت نظرة العتب، فأحسست بتعب مفاجئ، وأنا
أمام غرفتي، لم يكن أحد في الغرفة، جلست على طرف السرير، كانت
حنان تبسم قربي، ابتسمت لها، لمستها، لمستني، قبلتها بحرارة، كانت
تضحك قربي، دخلت رندة، قالت باستغراب:

- أتضحك وحدك؟

- كنت مع...

وتوقفت عن الكلام.

- مع من؟

- مع نفسي، تذكرت شيئاً فضحكت.

اختفت حنان، وقبل أن تخرج رندة نظرت إليّ نظرة غريبة، وقالت:

- سأحضر الطعام من المطبخ ريثما يأتي علي ومحمد.

خرجت بعدها، لم ترني وأنا أمر من أمام باب المطبخ، كان الباص
مليئاً بالشقراوات والكلاب، مرّ قرب المقبرة، سألت نفسي:

- إلى أين سأذهب؟

ولم أجد الجواب.

نزلت من الباص، عدت إلى المركز ماشياً، وفي طريقي دخلت المقبرة،
وقفت أمام قبر حنين، كانت هناك وردة قد أخذت تنمو فوق قبرها،
سحقت الزهرة بقدمي، سحقت أحلامي، سحقت الشيطان الذي في
داخلي، بدت حنان وحنين وجهان لعملة واحدة.

رن هاتفي الجوال، كان صوت عدنان يائساً.

- أبي، أنا الآن في غابة على حدود النمسا، لم أعد أستطيع السير، بل لم أعد أستطيع الكلام، جلست على مقعد في المقبرة، انقطع الاتصال، بدت لي الحياة باهتة واهية، عدنان، خجول وطيع وصادق، وهادئ، ليس للحياة معنى لو حدث له مكروه، الحرب هي المعنى الوحيد والأوحد في هذا العالم.

استمري أيتها الحرب المجنونة، شتتي الآمنين، يتمي الأطفال، رملي النساء، استمري؛ فأنت قلب الحدث، وكل الأحداث ما عداك هواء، استمري واستمري واستمري، لا تعبئي بصراخ الناس ولا بحزنهم، لا تعبئي بهروبهم، لا تعبئي بدموعهم.

استمري، وانتصري على الذين لا يحملون سلاحا، أطلقني عليهم ما بقي من رصاصك، فجري قلوبهم الطرية، حطمي آمالهم، فأنت الآن القوة الوحيدة، ولا شيء غيرك.

حاولت الاتصال بعدنان، فلم أفلح، كنت أريد البقاء في تلك المقبرة، أنام كما الأموات، تنتهي أحلامي، ينتهي إحساسي، ينتهي عذابي، حاولت النهوض فلم أستطع، حاولت الصراخ فلم أستطع، حاولت الكلام فلم أستطع.

انتشر المساء فوق المقبرة، بدأت الأشباح تلعب برأسي، لم يعد أحد في المكان، ولم أكن أنا في أي مكان.

تحسست وجهي، يديّ، جسدي كله، إنني أتحرك، لكن قدمي ليستا مني، زحفت خارج المقبرة، اتسخت ملابسي بالطين، وصلت بصعوبة إلى رصيف الحافلة التي توصلني للمركز، نهضت بصعوبة، والطين مازال على ملابسي، صرت حشرة على الأرض لا على الجدار، رن هاتفي، كان صوت عدنان حزينا، كثيبا.

- احتجزتني الشرطة النمساوية على الحدود، هناك أناس مثلي، ينامون في العراء، ويأكلون في العراء، أكاد أجن، سأهرب.
وانقطع الخط مرة أخرى.

مازلنا نهرب من تلك الحرب، نهرب لا من أجل أن نعيش بل من أجل أن نتذكر، من أجل أن نتألم، نهرب من داخلنا قبل أن نهرب بأقدامنا. توقفت الحافلة أمامي، خجلت من الصعود والطين يلتصق بملابسي، لكنني صعدت، ورغم حالتي لم ينظروا إليّ ولم يبتسموا، وكأنهم لم يروا شيئاً، خجلت الجلوس على مقعد في الحافلة رغم فراغ عدد كثير من المقاعد، لمحت ابتسامة السائق من خلال المرأة.

كانت رندة تحيط ببعض الثياب لإصلاحها، وحين رأت الطين على ملابسي قالت:

- ما هذا؟

- سقطت على الأرض.

- لماذا؟

- الذين يسقطون لا يدرون لماذا.

- اخلع ملابسك، سأعطيك ثياب النوم.

- أنا أيضا بحاجة للنوم.

وقفت تحت الدش لأزيل الطين عن رأسي، تحلل الطين في الماء دما، إنه دم الأرض، دمي أنا، وقفت أنظر إلى الدم، إلى الطين الذي علق بأقدام الهاربين، أريد التحدث إلى هذا الطين، لكنه لم يفهم لغتي ولم أفهم لغته.

كان صوت رندة في الخارج وهي تدق الباب:

- صبحي، لماذا تأخرت؟

- لم أمت بعد.

- ننتظرك على الطعام.

وسمعت خطواتها تبتعد، كأنها تبتعد عن قبوري، كنت أفكر بهذا حين انقطعت مياه الدش، لبست ثيابي على عجل، ودخلت الغرفة وفي داخلي خوف مبهم.

كانت رندة وعلي ومحمد ينتظرونني على الطعام، قال علي:

- جعنا يا أبي.
- وقال محمد:
- تأخرت في الحمام يا أبي.
- جلست معهم دون أن أنبس بكلمة واحدة، كانت عينا رندة ترقباني دون أن تتكلم، سألتها:
- هل انقطعت المياه في المطبخ؟
- لا.
- انقطعت مياه الدش فجأة.
- ضحكت رندة وقالت:
- هنا المياه لا تنقطع وكذلك الكهرباء، كل شيء يجري هنا بشكل سلس.
- بدأ غضبي:
- أنا لا أكذب.
- نهضت وخرجت قليلا ثم عادت، وقالت:
- مياه الدش مازالت تنزل غزيرة، نسيت الحنفية مفتوحة.
- صرخت قائلاً:
- قلت لك انقطعت، ألا تصدقيني؟!
- صرت هائجا كالثور، حشرة الجدار أصبحت ثورا.
- ألم تري الدماء على أرضية الحمام؟
- أرضية الحمام نظيفة.
- أنا رأيت الدماء.
- لئن هذا النقاش العقيم.
- أخذ الوقت ينفد، أخذت الساعات تتحصن فوق المتاريس، لم يعد هناك وقت للحياة.

حين وقفت أنا ورندة مع غيرنا من جنسيات مختلفة، صومالية وباكستانية وعراقية وأفغانية وألبانية وأوكرانية أمام مكتب لتوزيع الملابس بالمجان تابع للصليب الأحمر الألماني دلني عليه أبو صبحي الحلبي الذي قال لي، فيما قال، إنه لم يشتر قطعة ثياب منذ ثلاثين عاما.

عاد الانتظار ثقيلًا، وعيون المنتظرين تنفذ إلى خلاياك، تفتش عن تاريخك، وتجعل منك هيكلا عظيما، قلت لرندة بصوت منخفض:

- لم أعتد إلا على شراء ملابسني من أرقى الماركات.

- أنت هناك شيء، وهنا شيء آخر.

على درج حديدي، خرجت عجوز طاعنة في السن ذات بنية قوية ونظرات حادة، نظرت إلى المنتظرين، وقالت لأكثر من واحد إنك جئت الشهر الماضي ولهذا لن تدخل هذا الشهر، ثم نظرت إلى سترتي الجلدية وقالت كلاما لم أفهمه وفهمت من أبي صبحي أنها تحدثت عن سترتي الجلدية الجديدة وتتعجب من وقوفي هنا.

في المساء، أخذنا نقيس الملابس بعضها كان أصغر وبعضها كان أكبر، ضحكنا على أنفسنا وكأنا متسولون أبا عن جد.

هنا التسول له أصول وقواعد، تسول حضاري، مثل جمعيات الصليب الأحمر، والتافل، واليونز كارت من أجل التافل وتخفيض قيمة ركوب الحافلات والأوبانات، وهناك الراتب الشهري من السوسيال إذا كنت في سن التقاعد، دون مطالبتك بالعمل، أما إذا كنت دون سن التقاعد فإن الجوب سنتر يمنحك الراتب الشهري، لكنه يلح عليك بالعمل.

خضعنا لقوانين جديدة، لتسول جديد، لا طريق سوى هذا الطريق
أمام الهاربين من الحرب، الهارب بيني آمالا، بيني أحلاما، بيني قصورا
من رمال، ثم يعود صغيرا، يعود حشرة على جدار التسول الحضاري.
هنا، عليك ألا تعترض، عليك أن تطيع، أن تقف في الصف، أن تنتظر
التافل والسوسيال والجوب سنتر وجمعيات الصليب الأحمر.

نبقى ننتظر، نقف في الصف، نبتلع حروفنا العربية، ونبدل لغتنا.

أخرجني صوت عدنان من حالة الاكتئاب.

- أبي، هربت من المعسكر المفتوح، وأنا الآن في فينا، في محطة القطار،
ماذا أفعل.

- اشتر تذكرة إلى ميونيخ. ومن هناك إلى شتوتغارت.

أخبرت رنده، كادت تطير من الفرح، ثم قالت بحزن:

- لم أتصور أنني سأرى عدنان مرة أخرى.

وبقيت مبتسمة طوال الليل، لكنني كنت قلقا، قالت:

- نخشى أن تسوقه الشرطة إلى إحدى الهايمات دون أن نراه.

- لا بد من القلق، لكننا سنراه.

- سأطبخ غدا ملوخية بالدجاج، عدنان يحب هذه الأكلة.

تفرقت عائلتي رغم اجتماعنا في بلد واحد، سامر استأجر غرفة
صغيرة، في أحد الأحياء البعيدة، وإمام سيتزوج ويخرج، ومنار انتقلت
من ميونيخ إلى فيسبادن، وحين يأتي عدنان لا أعرف ماذا يقرر.

قالت رنده:

- هذه سنة الحياة.

قلت:

- هذه سنة الغربة، هذه سنة الهروب.

- المهم أولادنا بخير.

- كنت أتمنى أن أشتري بيتا شاميا كبيرا متعدد الغرف، في منتصفه بحرة ماء وفوق الماء تنتشر أوراق الورد، ولكل ولد غرفة، نأكل معًا، نضحك معًا، نتحدث معًا، نحزن معًا، لكن الحرب حطمت هذا الحلم، دوما الحروب تحطم الأحلام الجميلة.

- أنت تحب تعذيب نفسك.

خرجت قبل أن يتحدث النقاش.

كان نهار شتوتغارت جميلا، لكنني وجدته كثيبا فارغا، ولم أشعر بجمال الحديقة التي سرت فيها، أسراب من البط والإوز تسبح في بحيرة الحديقة، والناس مع أطفالهم وكلاهم سعداء؛ جاؤوا بسعادتهم من المكان الذي يتمنون إليه، حاولت الخروج من جلدي، والتمتع بالبط وهو يطير، ثم يرمي نفسه في الماء، البط سعيد وأنا كئيب إلى نقي العظام.

الكلاب هنا تهز ذنبها وهي تسير إلى جانب صاحبها أو صاحبها. الكلاب سعيدة وأنا كئيب، الأطفال يضحكون وهم ينظرون إلى البط أو إلى أسماك البحيرة، الأطفال يضحكون وأنا كئيب، المسن يسير مع زوجته، يتسман بسعادة، المسنون سعداء وأنا كئيب، لم أعد أقوى على التفكير، أغمضت عيني، كنت أسمع صوت البط وهو يرمي نفسه في الماء، يختلط صوته مع صوت الرصاص، وانفجار القنابل، أفتح عيني فلا أجد الناس والأطفال والكلاب والمسنين والبط، كلهم اختفوا، وحل مساء بارد، كانت هناك نجمة في السماء ترقبني، أردت الوصول إليها لكنني نهضت بتثاقل.

حين وصلت إلى غرفتي في الهايم كانت رندة نائمة، لكنها استيقظت بمجرد دخولي، رفعت رأسها وقالت وما زال النعاس في عينيها:

- قال لي ميخائيل اليوم إنَّ السوسيال سينقلنا إلى بيت من ثلاث غرف.

- هذا خبر الموسم، سيأتي عدنان إلى بيت لا إلى هايم.

- لكنه سيمر بما مررنا به.

- المهم أن يصل بخير، ألا تريد أن تأكل؟

- سأكل قطعة من الجبن وأنام.

غطست رندة في الفراش مرة أخرى، نظرت إلى جسدها تحت الغطاء، منذ زمن بعيد لم أقرب هذا الجسد، لكننا سنترك هذه الغرفة اللعينة، ونفرد بغرفة خاصة بنا، وعندها نفعل ما نريد.

عادت الأشواق تلتهب عبر الهاتف، كان صوت عدنان وهو يقول لي:

- أبي، أنا في القطار، سأصل شتوتغارت في الثانية ظهرا على الرصيف رقم ١٠.

- سأكون هناك.

وانقطع الاتصال.

بدت رندة أكثر فرحا من ذي قبل، ورقص علي ومحمد، وابتسم إمام. عاد الماضي بأشواقه، عاد ببهجته التي غطاها غبار الحرب، كان قلبي يرقص فرحا، وكدت أصفق دون وعي.

قالت رندة وهي ترى الفرح في عيني:

- منذ زمن بعيد لم أر الفرح في عينيك.

كادت دمعة تطفر من عيني، نهضت رندة ولبست ثيابها على عجل وقالت:

- سأذهب للسوق وأشتري لعدنان الطعام الذي يحبه.

- وأنا سأكون في محطة القطارات المركزية عند الرصيف ١٠ قبل ساعتين، بل منذ الآن.

- لكن الجو بارد، ستصيبك نزلة برد.

- لن أعبأ بالبرد، حرارة الأشواق ستنسيني البرد، أنا في غاية السعادة.

وخرجت رندة.

جلس علي على ركبتي اليمنى ومحمد على اليسرى ووضعاً أيديهما خلف رقبتي، قال محمد:

- نسيت وجه أخي عدنان.
- كنت صغيرا حين سافر للدراسة.
وسأل علي:
- كيف هو؟
- شاب وسيم.
وضحكا، منذ جئنا لم نضحك من القلب.
جلست تحت شمس الهايم وتساءلت:
- هل غيرت السنون وجه عدنان؟! هل سأعرفه إذا رأيته.
وطردت الأسئلة من ذهني، وفجأة أطل وجه حنان قائلة بغضب وعتب:
- أين بدلة عرسي أيها الكاذب؟
قلت على الفور ودون تفكير:
- ها هي في الغرفة.
شدتني من يدي:
- هيا نراها.
جاءت جدتها راكضة ولاهثة.
- أنت هنا، تعبت وأنا أبحث عنك.
- أنا لا أريدك، أريد عرسي.
وسحبتهما من يدها بكل قوتها دون أن تنظر إليّ.
لم أستطع فعل شيء، اختفيت عن أنظار حنان وجدتها، كان صوت القطارات تطرق مسامعي، متى أراه على الرصيف ١٠، متى أحضننه، متى أقبله، يبدو أنه أصبح رجلا مكتملا، وأنا الذي أراه مازال صغيرا، كان صراخ حنان ما يزال يطرق مسامعي، اختلط فرحي بعدنان بحزني على حنان؛ لو قتلته تلك الرصاصة لكان خيرا لها، الحرب لا تقتل فقط بل تعذب وتشوه.

توقفت في زاوية الهايم، قبل أن أدخل غرفتي، جاءت رندة وهي تحمل كيسين من الأغذية، نظرت إليّ بدهشة وفزع:

- ماذا حدث لعدنان؟

- لم يحدث شيء.

- لماذا وجهك شاحب ويداك ترتعشان؟

- لا أدري، قلت إن الوقت مبكر، ولكنني سأذهب الآن.

وخرجت مسرعا من الهايم وسمعتها تقول:

دعني أسمع صوته حين تلتقيان.

اختلط صوتها بصوت صراخ حنان، بصوت الأوبان القريب، بخطواتي الخارجة من الهايم، كانت هناك سيمفونية من نوع آخر، سيمفونية الحياة والفرح والحزن والألم والعذاب.

لم أعد أسمع شيئا، سوى تلك السيمفونية، فيها جبال خضراء، وسهول منبسطة، وشمس حارقة، ومطر كالدموع، فيها عواصف، وبحر هائج، ووحوش مفترسة، ونساء جميلات، وشياطين لهم قرون.

كان الأوبان يقترب، من المحطة الرئيسية في شتوتغارت، وكلما اقترب ازداد نبضي تسارعا، أحسست المسافة بعيدة رغم قربها.

إنني ارتجف، هل يرتجف أيضا عدنان، إنه اللقاء الذي لن أنساه طوال حياتي، لقاء يختصر الزمن والمسافة، لقاء لا فراق بعده، صعدت الدرج الكهربائي الخطى ثم نزلت، لم أعد أعرف اتجاهاتي، لم يتبق على وصول القطار سوى عشرين دقيقة، خشيت وصول القطار دون أن أكون في انتظار عدنان، سألت عجوزا، فأشار إلى درج كهربائي كنت أقف إلى جانبه، ضحكت من نفسي، لم أنتظر الدرج الكهربائي ليوصلني، قفزت فوق درجاته، وركضت الممر الفاصل الطويل المؤدي إلى أرضة الأوسبان، أحسست أن الزمن توقف، وأنا أسير وأسير، هذا الممر الفاصل هو، الفاصل ما بين زمن وزمن، ما بين مكان ومكان، ما بين سماء وأرض.

هذا الممر يبدأ بعد خطواتي، وأنفاسي، ودقات قلبي، وهفتي، واصطخاب أفكاري، إنه السيمفونية التي سمعتها من تلك الصبية أمام متحف شتوتغارت، لم يعد الممر يختصر المسافة، بل أطالها، أطال اللهفة، أطال الشوق، إنه يقربني ويبعدني في آن، يقربني من الرصيف ١٠ لكنه يبعدني حين يتأخر العناق، حين تنفتح الأيدي للقاء فلا تجد سوى السراب.

كنت أمام الرصيف ١٠ لكنني لم أعد أعرف قراءة الأرقام اللاتينية، كأني في حضانة الحياة، سألت رجلا عند الرصيف رقم ١٠ فأشار إلى لوحة فوق رأسي، وسار في طريقه، ضحكت على نفسي مرة أخرى، القطار لم يصل بعد، كان هناك كرسي فارغ لكنني لم أجلس رغم تعبي، بعد العناق يأتي التعب، ترتخي المفاصل، وتنزل الدموع، ويدق القلب سريعا، بعد العناق، يتلاشى المكان والزمان، بعد العناق نقنع أنفسنا بجدوى الحياة، بجدوى الحب، بجدوى الفرح، بعد العناق، تصغر المسافات، وتتلاشى الأشياء، بعد العناق، هناك سيمفونية من نوع آخر، لم يكتبها إلا عابرة الموسيقى، بعد العناق، تبدأ الذكريات الملائى بالدموع، سيبدأ الضحك المليء بالفرح، تبدأ كلمات الفرح، وتبدأ كلمات الحزن، بعد العناق، تنفتح الذاكرة، تخرج الشمس من بين الغيوم، وتخضر الأشجار فرحا، ويضحك الناس، كما الشمس والأشجار والغيوم البيضاء.

لمحت قطارا من بعيد، سيدخل الرصيف ١٠، تابعت به بجوارحي، بكل خلية في جسدي، كان يقترب وكنت أقترب، لحظات اقترابه كأنها دهور، سيتم العناق حتما، وتنطفئ اللوعة، لوعة الفراق والحزن والبعد، سيتم الأشياء كما تخيلتها، لكن القطار مازال يقترب، سمعت دقات قلبي تطغى على أصوات القطارات، كانت عيناى على القطار القادم، في داخله عدنان الذي لم أره منذ خمس سنوات، هل تغير أم أنا الذي تغيرت، كأن القطار يقترب من دون أن يقترب، وسأبقى أنتظر.

ما لهذا القطار لا يقترب؟! أمتار قليلة تفصلني عن عدنان، دخل القطار أعماقي، مشى على سكة روحي، سار في دوري الدموية، عبر شراييني، لكنه لم يتوقف، توقف أيها القطار، أحسست بالضعف، ارتخت

مفاصلي، القطار مازال يسير في دمي، على سكة روحي، في أعماقي المظلمة والحزينة.

أحسست أنني لا أستطيع الوقوف أو الجلوس، سيراني عدنان من بين جميع الناس، سيعرف وجهي وسأعرف خطواته، القطار على بعد خطوات مني، لكنه لم يصل، ولا أدرك أي شيء، كانت عيناى معلقتين على القطار الذي يسير دون أن يسير، الذي يقترب دون أن يقترب.

في تلك اللحظات التي لا أنساها أحسست بذهاب قطار عمري، أحسست بدنو الأجل، عندئذ، وقف القطار إلى جانب الرصيف، جانبي، وهدأت محركاته، كأنه خرج من دمي، أحسست بسخونته تلفح وجهي، لم تنفتح الأبواب بعد، كنت أنظر إلى أبوابه المتعددة على طوله الكبير، هناك في نهايته أخذ الناس يتدفقون من أبوابه كأمواج البحر، كيف أرى عدنان، هناك أم هنا، كانت عيناى تدوران في جميع الاتجاهات، بينما الناس يتكاثرون، ينسون الاتجاهات، يسرون نحوي، وجوه لا أعرفها، وجوه تمر سريعا مثل حلم، أريد وجهها واحدا؛ وجه عدنان، صرت أركض على الرصيف، من أول القطار إلى آخره لأرى ذلك الوجه، كنت أركض ضد تيار الناس الذين نزلوا من القطار، وأنا أنظر إلى الوجوه، لم أكن أعي شيئا في تلك اللحظات، كانت الوجوه متشابهة إلى حد بعيد، كانت خطواتي مضطربة إلى حد بعيد، كانت أنفاسي متلاحقة إلى حد بعيد، وكان قلبي متسارع النبض إلى حد بعيد.

أين وجهك يا عدنان؟! هيا، دعني أراه، لقد تعبت.

كنت حائرا بين الوجوه المتكاثرة المقبلة نحوي، وبين الأقدام المدبرة عني، كانوا يتحاشون الاصطدام بي، ثم ينظرون إليّ بشيء من الغضب، أحسست أنني تائه في صحراء الوجوه التي لا أعرفها، وكنت أبحث عن وجهه لم أراه بعد.

أمسكتني يدان من الخلف، في البداية فزعت، لكنني، بعد لحظات، شممت رائحة تلك اليدين، احتضنتني اليدان، أخذت الصحراء تبتعد، إنه عدنان، لكنني لم ألتفت حتى لا يصيبني إحباط، استدارت اليدان، وكان وجه عدنان أمامي، لم أصدق، نظرت إليه لبرهة، كان وجهها متعباً، وشعر ذقنه طويلاً، وعيناه حمراوان، قبلني وأنا ذاهل، لم أصدق، وحين أفقت من ذهولي قبلته بغزارة مع دموعي دون أن أتكلم.

قال بصوت حنون:

- لا تبك يا أبي.

- ظننت أنني سأموت قبل أن أراك.

- لن أتركك.

- كنت أريد استقبالك في بيتنا لكنها الحرب الملعونة.

- هذا قدرنا.

كانت ليلة فارقة ما بين الحياة والموت، تدفقت العواطف في تلك الليلة، تدفقت ما بين عدنان وبينني، ما بين عدنان وأمه، ما بين عدنان وأخويه الصغيرين، ما بين عدنان وإمام، ما بين عدنان وسامر الذي حضر مسرعاً.

كانت ليلة مشعة بالعواطف، مشعة بحب قديم، خرج إلى الحياة من جديد، وهل هناك أجمل من أن يعود الحب القديم، كان عدنان هادئاً كعادته، لكنه يغلي من الداخل، قدماه تقرحتا من السير أربعة أيام في الجبال، قال:

- نصعد جبالا وننزل جبالا، نرتاح لدقائق، ثم نسير ليل نهار.
أضاف وعيناه تلمعان حزنا وفرحا في آن:
- اشتريت أربع علب من مشروب الطاقة، وفرغتها في زجاجة، كي لا
أنام، لم أعد أشعر بقدمي، كما لم أعد أشعر بالنعاس.
- كانت رندة تبكي بصمت، وهي تقبل عدنان ما بين الحين والآخر،
وكأنها لا تصدق أنه أمامها، تساءل عدنان غاضبا:
- هذا زمن الحروب والهروب، لم حدث هذا؟، لماذا انقلب البشر إلى
عصر ما قبل التاريخ.
- قلت له وقد طفرت دموعان من عيني:
- هذا ما كتبه في الرواية، عاد الناس إلى العصر الحجري، لكن الفرق
أن سلاحهم صار أكثر فتكا، وصار الحزن أكبر، وصار الهروب أكثر.
- لم نشعر بالوقت ونحن نتحدث، قلت لعدنان:
- أقصى ما يصل إليه خيالك من أحزان تبدت في هذه الحرب،
هروب، تشرد، تقطيع أعضاء، تقطيع رؤوس، تيتيم، ترميل، عصاب،
ذهان، استغلال، بيع أعضاء، أمراض نفسية، كأن هذه الحرب اختصرت
كل الحروب.
- هذه الحرب هي بداية الحروب ونهايتها.
- حين ينهار المجتمع فجأة هذا يعني أنه منهار من أساسه، لكنه
مطلي بقشرة رقيقة.
- هنالك مجتمعات تبدو لك منهارة، لكنها متماسكة من الداخل، لا
تستطيع المؤامرات والأعاصير هدمها.
- لكن أدوار المجتمعات تختلف، هنالك مجتمعات سريعة الانهيار،
وهنالك مجتمعات تقاوم الانهيار.
- هذا هو الفرق بين الحضارة والهمجية، الحضارة داخل النفوس
وليس في أشكال الأبنية ومفاخر الطعام والشراب، والسيارات الفارهة،

إذا كانت النفوس ضعيفة كان الانهيار أكبر، وكلما تحصنت النفوس كان الخطر أقل.

- أي، نحن لا نعيش في جزيرة بعيدة عن المجتمعات الأخرى، هي تؤثر فينا، لكننا لا نؤثر فيهم، لأننا لسنا رقباً صعباً في المجتمعات الحضارية.

- نحن من جعل تلك الحضارات تلعب بنا، الفساد نخر عظامنا، الخوف نخر نفوسنا، الفقر أتعبنا، التخلف طغى علينا، لهذا كنا مجتمعاً رخوا.

- نحن لا تنطبق علينا كلمة مجتمع، تنطبق علينا كلمة قبائل شتى، متخمة بالمال، لكن هذا المال يعاد إلينا سلاحاً وموتاً وحبوباً مخدرة، ونساء غانيات، وبرامج تلفزيونية مدمرة.

لم أعد أستطيع الكلام بعد هذا، أردت أن أبكي، أردت أن أنفجر، كان دمي يبكي، كانت عظامي تبكي.

الطريق مسدود.

- ما بك يا أبي؟

- أنا حزين حتى العظم.

نام علي على يد عدنان اليمنى ومحمد على يده اليسرى، أرادت رندة إبعادهما، فهمس عدنان:

- دعيهما، أنا سعيد بهما سعادة لا توصف.

قاربت الساعة الثالثة صباحاً ولم نشعر بالنعاس، سألت عدنان:

- لماذا توقف عملك في المستودعات؟

- الحرب زحفت نحو أوكرانيا مثل سوريا، أفلس صاحب المليارات، مالك المستودعات، وصفى عمله ولم يعد هناك استيراد ولا تصدير، الحرب تآكل كل شيء، قتلى الحرب ليس أجساد الناس فقط، بل جيوبهم.

- أصحاب معامل السلاح هم شياطين العصر، من أجل جيوبهم يقتلون الناس، ويشردون البشر، يفعلون ما لا يخطر على بال إبليس.

- أعرف كثيرين تركوا دراستهم، عاد بعضهم إلى سوريا قتلوا أو تشردوا، والآخرين هربوا إلى أوروبا.

- إنها الحرب الخبيثة.

لم ننم حتى الصباح، الأحزان تتوالد، الأحزان تأخذك من قصة إلى أخرى، وكأنّ الحزن الواحد يصبح شخصاً له أبناء وأحفاد.

تمددت على الفراش، وتمدد عدنان إلى جانبي، ابتسمت فابتسم، قلت:

- لا أصدق أنك إلى جانبي.

كانت عينا رندة تضحكان رغم حزنهما، وكانت عينا إمام تشعان وهو يدخل في سريره العلوي.

غفوت، رأيت نفسي أسبح في بركة مع تمساح كبير، لم أشعر بالخوف، كان يداعبني، يحملني على ظهره، ويتجه سريعاً إلى نهاية البركة ثم يعود، فجأة ظهرت جليلة أختي قرب البركة، عيناها تشعان ضوءاً أحمر، وأسنانها بارزة، وكأنها مصاص دماء، أشارت للتمساح فأطاعها، همست في أذنه كلمات قليلة ثم اختفت، اقترب مني التمساح، فتح فمه، بانت أسنانه الحادة، حسبته يداعبني، اقترب مني، شعت عيناه ضوءاً أحمر كعيني جليلة، ابتعدت خائفاً، وفي لحظات اقترب مني، وضع جسدي داخل فمه وأطبق فكيه، كان رأسي ما يزال في الخارج، وكنت أصرخ مستغيثاً، هزني عدنان وأنا مازالت أصرخ، فتحت عيني، كانت عظامي تؤلمني.

قلت وأنا أنظر إلى عدنان:

- إنه كابوس.

- هل يأتيك دائماً؟

- أحياناً.

- الكابوس نفسه.

- لا أدري، شبيه به.

كان هناك شخص يقترب من الباب الزجاجي، ثم ظهرت حنان،
ألصقت وجهها بالباب الزجاجي، وفتحت عينيها، وصارت تدق على
الزجاج، وهي تصرخ:

- اخرج أيها الكاذب.

سألني عدنان:

- من هذه؟!!

- صبية مختلة، رصاصه الحرب مازالت في رأسها.

أخذت حنان تدفع الزجاج بيديها وقدميها، خشي عدنان أن ينكسر،
فتح لها، دخلت وتوقفت فوق رأسي، غاضبة منكسرة وهي تتنفس
بصعوبة.

- لماذا كذبت عليّ؟

سألت رنده:

- صبحي، ما المشكلة؟!!

- كنت أجلس في الحديقة فظنت أني عريسها.

ضحكت رنده:

- هي تقارب عمر ابنتك منار.

ضحك عدنان وجلب لها كرسيًا، وقال لها:

- سأشرب الشاي معك.

ابتسمت، وكانت رنده تنظر إليها بحزن.

بعد أن شربت حنان الشاي، نامت على الكرسي كطفل صغير، آثار
الرصاصه في رأسها انكشفت، كان هناك ورم جانب رأسها، وظهرت
جدتها كالمجنونة في الخارج تبحث عنها.

مددتها رنده على سريرها وغطتها، تجاوزت جدتها باب غرفتي،
خرجت وناديت عليها، قالت بغضب:

- هي عندك إذن.

دخلت ملهوفة، وجدت رنده وابني عدنان ووجدت حنان نائمة، نظرت إليّ بعينين آسفيتين، أدت وجهي كي لا يمتد أسفها إلى ندم، قلت:

- هذه جدتها، لم يتبق لها في الحياة غيرها.

قالت بحزن:

- أنا أحيا من أجل هذه المريضة.

قالت رنده:

- كلنا نعاني يا خالة.

قال عدنان وهو يضع كأس الشاي أمام جدتها:

- أنا ابن العريس.

ضحكوا جميعا، امتدت أحاديثنا عن الحرب والهروب، وأخيرا نهضت جدة حنان لتوقظها، هزتها، ارتمى رأس حنان إلى جانب الوسادة، كان هناك خيط من الدم على الوسادة، اجتاح القلق قسما وجه جدتها.

صرخت دون وعي:

- حنان، انهضي.

وضعت يدي على نبضها. كان متوقفا، نظرت إليّ جدتها وقالت بحزن:

- ماتت.

كان صمتي أبلغ رد، عندئذ، احتضنت الجدة حنان وصارت تهزها وهي تبكي:

- حنان، لا تتركيني، أنا أعيش من أجلك.

وتركتها وصارت تضرب وجهها بكلتا يديها، أمسك عدنان يدي الجدة، لأن أظافرها جعلت الدم يسيل غزيرا من وجهها، كانت رنده تبكي دون أن تستطيع فعل شيء، نهض علي ومحمد واحتميا بأמהما، خرجت الجدة وهي تصرخ بأعلى صوتها:

- ماتت حنان.

اتصل سامر بالإسعاف، جاؤوا بعد عشر دقائق، وجدوها ميتة وحملوها نحو السيارة مغطاة الوجه، صعدت جدتها السيارة وهي تزحف. قلت:

- الحرب قتلتها حتى هنا.

لم ننم تلك الليلة، كانت حنان صبية جميلة، تحلم بزواج وأطفال وبيت سعيد، لكن رصاص الحرب قضى على أحلامها. لماذا تكون أحلامنا رهنا لصناع الموت؟! لماذا نحلم إذا كنا لا نستطيع تحقيق أحلامنا؟!

لم تعتد بحلمها على الآخرين، كان من حقها أن تعيش كأى فتاة، أن تلد الأطفال وتبني بيتا، لم تحلم بتدمير بيوت الآخرين، لم تحلم بقطع الرؤوس، لم تحلم بأكل الأكباد، لم تحلم بإلقاء براميل متفجرة، لم ولم ولم، كانت وردة قطفت قبل أوانها، كانت حلما جميلا، حملت الرصاصة في رأسها، وعبرت الجبال، ونامت في الطين.

كنت في أقصى حالات الحزن، أحس بي عدنان فوضع كأس شاي ساخن أمامي وقال:

- أما زلت على عادتك تحب الشاي صباحا.

- ما زلت كما أنا.

- السنون تغير طبائع الإنسان، وكذلك الأزمات، أعرف طالبا في أوكرانيا، كان يحب الحياة، وكان يحلم كثيرا، كان يحدثني عن خططه المستقبلية كثيرا، وبسبب الحرب لم يعد أهله يرسلون له المال اللازم لإكمال دراسته، وفي ذات صباح، انتشلوه من النهر الذي يمر قرب خاركوف جثة هامدة.

- كم حصدت هذه الحرب أحلام الناس، لم تكتف بحصد أرواحهم وممتلكاتهم، بل فجرت أعماقهم من الداخل.

صمت قليلا ثم قلت:

- لو كان هناك شخص خصب الخيال لما استطاع خياله الوصول إلى خمس أو عشر ما أحدثته الحرب من مآسٍ، أحيانا الواقع يسبق الخيال.
- أبي، لو رأيت المهاجرين على حدود النمسا يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، لم يغتسلوا منذ زمن، لكنهم كانوا في منتهى السعادة لأنهم تركوا الحرب، كانت تلك المحطة رغم قذارتها واحة جميلة بالنسبة لهم.

بعد أيام قلت لعدنان:

- لا بد أن تسلم نفسك في أحد المراكز لتصبح إقامتك شرعية.
- أنا الآن غير شرعي كيف سأصبح شرعيا.
قال ساخرا.

قلت بعد قليل:

- أنا حزين على فراقك من جديد، لكن لا بد من ذلك.
فتحنا التلفاز، كان الناس يتدفقون من سوريا والعراق عبر تركيا ثم يصلون إلى اليونان عبر القوارب المطاطية، يغرق من يغرق وينجو من ينجو، وهناك طرق أخرى مشيا على الأقدام عبر صربيا وبلغاريا.
قلت:

- لم يحدث مثل ذلك في التاريخ كله، الذين صبروا على أهوال الحرب لم يعد بمقدورهم الصبر.
قال عدنان:

- حظي سيئ، الآن تصبح الأمور بالنسبة للمهاجرين أسوأ.
- حين تركنا سوريا تخلينا عن الحظ، أو أن الحظ تخلى عنا.
بكت رندة بصمت.

قال عدنان:

- دائماً نتجه نحو الحزن.

- الحرب حطمت فرحنا.

قال عدنان:

- غدا سأسلم نفسي في كرلسروه أو ألب شتات، لكن أخشى أن
يفرزوني بعيداً عنكم.

- سنتنضم إلينا أخيراً.

وصممتنا جميعاً بفكر بال لحظة، كان هناك فراق آخر، بدا عليّ الحزن
ونحن نشرب القهوة قبل انطلاقنا إلى محطة القطارات المركزية لأوصل
عدنان ليستقل القطار إلى ألب شتات.

قال عدنان وقد أحسّ بحزني:

- أنا الآن إنسان غير شرعي ألا تريد أن أصبح شرعياً.

ضحكت رندة من خلال الدموع في عينيها، وضحك ضحكا حزينا،
ضحكا أشبه بالبكاء.

قال عدنان:

- مليون مهاجر دخل ألمانيا، عددهم بعدد سكان اليرموك المكتظ،
وقرأت أنهم يقيمون خياماً ضخمة لإيوائهم أو في الصالات الرياضية.

- هجرتهم الحرب أخيراً لأنها لم تعد حرباً أخلاقية.

ومثلما استقبلته ودعته، وعندئذ أحسست بالضيق.

سيعاني مثلما عانينا، من اتساخ الحمامات، والنوم مع آخرين،
والوقوف في صف المطعم، والإدارة للتصوير أو الانتظار لأخذ صورة
شعاعية لصدره.

هذه الحرب أتعبتنا، ألم يتعبوا من القتل والتدمير، هناك موت وهنا
ذل، هناك جوع وهنا شبع، قال لي عدنان قبل أن يركب القطار:

- أبي، أدع لي.

قبلته وبكيت، وحين سار القطار بكيت مرة أخرى، بكيت حتى لن يعد يتبقى لي دموع، أحسست أن عدنان يبكي معي، المقهورون جميعاً يكون معي، ابكوا معي، فلم يعد لدينا غير الدموع، لم يعد لدينا سوى الحزن، نسير من فراق إلى آخر ومن حزن إلى آخر، ومن ذل إلى آخر، لم تعد هناك بارقة أمل لتتوقف هذه الحرب المجنونة، ابكوا على الأموات، على الأرامل، على الأيتام، ابكوا، ولييك العالم جميعه معكم، فلا شيء يغسل الحزن سوى الدموع.

حين وصلت إلى الهائم، قالت رنده:

- إلى متى نبكي؟

أفرغت حزني في سطور الرواية، حزن ليس كالأحزان، حزن يرمي الروح إلى أعماق الأرض، ثم يصعد بها إلى أعالي السماء، لم أدر كم مرَّ عليَّ من الساعات وأنا أكتب، وأنا أفرغ حزني على الورق، جلست رنده تلوك أحزانها صامتة، قالت:

- اتصل بعدنان.

- لم يصل بعد.

وتابعت الكتابة، توقفت مرات عديدة وأنا ألثث كأنني أصعد جبلاً، لم يعد القلم يحمل حزني فانكسر، بحثت عن آخر فلم أجده، توقفت عن الكتابة لكن الحزن لم يتوقف، حاولت الخروج لكن قدمي لم تطاوعاني، بقيت جالسا، صامتا، يائسا، كانت الكلمات الحزينة أمامي تضيء نفسها، تدعوني إلى قراءتها، قرأتها مرات ومرات، عاد حزن من نوع آخر، نوع لا وصف له، حين تكتب الحزن تشعر بشيء غير عادي، وحين تقرأه تشعر بشيء مختلف، هل تختلف الأحزان بين الشعور والوصف.

بعد أيام نقلوا عدنان إلى دور تموند، ابتعد كثيراً مع أننا كنا نريد أن يقترب، نقلوه إلى ساحة ملعب حشروا فيه المهاجرين، بدا حزيناً ومتوتراً وهو يقول:

- سأعود إلى أوكرانيا لأطيق العيش هنا.

عادت الأحزان تناوش قلوبنا المعذبة.

أخذت رندة الهاتف وقالت له بعفوية وصرامة:

- إذا عدت إلى هناك سيعيدونك إلى سوريا، سوريا الآن ليست كما كانت من قبل، زوج أختي يملك كازية وليس عندهم مدفأة، يستدفئون بالبطانيات، ويستمعون إلى نغمات الرصاص والقذائف وأزيز الطائرات، والخوف يأكلهم.

حين انقطع الخط أمسكت يدها وقبلتها وقلت:

- أنا أستمّد القوة منك.

- يكفينّا أحزاننا.

- شبعنا حزنا، شبعنا بكاء، لم يعد هناك متسع.

تزامحت الأفكار في رأسي، فتحت الكراسي لأكتب، نسيت نفسي وأنا أكتب.

حلّ المساء وأنا أكتب.

- صبحي، انهض. الطعام برد.

كنت أكمل روايتي وأنا نائم، حاولت استعادة تلك الأفكار، كانت أفكارا رائعة وصورا جميلة، كنت أكتب عن الفرح لاعن الحزن، فرحنا لا يأتي إلا في أحلامنا، أريد استعادة الفرح.

قالت رندة:

- ألا تريد أن تأكل؟

لبست معطفي وخرجت، كنت أريد البحث عن تلك الكلمات الضائعة، لكنها بعيدة عني بعد تلك النجوم المتلاثلة، مشيت في شوارع مظلمة باردة، مثل حلمي تماما، كان لدي شعور أن كلمات الفرح التي أبحث عنها كانت تضيء تلك العتمة.

من خلال الظلمة نتعرف على النور، ومن خلال الحزن نتعرف على الفرح، ذلك الظلام كان يضيء في نفسي الفرح، كأنني أسير نحو

- لا، ولكن.
- الذي ينسى ليس حيا.
- كانت الشمس قد لونت العشب بضياءها، كنت أرغب في الجلوس على العشب مع الحمام، أضحك، أنسى، أغير اسمي، أغير لهجتي، وأغير شكلي. كنت مأخوذا بهذا المنظر، قلت:
- كأس آخر من الشاي سأشربه على العشب.
- خرجت وقفت على العشب، طار بعض الحمام وبقي آخرون، تأملتهم، تأملت نفسي، يعيشون من أجل الطعام، وأنا أعيش من أجل الأمان، وضعت رندة كرسيين على العشب وجلست قبالتها.
- أشعر أنني أريد الكتابة في الرواية لأنها.
- أصبحت الرواية همك الوحيد.
- أريد أن أنهيا وهي تدفعني إلى التريث، هنالك أفكار لم أقلها بعد، أفكار عن الحرب، عني، عنكم، عن كل ماجرى، أريد أن تكون رواية عظيمة .
- لم تكن تقول ذلك عن رواياتك السابقة.
- رواياتي السابقة كتبتها في السلم، إنها طعم آخر.
- كأنك لم تكتب سواها.
- إنها خاتمة رواياتي، لن أكتب بعدها، سأكسر قلمي وأعيش على هامش الحياة.
- صبحي، أنت تغيرت.
- أنا لم أعد أملك نفسي.
- كيف؟
- لا أدري، أنا أعرف إحساسي.

في اليوم التالي، ركبت سيارة من موقع (بلا بلا) إلى فيسبادن عاصمة الأنافة، حيث تقيم ابنتي منار مع أولادها، بعد أن دبّ الخلاف بينها وبين زوجها مرة أخرى، كان المساء جميلاً بسمائه وأرضه، بسياراته الأنيقة المسرعة على الطريق، وصوت ساحر لمغنية أجنبية من خلال إذاعة السيارة، كنت في عالم آخر.

كانت رندة صامتة إلى جانبي، كنت أحس أنني بلا روح، أفرغت شحنة نفسي على ورق الرواية هذا الصباح، كانت الأحداث قد بدأت تميل إلى النهاية، نهاية ليست كالنهايات، نهاية ضياع، جذوة أمل، أحلام مبتورة، بقايا موت حنين وحنان، بقايا الصحراء، وبقايا البحر، وبقايا نفسي .

منذ بدأت الكتابة كنت أكره النهايات، أترك النهاية مفتوحة على كافة الاحتمالات، واليوم، لا أدري، هل تقودني الرواية إلى نهايتي، أم أن الاحتمالات ستبقى مفتوحة؟!

كنت أحب النساء والقلم كثيراً، والآن أحب الموت أكثر، لا أدري لم غزاني هذا الإحساس، بينما السيارة تنهب الأوتستراد.

كأنها تأخذني إلى نهايتي، نهاية مغلقة أم مفتوحة لا يهم.

وضعت رندة يدها على كفي وهمست:

- فيم تفكر؟

لم أجب.

كنت أحب أن أبقى في تلك المناهات الفكرية القاسية، ابتسمت كي لا أبقى جافاً مع رنده، ردت لي الابتسامة، وتركتني في تلك المناهات، كان نهر من أضواء السيارات في الاتجاه المقابل على الأوتستراد، وكان نهر من الدماء من جهتي يتجه إلى أمكنة متعددة، لهم الضوء ولي الدماء، أحس دمي يسيل، دم أولادي، دم زوجتي، دم أبي وأمي، دم أجدادي، الدماء والبكاء يتآلفان، تأخذني موجة من الحزن الشديد لا أستطيع التنفس، أفتح نافذة السيارة، يدخل تيار بارد، يعيد لي وعيي، يتجمد وجهي، أغلق النافذة، سألت رنده بقلق:

- ما بك؟

- لا شيء.

وعدت إلى الأضواء وأنهار الدماء، عدت إلى العدم، تساءلت بين الوعي واللاوعي، لماذا تركت ابنتي زوجها في هذه الظروف الصعبة، ظروف المكان البعيد، ظروف الضباب، دمعت عيني، أدت وجهي كيلا ترى رنده دموعي، وضعت يدها على يدي وقالت:

- لم تبك يا صبحي؟!

لم أجب، كأنني كنت في عالم آخر، أسير مع أنهار الدماء، يختلط الطين بالدم، تنطبق الأرض على السماء، الانفجارات في داخلي تتلاحق، كتيبي طارت في الهواء، الأوراق غطت الكرة الأرضية، دفاتري تمزقت، أحلامي تناثرت، لم يعد لي شيء، لم يعد لي كيان، تهدل وجهي، هزنتي رنده بخوف:

- ماذا حدث لك؟

نظرت إليها وكأنني أنظر إلى شخص لا أعرفه، لم أستطع الكلام، هزنتي مرة أخرى:

- تكلم يا صبحي.

كانت أضواء السيارات تعكس على وجهي أشباحاً مختلفة الأشكال، أردت الكلام فلم أستطع، صرخت رنده:

- صبحي. صبحي.

كأنها أنهضتني من نوم استمر سنوات، نظرت إليها، تحركت يداي،
تحركت شفتاي.

- لماذا تصرخين؟

- حسبتك متّ.

- الميت لا يتألم، هكذا قال أبي.

حبست دموعها في مآقيها، كنت أسمع صوت تنفسها المقهور.

وصلنا ليلا إلى مدينة فيسبادن، مدينة الأناقة والمسارح والملهى الليلي
الأكبر في أوربا، استقبلنا عدنان، وكان قد سبقنا إلى بيت أخته، كان كئيبا
حزينا هو الآخر، نظرت إليه فأدار وجهه.

- كما قلت لكم، أسكن الآن مع مهاجرين آخرين في حاويات حديدية،
أنا نادم لأنني جئت إلى هنا.

- سنتجح هنا كما لم ينجح شخص آخر.

كانت كولن المدينة التي يسكن فيها تقع في منتصف المسافة ما بين
فيسبادن وشتوتغارت.

احتضنته أمه وقبلته بحرارة وسألته:

- كيف هي منار؟

- كئيبة.

- لماذا تركت زوجها؟

- لم تعد تطيق العيش معه.

قلت:

- إما الاكتئاب أو الزوج.

مشينا في شوارع فيسبادن، كان هواؤها منعشا، ولكن لم يكن فيها
قطارات لضيق شوارعها.

بالقرب من الملهى الكبير، قال عدنان:

- الأثرياء العرب تجدهم هنا.

وبالقرب منه مسرح كبير، كان يعرض مسرحية هاملت لشكسبير، خرج منه الجمهور، كان عددهم كبيرا، تفرجوا على قاتل الأب، ومعاناة الابن، تفرجوا على المكائد، وسمعوا جمل شكسبير المسبوكة بعناية فائقة.

فهاملت كما رأى ممدوح عدوان في إحدى مسرحياته التي عرضت على مسرح الحمراء بدمشق استيقظ متأخرا، وكأنه يخبرنا قبل زمن كبير أننا سنستيقظ متأخرين، لأن حربنا بدأت منذ زمن بعيد لكننا لم نكن نشعر بها، كانت عيوننا مفتوحة لكننا لم نكن نرى بها، كانت قلوبنا حية لكننا لم نشعر بأنها كانت ميتة في صدورنا، كانت مشاعرنا حميمية لكنها كانت مزيفة، كأننا لم نكن في عالم الواقع، كأننا كلنا هاملت المخدوع، مياه آسنة كانت تسير من تحتنا دون أن نشعر بها.

وصلنا ليلا، كانت علامات الاكتئاب واضحة على وجه ابنتي، قلت:

- لماذا تشعرين بالاكتئاب وأنت من قررت مصيرك.

- الآن انتقمت منه، كان يضربني كبهيمة، الآن كلت له الصاع صاعين.

هذه هي المياه الآسنة، في نفوسنا بداوة الصحراء، وحقد الجبال.

قلت:

- أخطأت في تربيتي.

قالت رنده:

- لم تخطيء، هي التي أخطأت.

بدا على وجه ابنتي شراسة لم أعهد لها من قبل، كانت متحفزة وقابلة للانفجار.

أخذت شام الصغيرة تغني لأبيها، بكيت بصمت وأنا أضع رأسي على الوسادة، فكرت بأخذها إلى أبيها ليراها، ليحضرها، قلت لابنتي في الصباح:

- الاستقلال المادي خرب البيوت في ألمانيا.

- ماذا تقصد؟
- أنت تعرفين قصدي.
- بدا وجهها أصفر كالأموات ثم انفجرت قائلة:
- أبي، لم يكن من السهل عليّ اتخاذ هذا القرار، أحسست أنني مهانة حتى العظم كلما كان يضربني كنت أبصق على نفسي.
- تأخرت كثيرا، كان الأجدر أن تنفصلي عنه هناك قبل أن يتربى أولادك دون أب.
- لم أعد أطيق رؤيته.
- استقلالك المادي هو الذي جعلك تطلين الطلاق.
- لكنني...
- ولم تكمل جملتها، انفجرت بالبكاء، ثم مسحت دموعها وقالت بتحدٍ:
- وليكن، المهم أنني انتقمته منه.
- وما ذنب الأولاد؟
- ليأخذهم إن أراد.
- لن تصبري على ذلك.
- أبي، أنت جئت لتعذبني فوق عذابي.
- الإنسان يصنع عذابه.
- أخذت تصرخ وتبكي وهي تقول:
- أنت لم تزوجني الشخص المناسب.
- أنا ماذا؟
- قالت رندة:
- صبحي يكفي.
- قلت:

- مهما تقولين فهو صحيح.

في هذه البلاد، لست أبا، لست إنسانا، أنا حشرة على جدار، أو دودة في طين الأرض، قولي ما تشائين، لكننا هنا جميعا نشبه بعضنا، مشاكلنا المتراكمة منذ سنوات نحلها هنا، نظن أننا حضاريون، لكن همجية الحرب علمتنا الكره لا الحب، علمتنا الأنانية.

وصمت، ثم بكيت أمام زوجتي وابنتي، بكيت كالنساء، بكت روحي، بكت مشاعري، بكى كل شيء فيّ، بكى الجميع وكأننا أمام طريق مسدود، لا نملك سوى البكاء، ولأننا شعوب بكاءة، نقتل ونبكي، نجرح الآخرين ونبكي، نسجن الآخرين ونبكي، نكره الآخرين ونبكي، نحقد على الآخرين ونبكي، ازدواجية الشخصية هي قوام حياتنا، نريد عذابنا بعد تعذيب الآخرين، إننا هكذا وسنبقى.

لم يدخل الفرع نفسي في مدينة الأناقة والثقافة، سرت في شوارعها حزينا تائها، هنالك مهاجرون كثر فيها، نظراتهم تائهة كنظراتي، وأرواحهم تائهة كروحي.

حين تترك مكانك الأول تصبح بلا مكان، خطري أن أسأل أحدهم:

- هل أنت مثلي؟

كيف لنا أن نصنع من هذه الأمكنة الغريبة أمكنة تدخل في أرواحنا، تتألف مع نفوسنا، وقفت أمام أكبر كازينو في أوروبا كانت بحرات العشب والماء في كل مكان، مكان ولا في الأحلام، وربض مبنى الكازينو الحجري، وكأنه قلعة من القلاع، أو قصر للملك عربي، رأيت وجوها عربية تدخل في سيارات فارهة إلى باحة الكازينو، إنهم أثرياء العرب، هنالك تقتل الأرواح، وهنا تقتل النفوس، لم يشعروا بالجلّاعين والمشردين والهاربين من الحرب في البر والبحر، إنهم بلا ملامح مثلنا تماما، إنهم أسرى نفوسهم المسجونة في أعماق الترف.

عدت خالي الوفاض من مدينة الأناقة والثقافة، كان النهار ملبدا بالغيوم، كنت أبحث عن الشمس من خلال طبقات الغيوم الكثيفة، قلت لرندة:

- ما رأيك؟

- الذي يعيش المشكلة هو أدري بها.

- لكن قلبي حزين وروحي أيضا، هنالك قسوتان: قسوة الغربة وقسوة فقدان الأب، أنا حزين من أجل الأولاد، قلت لك ذات مرة إن ابتكت مزاجية، والمزاج نوع من الجنون.

- كان من الأولى أن تتركه قبل أن تنجب.

- هنا لا يستطيع أن يمس شعرة منها، القانون لا يسمح، لكنها أرادت أن تنتقم من الماضي بعد أن استقلت ماديا، أعتقد أنها خسرت معنويا.

قاطعتني رندة:

- هنالك لم يكن بمقدورها فعل شيء.

- الاستطاعة تأتي من أعماق الإنسان.

- كلنا ندعي المعرفة لكن معرفتنا تبقى ناقصة.

- الانتقام هو الذي أوصلنا إلى تلك الحرب المجنونة، أعادنا إلى العصر الحجري، نحن أمة الانتقام منذ وجدنا على هذه الأرض، في أعماق نفوسنا حقد يظهر فجأة فيبيد الأخضر واليابس، لا نفكر إلا في أنفسنا، نحن مجتمعات هلامية، من الهرم الأصغر العائلة إلى الهرم الأكبر المجتمع.

صمتت رندة، رأيت دمتين تسقطان على خديها بصمت، أدارت وجهها ومسحتهما، كنت أحب أن أقول أكثر، لكنني صمت أيضا.

في اليوم التالي، قضيت النهار أكتب سطور الوجد، كان بي رغبة أن أنهي هذا الواقع، أن يقرأ الناس وجعنا، أن يلامسوا آلامنا، لكن وجعي زاد حين قال لي عدنان صباحا عبر الهاتف، إنهم وضعوه مع غيره من المهاجرين، في حاويات حديدية غير صالحة للسكن الآدمي، وأنه يعاني أكثر مما لو كان تحت قصف قنابل دمشق.

لم يكن أمام رندة سوى البكاء، ولم يكن أمامي إلا أن أعبر عن وجعي بالكلمات، كنت أسابق الزمن وأنا اكتب، بدت حنان ملاكا طاهرا، وبدت حنين شيطانا رجيمًا، وبدا علي ومحمد زهرتين في مهب الريح، وبدت رندة كتمثال الحرية، وبدا إمام كشيخ طاعن في السن، وبدا سامر مشروع إنسان يضع قدما في الشك وقدمًا في اليقين، وبدت منار امرأة غاضبة من كل شيء، أما أنا فبدت بلا ملامح، بلا ذاكرة، بلا مشاعر، بلا سماء وأرض، كنت إنسانا يعيش بنصفين، ذاكرته في دمشق وواقعه في ألمانيا، وبدا المهاجرون أمثالي، مثل دمي يحركهم الحنين والخوف والذكريات والدموع، بدونا خليطا من أناس لا يعرفون اتجاهاتهم، ولا يدركون رؤاهم، يعيشون الماضي والحاضر في اليوم آلاف المرات، يضحكون وهم يكون، يسرون وهم يقفون، يلبسون وهم عرايا.

ذهبت لجلب بريدي من إدارة الهايم، كان هناك شخص يصرخ وفي عينيه قهر لا حدود له، كان يتحدث العربية:

- أريد العودة إلى سوريا، أولادي هناك وأنا هنا، لم أستطع لم شملهم، الآن أوروبًا تخاف منا وكأننا داعش، أولادي هناك يخافون من القصف، وأنا هنا لا أستطيع فعل شيء لهم، صنعوا داعش ثم خافوا منها، مثلما صنع أحدهم تمثالا وبث فيه الروح فتمرد عليه، أريد أن أموت بين أطفال، لا حياة لي بدونهم.

وانهار على الأرض يبكي، أمسكت يده وبكيت معه، قلت له:

- المحامي هنا يحل مشكلتك.

مسح دموعه، كان ميخائيل ذاهلاً مما سمع، مع أنه لم يفهم كلمة واحدة.

قلت لميخائيل بلغة ألمانية مكسرة:

- هو مشتاق لأطفاله، ساعده من أجل لم شمله بهم.

هزَّ ميخائيل رأسه وجلس أمام الحاسوب ليكتب رسالة إلى السوسيال، كنت أراقب ذلك وكأنني أراقب نفسي.

في ذلك اليوم كنت على موعد مع مفاجأة أخرى، بالصدفة وقع تحت يديّ دفتر مذكرات ابني سامر، وصممني بالجنون واللامبالاة والأنانية، تساءلت، هل أنا كذلك، كنت أكنَّ له كل الحب والعطف، وكان يبادلني هذا العداء الخفي، إنه العداء نفسه من أودى بنا إلى تلك الحرب اللعينة، مشاعرك في اتجاه ومشاعر الآخرين في اتجاه آخر، هذا مايؤلم الروح قبل الجسد.

هل العداء الخفي يأتينا هكذا أو أننا نفكر به، ثم يظهر فجأة كوحش خرافي يقلب الموازين، يقلب النفوس ويدمي الأرواح، هو لن يبقى خفياً إلى الأبد، فكرت ان أفاتحه بالموضوع لأعرف مكن كرهه، لكنني تراجعته، فالعداء الخفي هو أصيل في النفوس، يندس بين الناس كألسنة الشياطين الحمراء، ويظهر فجأة حين يستوي في النفوس كثمرة خبيثة، إذن فنحن جميعاً على برميل من البارود، أنت تضحك والآخر يبذل الضحكة، ضحكة تخفي حقداً أسود، أحسست بالقهر والتعب، ربيته فوصممني بالجنون، هذه نهاية الدنيا السعيدة، هذه نهاية العالم، نهاية عالمي، عدت إلى الماضي، كانت ولادته عسيرة، قطعت دوامي في المدرسة يومها وعدت إلى البيت، جاءني هاجس يقول إن رندة بحاجة إليّ، وفعلاً كان.

نقلتها إلى مشفى التوليد، نزل سامر مقلوباً من رجليه وليس من رأسه، أحسست أن رندة سوف تموت بسبب هذه الولادة العسيرة، كأنني أستشرف هذا الموت الآن، ماتت جميع الأشياء في داخلي الآن، ماتت العواطف والمحبة، قتلها سامر بعدائه الخفي الذي أعلن عن نفسه، عبر كلمات كانت أقسى من الصخر.

الآن واجهت الحقيقة؛ حقيقة نفسي، وحقيقة الآخرين حولي، أقرب الناس وأعزهم، تصورت نفسي في صحراء قاحلة، أشعر بعطش شديد إلى الحب القديم، الآن، غاب هذا الحب، والآن الآخرون لم يعودوا هم الآخرين، قرأت صفحة نفسي قسوت على نفسي، أردت تدمير نفسي، وأنا أفكر بما حصل، بعدها بقيت يومين كاملين في الفراش دون طعام أو شراب، أحسست أن أجلي قد دنا دون أن أموت، كنت على وشك البكاء دون أن أبكي، كنت على حافة الهاوية دون أن أهوي، كانت الأشياء حولي حواف حادة قاطعة، أفق عليها، أتدلى منها دون أن أسقط.

قرأت مرة أن حالة الخوف هي نهاية العمر، قالت لي رنده:

- لم أرك ضعيفا مثلها الآن، كنت أستمّد منك القوة.

لم أخبرها ما قرأته من كلمات سامر، عندئذ سيزداد الماء الأبيض في عينيها.

- متى سنأخذ بطاقة الأوكا من أجل عملية عينك؟

- أنت تغير الحديث.

لم أجب، عادت وقالت:

- كنت تخبرني بكل شيء.

وقفت على الخوف مرة أخرى، كنت أحب أن أهوي وينتهي كل شيء، لكنني مازلت متأرجحا، بين الحياة والموت، نمت قليلا، رأيت نفسي وقد هويت، من قمة جبل مليء بالخوف الحادة، لم أصرخ وأنا أهوي، كنت سعيدا، كأنني أنتظر هذه اللحظة، وكأنني ذاهب إلى حقل مليء بالسعادة، ولم أدر أنني في المشفى إلا بعدما صحت.

كانت ممرضة شقراء كأنها حورية من الجنة تبسم في وجهي، أحسست أنني في عالم آخر، عادت كلمات سامر القاسية كالصخر تطرق تلافيف دماغي، كلما أردت نسيانها أتذكرها أكثر، لم أشعر بهذه القسوة وأنا في الصحراء اللبية، ولم أشعر بهذا الخوف وأنا في لج البحر، كانت كلماته أقسى من الصحراء والبحر، لو لم أعش لأقرأ هذه الكلمات لكان أسهل عليّ، أخذ جسدي يرتجف، لاحظت الممرضة ذلك، خرجت

مسرعة وجاءت بصحبة الطبيب، ويدها إبرة، فرغت سائلها في دمي.
قبل أن أهدأ وأنام، لمحت رندة مثل ضوء ينير عتمة حياتي، كانت
دموعها على خديها، ابتسمت رغم دموعها، لكن الكلمات القاسية غطت
على ابتسامتي، أخذ السائل يفعل فعله في جسدي، عدت إلى الحواف، ولم
أدر ما حدث بعدها.

كنت في حديقة عامة، رجال ونساء يجرون كلابهم، وعلى محيا كل
منهم ابتسامة رضا، تساءلت لماذا يهتم هؤلاء الناس بكلابهم ولا يهتمون
بأولادهم حين يكبرون، لقد عرفوا أعماق الإنسان، الكلب لا يعرف
سوى الطاعة والإنسان لا يعرف سوى الجحود، كانت رندة تنظر إليَّ
حين نزلت دموعي، قالت بحزن:

- ما بك؟! في الماضي لم تكن تحبني عني شيئاً.

- ليس في صالحك أن تعرفي.

- سنتقاسم الحزن معاً مثلما تقاسمنا الحياة.

- لكنني، لا أستطيع.

- حاول.

- لا أريد أن أزيد همومك.

كنت أنظر إليها وكأنني لم أعرفها من قبل، كنت أقف على الحواف
قبل النطق بكلمة واحدة، وكنت أحاول اختيار الكلمات التي تخفف من
حزنها وتبقي على حزني، لكنني قلت:

- لا أريدك أن تحزني.

مسحت على جبهتي بكفها الصغيرة، عندئذ، أخذت الحواف تتكسر،
رأيت نفسي أسير في أرض منبسطة، هواؤها عليل وسكونها جميل، قلت:
- يدك مسحت حزني.

قالت:

- كأنها يد حنين.

عادت الحواف، صرخت:

- لا، لا.

أبعدت يدها، عادت الحواف أقسى وأشد، عادت يدها إلى جبهتي،
اختفت الحواف، وعادت الأرض المنبسطة، قالت بوداعة:

- ستقول لي في النهاية.

- نعم، ولكن ليس الآن.

حاولت أن تبعد يدها قلت لها:

- دعيها، أرجوك.

كانت لمسة يدها بلسما لجراحي الخفية.

قلت لسامر ذات مرة:

- أنت تكرهني.

صمت ولم يرد، قلت له مرة أخرى:

- قل شيئاً.

قرأت في مذكراته، أن دموعي التي ذرفت عليها يوم سفره ليس حزناً
عليه، بل لأنني لن أستطيع بعد الآن التحكم بمصيره.

اليد الباردة التي سلّم بها عليّ حين غادر إلى تركيا ومنها إلى اليونان
فألمانيا أصبحت كالنار تأكل جسدي.

قلت لرندة:

- أريد أن أنسى.

- ماذا تريد أن تنسى؟

- كل شيء.

- انس ما يؤلمك فقط.

- ما يؤلمني هو الذي لن أنساه.

عادت الحواف الحادة، أسير عليها، يتشقق لحمي، ينزف دمي، لم تكن رندة إلى جانبي، أريد لمسة يدها حتى تختفي الحواف الحادة.

عادت رندة وقالت:

- كنت أغسل يديّ.

أخفت اللمسة الحواف الحادة، عاد الأمان، اختفت كلمات الجحود، اختفت اليد التي أحرقت جسدي، فتحت عينيّ، كانت رندة تردد أغنية قديمة وهي تمسح على شعري ووجهتي، كانت موسيقاها شجية كسيمفونية بيتهوفن، عادت موسيقا الصبية أمام متحف شتوتغارت، اختلطت الموسيقى بالأغنية، انتقلت إلى عالم آخر، ليس فيه حواف، ليس فيه خوف، ليس فيه كلمات جارحة، ليس فيه جحود، ليس فيه يد تحرقك حين تسلم عليك.

جاء الطبيب، فتح جفني، ابتسم وردد كلمتين:

- زير غود، أي ممتاز.

لم يعرف أنه لا الدواء ولا المشفى، هما اللذان حسنا حالتي، يد رندة وحدها هي التي أعادت إليّ الحياة، لمسة واحدة كانت أقوى من كل شيء. غادر الطبيب بعد أن كتب ملاحظته، لحقت به الممرضة، قالت رندة فرحة:

- الحمد لله، كنت خائفة.

- من الموت؟!

- بل من مرض مزمن.

- أتعرفين أن لمسة يدك هي أقوى من المشفى ومن أدوية العالم كله.

ابتسمت:

- أتمنح؟

- بل أقول الحقيقة.

استقبلني سامر بابتسامة باهتة، أما إمام فقد نظر إليّ دون أن يتكلم،
أما علي ومحمد فقد احتضناني وقبلاني، قلت لهما:

- الصغير يحب والديه.

قال علي بلهجة عاقل:

- حين نكبر سنحبك أكثر.

وقال محمد:

- ومن لا يحب والديه.

كانت عينا سامر خلال ذلك تدوران في محجريهما، وكأنه فهم شيئاً،
قالت رنده:

- اليوم سنحتفل بخروج أبيكما من المشفى، اطلبوا ما تشاؤون من الطعام.
أصبحت الحواف دبائيس تنغرز في جسدي، من باطن قدميَّ إلى قمة
رأسي، تعبت روحي، تمددت على السرير، أحسست أنني مت لوهلة،
رأيت الحواف تنغرز أكثر في جسدي، لم أتألم أبداً، كان هناك شيء آخر
أحس به، شيء يشبه تنميل الجسد، لم ينزف دمي، كأنني أصبحت بلا دم،
وكانت روحي معلقة فوق رأسي، تنوس كبندول الساعة.

الحواف تمزقني، وروحي تنوس أكثر فأكثر، إنها لعبة جديدة، إنها
عذاب جديد، أردت الخروج من هذه الحالة، لكنني لم أستطع، صرخت
رنده:

- صبحي، ماذا أصابك؟

فتحت عينيّ؛ كأنني كنت أغرق ثم طفوت على سطح الماء، قلت:

- الحواف تمزقني.

استغربت رنده جملتي:

أحسست أنني أهلوس، ابتسمت وقلت:

- ضعي يدك على رأسي.

وضعت يدها، ابتعدت الحواف الحادة، تتم سامر كلاما لم أفهمه،
انفجرت قائلاً:

- ماذا تقول؟

نظر إليّ بعينين حاقتين وقال:

- اسكت وإلا...

- أتهددني أيها الكلب.

لبس حذاءه وخرج، عادت الحواف الحادة أشد إيلا ما رغم وجود يد
رندة فوق جبهتي.

همست رندة:

- الآن عرفت كل شيء.

نهضت قويا.

- إلى أين؟

- عندي رغبة في الكتابة حتى الموت.

- لا تقل هذا، سأصنع لك الشاي.

فتحت دفثري وبدأت الكتابة، كانت الكلمات مثل الحواف الحادة،
مثل أنصال، مثل رصاص وقذائف، مثل براميل متفجرة.

أريد أن أنتهي من هذه الكلمات، صارت الكلمات عدوة لي، لم يعد لها
مذاق كالسابق، كنت أحتضن الكلمة التي أكتبها مثل أم تحتضن ابنها،
لكن الحرب بددت الكلمات الجميلة واستبدلتها بكلمات قاسية، هذه
الحرب جعلتنا نكره الأشياء بسرعة، لكنها لم تجعلنا نحب الأشياء بسرعة.

القلب لم يعد لك، مشاعرك لم تعد لك، حياتك لم تعد لك، إنها
مرهونة للريح السوداء.

كنت أسمع أنين القلم وأنا أكتب الكلمات القاسية، اقتربت مني رندة
وهمست:

- ماذا قال سامر؟
- لم يقل، بل كتب، عن جنوني وعن سن اليأس لديك.
- مجرد كلمات جامدة، قرَّغ مشاعره فيها.
- لا، إنها الحقيقة، أحسست أن هذه الكلمات من لحم ودم، رأيت فيها الدماء، ورأيت فيها الدموع، رأيت فيها الجحود، ورأيت فيها الكره.
- شاب طائش.
- الكلمات عاقلة، لكن الطيش في رؤوسنا.
- وضعت القلم وقلت لرندة:
- لم أكن أنوي إخبارك.
- يجب أن أعرف.
- ما الفرق؟
- فكرت قليلا ثم قالت:
- نعم، ما الفرق.
- أغلقت الدفتر، كان عليَّ أن أخرج لأتَنفَس هواء نقيًا، بعيدا عن الكلمات القاسية، بعيدا عن الكره المخفي، بعيدا عن الحزن.
- نهضت رندة وقالت:
- سأذهب معك.
- لم أقل شيئا، خرجت ولحقت بي.

سرنا بطيئاً تحت شمس شتوتغارت، كانت الحواف الحادة قد ابتعدت
عني حين أخرجت ما بداخلي، ابتسمت وأنا أنظر إلى رندة، قالت:

- يبدو أنك تعافيت.

- حين أكون معك.

- الجرح الذي يبقى في الداخل يجب أن يخرج، وإلا سيكون قاتلاً.

- ما قرأته كان كالحواف الحادة كأنصال السكاكين، تنغرز في باطن
قدمي، وكان عليّ أن أسير فوق تلك الأنصال، فيسيل دمي، أراه وهو
يسيل، وكان عليّ ألا أتوقف.

- لا تفكر بما قرأت.

- حاولت ففشلت، الكلام أصبح مطبوعاً في داخلي، في ذاكرتي، أردت
نسيانه بتذكر أشياء جميلة لكنه كان يغطي عليها، يزيحها كصخرة صماء،
تثقل ذاكرتي.

- الزمن كفيل بالنسيان.

قالت ذلك ولمست كفي فهدأت نفسي.

- ليس الزمن وحده كفيل بالنسيان بل قربك مني.

اقتربت أكثر، التصق جسدها بجسدي، وهمست:

- إذا كان الأمر ذلك، سأكون أكثر قرباً منك بعد الآن.

قلت:

- لم يعد لي غيرك، أولادي لم يعودوا لي، بيتي هدمته الحرب، كتبني سرق، ذاكرتي انمحت، إذا فقدتك سأفقد نفسي.

- أنت تبالغ.

- بل أنا يائس حتى العظم.

- هذا وهم.

وأخذت تلتصق بي أكثر، في شارع جانبي، ليس فيه أحد، وهمست بأذني:

- اشتقت لك.

- ذلك زمان مضى.

- مازلت شابا.

ليلة عرسنا سهرنا حتى الصباح، لم نشعر بالوقت، كنت خارج الزمن، كانت صغيرة وشهية وما زالت، لكنني كبرت الآن، ولم أعد قادرا على تلبية رغباتي ورغباتها.

- الزمن عدوي الأول.

- ما رأيك أن تتحدى الزمن.

- الزمن يدوسنا بأقدامه، أقدام مخملية لا تشعرين بها لكنها ساحقة.

جلسنا في الحديقة أمام بحيرة البط، كان البط سعيدا؛ يطير ويلعب ويسبح، قلت:

- ليتني مثلهم.

ضحكت رندة وقالت:

- أنت ذكر البط وأنا البطة، إذا نافسك ذكر بط آخر عليّ ماذا تفعل.

- لا أفعل شيئا لأنني لست إنسانا حينذاك.

أخذ المساء يزحف والبرد يشتد، قالت:

- لنرجع.

- بعد قليل.

كان رأسي يختزن الكثير من الأفكار، أريد ان أنهي هذه الليلة عرس الرواية، أريد أن أضع النقطة الأخيرة وأرتاح.

إنها رواية هجري، رواية موتي، أريد لكلماتها أن تصبح وصمة عار على جبين أولئك الذين حملوا السلاح، قتلوا بعضهم وشردوا العائلات، وهدموا البيوت.

وصمة عار لكل من ساهم في الحرب، لأن الدموع صارت بحرا يغرق فيه المهاجرون، وصارت رمال الصحراء بعدد أحزان الناس، فالبكاء لم يعد يكفي، لأن الرصاص لم ينته، والقذائف فجرت نفوس الحقد.

كنت أكتب بلا قلم، كان رأسي هو القلم، سأنهي هذا الحزن على الورق.

قالت رنده:

- تجمدت من البرد.

ثم نهضت وقالت:

- سأعود وحدي.

أمسكت يدها وسرنا معا.

نام البط والإوز على شاطئ البحيرة، قلت لرنده:

- أحلم أن أكون غير إنسان، بطة، إوزة، فراشة، الإنسان لم يعد شيئا، صار رصاصا وموتا ودموعا وخوفا، صار رقما في المستشفيات أو السجون، صار وحشا.

نظرت إليّ باستغراب وقالت بكلمات مرتجفة:

- صبحي، أنت لست مثلهم، لم تقتل ولم تشرد ولم تنهب.

قلت:

- أنا ضحية سلبية، يفعلون ما يريدون وأصمت، يقتلونني وأصمت، يهدمون بيتي وأصمت، يسرقون كتبتي وأصمت، يمسحون ذاكرتي وأصمت، ألم أقل لك، لم أعد إنسانا.

كانت رندة تسير وكأنني أراها إنسانة أخرى في تلك اللحظة، كنت أرى جسدها يستطيل ثم يضمّر، رجلاها تطول ثم تقصر، عيناها تتسع ثم تضيق، وكنت أرى نفسي شيئا آخر أيضا.

كنا نسير بصمت وكأننا في عالم آخر، لم تعد الحرب الدائرة هي التي تشغلنا، كنت أرى زاوية مابعد الحرب، هي أقسى من الحرب، أقسى من الموت، أقسى من الهروب.

لم يعد هنالك شيء، البيوت التي ضمت الذكريات ماتت، الناس الذين اجتمعوا تفرقوا وتغيروا، الحرب تغير النفوس كما تأخذ الأرواح، إنهم يعودون بلا ذاكرة، بلا ملامح، أردت أن أقول لرندة:

- الحرب جعلت منا بشرا من عصر آخر، من أرض أخرى، من كوكب آخر.

لم يعد هنالك دماء، لم يعد هنالك حزن، لأن كل شيء ضاع في المجهول. كنت أمشي سريعا لكي أنسى تلك الأفكار، كنت أريد أن أصرخ، ولكن من يسمعني.

وصلنا الهايم، كان البرد القارس يجمد الدم في عروقي، أمسكت يد رندة، كانت دافئة، قلت:
- يدك دافئة وأنا أرتجف.

أمسكت يديّ بكلتا يديها ودخلنا الغرفة، كان الجميع نائما، أمسكت دفترتي، كنت أريد أن أكتب الأفكار التي خطرت لي دفعة واحدة.

- أكتب في الظلام؟

لم أجب.

- من عادتكَ الكتابة صباحاً؟
- لم يعد هناك صباح.
- ابتسمت وقالت:
- دائماً يطلع الصباح.
- هنالك صباح آخر لا تطلع فيه الشمس.
- ذلك الصباح لا يكون إلا على الورق.
- كنا نتحدث همساً، كي لا يستيقظوا.
- ألا تشعر بالتعب؟
- حين أتحدث إليك لا أشعر بالتعب.
- أخشى ان يستيقظوا إذا فعلنا شيئاً.
- دعينا نفعل ذلك في الخارج.
- قالت بدهشة:
- في البرد وعلى ملأ من الناس.
- قد تكون المرة الأخيرة.
- خرجت الكلمة الأخيرة دون إرادة مني وكأنها القضاء والقدر، همست:
- حتى ونحن في قمة نشوتنا تسافر نحو الحزن.
- الحرب من فعلت بي ذلك، كنت أحب الفرح.
- خرجنا، وفي زاوية معتمة من الهائم أخذت أتلمس جسدها الطري،
- أخذت أسبح في عوالم دافئة رغم البرد، كنت أسمع صوت تنفسها وقد
- اقترب من النشوة، وكان لهاثي يستعر، همست:
- أخشى أن يسمعننا أو يرانا أحد.
- كنت مشغولاً بجسدها الطري، حيث تلمسته يداي قطعة قطعة،
- وكأنني أودعه.

أخذ جسدي يرتعش، وصلت إلى قمة النشوة، كانت نشوة غريبة لم
أعدها في حياتي، وحيثُ شعرت أنني في فراش دافئ.
أخذت تشدني إليها وحين ارتحت يداها عرفت أنها انتهت.
نظرت إليّ بخجل وقالت:

- ما زلت أحبك.

- وأنا أيضا.

دخلنا غرفتنا دخول المنتصرين، تمددت على السرير، تمددت رندة
بجانبي وبكت.

- ما بك؟

- كأننا نسرق أشياءنا التي لنا.

- يحدث هذا في زمن الحرب.

لم أستطع النوم تلك الليلة، جاء البدر ببرودته وغيومه، شربت شايا
دافئا لأشعر بالحياة، كان الظلام مازال يخيم على الهايم، أريد أن أنهي
كلمات الرواية، أريد أن أودعها، أريد أن أري أحزاني للآخرين، أريد
وأريد، وغفوت.

رأيت نفسي وسط دمشق، في ساحة المرجة، لم يكن في الساحة غيري، لم
تكن هناك سيارات ولا شرطة مرور، ولا محلات مفتوحة، مع أن الوقت
منتصف النهار، كان هنالك هدوء غريب، أحسست بالجوع، بحثت عن
محل يبيع الطعام، دخلت حارات لم أدخلها، في كل حارة كانت العتمة
تزيد، أحسست أنني وقعت في فخ، لم أستطع العودة إلى الساحة، كانت
دمشق بلا ملامح، مثلي تماما، بلا ناي بلا سيارات، كأنها مقبرة.

صحوت، كانت رندة وعلي ومحمد ينظرون إليّ بذهول، قلت:

- أصبحت دمشق كابوسا.

شربت ماء لأطفئ جفاف حلقي، لم تتكلم رندة، سألتها:

- ما بك؟

- حياتك أصبحت كوابيس، كأنك شخص لا أعرفه.

أردت أن أقول صبحي الذي تعرفينه قد مات، لكن كلماتي لم تغادر فمي.
خرج علي ومحمد إلى المدرسة، فتحت دفترتي لأكتب آخر كلمات
الرواية، كانت كلماتها تخرج من روحي، حزن الكلمات لا ينتهي، كأن
رصاص الحرب قد قتلها قبل أن تولد، كأنها خرجت من دموع الناس،
كأن حروفها هي بقايا حطام البيوت التي تهدمت.

لكنها عزيزة على حزني، عزيزة على دموعي، ودموع الآخرين، أريد
أن أنهيها ليقراً حزنها جميع الناس، أريد أن يتصوروا هول ما حدث، أريد
أن يقولوا هذا خيال لا واقع، لكنه حدث.

أعترف انني قصرت بتصوير حزن الناس، لكنني لم أقصر بحزني،
فالحزن مثل البصمة، تستطيع أن تبكي على الآخرين، لكن الذي يبكي
على حزنه لا يستطيع أحد أن يبكي بكاءه.

الأحزان بعدد البشر، لكل حزنه، كما لكل فرحه، في الرواية حاولت
أن يندمج حزني مع الآخرين، ففي أيام الحروب لا شيء سوى الدموع،
لا مجال لشيء سوى الحزن.

لقد نسيت فرحي كما نسي الآخرون أفراحهم، أولئك الذين صنعوا
الحزن لا يمكنهم أبداً أن يصنعوا الفرح.

تصور كم هي الأحزان في أيام الحروب، وقد تتحول الأحزان إلى
نكتة يتداولها الناس، إنهم سيكون حين يضحكون.

السطور الأخيرة ثقيلة ثقل الجبال، أردت وصف وجعي ووجع
الآخرين، أردت وصف دماري ودمار الآخرين، أردت أن أحيأ بعد
الحرب بالهروب، فإذا الهروب موت آخر، إنه هروب نحو الموت لا نحو
الحياة، هنالك في الحرب أموت مرة واحدة، وهنا أموت كل يوم ألف
مره، فمن ينجيني من هذا العذاب.

لم أعرف هنا غير التافل والجوب سنتر والسوسيال أمت، ومكتب
الصليب الأحمر الذي يوزع ملابس مجانية؛ صرت صفراً على الشمال، صرت

رقما أوريبا مهملا، لم أعد أملك سوى الحزن، أذهب شهريا لأقبض راتبي الشهري من الآلة الصماء، صرت عالة على أشخاص لأعرفهم، أولئك الذين شردوني لأعرفهم وهؤلاء الذين أعطوني الأمان لأعرفهم أيضا. هنا أحمل البونز كارت لأدخل إلى التافل أو الكاريتاس أو أية مؤسسة خيرية، وفي لبنان كنت أحمل كراتين المعونات على ملاء من الناس، ولكن هنا يسير كل شيء في الخفاء.

نعيش هنا وكأننا في كوكب آخر، لا العادات عادتنا ولا التقاليد تقاليدنا، هذا الحرب نفتنا إلى عالم آخر، عالم الأمان لكنه أمان قاس، عالم ليس لنا، ولسنا منه، أريد تحدي نفسي والاندماج في هذا المجتمع كما يقولون هنا، لأن الاندماج يقيقك في بر الأمان بعيدا عن الحرب.

عليك الاندماج في كل شيء، في العادات والتقاليد واللغة وفي الملبس والمأكّل، وحتى همساتك مع زوجتك ليلا.

اندماجك يعني أنك أصبحت إنسانا يستحق الحياة في هذه البلاد، تستحق الذهاب إلى التافل، وتستحق قبض راتبك الشهري من الجوب سنتر أو السوسيال، وتستحق الذهاب إلى جمعيات الصليب الأحمر لانتقاء ملابس بالمجان.

اندماجك في هذا المجتمع يعني أنك أصبحت إنسانا عاقلا سليما يستحق ركوب الأوبان أو الاسبان، لتسافر إلى بلاد العالم الواسعة، وتزوج امرأة جميلة.

اندماجك يعني أنك أصبحت في بر الأمان، لا هروب ينتظرك، ولا رصاصة طائشة تقنصك، ولا جوع ولا بكاء، ولا كوابيس.

اندماجك يعني أن تحلم أحلاما جميلة وردية، وترسم مستقبلا واعدة وأنت في الستين من عمرك.

اندماجك يعني أن تملك كلبا حين يهجرك أولادك وتتنزه معه كل صباح. يفهم عليك وتفهم عليه، يحبك وتحبه، ينام في فراشك، يقاسمك همومك، يعطف عليك، حين تصبح عجوزا.

اندماجك يعني أن تنتزه مع زوجتك العجوز، في الحداثق وحين يموت أحذكما تتحدث مع نفسك، أو مع كلبك، ويصادقك الزهايمر قبل أن تفارق الحياة.

اندماجك يعني أن تنسى ذكرياتك، وحياتك السابقة وأصحابك وشارعك وأباك وأمك وأخوتك وتبدأ من الصفر. كيف يبدأ الإنسان في نهاية العمر لافي بدايته.

اندماجك يعني أن تغير لغتك وقواعد إعرابك، ومخارج نطقك ويعني أن تغير شكلك وأحاسيسك الداخلية وتستورد شكلا جديدا وأحاسيس جديدة، ولغة جديدة.

اندماجك يعني أن تغير عادات طعامك وشرابك، وتستيقظ على صوت الأوبان وهو يسرع على سكتته وكأن عجلاته الحديدية تفرم لحمك وتكسر عظامك.

اندماجك يعني أن ترى شابا محتضن فتاة في الأوبان وفي الحداثق وفي الشوارع، يقبلها وتقبله وكأنهما في غرفة النوم.

اندماجك يعني أن تسير على الطريق الصحيح وأن تكظم غيظك وألا تغضب وألا تضرب الآخرين وأن تبتسم في وجوههم وأنت لا تحبهم.

اندماجك يعني أن تلبس ملابس ثقيلة حتى لا يدخل البرد عظامك، مع أن برد الروح أقسى وأشد.

اندماجك يعني أن تصبح رقما من الأرقام.

اندماجك يعني أن تلتزم بأعيادهم، أن تكون لا أنت ومن أين انت.

اندماجك يعني أن تدفن في قبر ليس قبرك.

اندماجك يعني أن تعيش في أرض ليست أرضك.

اندماجك يعني أن تندمج في الوعي واللاوعي في حياة ليست ملكك.

توقفت عن الكتابة حين دخل سامر وقد احمرت عيناه وفاحت منه رائحة الخمر، تركت القلم وقفت في وجهه وصرخت:

- اخرج من هنا وإلا استدعيت الشرطة.
جلس في البداية، جلس يضحك ثم بدأ يبكي، كان منهرا.
صرخت به مرة أخرى:

- انهض واخرج.
قال وهو يبكي:

- لا أستطيع النهوض.

أخذت رندة تبكي، تركت هاتفها، أغلقت دفترها، دسّت على قلبي
فانكسر، أحسست أنني أختنق، فتحت الباب لأتنفس الهواء، نظرت إلى
سامر، كان منخفض الرأس، وكانت دموعه تنقط فوق بنطاله فتجف بعد
لحظات .

هذه الدراما أوجعتني حتى العظام.
وبلحظات أصبحت في الخارج.

لحقت بي رندة، سمعتها تقول وكأنها بعيدة عني آلاف الأمتار:
- لا تذهب وأنت غضبان.

كنت أباعد عن الهائم بسرعة دون وعي، لا أعرف من أين جاءتني تلك
القوة؛ كأنني عدت شابا في العشرين، رجلاي ليست لي، قلبي القوي ليس
لي، عقلي الصافي ليس لي، كأن الكآبة والقهر ابتعدا عني، أسرعت الخطى
أكثر؛ رأيت أبي وهو يحمل سكه ويضع سيجارته ويسعل، رأيت أمي
وهي تحبز في الفرن، ووجهها ممتقع من الحرارة، رأيت أخي فتاح وهو
يحمل مريوله الأبيض وحقيبته السوداء ويذهب إلى جامعته، رأيت عدنان
وهو يودعني في المطار حين سافر للمرة الأولى إلى أوكرانيا، رأيت صبيحة
وهي تغني لفيروز، ورأيت جورج وهو يدخل بطمأنينة، رأيت نفسي أمام
لجنة التحكيم في الماجستير أقرأ وأدافع، أرد ولا أرد، أبتمس وأصمت، رأيت
يوم زفاني على رندة حين اختليت بها، لم ننم في تلك الليلة حتى الصباح.

رأيت شريط حياتي السعيدة، توقفت قليلا في الشارع وتساءلت:

- أين هي حياتي التعيسة؟

وجاءني الجواب، إنها هنا، إنها الآن.

أريد الهروب إلى الماضي كما هربت من الحرب، ما قبل الحرب هو الماضي السعيد، وما بعده هو الحاضر التعيس.

الهروب يحدد مصيري.

لم يعد لي إرادة في فعل شيء، الاندماج يعطيك الأمان لكنه يسلبك الإرادة.

الراتب التقاعدي الذي يضعونه في الآلة الصماء يكفي أن أعيش، ألا أتسوّ، أن أمارس حياتي وكأنني املك كل شيء، والحقيقة نني لا أملك شيئا .

أشعر أنني متسول في بلاد الغربة، أشعر أنني عالة على الآخرين، أريد أن أعمل لكن القوانين الجامدة تمنعني، سنوات عمري تمنعني، أحاول إفهامهم أنني مازلت قويا، مازلت حيا، لكنهم لا يثقون إلا بالأرقام، الرقم عندهم هو الشيء المقدس، إنه صديقهم الوحيد.

قلت لهم:

- أريد أن أعمل رغم سني المتقدمة.

ابتسموا في وجهي وصمتوا.

قلت لهم بغضب:

- لا أريد أن أكون عالة على الآخرين.

ابتسموا في وجهي وصمتوا.

قلت وأنا في غاية الانفعال:

- لا يجوز أن آخذ مالا دون أن أعمل.

بدا الغضب على وجوههم وأمروني بالانصراف.

لعبة الزمن أتعبتني، علاقتي مع أولادي أتعبتني، المكان الجديد المريح أتعبني، كنت كأني أهرب إلى الأمام، لم أهرب من الحرب إلا من أجل أن أهرب من نفسي، كتب عليّ الهروب، أنا الآن أهرب في الشارع، أسرع الخطي، وكأن أحدا يلاحقني.

لماذا كان عليّ أن أبقى كحيوان يجرح محراثا ثقيلا، كنت أسمع صوت تنفسي، وكنت أسمع صوت تنفس رندة خلفي، ثم سمعت صوتها يتقطع :

- إلى، أين، تهرب؟
- لا أعرف.
- طوال حياتك تعرف وجهتك.
- كنت مخدوعا.
- كيف عرفت؟
- الحرب كشفت المستور.
- ستنتهي الحرب اليوم أو غدا.
- لن تكون أيام ما بعد الحرب مثل الأيام التي قبلها، لقد تغير كل شيء، الناس، الأمكنة، الأرواح، العلاقات، الحزن، الفرح، ممارسة الحب، الموت، الحياة، الإنسان، الماء، الطعام، تعابير الوجوه، الأخلاق، العائلة، الدولة، كل شيء صار بطعم الحرب.
- لكن الحرب بعيدة عنك.
- الحرب لحقت بي، الحرب في داخلي، أصبحت صخرة صماء، أصبحت كيانا.
- لكن الموت هناك والحياة هنا.
- أنا أموت ألف ميتة في اليوم، الموت أنواع، موت الجسد وموت النفس، والأخير أفسى من الأول، الرصاص تركني ليعذبني، الموت في الحرب تركني ليقتلني ألف مرة في اليوم.

إنه موت من نوع آخر، ليس موتاً عادياً، إنه موت بطيء، قاس
كقسوة الحرب، مجنون كجنون الحرب، متوحش كتوحش الحرب.
الثفت خلفي فإذا حنين تركض نحوي وكذلك حنان وبينهما رنـدة،
سمعت صوت حنين:

- حبيبي، انتظري.

وسمعت صوت حنان:

- عريسي الجميل.

وسمعت صوت رنـدة:

- لماذا تهرب مني؟

كنت أركض بلا وعي، أدركتني حنين، لمست عنقي، كانت يدها
كسكين حادة أو كشظية، وكانت حنان تسقط وتنهض، قبل أن تدركني
وتمسك ذراعي وتتجه بي إلى طريق آخر.

سمعت رنـدة تصرخ:

- صبحي، لا تذهب معها.

لكنها كانت قوية كالحصان، جرتني عنوة إلى طريق جبلي، بين وادين،
لأنهاية لأعماقه، سقطت فأهضتني، كانت تحملني كطفل صغير، يداها
مثل صخور قاسيون، وعيناها كنجمتين مضيئتين، وفجأة أدركتني رنـدة
وشدتني إليها قبل أن أسقط في الوادي السحيق.

كان نومي كابوسيا في باقي الأيام، خلال صحوي أرى أشياء لا يراها
غيري، نجومًا وأقمارًا، أشكالا هلامية، وجه حنين، وجه حنان، ووجه رندة
وهي تضحك وأحيانا تبكي، سامر وإمام يشربان ثم يبدآن بالضحك، أما
أنا فلا أضحك أو أبكي، أنظر فقط إلى علي ومحمد، وهما ينظران إليّ بذهول.

علي يقول لي:

- ما بك يا أبي؟

ويقول محمد:

- حين تكبر لن نفعل ما يغضبك.

قبلت رأسيهما، كانت رندة تقف وتستمع، كان في نظرتها رجاء وحزن،
أمسكت يديها:

- لماذا الحزن في عينيك؟

- لأنك حزين.

- حين تفرحي تحف أحزاني.

نسيت أحزاني وأخذت أنظر إلى رندة، وكأنني أراها لأول مرة.

قلت لها:

- سأنهي رواية الحرب والهروب اليوم.

- لكن الحرب لم تنته.

- الحروب لا تنتهي لكن الكلمات تنتهي.

- إذن ستنتهي أحزانك.
- بل ستبدأ أحزاني.
- فتحت دفترتي وجلست، تناولت قلما جديدا بدل القلم الذي انكسر،
خرج علي ومحمد للعب في ساحة الهايم، وجاء ميخائيل وقال مبشرا:
- بعد أيام ستنتقلون إلى بيت من ثلاث غرف تابع للسوشيال.
- فرحت رنده وقالت:
- سأتخلص من تنظيف حمامات ومطابخ الآخرين.
- هاتفني عدنان، كان صوته يائسا وحزينا، هدأته بكلمات قليلة قبل أن
ينقطع الخط، قالت رنده قبل أن تخرج من الغرفة:
- سأصنع لك الشاي لتنتهي روايتك وفي فمك حلوة.
- أردت أن أحضنها، لكنها خرجت، أردت أن ألحق بها وأحضنها أمام
الآخرين، لكنني لم أفعل، كنت أريد أن أقول لها شيئا وأنا أحضنها، أنا
أحبك، رغم حزني أحبك، رغم فرحي أحبك، لم أحبك في فرحي كما
أحببتك في حزني، لم أحبك قبل الحرب كما أحببتك بعدها، وأظنها كانت
ستبتسم وتقول لي:
- أنا أحببتك قبل الحرب وبعد الحرب، أحببتك في الأوقات كلها.
- ابتسمت وهي تضع كأس الشاي أمامي، قلت لها:
- هذه هي الصفحة الأخيرة في الرواية.
- كيف ستنتهيها؟
- سأنتهيها بك.
- ضحكت، جلست أمامي.
- ماذا ستقول عني؟
- سأقول عنك كل ما هو جميل، لولاك لكانت أحزاني كالجبال،
لولاك لما ضحكت، لولاك لما تكلمت كلمة واحدة، لولاك لما كتبت
سطرا واحدا، لو...

قاطعتني:

- وأنا لولاك لما عشت لحظة واحدة.

كنت أكتب وأنا أتحدث، نهضت لتقوم بجمع أشياءنا تمهيدا لانتقالنا إلى بيت السوسيال، لكنني أمسكتها من ذراعها فجلست.

كنت أنظر إليها وأنا أكتب، كأنني أودعها وأودع الكلمات.

- للمرة الأولى تكتب وأنت تتحدث إليّ.

- أنا نفسي لا أدري.

- آه، تذكرت جارتنا السورية فوقنا عادت اليوم من المشفى وقد ولدت توأما، صبي وبنت.

- توأم.

- نعم، سأصعد عندها قليلا.

- وأنا سأتوقف عن الكتابة.

- حين تسمع صراخ الطفلين ستعود إليك كلماتك.

صعدت رندة، سمعت صراخ التوأمين، ولدا بعد الهروب، لم يشاهدا هروب البحر ولا هروب الصحراء، لم يسمعا أزيز الرصاص، لم يريا دمار البيوت، لماذا يبكيان إذن، تساءلت وأنا أخط الكلمات الأخيرة للرواية ولكنني لم أصل إلى جواب.

لماذا نبكي حين نأتي إلى هذه الدنيا؟! لماذا لا نضحك حين نولد، أهى تلبائية العذاب الآتي؟! أم هو شيء لا ندركه؟!

صمت التوأمين قليلا ثم عادا يبكيان، يبدو أن رندة حملت الآلام، وابتسمت وهما يبكيان، هنالك أمور لا ندركها إلا حين يتقدم بنا العمر، وهنالك أمور لا ندركها أبدا، إنها لعبة الحياة ولعبة الموت.

كنت أريد أن أعيش في دمشق وأموت فيها، لكن الحرب منعتني، الحرب عدوتي، وحين وضعت النقطة الأخيرة في الرواية أخذ بكاء الطفلين يتواصل دون توقف.

حاشية

خرج صبحي بعيدا عن البكاء والحزن، بعيدا عن دمشق، كانت تتراءى له أيام الهروب في الصحراء والبحر، رأى دمشق تركض على صهوة جواد أبلق، تركض فوق البحر، وفوق الصحراء وفوق الجبال، وفوق السحاب، رآها تخرج من الكرة الأرضية، نحو عوالم مجهولة. كان يريد أن يركب قطارا إلى نهاية العمر، في داخله فرح طفولي؛ لأنه أنهى الرواية الأشد حزنا في حياته، أنهى الكلمات التي أوجعته.

لكنه فرح ليس كالفرح الذي كان يشعر به حين ينهي كتابة رواية في دمشق، هذا فرح آخر؛ فرح حزين، فرح غير موصوف، فرح الروح المشروخة، وفرح النفس المضطربة، فرح تشوبه أحزان كثيرة، أحزان الفراق والغربة والدموع، والقصص الحزينة، ورغم ذلك تأنق صبحي، لبس بدلة رمادية اللون، جاء بها من الصليب الأحمر، وقميصا أبيض كعين الغزال، وربطة عنق زرقاء كالسما، كأنه سيذهب إلى حفلة كاملة الأناقة، ابتسمت رندة قائلة:

- عدت عريسا.

نظر إليها، رآها امرأة أخرى وترك الهائم مبتعدا.

لم يكن صبحي يدخن، لكنه الآن شعر أنه بحاجة إلى سيجارة ينفث بها أحزانه، اشترى علبة تبغ، أخذ منها سيجارة، ورمى الباقي في سلة المهملات.

جلس يدخن على رصيف محطة القطار، لم يعرف وجهته بعد، وكانت السماء تسقط قطعاً كبيرة من الثلج، وكان السكون يحيط به، أخذ الثلج يتراكم أمامه، أنهى سيجارته، ونهض ليستقل القطار القادم، كان ضوء القطار كعيني نمر تقترب منه، اقترب من الرصيف، لم يستطع الحفاظ على توازنه، فانزلقت قدمه بفعل الثلج المتراكم، وهوى على السكة أمام القطار.

خرجت روح صبحي المعذبة كحمامة بيضاء، طارت فوق حصان أبيض، متجه صوب دمشق، فأسدل الستار على قصة مهاجر في القرن الحادي والعشرين.

السيرة الذاتية للمؤلف

- الاسم الثلاثي: جمال صبحي جنيد.

- محافظة دمشق.

رقم الهاتف: ٠٠٤٩١٦٣١٢٩٩٩٣٠ / ألمانيا

الأعمال المطبوعة

١- المبنى، - رواية - اتحاد الكتّاب العرب - سوريا - ١٩٧٨.

٢- الينابيع - رواية - اتحاد الكتّاب العرب - سوريا - ١٩٨٠ (ترجمت للغة الروسية).

٣- المخيم - رواية - اتحاد الكتّاب العرب - سوريا - ١٩٨٨.

٤- مغامرة صيفية - رواية للفتيان - وزارة الثقافة - سوريا - ١٩٨٩.

٥- الملك داود والحجارة - قصص - اتحاد الكتاب العرب - ١٩٨٩.

٦- مطار السرطان - رواية - دار الأهالي - دمشق - ١٩٩٠

٧- غابة الوطاويط - رواية - اتحاد الكتاب العرب - سوريا - ١٩٩٢.

٨- توت شامي ياتوت - قصص - اتحاد الكتّاب العرب - سوريا - ١٩٩٨.

٢٠٠٦ - ٩- وردة في معتقل الخيام - قصص - اتحاد الكتّاب العرب - سوريا

١٠- القنفذ والضفدع - قصة للأطفال - دار الجليل - ١٩٩٠.

- المؤلف عضو اتحاد الكتّاب العرب منذ ١٩٧٨.

- وعضو اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين.

- كتب العديد من الدراسات عن رواياته وقصصه.

الأعمال التلفزيونية:

١- مغامرات صيفية - التلفزيون العربي السوري - مسلسل للفتيان - إخراج فراس دهني.

٢- الأمانة - فيلم - فاز بالجائزة الأولى في التلفزيون العربي السوري - إخراج زياد الرئيس.

٣- أوراق مدير مدرسة - الفضائية التربوية السورية - مسلسل - إخراج عصام موسى.

٤- برنامج شواهد نحوية - إنتاج الفضائية التربوية السورية.

إضافة إلى المسلسلات الإذاعية. مثل عز الدين القسام.

